

مأساة مدام فهمي

حكايات من دفتر الوطن

صلاح عيسى

مأساة مدام فهمي
صلاح عيسى

التنسيق الداخلى: صلاح عيسى
جرافيك: أحمد محسن
تصميم الغلاف: عمر الكفراوي

الطبعة الأولــى ٢٠١١

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٨/١٧٦٣٦
ISBN: 978-977-09-2517-0

٨ شارع سيبويه المصرى، مدينة نصر
القاهرة، مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢+)
www.shorouk.com

صلاح عيسى

مأساة مدام فهمي

حكايات من دفتر الوطن

دار الشروق

المحتويات

الفصل الأول

رصاصات في العاصفة



سألها الدكتور جـوردون عما حدث فقالت: تشاجرنا ففقدت صوابي وأطلقت عليه الرصاص.. وقال مدير الفندق: كُلّنا نتشاجر مع زوجاتنا يا سيدتي.. ولكننا لا نتبادل معهن إطلاق الرصاص، قالت: أنت لا تعرف مدى العذاب الذي عانيته معه طوال ستة شهور هي عمر زواجنا.



١٩٢٣: واجهة فندق «سافواي» بالعاصمة البريطانية لندن



١٩٢٣: الزعيم سعد زغلول عند وصوله إلى محطة ليون بفرنسا بعد الإفراج عنه من منفاه الثاني، وإلى جواره زوجته صفية زغلول بلا حجاب وفي الصورة سيدتان مصريتان بلا حجاب أيضا هما فهيمة هانم ثابت وحرم «جعفر فخري بك»



لم يكن القلب المصري أيامها خاليا، بل كان مليئا حتى الحافة بالقلق واللهفة وانتظار المجهول.

ولم يكن بال المصريين رائقا، بل كان مشغولا بهموم كثيرة أفقدتهم قدرتهم التاريخية على الاستهانة بالأخطار وبالأحزان، فأصبح لكل خبر ـ مهما كان تافها ـ أهمية تدفعهم للاحتفاء به، والتعليق عليه. يرضون به أحيانا، ويسخطون عليه في أحيان أخرى، وما يكادون يفرحون بمطالعة عناوينه حتى تبوخ فرحتهم حين يقرءون تفاصيله.

حوالي خمس سنوات كانت قد مرت على انتهاء الحرب العالمية الأولى، ومرت أربع سنوات على ثورة ١٩١٩.. وكل شيء يبدو باعثا على القلق والخوف؛ لأن كل شيء كان لا يزال في كفة الميزان، انتهت تضحيات سنوات الحرب العالمية الأولى، وسنوات الثورة بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الهزيل، الذي أعطى مصر استقلالا ذاتيا شكليا ـ مقيدا بتحفظات أربعة ـ ليس هو الحماية البريطانية التي ثار المصريون عليها، ولكنه ليس كذلك الاستقلال التام الذي اختار شهداء الثورة الموت الزؤام حتى يتحقق.

بعد خمسة عشر شهرًا من النفي ـ وفي بداية إبريل ١٩٢٢ ـ غادر «سعد زغلول» منفاه الثاني في «جبل طارق» إلى فرنسا ليستجم من عذاب الغربة وأمراض الشيخوخة، ويفكر قلقا في المستقبل، ومن «إكس ليبان» ـ حيث كان يعالج بالمياه المعدنية ـ تأتي صُوره مريضا عجوزًا وعلى نحو ما يائسا، تكاثفت تجاعيد الشيخوخة على وجهه الذي كان يبدو ـ في سنوات الثورة ـ فتيا عفيا متخما بالأمل وقادرا على قهر الزمن، تكتل الأعداء ليحاولوا حرمان الشعب من ثمار الثورة لتمضي تضحيات الشهداء بلا ثمن، وينطفئ الحماس المتوهج، ويغرق الجميع في ظلام اليأس.

حتى الدستور ـ الذي كان المكسب الوحيد لسنوات الحرب المعذبة، وسنوات الثورة الباهرة ـ أعلن في ١٩ إبريل ١٩٢٣ بعد أن تعرض للمسخ، فصدر بديباجة تجعله منحة من الملك لا قرارا من الشعب، وتسللت إليه نصوص تجعل الملك شريكا للأمة في السلطة، فلم تعد وحدها مصدر السلطات، بل وتدخلت دار المندوب السامي البريطاني لكي تحذف من مشروع هذا الدستور كل نص يمس التحفظات أو القيود الأربعة التي وضعها تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ على الاستقلال، فصدر الدستور خاليا من أي نص يعطي المصريين حق الدفاع عن وطنهم أو إنشاء جيش لهم؛ لأن حق الدفاع عن مصر وحماية مواصلات الإمبراطورية البريطانية كان من بين التحفظات الأربعة التي احتفظ بها تصريح فبراير لبريطانيا، وظل الوضع في «السودان» على ما كان عليه قبل الثورة، وأصبح من حق بريطانيا التدخل لحماية مصالح الأجانب المقيمين في مصر بل ولحماية الأقليات الدينية.

صيف ذلك العام ـ ١٩٢٣ ـ كان حارا أكثر من المعتاد والقلب المصري ينبض قلقا ولهفة.

كل شيء أيامها كان في كفة المجهول؛ تضحيات شهداء الثورة الذين كانوا لا يزالون يتساقطون في مظاهرات تخرج بين الحين والآخر، الإحساس الباهر الذي خالط الناس بأنهم أسياد مصيرهم، وبأن الأمة مصدر السلطات يتراوح بين اليأس والأمل، انتصارات الجيش التركي بقيادة الغازي «مصطفى كمال أتاتورك» ودحره لجيوش الحلفاء، ثم استيلائه على السلطة في تركيا تبعث الأمل في نفوس المصريين، فيشد وفد منهم الرحال إلى «لوزان» حيث كانت المفاوضات تدور بين الطرفين ليطالب الأتراك بالتنازل عما كان لتركيا من حقوق السيادة الاسمية على مصر والسودان للشعب المصري وليس لبريطانيا.

صحف العالم تتحدث عن أعظم الاكتشافات الأثرية في القرن العشرين، وهي مقبرة الفرعون الشاب «توت غنخ آمون» التي اكتشفها المستر «هوارد كارتر» في الأقصر فيملأ اهتمام العالم بها قلوب المصريين فخرًا، فها هي آثار الماضي تشهد

لهم بأنهم شعب يستحق أن يحكم نفسه بنفسه وأن يتمتع بما تتمتع به الدول الراقية من استقلال وديمقراطية. وبعد شهور ـ وفي يونيو ـ تنشغل هذه الصحف ذاتها باكتشاف جغرافي مهم، قام به مصري هو الرحالة «أحمد بك حسنين» الذي اكتشف واحتين جديدتين بالصحراء الغربية، فرد اللطمة للرحالة البريطانية «روزيتا فوربس» التي أنكرت عليه مشاركته لها في اكتشاف واحة «الكُفرة» قبل أقل من عامين، وقام برحلته الثانية منفردا وأثبت ـ كما قالت الصحف المصرية ـ أن الشرقيين مؤهلون ـ كالغربيين ـ للقيام بالكشوف الجغرافية الكبرى.

كان الجميع يعانون قيظ الصيف ولزوجته: غادر الأمراء والكبراء والوجهاء مصر إلى شواطئ البسفور أو إلى مدن الاستشفاء بالمياه المعدنية في أوروبا،وغادر المتوسطون من الناس القاهرة إلى الإسكندرية أو رأس البر هربا من الحر، واكتفى الباقون بالترويح عن أنفسهم على شاطئ النيل، وخاصة في «روض الفرج» حيث تنتشر المقاهي والمسارح في الصيف، وحيث يعرض «بربري مصر الوحيد» المضحك المعروف «علي أفندي الكسار» مسرحية جديدة، أما في«شارع عماد الدين» فكانت المنافسة قائمة على قدم وساق بين «مسرح الريحاني» و«مسرح رمسيس» الذي كان يقوم ببطولة عروضه الوجيه «يوسف وهبي» والممثلة النابغة الآنسة «روزاليوسف».



المُمثلة النابغة «روزاليوسف» في دور «مرجريت جوتيه»

وكان «الريحاني» قد عاد إلى المسرح بعد اختفاء عامين قام خلالهما برحلة إلى سوريا ولبنان ثم عاد ليكتشف أن شخصية «كشكش بك» عمدة كفر البلاص، التي حققت له ـ خلال السنتين الأخيرتين من سنوات الحرب ـ شهرته المدوية، قد فقدت جاذبيتها بعد الثورة. لم تعد شخصية العمدة الريفي بجبته وقفطانه ولحيته البيضاء الذي يبيع القطن ويشد رحاله إلى القاهرة، لينفق ثمنه في ملاهيها وعلى غوانيها الأوروبيات، تبعث الضحكات في قلوب الناس، كما كان يحدث خلال سنوات الحرب، ربما لأن هذا العمدة الريفي نفسه كان قد شارك في أحداث الثورة وساهم مع الفلاحين في قطع خطوط السكك الحديدية وفى الهجوم

على فرق جيش الاحتلال التي كانت تعسكر على حدود بعض القرى، وربما لأن المصريين أصبحوا أقل ميلا لانتقاد أنفسهم أو للسخرية من رموزهم الاجتماعية، فقد أصبح الإحساس بالكرامة القومية غلابًا ولم يعد جائزا ـ بعد الثورة ضد الاحتلال ـ أن يبدو المصري ـ وخاصة إذا كان عمدة، أي من وجهاء المصريين ـ سفيها أبله يفقد رشده وماله عند أول نظرة تلقيها عليه غانية أوروبية، وإلا كان معنى ذلك أنه لا يستحق الاستقلال ولا الدستور.. وهكذا قرر «الريحاني» أن يخلع رداء «كشكش بيك» وأن يفاجئ جمهوره بمواضيع جديدة في التمثيل المضحك المعروف في فرنسا بالأوبرا كوميك فعرض مسرحية جديدة باسم «الليالي الملاح» كانت أولى محاولات الشاعر الرقيق «بديع أفندي خيري» في الكتابة للمسرح وأول مسرحية تشاركه بطولتها نجمة جديدة اكتشفها أثناء رحلته إلى لبنان، هي السيدة «بديعة مصابني» ذات الجمال الشرقي الرائع الذي لا تحتاج معه إلى تصليح أو تزييف كبقية الممثلات.

في الشارع نفسه ـ شارع عماد الدين ـ وفي مواجهة «مسرح الريحاني» حيث يضحك المتفرجون الذين يزحمونه كل ليلة حتى تطفر الدموع من أعينهم، كانت الدموع تهطل مدرارًا من أعين المتفرجين الذين يزحمون كل ليلة «مسرح رمسيس» لكي يشاهدوا مسرحية «غادة الكاميليا» فتخفق قلوبهم أسى لمصير «مرجريت جوتيه» بنت الهوى الجميلة الرقيقة التي أحبت «أرمان دوفال» ابن الذوات الأرستقراطي فهجرت حياة الليل لتعيش معه، ثم ضحت بحبها له بعد أن توسل إليها أبوه أن تتركه لأن زواجه منها سوف يضيِّع مستقبله ويقضي على أمل أخته في الزواج من شاب من أسرة كريمة خطبت إليه، فتستجيب لرجائه ككل مومس فاضلة ومن أصل كريم وتوهم «أرمان» بأنها عادت إلى حياة الليل، وحين يعترف «دوفال الأب» لابنه بالحقيقة يعود الابن العاشق ليجدها تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد أن قضى عليها مرض السل اللعين.

ولم يجد المصريون في ذلك الزمان ولا فيما تلاه من أزمان تناقضا بين بكائهم ضحكا في «مسرح الريحاني» وبكائهم حزنا في «مسرح رمسيس»، كما لم يجدوا تناقضا في اختيار شارع «عماد الدين» دون كل شوارع العاصمة ليكون شارعا تختلط فيه الملاهي بمنازل الدعارة السرية والبارات بالمقاهي، والكباريهات بالمسارح، بينما لا تقام فيه شعيرة واحدة من شعائر الدين فضلا عن أن يكون عمادا له، فهكذا كانوا وهكذا لا يزالون يعملون لدنياهم كأنما يعيشون أبدا فيعبون من متع الحياة ويعملون لمماتهم كأنما يموتون غدا، فيعبدون الله ويستغفرونه ذنوبهم ويعصونه واثقين من رحمته وغفرانه.

كان الجميع في انتظار أن يمضي الصيف بقيظه ولزوجته ليقبل الخريف ويعود «سعد زغلول» وتجرى الخطوة الأولى في أول انتخابات برلمانية يتقرر إجراؤها بعد

إعلان الاستقلال وصدور الدستور وأيديهم على قلوبهم خوفا مما سوف تأتي به الأيام.



وبينما هم ينتظرون حملت إليهم الصحف نبأ ثلاث رصاصات أطلقت في لندن على مبعدة آلاف الأميال، فإذا بها تجتذب القلب المصري الذي لم يكن خاليا، وتزيد من هموم المصريين التي لم تكن قليلة، فيتابعون ـ وسط ما تراكم عليهم من هموم ـ قصتها وهم مذهولون وتعساء وحزانى وإلى درجة ما.. غاضبون.

ولم يكن إطلاق الرصاص بل والقنابل في تلك الأيام غريبا على المصريين، إذ لم يكن يمر شهر ـ وأحيانا أسبوع ـ منذ نفي «سعد زغلول» قبل ثمانية عشر شهرا، دون أن يطلق مجهولون الرصاص على واحد من كبار الموظفين الإنجليز بالحكومة المصرية، فيسقط قتيلا أو جريحا، وكان آخر تلك القنابل قنبلتين ألقيتا في ٤ مارس ١٩٢٣ في حي الأزبكية، ألقيت الأولى على دكان بائع سمك بجانب «دار التمثيل العربي» فأصابت ثلاثة من الجنود الإنجليز، وألقيت الأخرى على معسكر لجنود جيش الاحتلال كان يعسكر في «ميدان الخازندار» القريب.

ومع أن الرصاصات الثلاث التي أطلقت في لندن لم تصب سياسيا مصريا أو بريطانيا ولم يكن لإطلاقها أية علاقة مباشرة بما كان الناس يعانونه في مصر، فإنها فجرت الكثير وكشفت عن الكثير، كانت في ظاهرها خاتمة قصة حب فاجع، لكن وهجها لم يكشف فحسب عن بعض ما يجرى في المخادع بين الرجال والنساء بل وألقى أضواء كشافة على قلب الوطن وحقيقة المجتمع.



قال نبأ عاجل بثته وكالة «هافاس» في الساعات الأولى من صباح ذلك اليوم: قتل الأمير المصري «علي فهمي» بثلاث رصاصات أطلقتها عليه زوجته الفرنسية الأميرة «مرجريت» فجر اليوم.

وعبر موظف مصري بشركة «ماركوني» ـ التي كانت تتلقى آنذاك برقيات وكالات الأنباء لتوزعها على الصحف ـ بعينيه على البرقية الموجزة وقال بذهول:

ـ غريبة «مرجريت جوتيه» قتلت البرنس!

لكن زميلًا له تناول البرقية ملهوفا فأعاد قراءتها ثم قال مصححا:

ـ لحست «غادة الكاميليا» بصرك.. اسمها «مرجريت فهمي» لا «مرجريت جوتيه».

ولم يكن أحدهما قد أخطأ.

* * *

المكان: فندق سافواي بلندن عاصمة بريطانيا التي كانت توصف آنذاك بأنها بريطانيا العظمى.

الزمان: منتصف ليلة الثلاثاء ١٠ يولية ١٩٢٣.

كان الجو في لندن طوال ذلك اليوم لا يختلف في حرارته ولزوجته ـ عن الجو في القاهرة، لكن البرنس «علي فهمي» وزوجته البرنسيسة «مرجريت» ما كادا يدلفان من مدخل الفندق عائدين من أحد المسارح، حيث أمضيا السهرة في مشاهدة مسرحية «الأرملة الطروب» ويتلقيان تحية بواب الفندق الليلي «جون بول بيتي» حتى انقلب الجو فجأة في العاصمة البريطانية من القيظ الشديد إلى البرد الشديد. وصلت العاصفة إلى سماء «لندن» عند منتصف الليل، وتعاقب هزيم الرعد وضياء البرق، ومن خلف زجاج المطعم الكبير بالفندق حيث جلس الزوجان يتناولان طعام العشاء وبصحبتهما «عناني» أفندي ـ سكرتير الأمير ـ أخذ الثلاثة يتابعون سيل المطر المنهمر على الزجاج، وأضواء البرق الخاطفة وهي تشق ظلام الليل، وبعد قليل أدرك الخدم الذين يقدمون لهم أطباق الطعام أن جانبا من العاصفة قد انتقل إلى المائدة، ولولا قعقعة الرعد العالية لاستمع الجالسون في قاعة الطعام لتفاصيل المناقشة الحادة التي كانت تدور بين الأمير وزوجته.



بديعة مصابني: جمال شرقي لا يحتاج إلى زينة

ولكن نتائجها بدت واضحة على وجهيهما، فقد اختفت البسمة من فوق شفاه الأميرة الفاتنة ففقدت جانبا كبيرا من جاذبيتها الآسرة وعلت تقطيبة جبين الأمير، بينما أخذ «عناني» يتناول طعامه في وجوم. وكان الخادم يتقدم بأطباق الحلوى حين شاهد الأمير يغادر المائدة غاضبا.

وتبعه «عناني» الذي ظل يحث الخطو وراءه إلى أن استوقفه عند باب القاعة، حيث أخذا يتناقشان في صوت خفيض، لكن الأمير كان يشوِّح بيديه مما كشف عن أن هناك

أزمة، وكانت الأميرة تجيل بصرها في وجوه المحيطين بها وعلى وجهها نظرة شاردة حين اقترب منها قائد الفرقة الموسيقية وانحنى على أذنها هامسا:

ـ هل تطلبين سموك لحنا معينا لأعزفه لك؟

وعادت الأميرة من شرودها لتقول له:

ـ وما فائدة الموسيقى وأنا أنتظر أن يقتلني زوجي الليلة؟

ولأن الرجل كان قد تعوَّد على غرابة أطوار بعض نزلاء الفندق الفخم، فقد قطع المناقشة خاصة بعد أن شاهد الأمير يتجه بصحبة سكرتيره نحو المائدة، وقال لها بابتسامة سياحية:

ـ إننى أنتظر إجابة سموك في الليلة القادمة!

بعد قليل كانت الأميرة تغادر المائدة غاضبة إلى بهو الفندق لتستقل المصعد إلى جناحها بالطابق الرابع، وظل «عناني» يجالس الأمير بعض الوقت، إلى أن استأذن من مخدومه وصعد إلى غرفته بالطابق السابع، أما الأمير فقد ظل جامدا في مكانه يتأمل في العاصفة عبر مسطح الزجاج، ثم قام فجأة فغادر المطعم ليصعد إلى غرفته.

كانت الساعة تقترب من الثانية صباحا عندما توقف المصعد عند الطابق الرابع وخرج منه البرنس ليتوجه إلى الجناح رقم ٤١ الذي يقيم فيه مع زوجته، وبعد قليل شاهده «جون بول بيتي» ـ بواب الفندق الليلي ـ وهو يغادر الباب الرئيسي للجناح، بعد أن ارتدى ملابس النوم ليطرق على الباب الجانبي له. وسمع «بيتي» صوت الأميرة، وهي تطلب إلى زوجها عدم إزعاجها لأنها تريد أن تنام، ورد الأمير غاضبا بأن إغلاقها الباب الفاصل بين غرفتيهما وإصرارها على عدم استقباله دليل على أن في فراشها رجلا غريبا، وارتفع صوته بشتائم دهش لها البواب الذي وقف محرجا وهمَّ بالتدخل، لولا أن الأميرة فتحت باب مخدعها أخيرا لتسمح لزوجها بالدخول. وكان«بيتي» لا يزال يدفع أمامه عربة صغيرة يحمل عليها حقائب بعض النزلاء الذين كانوا قد قرروا مغادرة الفندق حين خرجت الأميرة تعدو من غرفتها وخلفها الأمير ووراءهما كلب صغير، وما إن رأياه حتى توقفت المطاردة، وقال الأمير بخجل وهو يشير إلى خدوش في رقبته محاولًا تفسير الموقف له:

ـ انظر ماذا فعلت بي هذه المرأة المتوحشة؟!

وقالت الأميرة وهي تشير إلى رقبتها:

ـ بل هو الذي حاول خنقي.

وأدرك «بيتي» أنه أمام مشاجرة زوجية من النوع التقليدي.. فقال:

ـ أرجو ألا تحدثا ضجة تزعج جيرانكما في هذا الوقت المتأخر من الليل.

ثم تركهما وعاد يدفع عربته الصغيرة أمامه إلى أن توقف بها أمام المصعد في نهاية الممر عند تقاطعه مع الردهة. وكان لا يزال في انتظار وصول المصعد حين سمع صفيرا متقطعا، فعاد بظهره إلى الوراء وقد ظنه نداء له فوجد الأمير يداعب كلب زوجته الصغير.

وكان المصعد قد استجاب أخيرًا لندائه فدفع بعربته إليه، وقبل أن يغلق بابه عليه سمع صوت ثلاث طلقات متتابعة وصوت ارتطام جسم ثقيل بالأرض، فاندفع مسرعا إلى الممر ليفاجأ بأن الشاب الذي كان يحدثه منذ دقائق، ملقى على الأرض بجانب باب الغرفة والدماء تنزف بغزارة من عنقه، وبالأميرة تنحني عليه وهي تقول بهلع:

ـ «علي» قل لي يا حبيبي إنك تمزح معي وأنك بخير.. قل إن شيئا لم يصبك.

ولكن الشاب لم يستطع أن يفتح شفتيه ليقول شيئا.. فقد كانت أنفاسه تتحشرج في صدره الذي يعلو ويهبط... ثم ما لبث أن راح فيما يشبه الغيبوبة.

وكانت العاصفة قد وصلت لحظتها إلى ذروتها وسقطت صاعقة كأنها كرة من النار تناثرت إلى ألف شظية!

التقط «بيتي» مسدسا وجده علي الأرض، ثم مد يده برفق لينهض الأميرة التي كانت قد يئست أخيرًا من أن يستجيب الأمير النائم لتوسلاتها بأن يرد عليها وأيقنت بأنه لا يمزح معها، وجمدت نظراتها الذاهلة على دمائه النازفة التي كانت تجري على البلاط ببطء، فاستسلمت ـ دون وعي ـ ليد الحمّال ونهضت معه وصحبها إلى غرفتها لتجلس واجمة على سريرها، تنظر إليه بملامح جامدة، وهو يتصل من هاتف الغرفة بمدير الفندق، ليوقظه من نومه ويبلغه بما حدث.

وحين تحركت أخيرًا أدارت قرص الهاتف برقم وظلت تنتظر بعض الوقت حتى استيقظ صاحبه فقالت له:

ـ «عناني» انزل حالًا.. لقد أطلقت النار على الأمير ولا أعرف كيف فعلت ذلك.. اتصل من فضلك بالدكتور «جوردون» لكي يأتي أيضا.

بعد دقائق كان الجميع قد وصلوا، وكان «عناني» هو أولهم، إذ لم ينتظر حتى يصل المصعد، بل نزل على السلم من الطابق السابع ـ حيث تقع غرفته ـ إلى الطابق الرابع وهو يقفز كل أربع درجات في قفزة واحدة ثم جاء الدكتور «جوردون» وبعد فحص سريع قال:

ـ لابد من نقله بسرعة إلى المستشفى لوقف النزيف.



صورة لواقعة إطلاق مرجريت لنيرانها على زوجها علي فهمي كما تخيلها رسام مجلة «اللطائف المصورة» بعد قراءته تفاصيل الحادثة التي نقلتها وكالة الأنباء

وقال مدير الفندق:

ـ سوف تأتي عربة الإسعاف خلال دقائق.

وكانت الأميرة تجلس على سريرها جامدة حين سألها الدكتور «جوردون» عما حدث فقالت:

ـ لقد تشاجرنا.. ففقدت صوابي وأطلقت عليه الرصاص!

وقال مدير الفندق:

ـ كلنا نتشاجر مع زوجاتنا ياسيدتي.. ولكننا لا نتبادل معهن إطلاق الرصاص!

فقالت:

ـ أنت لا تعرف مدى العذاب الذي عانيته معه طوال ستة شهور هي عمر زواجنا.

ووصلت سيارة الإسعاف لتحمل الأمير المصاب، وتمضي به تحت الأمطار التي كانت لا تزال تتدفق كالسيل إلى مستشفى «تشارنج كروس».. وصحبه الدكتور «جوردون».. وعاد مدير الفندق إلى الطابق الرابع وبصحبته شرطيان من قسم شرطة «بوستريت» ليقول لها:

ـ سيدتي الأميرة هل لك أن تتبعينا.

وكانت وصيفة الأميرة.. التي تقيم في الدور السابع، قد استيقظت فساعدت سيدتها على تغيير فستان السهرة الذي كانت لا تزال ترتديه، وقام الشرطيان بالتحفظ على المسدس، ثم اصطحبا الأميرة معهما إلى قسم الشرطة، وكانت الساعة قد بلغت ـ آنذاك ـ الخامسة صباحا.. وأشفق عليها الضابط المناوب، ولم يدخلها إلى غرفة الحجز، وقدم إليها مقعدا لتجلس عليه وفنجانا من القهوة.

وبعد الثامنة بقليل وصل الدكتور «جوردون» قادما من مستشفى «تشارنج كروس» وقال لها:

ـ أخشى أن تكون الأمور قد أصبحت بالغة التعقيد.

وسألته بلهفة:

ـ ماذا حدث؟

فقال:

ـ لقد مات الأمير.

الفصل الثاني

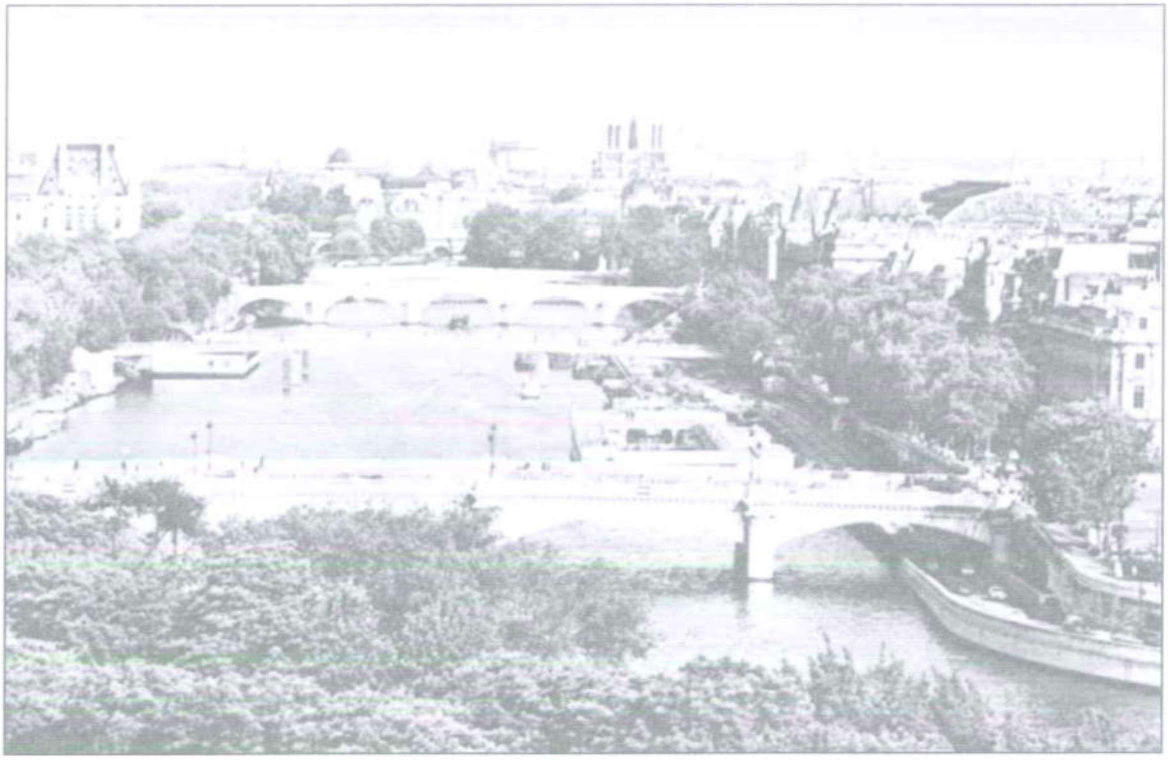
خضراء الدِّمَن الأوروباوية



ماري مرجريت ألبير: فتنة بداية القرن العشرين



قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إياكم وخضراء الدِّمنْ.. إياكم وخضراء الدمن.. إياكم وخضراء الدمن.. قيل: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟!.. قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء».



باريس في مطلع القرن العشرين



في تلك السنة - ١٩٢٣ - كانت البرنسيسة «مرجريت فهمي» في ذروة شبابها وأنوثتها إذ كانت في الثانية والثلاثين من عمرها.. ومع أنها كانت تتميز منذ حداثتها بجمال فائق، إذ كانت سوداء الشعر واسعة العينين صغيرة الأنف رقيقة الشفتين دقيقة التكوين رشيقة القد، إلا أن ذكاءها وخفة ظلها وخبرتها الأنثوية الطويلة في التعامل مع الرجال أضافت إلى ذلك كله جاذبية آسرة كانت سر حضورها الطاغي، الذي جعل جمالها يبدو نادرا مع أنه - بمقاييس ذلك الزمان - لم يكن كذلك.

كانت الابنة الوسطى بين خمسة أبناء رزق بهم - أو رزئ بهم - سائق سيارة فرنسي فقير، هو المسيو «ألبير» إذ سبقها شقيقان قتلا بعد ذلك أثناء الحرب، وتلتها - بعد أربع سنوات - شقيقتها «إيفون»، أما أصغر الأشقاء فقد دهمته - وهو في الرابعة من عمره - سيارة كانت تعبر الطريق بسرعة، بينما كان يجري خلف كرة قذفتها له «ماجي» أمام المنزل المتواضع الذي كانوا يقيمون فيه في إحدى القرى الفرنسية القريبة من «بوردو» في جنوب فرنسا. وكانت تلك أول جريمة قتل ترتكبها.

ولم تكن قد بلغت التاسعة من عمرها عندما انقلبت العواطف الساخنة التي كان أفراد الأسرة يحيطونها بها إلى برودة مفاجئة شعرت بها في نظراتهم إليها، وضيقهم

بكل كلمة تقولها أو تصرف تقوم به، وإصرارهم على تذكيرها ـ بمناسبة ومن دون مناسبة ـ بأنها قتلت شقيقها، فازداد إحساسها بالذنب. ومع أن الفقر كان أهم أسباب القرار الذي اتخذته الأسرة بإيداعها في مدرسة ملحقة بأحد الأديرة لتكفيهم مؤونتها، إلا أن إحساسها بالذنب كان وراء نوبات الصداع النصفي التي أخذت تهاجمها منذ ذلك الوقت المبكر من عمرها، كما كان وراء الأفكار الدينية الغريبة التي تسلطت عليها، وجعلتها تتوهَّم واقعة يصعب تصديقها، فقد زعمت ـ في مذكراتها التي نشرتها فيما بعد ـ أنها كانت تلعب في أرجوحتها قبل أن تكمل عامها الأول، حين تخايل أمامها شبح من الجن، انحنى على أرجوحتها وأغدق عليها نعماءه ورغب إليها في أن تربى في الدير.

وهكذا أمضت سبع سنوات مع أخوات «سانت ماري» في ذلك الدير الكاثوليكي، تكفر عن جريمة القتل التي كانت قد اقتنعت ـ من فرط تكرار الأسرة للاتهام ـ بأنها قد ارتكبتها فعلا، فأغرقت نفسها في الصلاة والعبادة وانعزلت بين جدران الدير الذي لم تكن تغادره إلا لتذهب إلى القداس في الكنيسة الملحقة، حيث كانت تجد متعة في إنشاد مقاطع نشيد الإنشاد بصوت رخيم كان يجتذب مسامع زميلاتها حتى شاع الظن في الأسرة بأنها سوف تترهبن وتقضي بقية عمرها في الدير.

وفى عام ١٩٠٦ ـ وكانت في السادسة عشر من عمرها ـ غادرت مدرسة الدير لتقضي إحدى إجازاتها الدراسية مع أسرتها، حيث أتيح لها لأول مرة أن تتأمل ما يحيط بها بعينين تختلفان عن عيني الطفلة المثقلة بالإحساس بالذنب، وكان والدها قد ترك عمله كسائق سيارة ليعمل كاتبا بمكتب أحد المحامين، بينما تقدمت الأم في عملها كحائكة للثياب، وما لبثت «ماجي» أن أدركت أن أسرتها من النوع الذي يشغله فقره عن الاهتمام بالأخلاق.. حين غادرت قريتها الفقيرة إلى «باريس» لتمضي جانبا من إجازتها بمنزل قريبة للأم تدعى «مدام لانجلوا»، فأثار جمال العذراء القادمة لتوها من الدير، دون أن تفك شعرها المضفور في جديلتين طويلتين، اهتمام المدام التي كانت تعمل في مجال الترفيه.

وأثار الوجه الآخر لـ«باريس» الذي رأته «ماجي» في منزل قريبتها اهتمام الفاتنة الصغيرة، فاجتذبها بألوانه وأصباغه وزيناته، وبضحكه ولعبه وبالرجال الذين كانوا يترددون عليه، فلم تعد إلى منزل أسرتها ولم تعد إلى مدرسة الدير. وقبل أن تنتهي الإجازة كانت قد وقعت في غرام شاب إنجليزي من المترددين على منزل «مدام لانجلوا» اسمه «أندريه مونت كلارك». وعدها بالزواج وأرسل إلى الهند يطلب موافقة والده الذي كان يشغل مركزا دبلوماسيا عاليا بها وفى انتظار الرد، أقامت معه في منزل أمه الفرنسية.

وكانت «ماجي» حاملًا منه عندما وصل رد الأب بعد شهور يطلب من ابنه أن يلحق به في الهند، ويعترض على مشروع زواجه منها لأنه سوف يسيء إلى مركزه ويعرقل خططه التي وضعها من أجل مستقبل باهر للابن. فاعتذر «أندريه» بأنه لا يستطيع تحدي رفض أبيه وترك ابنته في أحشائها وغادر باريس إلى لندن ومنها إلى «بومباي» لتعود هي إلى منزل أسرتها فتضع حملها. وكانت بنتا سمتها «ريموندا». وعكفت بمعاونة أمها على العناية بها، ومنذ ذلك الحين لم تره أو تتلق منه شيئا وما لبثت أن عرفت أنه كان من الآلاف الذين قتلوا في الحرب العالمية الأولى.

وفي العام التالي ـ ١٩٠٧ ـ تعرفت بالرجل الثاني في حياتها.. وهو «أندريه ميلر» وكان تاجرًا ثريا من أغنياء «بوردو» المعدودين، وبعكس «أندريه» الأول، فقد كان الثاني رجلًا ناضجًا تجاوز الأربعين من عمره، ولم يكن في حاجة إلى استئذان أبيه لكي يتزوج منها وهو الطريق الوحيد الذي وجده مفتوحا أمامه لكي ينالها، إذ لم تعد، بعد تجربتها مع «أندريه الأول»، تلك الفتاة الساذجة ذات الضفيرتين بل أصبحت أمًا لطفلة غير شرعية وهي في السادسة عشرة.

واستطاعت بذكائها الفطري أن تتعلم من رجل واحد كيف تعامل كل الرجال.

وخلال السنوات الست التي عرفت فيها باسم «ماجي ميلر» تلألأ اسم فتاة الدير الصغيرة ابنة السائق الفرنسي الفقير في سماء مجتمع «باريس» ما قبل الحرب، إذ كان زوجها ينتمي إلى أسرة تملك معامل ضخمة لصنع الخمور في «بوردو»، ومزارع شاسعة للكروم، وهكذا أتيح لها أن تذوق متع الحياة المرفهة، فتركب الجياد وتصيد الثعالب في منزلها الريفي وتسيح، بصحبة زوجها، بين أنحاء أوروبا، بل وتسافر معه إلى «مراكش»، حيث تعرفت لأول مرة إلى عالم الشرق الساحر، ثم استقر الزوجان أخيرًا في مدينة «البندقية»، وهناك بدأت المشاحنات بينهما لتنتهي بالطلاق الذي تم في «دوفيل» في صيف عام ١٩١٣.

ويبدو أن تجربتها العاطفية الأولى كانت ذات أثر بالغ في طريقة تعاملها مع من عرفت بعد ذلك من الرجال.. إذ حرصت دائما على أن تظل الطرف الأقوى في علاقاتها المتعددة بهم، التي اتخذت مع تعدد التجارب طابعا تجاريًا واضحًا.. حتى حين تكون العلاقة زواجا شرعيا، إذ كان الإغراء بالمال من جانب الرجال الذين عرفتهم هو أسلوب تعاملهم معها، وكان الإغراء بالجمال والتهديد بالانتقال إلى رجال آخرين هو أسلوب تعاملها معهم.. لذلك اتسمت زيجاتها ـ ومغامراتها ـ بصراع بينها وبين عشاقها على التملك، فهم يسعون لتملك قلبها المراوغ الذي لم يعط أحدا منهم اليقين بأنه شاغله الوحيد، فمع أنها كانت تسخو عليهم بعواطفها، فإنها كانت تفعل ذلك لكي تؤكد لهم قدرتها على العطاء حريصة مع ذلك على أن تثير غيرتهم حتى

لايدفعهم اطمئنانهم إلى تملكها إلى الملل منها أو هجرها كما فعل «أندريه الأول»، ولعل هذا هو السبب في أنها كانت تتعمد أن يكون لديها دائما «حبيب احتياطي» تلجأ إليه إذا ما ملّها «الحبيب الأصلي» أو ملته أو رغبت في ابتزاز عواطفه.

وما لبث التوتر الشديد أن أصبح مزاجا عاطفيا لديها، انتقل منها إلى عشاقها، إذ كانت تتفنن في إثارة غضب الطرف الآخر إلى أن ينتهي الموقف باشتباك لفظي يتبادلان خلاله الشتائم، ثم يتضاربان بالأيدي وحين يصل التوتر إلى ذروته تهدأ العاصفة فجأة.. ويحلو الغرام.

كانت ـ على الأرجح ـ قد أصبحت مزيجا معقدا من «امرأة سادية» تتلذذ بتعذيب الرجال، و«مازوكية» تتلذذ بتعذيبهم لها.

وكان ذلك هو سبب طلاقها من «أندريه ميلر» فقد ظلت المشاحنات تتصاعد بينهما خلال سنوات زواجهما الست، إلى أن وصلت إلى ذروتها ذات ليلة من عام ١٩١٣، حين طرق باب جناحها في الفندق الذي كانا يقيمان فيه بالبندقية، فأبت أن تفتح له، وعندما كسر الباب واقتحم الغرفة وجد بابها الجانبي مفتوحا، مما جعله يشك في أنها كانت بصحبة رجل هرب قبل ثوان من نجاح الاقتحام، فاشتبكا في عراك عنيف، انتهى ـ كالعادة ـ بالصلح، وسافرا معا إلى «مراكش» ليعودا منها إلى «دوفيل»، حيث كان الزوج يملك قصرًا فاخرًا تحيط به حظائر للجياد.

لكن المشاحنات بينهما تكررت بسبب صديق للزوج اتخذته «ماجي» هدفا لغيرتها واتهمته بأنه يحرض زوجها عليها، ثم ما لبثت أن طردتهما من القصر، وأصدرت أمرها للخدم بعدم السماح لهما بدخوله أو بالاقتراب من حظائر الجياد. فكانت تلك هي القشة التي قصمت ظهر بعير زواجهما، فقد اصطحب الزوج صديقه وقرر ألا يعود مرة أخرى إلى المنزل إلا إذا غادرته «ماجي» إلى الأبد، وهكذا طلقها «أندريه ميلر» بعد أن دفع لها مائتي ألف فرنك تعويضا عن الطلاق.


ماجي مرجريت ألبير في صباها الأول

واستردت «ماجي ميلر» بعد الطلاق اسمها الأول «ماري مرجريت ألبير» وقررت أن تستثمر ما كونته من صلات بالمجتمع الأرستقراطي الفرنسي خلال زواجها لتقيم علاقات حرة ومؤقتة مع من تختارهم من الرجال الذين لا يقيدونها بقيود الزواج.. وكان والدها قد توفي والتحق شقيقاها بالجيش ثم ما لبثا أن ماتا في المعارك الأولى من الحرب.. أما ابنتها

غير الشرعية «ريموندا» فكانت قد ألحقتها بمدرسة داخلية بـ«لندن» لتتفرغ لحياتها الجديدة.

وساعدها التعويض الضخم الذي حصلت عليه مقابل طلاقها على الاحتفاظ بالمظاهر الضرورية لكي لا تفقد بطاقة عضويتها بالمجتمع الراقي الذي كانت قد شغفت به إلى حد الجنون، وتمرست ـ بذكائها الفطري وبما اكتسبته من خبرة به أثناء سنوات زواجها ـ على تقاليده ورسومه، فانتقلت للإقامة بشقة فاخرة بشارع «هنري مارتان» بـ«باريس» لتظل قريبة من الأحياء التي تسكن فيها الطبقة الراقية، واحتفظت بسيارتين فاخرتين للركوب، وحرصت على أن تتنزه فوق أحد جيادها كل صباح في غابة «بولوينا».. وتعددت الولائم والحفلات التي كانت تقيمها في مسكنها لأصدقائها الذين عرفتهم أثناء زواجها، وتنفق عليها ببذخ لم تندم عليه. فظلت وجها مألوفا في معارض المجوهرات وعروض الأزياء ومدرجات سباق الخيل، حيث كانت جيادها السبعة تشارك في السباق وتحصل على الجوائز وصالات القمار والرحلات الخلوية والملاهي الليلية، وأثناء ذلك تعرفت بـ«نيكولي دي مونتجوا» ألمع راقصات مسرح «الفولي برجير» وكونا معا ثنائيا ما لبث أن أصبح من ضرورات سهرات الطبقات العليا.

١٩١٥: البرنس أوف ويلز ولي عهد بريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى. ولد عام ١٨٩٤ ودرس بجامعة أوكسفورد وتولى العرش عام ١٩٣٦ خلفا لوالده الملك «جورج الخامس»، باسم «إدوارد الثامن» لكنه تنازل عنه بعد شهور لأخيه الملك «جورج السادس» لإصراره على الزواج من مطلقة أمريكية تكبره سنا هي «المسز سمبسون» وعرف بعد ذلك باسم «دوق وندسور»



وكانت تدرك منذ البداية أن جمالها وجاذبيتها هما رأس مالها الوحيد للبقاء على القمة، فلم تبتذلهما أو تنحط بقيمتها في السوق حتى لا تجد نفسها واحدة من الفتيات اللواتي يتسكعن في الشوارع بحثا عن رجل يدفع لهن عدة فرنكات أو يشتري لهن زجاجة من النبيذ الرخيص، بل حرصت على الإنفاق ببذخ على «البضاعة» التي تملكها موقنة بأن ذلك استثمار سوف يربح أضعاف ما أنفق عليه إذا ما تجملت بالصبر.

وما لبثت الأيام ـ وصداقة «نيكولي دي مونتجوا» ـ أن أثبتتا صحة تقديرها، إذ كان اتخاذ العشيقات بشكل علني لا يزال من التقاليد المحترمة للمجتمع الأرستقراطي الفرنسي، كما كان «الفولي برجير» ـ الذي كانت «نيكولي» ألمع نجومه ـ مقصد طلاب اللهو، وبفضل ذلك لمع اسم «ماجي ألبير» كمومس محترمة يتنافس

على فراشها أشهر الرجال وأكثرهم ثراء من حاملي ألقاب التشريف وأبناء الوزراء وكبار الضباط ويدفعهم إليها ـ فضلا عن جاذبيتها وجمالها ـ شهرة عشاقها السابقين والمستوى الاجتماعي الرفيع الذي كانت تحرص علي أن يكون أهم مؤهلات هؤلاء العشاق!

ونشبت الحرب العالمية الأولى فانفض كثيرون من أصدقائها الضباط عن السامر، والتحقوا بفرقهم العسكرية، وتطوع آخرون من المدنيين للمشاركة في دعم المجهود الحربي بما في ذلك سائق سيارتها، مما اضطرها إلى أن تقودها بنفسها بعد أن أدرك الركود حياة الليل والمجون في «باريس»!

وما لبثت «ماجي» أن لحقت بأصدقائها فوضعت السيارة في خدمة المجهود الحربي، وتطوعت لقيادتها بنفسها وكان عملًا شاقًا مرهقا لم تستمر فيه سوى شهور عادت بعدها إلى «باريس» لتتطوع للتمريض في أحد المستشفيات العسكرية، بعد أن اكتشفت المستوى الرفيع للشخصيات التي يمكن أن تتعرف إليهم من خلال نشاطها الوطني والتطوعي في خدمة المجهود الحربي.

وما لبثت سنّارتها أن اصطادت ـ في نهاية عام ١٩١٥ ـ لؤلؤة ثمينة، كانت بمثابة تتويج لها في عالم العشق، إذ تعرفت إلى الأمير «إدوارد» ـ أو «البرنس أوف ويلز» ـ ولي عهد إنجلترا وابن «الملك جورج الخامس» أثناء زيارة كان يقوم بها إلى فرنسا، وهو في طريقه إلى ميدان القتال، فنشأت بينهما علاقة استمرت طوال سنوات الحرب، ولكن على فترات متقطعة؛ إذ كان الأمير ـ فضلا عن مسئولياته المتعددة وضرورات الحذر التي تفرضها عليه مكانته الرفيعة ـ كثير التنقل بين ميادين الحرب وبين مستعمرات التاج، لكنه مع ذلك لم ينس المرأة الباريسية الجذابة التي كانت تكبره بأربع سنوات فكان يراسلها من جبهة القتال، ويرسل إليها ـ مع خطاباته العاطفية الساخنة ـ تذكارات حربية كأزرار من ملابس الجنود الألمان، أو قطع من أسلحتهم، وأحيانا بعض خوذاتهم.. وقد أثبتت خطابات «البرنس أوف ويلز» ـ التي ظلت «ماجي» تحتفظ بها بين تذكارات عشاقها العديدين ـ أنها لا تقدر بثمن أثناء محاكمتها ـ فيما بعد ـ بتهمة قتل «علي كامل فهمي» أو«البرنس أوف مغاغة»، حتى إن البعض يعزو إلى هذه الرسائل الفضل في إنقاذها من الجلوس على الكرسي الكهربائي!



وكانت باريس في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى أشهر المزارات الأوروبية التي يشد إليها أمراء الشرق وساسته وأثرياؤه - بل وبعض المتوسطين والفقراء من أبنائه - الرحال في زيارات تطول أو تقصر حسب الأحوال والأموال؛ إذ كانت «فرنسا» القطب الثاني في الصراع الدولي على ما كان يعرف آنذاك بالمسألة الشرقية، أي مسألة اقتسام الأقطار التابعة للإمبراطورية العثمانية، بين دول أوروبا التي كانت قد اقتنعت بأن الإمبراطورية قد أصبحت رجلا عجوزا مريضا يوشك على الرحيل، ولابد من تقسيم تركته بينها بالتراضي، قبل أن يقودها الخلاف حول تقسيم تلك التركة إلى الحرب.

وفضلا عن أن نفوذ فرنسا الثقافي كان قويا في كثير من البلدان الشرقية وخاصة العربية، فقد كان تحررها الأخلاقي عامل جذب قوي لكثيرين من الأرستقراطيين الشرقيين، فضلوها على غيرها لقضاء إجازاتهم ليمارسوا حريتهم بعيدا عن عيون العوام المتزمتين من مواطنيهم الشرقيين الذين كانوا يستمتعون بتسقط عورات الأمراء والأعيان والذوات الفخام، ويدسون أنوفهم في شئونهم الخاصة، ويجبرونهم على ممارسة حريتهم خلف الأسوار ويحرمونهم من متعة ممارساتها في الهواء الطلق!

وكان طبيعيا أن يكون «الفولي برجير» وغيره من أماكن اللهو منطقة جذب لهؤلاء الشرقيين الذين جاءوا ليستمتعوا بمذاق اللحم الأبيض، ويذوبوا في فتنة العيون الزرقاء التي كانوا يعانون في بلادهم من قهر جنودها لهم.. وفيه تعرفت «ماجي ألبير» قبل الحرب بجنرال تركي اسمه «خليل شريف باشا» - كان سفيرًا لتركيا في إحدى العواصم الأوروبية - ثم فر من بلاده في أعقاب الانقلاب الذي قامت به جمعية الاتحاد والترقي ضد السلطان «عبدالحميد الثاني» ليقيم بمصر إذ كان متزوجا من الأميرة «نازلي فاضل» ابنة «مصطفى فاضل باشا» شقيق «السلطان حسين كامل» سلطان مصر في تلك الأيام. وعاشت معه في «باريس» لعدة شهور تبدت آثارها فيما ظهر على جيدها وفي أصابعها وكفيها من مجوهرات ثمينة، كما تعرفت - كذلك - بالمسيو «ألبير موصيري» وهو يهودي مصري من أصل إيطالي كان يدير بالقاهرة بنكا تملكه أسرته ويحمل اسمها.

وكانت هذه الصلات هي التي شجعتها على اختيار مصر، لكي ترحل إليها في الشهور الأخيرة من عام ١٩١٦، حين أصيبت بمرض صدري، ونصحها الأطباء بأن تقيم في جو جاف مشمس إذا أرادت أن توقف التدهور السريع في حالتها الصحية، قبل أن تتحول من «مرجريت ألبير» إلى «مرجريت جوتيه» وتصاب مثل غادة الكاميليا بالسل، وكان آنذاك - وحتى اكتشاف المضادات الحيوية بعد ذلك بسنوات - مرضا مميتا لا تقل خطورته عن السرطان في أيامنا.

ومع أن الغواصات كانت تزحم أيامها مياه البحر المتوسط إلا أن «ماجي ألبير» ذات الصلات القوية بقيادات الجيش الفرنسي وجيوش الحلفاء.. بل وبالبرنس «إدوارد» ولي عهد بريطانيا، لم تعدم الوسيلة التي تمكنها من عبور الحدود برًّا إلى إيطاليا ومنها بحرًا إلى مالطة، ثم إلى الإسكندرية فاختصرت بذلك القسم البحري من رحلتها إلى الحد الأدنى.

ولم يكن اختيار «ماجي» لـ«فندق شبرد» ـ بحي الأزبكية بوسط القاهرة ـ لكي تنزل به مع خادمتها التي صحبتها، مصادفة أو لمجرد أنه كان ـ بعد أهرامات الجيزة ـ أكثر معالم القاهرة شهرة لدى الأوروبيين منذ تأسس عام ١٨٤١ ليكون أول فندق ينشأ على الطراز الأوروبي في مصر، لكنها اختارته قاصدة أن تنزل في الفندق الذي ارتبط اسمه بالملوك والأمراء الأجانب الذين يزورون مصر، سيرًا على منهجها في إحاطة نفسها بجو من العظمة والأبهة حتى لا تهبط بالمستوى الرفيع لعشاقها.

والحقيقة أن «شبرد» كان مركزا مثاليا للتعرف على النخبة السياسية والاقتصادية في المجتمع المصري، فضلا عن كبار ضباط جيش الاحتلال والمسئولين بدار الحماية الذين كانوا يقيمون به أو يترددون عليه، فقد كانت قاعاته وأبهاؤه وصالات القمار والرقص به تجتذب وجهاء الجاليات الأجنبية التي كانت تستوطن مصر، ومع أن عوام المصريين كانوا يسمونه ـ على سبيل الاحتجاج والاحتقار ـ «خمارة شَبَتْ»، إلا أن كثيرين من أعيانهم كانوا يفضلون التردد عليه لأغراض شتى كان من بينها ـ بالطبع ـ مطاردة نساء أوروبا الفاتنات اللواتي كن يقمن به أو يترددن عليه لاصطياد الرجال أو لاصطياد الأخبار.

ولم تكن الجاليات الأوروبية في مصر آنذاك مجرد تجمعات هامشية على متن المجتمع المصري، بل كانت ـ بعد نصف قرن من النشاط الاقتصادي ـ قد تحولت إلى مؤسسة ذات نفوذ سياسي واجتماعي غالب، تأخذه من قوتها الاقتصادية ومن وجود جيش الاحتلال ومن سيطرتها على المراكز الحساسة في الإدارة الحكومية، ومن الامتيازات الأجنبية التي كانت تضفي على الأجانب المحليين حصانات قانونية ما لبثوا أن استغلوها ليمارسوا تقاليدهم وعاداتهم دون أن يستطيع المصريون الاحتجاج على هذا التحدي العلني لتقاليدهم الريفية المتزمتة، بعد أن تدهور نفوذهم على مجريات الأمور في بلادهم بشكل سريع منذ هزيمة الجيش المصري في معركة التل الكبير عام ١٨٨٢، فضلا عن أن وجهاءهم وأعيانهم بل وشريحة من الطبقة الوسطى، كانوا قد استناموا لسيطرة الأوروبيين بعد أن عجزوا عن قيادة المقاومة ضدهم. ثم انتقل قسم من هؤلاء إلى محاولة الاستفادة من الوجود الأجنبي والسيطرة الأوروبية في تحقيق مكاسب مادية أو أدبية أو حسية لأنفسهم.



فندق شبرد في بداية القرن العشرين.. ملتقى النخبة المصرية والأوروبية في خلال قرن كامل بين منتصف القرن التاسع عشر، ومنتصف القرن العشرين.. كان يقع على ناصية شارعي الجمهورية والألفي في وسط القاهرة.. دمر في حريق القاهرة ١٩٥٢.. وأقيم مبنى حديث له على شاطئ النيل

وكان من بين ظواهر هذا التحلل ما سماه الزعيم «محمد فريد» في مذكراته بـ «انتشار الفسق بين الطبقات العليا من ذوات البلد» وهو يحمّل الخديو «إسماعيل» المسئولية عن ذلك؛ إذ كان يعطي «المومسة الأوروباوية» ما يزيد على أربعين ألف جنيه «حتى صارت الديانة - أي القوادة - من أكبر وسائل التقرب من جنابه»!!

وكان طبيعيا أن ينتشر الفساد الجنسي بين «ذوات البلد» بعد ربع قرن على انتهاء عهد «إسماعيل»، تضاعفت خلاله أعداد الأوروبيين الذين يفدون إلى مصر ليقيموا بها إقامة دائمة، فوصل عددهم في عام ١٩١٧ إلى أكثر من ١٧٥ ألفا في وقت لم يكن فيه عدد المقيمين في مصر - بما في ذلك رعايا الدولة العثمانية من غير المصريين - يزيد على ١٤ مليونا، أي أنه كان هناك أوروبي واحد بين كل مائة من الوطنيين، وهي نسبة مرتفعة للغاية من حيث العدد بصرف النظر عما كان الأوروبيون يحوزونه من نفوذ اقتصادي، وحماية قانونية تتمثل في الامتيازات الأجنبية التي استغل سفلة الأجانب الحصانة التي تمنحها لهم في إدارة شبكات للبغاء ومنازل للدعارة السرية، رغم أن الدعارة العلنية كانت منظمة وقائمة قانونا، بل إنهم لم يتورعوا عن استغلالها في إنشاء شبكات للشذوذ الجنسي تنظم التجارة في أعراض الغلمان، مما دفع سفلة الوطنيين والعثمانيين العاملين في هذا المجال إلى التحايل للخروج عن مصريتهم والسعي

للحصول على جنسية إحدى المستعمرات الأوروبية، لتشملهم الامتيازات الأجنبية بحصانتها فيمارسون نشاطهم في تجارة المخدرات والأعراض في حمايتها.

وهكذا لم تكد تمر سنوات على الاحتلال، حتى شاعت ظاهرة اتخاذ خليلات من الأوروبيات بين أعيان المصريين، بعد أن أصبح السفر إلى أوروبا للدراسة أو للسياحة أو اللهو من ضرورات الوجاهة التي يحصل عليها شبابهم وشيوخهم ويتنافسون فيها، فصحيح أن معظم تلك العلاقات كان من النوع الذي لا يستمر سوى وقت قصير، إلا أن عددا غير قليل منها كان يقوم على تعاقد عرفي يمتد إلى زمن طويل نسبيا يتكفل خلاله العشيق بنفقات خليلته، فيدبر لها مسكنا خاصا تقيم فيه، ويدفع لها راتبا شهريا، غير ما يتكفل به من نفقات السهرات والحفلات والهدايا مقابل حيازته لها دون شريك خلال فترة سريان العقد الذي يلغى من تلقاء نفسه، إذا ما ملَّ أحد الطرفين معاشرة الآخر أو رغب في التعاقد مع سواه.

وكان كثير من تلك العلاقات علنيا حتى لو كان الرجل متزوجا؛ إذ لم يكن متاحا للزوجة المصرية أن تعرف شيئا عن سلوك زوجها خارج المنزل، أو أن تتجاسر فتسأله عنه، وحتى لو عرفت أو سألت، فقد كانت في وضع اجتماعي يجعلها غير قادرة على الاحتجاج.

وكان «عمر باشا سلطان» أحد أعيان المصريين الذين انتقد الزعيم «محمد فريد» انهماكهم في اللهو والملذات و«تبديدهم لنقودهم على القمار ومطاردة النساء في أوروبا ومصر بكل تبجح ووقاحة» وهو الابن الأصغر للسير «محمد سلطان باشا» رئيس مجلس النواب الذي شارك في الثورة العرابية في بدايتها، ثم انقلب عليها وساهم في هزيمتها فمنحته «الملكة فيكتوريا» ـ ملكة إنجلترا ـ مكافأة على ذلك وسام القديسيين «جورج وميشيل» فأصبح يحمل لقب «السير»، ومات عام ١٨٨٤ ليترك لأبنائه ثلاثة عشر ألف فدان وذكرى غير عطرة، حاول ابنه الأصغر «عمر» أن يدفع عن أسرته وصمتها، فانضم إلى الزعيم «مصطفى كامل» الذي قربه إليه، وكان من بين الأثرياء الذين تبرعوا بسخاء لتمويل أنشطته ضد الاحتلال، فانتخب عضوا باللجنة الإدارية للحزب الوطني عند تأسيسه عام ١٩٠٧ وأمينا لصندوقه، لكنه تراجع بخطوات سريعة بعد وفاة «مصطفى كامل» وانتقل بولائه من خليفته «محمد فريد» إلى الخديو «عباس حلمي الثاني» الذي زاره في قصره بقريته «زاوية الأموات» ومنحه لقب الباشوية.

وما كادت «ماجي ألبير» تمضي أياما في «فندق شبرد» حتى اصطادت سنارتها «عمر باشا سلطان» وريث السير «محمد سلطان» باشا وعين أعيان محافظة المنيا بالصعيد الأوسط، فأخذ يطاردها بأسلوب لفت نظرها بقوة إلى طبيعة هؤلاء الشرقيين

ذوي العواطف الجامحة، والشهوات المتضخمة والثروات الطائلة التي لم يتعبوا في جمعها فلا يتعبهم إنفاقها، الجائعون ـ رغم إصابتهم بعسر هضم مزمن ـ لتحقيق نصر على الرجل الأوروبي الذي يحتل بلادهم ويستذلهم ويتعالى عليهم، بالحلول محله في فراشه وقهر نسائه جنسيا وانتزاع اعتراف منهن بأنهم أسياد وفحول.

وهكذا تتالت باقات الورود يحملها إليها كل يوم في غرفتها أحد عبيده السود، وظلت أعدادها تتضاعف حتى أصبحت تجد صعوبة في المرور عبر الردهة التي ازدحمت بعشرات منها أرسلها المحب الولهان.. فإذا دخلت مطعم الفندق لتتناول عشاءها وجدته يجلس إلى المائدة المجاورة وحوله حاشية من أتباعه وأصدقائه يتحدثون عن جمالها ويتغزلون فيه بصوت يتعمدون أن يكون عاليا لكي تسمعه، فإذا أعجبت بقطعة موسيقية مما تعزفه الأوركسترا أسرع «عمر باشا» إلى رئيس الفرقة يطلب إليه إعادة عزفها، وكلما حاولت أن تختار مائدة بعيدة عن مائدته في المطعم أو في صالة الرقص وجدته فجأة يجلس إلى المائدة المجاورة لتلك التي انتقلت إليها.

وسرعان ما اكتشفت أن نفوذه يبلغ من القوة حدا لا تستطيع مقاومته، وكانت التمتمة بكلمات لا تبين والابتسامة الخجول، هي الإجابة الوحيدة التي تحصل عليها من العاملين بالفندق كلما سألتهم تفسيرا لتلك المصادفات الغريبة التي تنتهي بأن تجد نفسها دائما تجلس إلى جوار «عمر باشا» سواء في المطعم أو في صالة الرقص أو صالة المقامرة!

وكان الانطباع الذي خرجت به عن باشاوات المصريين ـ كما قالت فيما بعد للكاتب الفرنسي «ميشيل جورج ميشيل» الذي روت له مذكراتها ـ هو أنهم «يتحدثون بلسان من عسل ويشيرون بأصابع من ذهب».

لكنها لم تتنبه إلى صفة أخرى ولم تقرأ بعيون حذرة دلالة ما حدث ذات ليلة كانت تتناول فيها العشاء مع مضيفها الجنرال «خليل شريف باشا» وقد أعطت ظهرها للعاشق الآخر «عمر سلطان باشا» الذي كان يجلس ـ كالعادة ـ إلى المائدة المجاورة حين قام الجنرال التركي فجأة ليشتبك معه في مشادة حادة ارتفعت خلالها أصواتهما حتى غطت على أصوات الموسيقى، وكشفت ملامح وجهيهما عن أنهما يتبادلان شتائم مقذعة ختمها «عمر سلطان باشا» بعبارات تهديد، قالها وهو يقاوم محاولة أصدقائه للخروج به من القاعة حسما للنزاع.

في ضحى اليوم التالي وبينما كانت «ماجي» تزور الحي القديم بصحبة الجنرال «خليل شريف باشا» لفت أحد أتباعه نظره إلى شاب كان يتتبعهم منذ غادروا الفندق، وفي اللحظة ذاتها كان الرجل يخرج مسدسا ليصوبه نحو «شريف باشا». لكن «ماجي» التي كانت قد أدركت الموقف أسرعت بحركة غريزية بالوقوف أمام

صديقها وعندما وجد الشاب هدفا غير الذي كان مكلفا باقتناصه يقف في مواجهته، ارتبك وبادر بالفرار.

ولأن ما كان يشغلها ـ آنذاك ـ هو حالتها الصحية الحرجة، فقد اكتفت بالفرجة على صراع الديكة الذي نشب بين الباشوين الشرقيين وتنافسهما للحصول على إعجابها، ولم تشجع «عمر باشا» على تجاوز ذلك إلى غيره إذ كانت تعتبر نفسها في إجازة مرضية من العمل ولم تكن في حالة مزاجية تسمح لها بإضافة اسم جديد إلى قائمة عشاقها، وإن كان أحد مؤرخي حياتها العاطفية من المصريين يقول بأنها قد كلفت عين أعيان «المنيا» خلال هذين الشهرين «ما يزيد على مليون فرنك عالي القدر مرتفع القيمة في الأسواق المالية».

أما المؤكد فهو أنها ما لبثت أن غادرت القاهرة بصحبة «شريف باشا»، حيث قضت عدة أسابيع تتجول بين الآثار الفرعونية في الصعيد ثم عادت من هناك، وقد تحسنت صحتها لتغادر مصر إلى باريس وتستأنف نشاطها خلال ما تبقى من سنوات الحرب.



في إبريل ١٩١٩ ـ وكانت قد أصبحت في التاسعة والعشرين ـ تزوجت «ماجي» للمرة الثانية من كهل فرنسي ثري هو «المسيو شارل لوران» وكانت قد تعرفت إليه في نهاية عام ١٩١٧، بينما كان يعالج في أحد المستشفيات العسكرية من رصاصات أصابته في الجبهة الروسية ولما شفي سافر إلى إيطاليا ثم التحق بمركز القيادة العامة الجوية في «فينسيا» وهناك تزوجت منه بعد الهدنة.

ومع أن الزوج كان يتمتع بكل الصفات التي تعجبها في الرجال، إذ كان وسيما وذكيا ومثقفا، وفضلا عن أنه كان يحبها، فقد كان يجمع بين وظيفته العسكرية المرموقة ونفوذه المالي الكبير؛ إذ كان قد ورث عن أسرته نصيبا جعله أحد كبار المساهمين في سلسلة من أكبر المتاجر الفرنسية ذات الشهرة العالمية هي «الجاليري لافاييت».

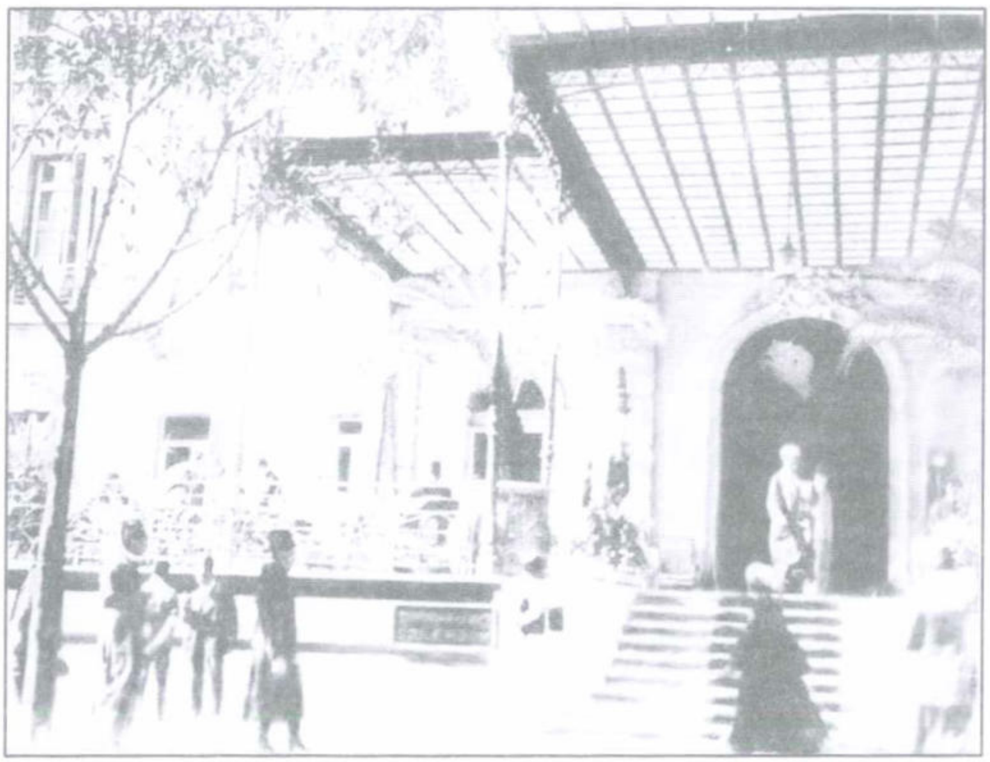
لكن حياتهما الزوجية على الرغم من ذلك كله لم تستمر سوى عام واحد انفصلا بعده بالطلاق.

ولم يكن «شارل لوران» يجهل نوع الحياة التي كانت تحياها زوجته قبل تعارفهما، ولم يكن يغار من ذلك الماضي بالمعنى الضيق للكلمة. لكنه ما لبث أن أدرك ـ بعد شهور قليلة من الزواج ـ مدى الهوة التي تفصل بين رؤية كل منهما للزواج وهدفه منه؛ إذ كان يسعى إلى حياة زوجية هادئة ومستقرة وبعيدة عن العواصف، بينما كانت

قد أدمنت دور العشيقة ولم تعد صالحة لغيره، فهي تريد رجلا يتنقل بها بين مزارات العشق التي عرفتها قبل ذلك، ويطوف بها من فندق إلى بار ومن ملهى إلى ميدان لسباق الخيل، ومن مطعم إلى صالة للرقص، حيث تلتقي عادة برجال لاحظ زوجها أنهم يحيونها وقبعاتهم فوق رءوسهم وأيديهم في جيوبهم، فتخجل من تقديمهم له وهي ظواهر لم يكن لها معنى، إلا أن الكلفة بينها وبينهم لا تتطلب تمسكا بقواعد البروتوكول أو اهتماما بإظهار الاحترام.

وسرعان ما ضاق كل منهما بالآخر، لكن «شارل نوران» تصور أنه لو أبعدها عن المناخ الاجتماعي الذي تعودت عليه قبل الحرب وأثناءها، فسوف ينقذ ذلك حياتهما الزوجية، فعرض عليها أن ترحل معه إلى اليابان ـ وكان قد عاش بها لعدة سنوات ملحقا بالسفارة الفرنسية في «طوكيو» ـ حيث كان يخطط لافتتاح فرع جديد لمتاجره، لكنها ذعرت من الفكرة وقاومتها بشدة وحين أصر عليها تركته غير آسفة!

وكان هناك ـ كالعادة ـ حبيبان احتياطيان يقفان في طابور الانتظار، لكن علاقتها بالأول ـ وكان ضابطا فرنسيا من أسرة كبيرة ـ لم تستمر سوى شهر واحد، أنفق عليها خلاله ثمانية آلاف فرنك، بينما بدا الثاني ـ وكان مليونيرا من «شيلي» جمع ثروته من صناعة الأسمدة الكيماوية ـ أكثر ثراء وإثارة، فقد وضع لافتة باسمها على مسكن



مدخل فندق شبرد القديم

خاص استأجره لها، واختار سبعة من الخيول الأصيلة وسمها بالحروف الأولى من اسمها. ومع أنه لم يضن عليها بكلمات الحب، إلا أنه كان واضحا وعمليا وهو يتفاوض معها حول شروط عقد العشق.

وكان «أستوريكا» ـ وهذا هو اسمه ـ سخيا في عطائه، ففضلا عن المرتب الشهري الذي يصل إلى ٣٠ ألف فرنك، فقد كان يعيش حياته بالأسلوب الذي يرضى عشيقة حريصة على مستواها الاجتماعي وعلى تاريخها العريق من نوع «ماجي»، فهو يملك يختًا يتنقل به بين الشواطئ وحظائر للخيول يتابعها في ميادين السباق، ويقضي ليله يطوف بين البارات والمراقص والمطاعم وموائد القمار. وكان شغفه الشديد بأن يظهر أمام الآخرين في صورة الباريسي المعاصر يدفعه لضروب من السفه في الإنفاق وإلى أشكال من التصرفات تدعو عادة للضحك لعجزه عن المواءمة بين شخصيته البدائية وادعاءاته الباريسية، وجاء اختياره لها لتكون عشيقته استكمالا للديكور الباريسي الذي يفضل أن يعيش بين قطع أثاثه.

وقد صارحها بوضوح بأن نمطها الأنثوي ليس من النوع الذي يثير شهيته للحب، فهي نحيفه القد دقيقة التكوين وهو يفضل السمراوات البدينات، ولذلك وضع من بين شروط التعاقد بينهما نصًا يكفل لها الحق في أن تكون عشيقته الرسمية الوحيدة ويعطيه ـ كذلك ـ الحق في أن يتصل بصفة غير رسمية وغير علنية بمن يشاء من النساء المؤهلات لفتح شهيته.

ولعل بدائية سلوكه، إلى حد الجلافة أحيانًا، كانت من بين العوامل التي جذبتها إليه إذ هيأت لها الظروف الملائمة لكي تشبع شهوتها الدفينة للشجار وللنقار، وكان لا يحلو لهما التضارب بالألفاظ والأيدي إلا أمام الناس، أما الصلح فكان يتم عادة في غرفة نومهما.

وسرعان ما أصبحت أخبار مشاجراتهما موضوعًا للتندر في المجتمعات الباريسية.. وقد ذهبا ذات مرة ـ مع فريق من أصدقائهما ـ في جولة على ظهور الجياد إلى إحدى ضواحي «باريس» حيث كانت توجد حظائر الجياد التي يملكها «أستوريكا»، وبينما هم يتناولون الغداء في أحد المطاعم نشب بينهما شجار حاد حول موضوع تافه ارتفع على إثره صوته وهو يؤنبها بألفاظ خشنة.. فإذا بها ترفع السوط الصغير، الذي تستخدمه في حث جوادها على السير، وتنهال به على وجهه ليسقط منظاره على الأرض ويظهر خط أحمر طويل على خده، فغادر المكان غاضبا وهو يسبها بألفاظ خشنة ليستقل عربته التي كانت تقف أمام المطعم. لكنها لحقت بها قبل أن تتحرك وأمرت السائق بأن يترك لها مكانه، وقبل أن يسمع اعتراض سيده، كانت قد حلت محله وأخذت تستحث الخيول التي كانت تجرها بالسوط

نفسه وتلف بالعربة عدة مرات في الميدان، بينما أصدقاؤهما يقفون على باب المطعم يصفقون ويضحكون ويسخرون من «أستوريكا» الذي كان يجلس داخل العربة وهو يكاد ينفجر من الغيظ، إذ وجد نفسه ـ فجأة ـ أشبه بحيوان في قفص يعرضه مدربه على المتفرجين في السيرك دون أن يستطيع مغادرة القفص أو وقف الاستعراض!

ومع أنهما تصافيا بعد قليل وفي اليوم نفسه، بل وتنزها ـ في اليوم التالي ـ على ظهور الجياد مع أصدقائهما وتغديا في المطعم نفسه، إلا أن المشاجرات بينهما تكررت وتصاعدت إلى أن جاء الوقت الذي اتفقا فيه على فسخ العقد!



في الأسبوع الثاني من ديسمبر ١٩٢١، وبعد أسابيع من فسخ التعاقد بينها وبين المليونير الشيلي، عاودت «ماجي» أعراض المرض الصدري الذي كان قد أصابها قبل ثلاث سنوات، وكرر عليها الأطباء النصح بأنها في حاجة إلى إجازة تستريح فيها من السهر والإجهاد وتمضيها في بلد دافئ ومشمس.. ولما كانت الصحف الأوروبية ـ وخاصة البريطانية منها ـ تتحدث على امتداد الشهور السابقة عن أنباء الثورة في مصر باعتبارها حركة قومية متعصبة ضد الأوروبيين، فقد كتبت إلى صديقها المسيو «ألبير موصيري» خطابا تسأله فيه عن صحة تلك الأنباء، وعما إذا كانت الحالة في مصر تسمح لها بأن تمضي جانبا من الشتاء فيها بسبب ظروفها الصحية.

وبعد أسابيع وصلها رد رقيق منه يؤكد لها فيه أن الأوضاع في مصر هادئة تماما، وأن ما يجري بها لا صلة له بعموم الأوروبيين، لكنه يقتصر على المحتلين منهم. وكان الرجل عند حسن ظنها حين ختم خطابه راجيا منها أن تقبل ضيافته خلال فترة إقامتها في مصر، وأن تخطره بموعد وصولها لكي يقوم بالترتيبات اللازمة!

وغادرت «ماجي» بعد أيام قليلة من الاحتفال بعيد ميلادها الحادي والثلاثين «باريس» لتصل إلى القاهرة وبصحبتها ابنتها «ريموندا» التي كانت آنذاك في الخامسة عشرة من عمرها في الأسبوع الثاني من ديسمبر ١٩٢١.

ولم يكن فندق «سميراميس» الذي حجز لها مضيفها المسيو «ألبير موصيري» جناحا به، بمثل عراقة فندق «شبرد» الذي أقامت به خلال زيارتها السابقة؛ إذ لم يكن عمره قد تعدى آنذاك خمسة عشر عاما، لكنه لم يكن يقل شهرة عنه.. ومع أن تصميمه العصري جعله شبيهًا بأمثاله من الفنادق الأوروبية التي تعودت الإقامة فيها، وافتقد للجو التاريخي الساحر الذي كانت تشعر به وهي تخطو في فندق «شبرد»، حيث كانت الأميرة «زينب» بنت «محمد علي الكبير» تقيم مع جواريها من قبل، إلا

أن مشهد النيل الساحر الذي تطل عليه شرفات «فندق سميراميس» والمستوى الرفيع لمن يقيمون به أو يترددون عليه من الأجانب، وفي مقدمتهم عدد كبير من ضباط الجيش البريطاني وعدد من باشوات المصريين بطرابيشهم الحمراء كان عزاء كافيا.



فندق سميراميس قبل هدمه وتجديده

ومع أنها أسفت حين علمت أن «عمر باشا سلطان» قد توفي فجأة بعد شهور قليلة من مغادرتها للقاهرة، قبل أن يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره، إلا أنها لم تدهش حين وجدت من يكرر التجربة.. وفيما عدا أنه كان أصغر سنا من الباشا الراحل، فقد تصرف بنفس الطريقة فأخذ يلاحقها بالنظرات والابتسامات والتحيات، وأصبح عاديا أن تجد مائدته إلى جوار مائدتها في المطعم أو المرقص وحوله ـ كالعادة ـ كوكبة من الأتباع والأصدقاء بينهم نساء أوروبيات، وعندما أثار فضولها سألت فعلمت أنه واحد من أثرياء المصريين يملك عدة ملايين من الجنيهات لم يتعب في جمعها لذلك لا يتعب في إنفاقها.

ولأن المسيو «ألبير موصيري» كان أكثر دماثة من الجنرال «شريف باشا» فإنه استجاب ببساطة لطلب الشاب بأن يعرفه بصديقته الحسناء فقدمه لها باسم الأمير «علي كامل فهمي» وانحنى الأمير على يدها يقبلها وهو يطلب إليها أن تمنحه شرف مراقصتها!

ومع أنها كانت مجهدة بعد رحلة طويلة قضتها في زيارة معالم القاهرة، إلا أنها قبلت دعوته للرقص، ولم تمانع حين تكررت الدعوة مرة أخرى وثالثة في الليلة نفسها،وفي الليالي التالية أو حين تحولت إلى دعوات لتناول الغداء أو قبول الهدايا الثمينة، لكنها ترددت في تطوير علاقاتهما إلى ما هو أبعد من ذلك بعد أن حذرتها

كثيرات من صديقاتها من التمادي في علاقتها به.. وقالت للمسيو «ألبير موصيري» ذات مرة:

ـ يبدو أن صديقك من النوع الذي يحب السيطرة.

فقال لها:

ـ ويبدو أن ذلك لا يضايقك.

فقالت:

ـ بالعكس.. إنه صغير وجميل الشكل.

وقبل أيام من الموعد الذي كان محددًا لكي تغادر القاهرة إلى الأقصر وأسوان.. رضخت لإلحاحه المتواصل، وقبلت دعوة لحفل عشاء يقيمه على ظهر اليخت الذي يملكه تكريما لها، وحددت بنفسها الموعد على أن يكون في ٢٨ فبراير ١٩٢٢، بعد عودتها من رحلتها إلى الصعيد، واستلمت قبل سفرها إلى الأقصر بطاقة الدعوة الموسومة بالحروف الأولى من اسمها مطبوعة باللون الذهبي، ولكنها عادت من الصعيد إلى الإسكندرية مباشرة، وعندما حل يوم ٢٨ فبراير الذي حددته للمأدبة كانت تقف على سطح الباخرة في طريقها إلى «فرنسا» وعلى شفتيها ابتسامة واسعة وهي تتخيل مدى الغيظ الذي يشعر به الأمير المغرور بعد هذا «المقلب» الساخن!

الفصل الثالث

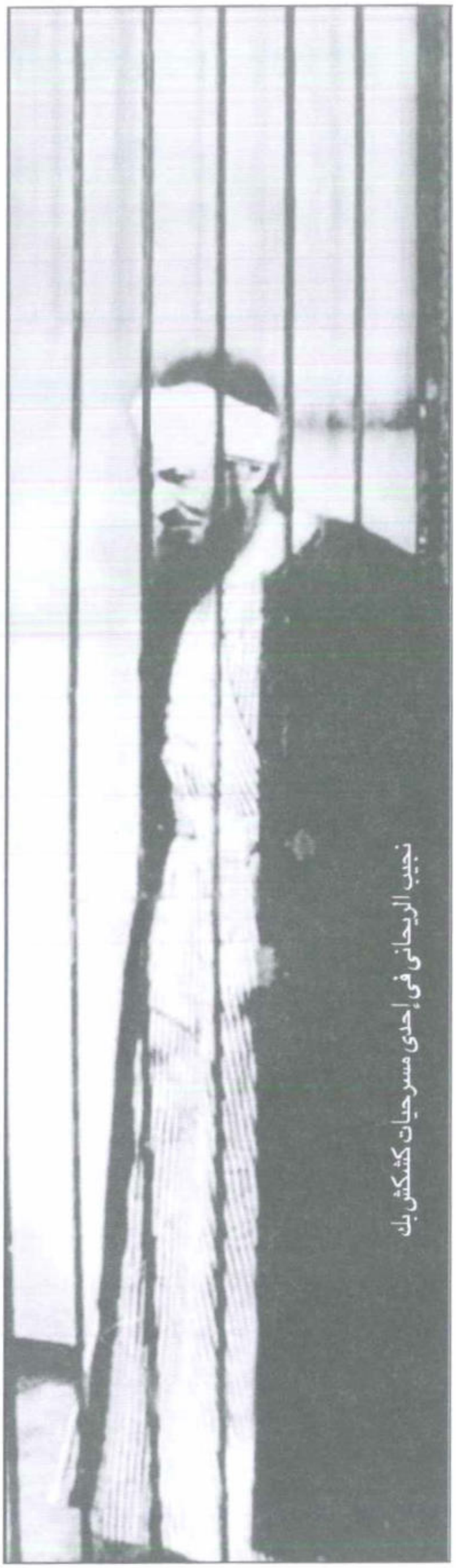
كشكش مصر الوحيد



يتخذون من الخليلة حليلة، ويعكفون على لعب القمار، ويتابعون صور خيل المضمار، ولا تخلو موائدهم من صنوف الراح في الأباريق والأقداح، ولا يتراطنون إلا بلغات أجنبية، فإذا ما تحدثوا بالعربية أبدلوا القاف بالكاف ونطقوا الحاء كالهاء.

محمد المويلحي

حديث عيسى بن هشام



نجيب الريحاني في إحدى مسرحيات كشكش بك



نجيب الريحاني، أو كشكش بك عمدة «كفر البلاص» الريفي الأبله الذي يبدد عرق الفلاحين تحت أقدام الغواني



في تلك السنة ـ ١٩٢٢ ـ كان الأمير «علي كامل فهمي» قد بلغ العشرين من عمره، أي أنه كان أصغر من «ماجي ميلر» بعشر سنوات كاملة!

والحقيقة أنه لم يكن أميرًا ولم تكن تجمعه بالأسرة المالكة المصرية سوى صلة قرابة واهية؛ إذ كانت كبرى شقيقاته «زينب» قد تزوجت من الأمير «حيدر فاضل» ـ حفيد إبراهيم باشا الكبير وأحد أبناء عمومة السلطان أحمد فؤاد سلطان مصر آنذاك ـ وفضلا عن أن الزواج لم يستمر سوى ثلاث سنوات، وعن أن تلك الأخت كانت قد ماتت عام ١٩٢١، فإن تلك الصلة لم تكن تعطيه الحق في أن يحمل لقب «الأمير»، الذي كان قانون الأسرة المالكة يحدد على سبيل الحصر من يحق له حمله من المنتمين لأسرة «محمد علي»، لكنه انتحل اللقب لنفسه بجسارة، أو انتحلته له بطانته على سبيل المباهاة الاجتماعية. وكانت بعض الصحف التي يغمرها بعطاياه تطلق عليه لقب «أمير الشباب» فكان يستخدمه أحيانا في الأوساط المصرية، أما في الأوساط الأجنبية التي كان شغوفا بالتردد عليها، فقد استغل جهلها بالشروط التي ينبغي أن تتوفر فيمن يجوز له حمل لقب الإمارة لكي ينتحل لنفسه اللقب الذي كان يدرك أن له رنين الذهب في أسماع الطبقة الرفيعة من بنات الهوى الأجنبيات.

وكان والده «علي فهمي باشا» مهندسا مصريا عصاميا، صعد بعلمه وجهده

وامتيازه في عمله من أسفل السلم الاجتماعي إلى قمته، وظل يحوّل عرقه إلى قروش يدخرها إلى أن استطاع أن يمتلك عدة مئات من الأفدنة أحسن إدارتها واستثمارها واشتد على الفلاحين الذين كانوا يزرعونها له، حتى لاحت له فرصة ذهبية حين قررت الحكومة المصرية أن تتخلص من عبء إدارة أملاك الدائرة السنية ـ التي كانت قد استولت عليها من صاحبها «الخديو إسماعيل» مقابل ما استدانه لحسابه الخاص من الماليين الأجانب ـ فقررت أن تطرحها للبيع بتسهيلات ضخمة، كان من بينها أن يسدد المشترون الثمن على أقساط طويلة الأمد، فباع «علي باشا فهمي» ما كان يملكه من أرض واشترى من أملاك الدائرة السنية ٧٨٠٤ أفدنة في «آبا الوقف» و٤٤٤ فدانا في «مغاغة» بمديرية محافظة المنيا.

وهكذا ارتفعت مكانته كواحد من كبار ملاك الأراضي الزراعية بمحافظة المنيا، خاصة وأنه كان قد تزوج من فتاة غنية من أصل قوقازي هاجرت أسرتها عام ١٨٦٠ إلى تركيا، عندما نشبت الحرب بين الجراكسة وروسيا القيصرية، ثم انتقلت منها إلى مصر. وبزواجه من «منيرة» ـ ابنة «يوسف باشا جواتيش» ـ لم تتسع مساحة الأرض التي يملكها ويديرها بما يزيد على ألف فدان أخرى فحسب، بل أصبح كذلك صهرًا للسير «محمد سلطان باشا» ـ عين أعيان محافظة المنيا ـ الذي كان قد سبقه وتزوج بابنة خالتها وأنجب منها ابنا واحدا هو «عمر باشا سلطان» وابنة واحدة هي صاحبة العصمة «هدى هانم سلطان» التي عرفت فيما بعد باسم «هدى شعراوي» نسبة لزوجها «علي باشا شعراوي»، ولمع اسمها بعد ثورة ١٩١٩ باعتبارها رائدة حركة تحرير المرأة.

وعلى عكس «سلطان باشا» ـ الأب والابن وحتى الابنة ـ فإننا لا نجد اسم «علي فهمي باشا» بين الذين اهتموا بالعمل السياسي أو العام أو حتى بالعمل الاجتماعي والخيري، إذ كان الرجل ـ في الغالب ـ من هؤلاء التكنوقراطيين الذين لا يهمهم شيء سوى التفوق في عملهم والاعتناء بتنمية ثروتهم.

والحقيقة أنه كان يدين بكثير من النجاح الذي حققه إلى أحد كبار مهندسي الري البريطانيين ذوي النفوذ الواسع في الإدارة المصرية في عهد الاحتلال، هو «السير وليم ويلكوكس» الذي يعزى إليه الفضل في اقتراح إنشاء «خزان أسوان» والإشراف على تنفيذه؛ إذ كان شديد الاقتناع بكفاءة «علي فهمي» وشديد الإعجاب بتفانيه في عمله، فظل يدعمه بقوة حتى اعتبره الناس من صنائعه.

وكان «ويلكوكس» هو الذي لفت نظره إلى استثمار أمواله في شركات استصلاح واستزراع الأرض، وهو المجال الذي نشط فيه هو نفسه بعد اعتزاله خدمة الحكومة المصرية. لكن «علي فهمي باشا» كان أفضل حظا من إشبينه الإنجليزي الذي قضت الأزمة الاقتصادية في عام ١٩٠٧ على مشروعاته.

وعندما اتسع نطاق ما يملكه «فهمي باشا» من أراض زراعية إلى الدرجة التي لم يعد معها قادرا ـ وحده ـ على إدارتها، كما كان يفعل أيام فتوته، لم يتردد في إنشاء دائرة لها اتخذ لها مقرا بجوار منزله في «شارع فهمي» بـ« باب اللوق» ـ الذي حمل اسمه ولا يزال يحمله حتى اليوم على الرغم من تغييره رسميا إلى شارع «عبد المجيد الرمالي» ـ واستثمر خبرته الطويلة كمهندس ري جال في معظم أنحاء البلاد في تنظيم أعمالها حتى أصبحت نموذجا للإدارة المنضبطة التي عرفتها أرقى الدوائر الزراعية في ذلك الحين.


هدى هانم شعراوي رائدة تحرير المرأة، ورئيسة لجنة الوفد المركزية للسيدات وابنة خالة «علي فهمي»

وكان قد رزق من زوجته «منيرة هانم» بأربع من البنات، وفضلا عن أنهن نساء فلم يكن ممكنا ـ بطبعية الحال ـ أن يساعدنه في إدارة الدائرة.. فقد كان الذكر الوحيد من أبنائه هو «علي كامل فهمي» ـ الذي حرص على أن يعطيه اسمه تخليدًا لذكراه ـ لا يزال طفلًا صغيرًا.. فكان مضطرا لكي يواصل العمل بنفسه حتى عندما طعن في السن وهاجمته أمراض الشيخوخة ولم تعد صحته تساعده على القيام بأعبائه.. خاصة وأنه كان قد أصيب بمرض غامض ـ لعله نوع من الملاريا ـ كان من بين أعراضه إصابته بنوبات دورية من الحمى، وفشلت محاولات طبيبه المعالج «الدكتور فوكيه» في إقناعه بالكف عن العمل وتحذيره من الخطر الذي يتهدد حياته إذا لم يكف عما يبذله من مجهود عضلي وذهني إلى درجة هدده معها بأن يكف عن متابعة حالته إذا لم يستمع إلى نصائحه، ويلزم الراحة التامة حتى لا يتحمل المسئولية عن وفاته، مما يضر بسمعته كطبيب.

ولكن «علي باشا»، الذي كان قد أدمن العمل فأصبح تسليته الوحيدة في شيخوخته ولم يعد قادرا على الكف عنه، كان يتظاهر بالامتثال إلى تعليمات الطبيب، وما يكاد الدكتور «فوكيه» ينصرف حتى ينزل إلى مكتبه بالدائرة أو بالمنزل ليواصل العمل والحمى تأكل من بدنه، فلا يقوم عن مكتبه إلا وهو محمول على الأيدي.. إلى أن جاء يوم أنهى فيه الدكتور «فوكيه» فحصه له ليثور في وجهه ثورة عارمة، عندما اكتشف مدى التدهور الذي وصلت إليه حالته، ولم يكف عن ثورته إلا بعد أن نفذ أمره بأن يلزم فراشه ويكف عن الحركة.

وعندما عاد في ضحى اليوم التالي اكتشف أنه ضرب بتعليماته ـ وبمحاولات

المحيطين به ـ عرض الحائط، وسافر إلى الإسكندرية ليحضر قضية له كانت منظورة أمام إحدى محاكمها.. فهز رأسه يائسا ومضى.

وعاد «الباشا» إلى القاهرة في قطار نصف الليل.. وما إن وصل إلى قصره حتى نام وهو محموم... فلم يستيقظ بعدها.

وهكذا غادر «علي باشا فهمي» الدنيا بعد أن ترك وراءه أحد عشر ألف فدان وأربع بنات وطفلًا واحدًا هو «علي كامل فهمي» كان دون سن المدرسة حين مات أبوه، فوجد نفسه وارثًا لأكثر من أربعة آلاف وخمسمائة فدان معظمها في «آبا الوقف»، حيث تقع معظم الأملاك التي اشتراها أبوه من الدائرة السنية، وبعضها في «مغاغة»، وفى بلدان أخرى متفرقة. ولم تكن الأطيان خالية من الديون؛ إذ مات الأب قبل أن يسدد بقية أقساطها والقروض التي استدانها من البنوك لاستكمال مرافقها واستثمارها.

وكان من حسن حظ الورثة أن الوصي الذي عينة «المجلس الحسبى» لإدارة أموالهم ـ وهو «عبد الحليم باشا عاصم» كان ـ فضلا عن أمانته وتقواه ـ مديرا لديوان الأوقاف العمومية خبيرا بشئون إدارة الأطيان، فأدارها بعزم ونظام حتى استطاع خلال سنوات قليلة أن يسدد من إيرادها ما كان عليها من ديون فأصبح ريع الأطيان صافيا لأبناء الباشا الذي عاش يعمل ومات وهو يعمل!

ولأن تربية هؤلاء الأبناء لم تكن من مهمة الوصي الطيب، فإن النجاح الذي تحقق في تنمية الثروة لم يواكبه نجاح مماثل في تنشئة الذين ورثوها وخاصة الذكر الوحيد، الذي تصور الأب الراحل أنه سيخلد ذكره فأعطاه اسمه؛ إذ كان الابن منذ طفولته عصبي المزاج شأن الأبناء الذين ينجبهم آباؤهم في شيخوختهم، يفرح لأقل شيء ويغضب لأى شيء.

ولم تكن حياته الدراسية داعية للتفاؤل؛ إذ كشف منذ البداية عن ضيق شديد بها ولكنه ـ مع ذلك ـ واصلها بصعوبة حتى الصف الرابع من المرحلة الثانوية، وكان الذين يتمونها آنذاك يحصلون على شهادة تسمى «شهادة الكفاءة».. ثم أصيب بمرض حال بينه وبين دخول الامتحان، فلم يحاول العودة للمدرسة ليحصل على الشهادة إذ بدا له ـ ككثيرين من أبناء الأعيان ـ أن الاستمرار في الدراسة عبث لا طائل من ورائه، فكف عن مواصلتها بدعوى أن الأوان قد آن لكي يقوم بنفسه بإدارة ما ورثه عن أبيه.. خاصة بعد أن تزوجت شقيقاته، فتزوجت الكبرى «زينب» من الأمير «حيدر فاضل» وتزوجت الثانية «فاطمة» من «حسين بك عاصم» ـ ابن الوصي عليه عبد الحليم عاصم باشا ـ وهو مهندس درس في أوروبا وعمل بالحكومة لفترة ثم استقال لمباشرة أعماله، وتزوجت الأخت الثالثة «عزيزة» من وجيه ينتمي لأصول

«سعيد أفندي العناني» سكرتير «علي فهمي» وصديقه.. تخرج في مدرسة المعلمين العليا.. وعمل مدرسا بوزارة المعارف.. ثم ترك العمل ليكون إلى جوار صديقه!



عثمانية هو «محمد رفعت الروزنامجي»، أما أصغر الشقيقات «عائشة» فقد تزوجت من طبيب من أبناء الأعيان هو الدكتور «أحمد سعيد».

وفي سنة ١٩١٦ وكان في السادسة عشرة من عمره تعرف على موظف صغير في الجمعية التشريعية هو «سعيد العناني» الذي كان يكبره بسبع سنوات.

وكان «العناني» نموذجا شائعا في تلك السنوات لنمط من الشبان والرجال الذين تقودهم شهوات عارمة للتمتع بالحياة، ولا تفي مواردهم بنفقات ما يشتهونه.

كان تنويعة أخرى على النمط الإنساني الذي يمثله «ياسين أحمد عبد الجواد» أحد أبطال ثلاثية «نجيب محفوظ» الشهيرة. «يعيش بشهوة خليفة... وسلطان كاتب بمدرسة النحاسين».

وكان قد عين بعد تخرجه في مدرسة المعلمين العليا مدرسًا.. في «مدرسة محمد علي الابتدائية».. لكن حياة اللهو التي اعتاد عليها أوقعته في مآزق دفعت «نظارة المعارف» إلى معاقبته بأقصى عقوبة تأديبية كانت توقع آنذاك على الموظف الذي يخل بواجبات وظيفته؛ إذ كانت العقوبة التالية لها مباشرة هي الفصل من الخدمة، فنقلته إلى «إدفو» التي كانت توصف بأنها «قبر الموظفين ومنفاهم»، ولكنه لدهشة المسئولين بالنظارة رفض تنفيذ النقل واستقال من عمله الحكومي المرموق.

هكذا ضحى «سعيد العناني» بالعمل الأميري، الذي كان منتهى آمال معظم الشبان من أمثاله في تلك الأيام، لكي لا يبتعد عن مرابض اللهو والمسرة في القاهرة، حيث قهاوي الغناء وبيوت البغاء وخمارات الليل ونزهات الفجر على سطح النيل بصحبة الأحباب والخلان.

وكانت حياة اللهو قد قادته إلى احتراف عمل إضافي يغل دخلا يصل إلى أضعاف

ما يتقاضاه من وظيفته الحكومية وفي المجال الذي يحبه ويهواه، وأثبت قدرته على اقتحام دنيا المسرات وخبرته بدروبها الخفية فائدتها، حين اتخذه أحد الشبان الأثرياء وهو «يوسف بك جنيد» كشّافا يضيء له ظلام دنيا الليل ويفتح له مغلق أبوابها.. فلم يثبت فحسب موهبته كمكتشف لسبل المتعة وكرسول غرام لا ييئس من الصد، ولا يعود خائبا مهما كانت الغانية عاصية، بل وأثبت كذلك أنه نديم ظريف طلي الحديث، حاضر النكتة لا تستغني عنه مجالس الأنس والفرفشة.

والحقيقة أن مواهبه في هذا المجال توهجت حين وجد نفسه يحترف الهواية التي يحبها، أما وقد كانت نفقات لهوه تخرج من جيب «يوسف بك جنيد» فقد أصبح يعيش بشهوة خليفة وبسلطان نديم للسلطان، بل ومهد له نفوذ «البيك» الطريق لكي يجد بسهولة عملا حكوميا آخر بديلا عن العمل في «نظارة المعارف» فعين كاتبا بالجمعية التشريعية، برلمان ذلك العهد.

ولأن ثروة «يوسف بيك جنيد» لم تكن تزيد على عدد كبير من العقارات كان معظمها يقع بميدان عابدين، فإنها قد عجزت عن الصمود أمام مواهب «العناني» الفائقة في فتح أبواب الإنفاق على مصراعيها، فما لبثت أحوال «البيك» المالية أن ارتبكت، وطارده الدائنون، حتى اضطروه للاختفاء من دنيا الليالي، لكن ذلك لم يؤثر في أوضاع «العناني» الذي كان قد تعرف آنذاك بالوارث الشاب «علي كامل فهمي» وانتقل للعمل معه كنديم وسكرتير وقواد ومدير للدائرة.

ومع أن «علي كامل فهمي» كان لا يزال ـ آنذاك ـ تحت وصاية «عبد الحليم باشا عاصم»، ويتقاضى مرتبا لا يزيد على مائة جنيه شهريا، إلا أن «العناني» لم يتردد في العمل معه، ففضلا عن أن المرتب كان يكفي ـ بأسعار تلك الأيام التي كانت قيمة الجنية المصري أثناءها تزيد على قيمة الجنيه الإسترليني ـ لإشباع حد معقول من شهواتهما، فإنه لم يكن جاهلا بما سوف يئول للشاب المراهق من أموال حين ترفع عنه الوصاية.

بل وأثبت حصافة وذكاء حين استعجل ذلك اليوم، فدفع «علي كامل فهمي» للإلحاح على الوصي بأن يسلمه جانبا من ثروته لكي يديرها بنفسه على سبيل التجربة، وقبل «عاصم باشا» طلبه، وسلمه بالفعل نصيبه من الأطيان التي ورثها عن والدته لكي يديرها لمدة عام زراعي واحد، وعاونه «العناني» في استثمارها وبذلا في ذلك مجهودا مضنيا انتهى بنجاح التجربة نجاحا فاق كل توقع، إذ زاد دخل تلك الأطيان عما كانت تحققه تحت إدارة الوصي، رغم خبرته وأمانته، فأغشى ذلك عيون الجميع وأساءوا قراءة طبيعة العلاقة بين الشابين، وتوهموا أن «علي كامل فهمي» قد ورث عن أبيه حرصه على تنمية ثروته وحبه للعمل وتفانيه فيه، وهكذا وافق الوصي

على رفع الوصاية عنه، وأقر أمام «المجلس الحسبي» بأهليته لكي يدير ممتلكاته بنفسه، وسلمه أربعة آلاف وخمسمائة فدان خالية من الديون والرهن، وفوقها مائة وخمسين ألفا من الجنيهات فائضا صافيا حققه خلال سنوات الوصاية!

أما وقد تحرر «أمير الشباب» من سلطة الوصي المتزمت، فقد آن الأوان لكي ينطلق حرًّا بلا رقيب ومن دون حسيب، وآن للثروة التي جمعها الباشا الراحل بعرقه وكده وبخله وتقتيره، أن تنتقل إلى الورثة الشرعيين لكثيرين من باشاوات ذلك الزمان، أي إلى بنات الهوى وبائعات المتعة وأصحاب مقاهي الغناء ومديري بيوت اللهو.



ولم يكن قد مضى ـ آنذاك ـ سوى ستة عقود فقط على حصول المصريين على حق تملك الأراضي الزراعية، إذ كانت تلك الأرض ـ منذ الفتح العربي لمصر ـ ملكا للسلطان.. ولم يكن للفلاحين سوى حق استئجارها أو العمل فيها. ثم حصل كبارهم ـ في زمن سلاطين المماليك ومن تلاهم ـ على حق النيابة عن السلطان في تحصيل إيجارها وأصبحوا يعرفون بـ«الملتزمين»، فكانوا يكسبون من الفارق بين ما يحصلونه من الزّراع وما يوردونه لبيت المال، إلى أن تقرر عام ١٨٥٦ ـ في عهد الوالي «محمد سعيد» ـ تصفية «نظام الالتزام» ومنح الملتزمين من المصريين حقوق الملكية الكاملة على ما كانوا يحوزونه من أراض زراعية، فشملت حق التصرف فضلًا عن حق الاستغلال.

ولأن استصلاح الأرض واستزراعها وتنمية غلتها كانت من شروط هذا التملك، فقد بذل الجيلان الأولان من ملاك تلك الأراضي مجهودا مضنيا في ذلك المجال ليؤكدوا حقهم في تملكها وفي توريثها لأعقابهم، لكن الجيل الثالث كان قد نشأ في ظل الاحتلال، وقلّت مشاركته المباشرة في تنمية ثروته التي ورث أصولها عن آبائه وأجداده في الوقت الذي تضاعف ريع تلك الثروة عشرات المرات.

وكانت السياسة التي اتبعها البريطانيون في مصر تنقسم إلى شقين: أحدهما اقتصادي يقوم على التوسع في مشروعات الري والصرف واستصلاح الأراضي والتوسع في زراعة القطن بما يكفل احتياجات مصانع النسيج البريطانية منه، ويحقق لمصر فضلًا عن ذلك أرباحا تمكنها من تسديد الديون التي اقترضها «الخديو إسماعيل» من المصارف الأوروبية، أما الشق الثاني ـ وهو اجتماعي سياسي كما أنه اقتصادي ـ فكان يقوم على ترك جانب من هذه الثروة بين يدي كبار ومتوسطي ملاك الأرض من المصريين لضمان تأييدهم لاستمرار الاحتلال، وحتى لا يعودوا إلى المشاغبة كما فعلوا أثناء الثورة العرابية، فضلا عن أن ذلك كان ضروريا لإنشاء قاعدة من مستهلكي السلع المصنّعة التي توردها المصانع البريطانية إلى مصر مقابل ما تستورده منها من مواد خام على رأسها القطن.

وهكذا تضاعف محصول القطن المصري من نحو مليونين ونصف مليون قنطار عام ١٨٨٥ إلى سبعة ملايين ونصف مليون قنطار عام ١٩١٤، وارتفع سعر القنطار من ١٢ ريالا إلى ١٩ ريالا خلال نفس الفترة وتدفق نهر من الجنيهات الذهبية ـ التي كانت حتى ذلك الحين العملة الشائعة ـ إلى أيدي وجيوب ذلك الجيل من أمراء الأرض من دون أن يبذلوا مجهودا في كسبها، وازداد اطمئنانهم تدريجيا بعد أن ابتعد شبح مصادرة الملكية الذي كان سائدا حتى نهاية العهد المملوكي، ولم تعد الضرائب ـ كما كانت الحال حتى نهاية عهد «إسماعيل» ـ تفرض طبقا لمزاج الحاكم بل أصبحت تخضع لنظام قانوني وضعته سلطة الاحتلال التي خفضت الكثير منها، فاطمأن أغنياء المصريين على أموالهم وممتلكاتهم، وكفوا عن التظاهر بالفقر خوفا من المصادرة ومن الضرائب، وأخرجوا ما كانوا يكنزونه من جنيهات ذهبية في جرار الفخار المدفونة في حوائط بيوتهم، لينفقوه على أنفسهم بعد أن أصبحت وفرة الإنفاق على المظاهر من دلائل الوجاهة الاجتماعية.

ولما كان الأجانب سادة البلاد وأصحاب النفوذ فيها، فقد اندفع أغنياء المصريين يقلدونهم في مجالات الإنفاق: من امتلاك القصور التي تبنى على طراز عهد النهضة، إلى امتلاك اليخوت التي تتسابق على سطح النيل، ومن شرب الخمر إلى المقامرة، ومن التردد على المراقص إلى اتخاذ العشيقات. ولأن إغراءات نمط الحياة الأوروبية كانت أكبر من أن يقاومها أبناء الأعيان وخاصة الذين تربوا منهم في مناخ من التزمت الخلقي والكبح الاجتماعي، فقد اندفعوا يعبون من ملذاته بشراهة، تفوق بكثير ما تعود عليه الأوروبيون الذين كانوا يمارسون أنشطة الترفيه باعتدال بحكم تعودهم عليه ويعتبرونه وسيلة لتنشيط قدرتهم على العمل والابتكار، ويخصصون له جانبا محددا من دخولهم لا يتجاوزونه إلى غيره حتى لا يتحول من ترفيه إلى تبديد.

ولأن الجيل الثالث من أبناء الأعيان المصريين لم يكن يبذل مجهودا في الحصول على نهر الجنيهات الذهبية الذي كان يتدفق بين يديه، فقد لفت اندفاعهم في إنفاقها نظر «اللورد كرومر» ـ أول ممثلي بريطانيا السياسيين في مصر بعد الاحتلال ـ فأشار في تقريره عن عام ١٩٠٠، إلى أن «الإفراط في ممارسة ألعاب القمار قد أدى إلى خراب كثيرين من أبناء الأعيان وترك غيرهم على شفا الإفلاس» وقال في تقريره عن أحوال عام ١٩٠٧، إن «شرب الخمور قد أصبح عادة سائدة بين شباب الطبقات العالية من المصريين» وعبر عن أسفه «لأن الأوروبي المعتاد على شرب الخمور قلما يفرط في ذلك بينما لا يعرف المصري الذي يبدأ في شربها لذلك حدا».

وهكذا بدأ يبرز على الخريطة الاجتماعية المصرية خلال العقدين الأخيرين من

القرن التاسع عشر، والعقود التالية، شخصية ابن الذوات الفاسد، المنحل، المتلاف، المتفرنج.. حتى لفتت نظر صعلوك مصري عظيم هو «عبد الله النديم» الذي خصص جانبًا من مقالات وأشعار ومقامات وأزجال مجلته «التنكيت والتبكيت» لشد المسخرة على هؤلاء الشبان الأثرياء المصابين بداء «الحب الأفرنجي» ـ وهو المصطلح الذي كان يستخدم للإشارة إلى مرض الزهري ـ وفضحهم والتنكيت عليهم وتبكيتهم.

وكان «عبد الله النديم» أول من رسم ـ بقلمه ـ الاسكتشات الأولية لملامح «كشكش بك» فيما كتبه ـ عام ١٨٨٢ ـ عن «زعيط بن معيط» وهو «عربي تفرنج»، كان «ابنا لأحد الفلاحين، يلعب في التراب، وينام في الوحل، ويسرح بالجاموسة» إلى أن أرسله أبوه إلى المدرسة وأرسلته الحكومة في بعثة أوروبا عاد منها، وقد «خرج على حد الجنسية وطباع النوعية».. لذلك يحتج على استقبال أبيه له بالأحضان باعتبار ذلك «من عوائد المسلمين القبيحة». ويطلب إليه أن يكتفي بأن يقول له «بون أريفي». ويثور لمجرد أن أمه طهت له الطاجن الذي كان يحبه، فأكثرت من «البتاع ده اللى بينزع.. اللى له راس في الأرض.. البتاع اللي بيدمع العين اللي اسمه.. اسمه أونيون». وإلى صورة «زعيط» أضاف «نديم» خطوطا جديدة.. بالزجل هذه المرة ـ تحول بعدها إلى «بنجر».. ذلك الذي لم يسمع تحذير الناس له من «بعجر»، فظل يقلده هو وأمثاله من الأوروبيين في ملابسهم ومأكلهم وعاداتهم فـ «طلي وش بويه/ ولبس سروال بأوية» واستبدل «العدس وبصارة البيت/ بالجنبري والكستليت» وظل يقترض من البنوك العقارية بضمان أرضه لينفق بسفه على تلك المظاهر الكاذبة إلى أن أفلس وانتقلت أطيانه هو وأمثاله إلى البنوك العقارية ليصبح «أهل البنوكا/ والأطيان/ على الأعيان.. أعيان»!

وظل «النديم» يواصل إضافة خطوطه ولمساته الفنية على صورة «بعجر بك» بما كان ينشره في مجلته «التنكيت والتبكيت» من أخبار عن الحماقات التي كان يرتكبها عمد الأرياف حين يصلون إلى المدينة ليبيعوا القطن؛ إذ كان حريصا على رصد أخبار المقاهي التي يتردد عليها عُمد البلاد الحشاشة.. وإذاعة وقائع ما يجري في «خمارات الدرجة الأولى» التي يلم بها المتمدنون منهم ممن «لا يبالون بدخول الخمارات وعلى رأسهم العمامة»، وعلى كشف الخدع التي يلجأ إليها الأوروبيون الذين يديرون تلك الأماكن لمغالطتهم في الحساب، واستدراجهم للتوقيع على صكوك بأثمان ما شربوه أو دخنوه بأسعار مضاعفة، لا تحدد على أساس ثمن السلعة بل على أساس ثروة العمدة «فمن يمتلك مائة فدان يأخذ الكباية بفرنك، ومن له خمسمائة بثلاثة فرنكات، وهكذا على حسب الثروة، من دون أن يعترض العمد على تلك المغالطة إذ كانوا يعتبرونها إعلاء من شأنهم، حتى إن بعضهم كان «يشرب كبايتين ويدفع عشرة جنيهات بحسب ما يقتضيه مقامه الجليل».

وبعد عقدين آخرين ـ وفي عام ١٨٩٩ ـ أضاف «محمد المويلحي» ـ في كتابه «حديث عيسى بن هشام» ـ خطوطًا أخرى إلى ملامح ابن الذوات الفاسد التي اكتشفها «عبد الله النديم»، ورصد التحول في عادات وتقاليد وأنماط سلوك الجيل الثالث من أبناء الكبراء والأمراء ممن فتنتهم العادات الأوروبية، فتنكروا لآبائهم وأصبحوا نسخة مشوهة من الأصل الذي يقلدونه وأخذ عليهم أنهم «يتخذون من الخليلة حليلة... ويعكفون على لعب القمار.. ويتابعون صور خيل المضمار، ولا تخلو موائدهم من صنوف الراح في الأباريق والأقداح، ولا يتراطنون إلا بلغات أجنبية، فإذا تحدثوا بالعربية، أبدلوا القاف بالكاف، ونطقوا الحاء كالهاء».

ومع تزايد إقبال هؤلاء الوارثين المتلافين على البارات والمقاهي وبيوت الدعارة وصالات ونوادي المقامرة، التي كان الإقبال عليها قاصرًا على الجاليات الأجنبية، نشط الذين يديرونها من سفلة المستوطنين الأجانب للتوسع في إنشاء المزيد منها، وتنويع عوامل الجذب التي تضمن لهم استمرار إقبال هذا النمط من الزبائن الذين لا يقلقهم الحصول على المال، بل وسائل إنفاقه بمعايشة عشقهم للمظاهر وحبهم للتفاخر، وإثارة شهواتهم الجنسية المتضخمة.

وكانت القاهرة، قد بدأت تعرف الأماكن المخصصة للترفيه على النحو الذي كان شائعًا في أوروبا، منذ افتتح نابليون «ملهى التيفولي» الذي أنشأه في حديقة الأزبكية، لكي يجد الجنود الذين صاحبوه في حملته على مصر، مكانا يرفهون فيه عن أنفسهم بعد أن حوصروا فيها، وكان يقدم مسرحيات استعراضية.

ثم أخذ هذا النوع من الملاهي ينتشر تدريجيا وخاصة بعد الاحتلال البريطاني الذي فتح أبواب مصر على مصراعيها أمام المهاجرين الأوروبيين، فنشط بعضهم في مجال إنشائها وإدارتها على نسق مشابه لمثيلاتها في أحياء باريس المتخصصة في الترفيه مثل «مورنمارتر» و«مونبرناس» فجذبت إليها ـ فضلا عن المستوطنين الأوروبيين وربما أكثر منهم ـ أعدادًا غفيره من أبناء الذوات المصريين، فازدادت عناية أصحابها بتنويع ما يقدمونه إليهم في خدمات، حتى إن بعضهم كان يرسل إلى أوروبا كل عام ـ وعلى نفقتهم الخاصة ـ كشافين محترفين يجلبون فرقا من فتيات الملاهي ليعملن كراقصات استعراض أو ساقيات أونادلات.

ولم يكن العثور على هذا النوع المتميز من الفتيات عسيرا، بل كان الاختيار بين المتزاحمات منهن على القدوم إلى مصر، هو الصعب العسير، إذ كانت سمعة أولاد الذوات المصريين، قد تعدت الحدود، وطار صيتهم في كل أحياء اللهو في المدن الأوروبية باعتبارهم نموذجا للكرم والغفلة، حتى أصبح العمل في مصر واقتناص واحد من باشاواتها ممن كانوا يوصفون في تلك الأحياء بأنهم «كائنات سمينة تحشي كروشها بالذهب» هو منتهى أمل كل غانيات أوروبا.

وحتى قبيل الحرب العالمية الأولى بسنوات قليلة، كان «ملهى السفنكس» هو أشهر وأفخم الملاهي الأوروبية في مصر. وكان يقع على الأرض التي يحتلها الآن محل «شيكوريل» في شارع ٢٦ يوليو بوسط القاهرة ـ وقد أسسته غانية أمريكية الأصل هي «كلارا وارد» التي كانت تعرف باسم «البرنسيس شيماي» ـ نسبة إلى زوجها الأول الأمير البلجيكي «جوزيف دي شيماي» ـ إذ ما كادت تصل إلى القاهرة في سياحة قصيرة، وتتعرف إلى باشاواتها السفهاء، حتى قررت البقاء لتؤسس ملهى يكون كعبة أوروبية للهو، فأثثه بأفخر الأثاث والرياش، وزينت مقاصيره بالتحف واللوحات، ومن بينها صور خليعة لها في أوضاع جنسية مثيرة، لتغريهم بقضاء سهراتهم به، وإنفاق كل الفائض لديهم من الذهب على غانياته الفاتنات اللاتي كانت تجلبهن من «برلين» و«فيينا» و«روما» و«باريس» و«بروكسل» لتشكل منهن باقة من الجمال الأنثوي، يعملن كراقصات على مسرحه أو مجالسات يسامرن زبائنه، أو نادلات يطفن بينهم في ملابس شفافه تكشف عن مفاتنهن، ويتنافس أولاد الذوات على التعاقد مع أجملهن، ليكن عشيقات لهم، كما لو كانوا ديوكًا في حلبة نقار، وهي من ألعاب المقامرة التي شاعت بينهم في تلك السنوات.

ولأن «السفنكس» أغلق أبوابه عام ١٩٠٧، حين كان «علي كامل فهمي» في السابعة من عمره، فإنه لم يكن من رواده، والغالب أنه كان أحد الأماكن التي أمضى فيها ابن خالته «عمر سلطان باشا» معظم سهراته، إذ كان تناول الطعام في مطعمه الفخم، وبين نادلاته الفاتنات من أمارات الوجاهة والثراء في جيله. أما الجيل التالي ـ ومنه علي كامل فهمي ـ فقد انتقل إلى «كازينو دي باري» الذي ورث مكانة «السفنكس» وإن لم يرث مكانه؛ إذ كان أول ملهى من هذا النوع ينشأ في «شارع عماد الدين» ـ ويحتل المكان الذي تحتله الآن «سينما ستديو مصر» ـ وقد أنشأته غانية فرنسية هي «مدام مارسيل لانجلو» التي تعاونت مع زوجها في إدارته، وكانت كما يصفها كاتب معاصر لها «سيدة بدينة قصيرة، وقوادة بارعة، ذات ذوق لا يبارى في اختيار النساء من جميع أنحاء أوروبا، وكانت تختارهن فتيات ذوات أصوات فضية، وأجسام بضة فارعة، ووجوه حسان».

ولم تكد الحرب العالمية تبدأ حتى زحف ذلك النوع من علب الليل والكباريهات وصالات الغناء والرقص من حي الأزبكية، الذي كانت تتركز فيه من قبل إلى مختلف أحياء القاهرة، وخاصة الشوارع المحيطة بالأزبكية ليجد جنود بريطانيا ومستعمراتها ـ من المقيمين والعابرين ـ أماكن يرفهون فيها عن أنفسهم، فيأكلون ويشربون ويضحكون ويسكرون ويعربدون ويتزودون ببعض متع الحياة التي يعيشون تحت سيف التهديد بفقدها في ميادين القتال الواسعة، ثم انضم إليهم ـ لأسباب مختلفة ـ عمد الأرياف وأبناء الكبراء والأمراء، الذين أقبلوا على تلك المواخير، ليتسابقوا فيما

بينهم على اكتساب الوجاهة بإنفاق عرق فلاحيهم تحت أقدام بنات الهوى ويثبتوا للأوروبيين الذين يحتلونهم ويستذلونهم، أنهم ـ على الرغم من ذلك ـ أفضل منهم، لأنهم يتفوقون عليهم في مجال الفحولة الجنسية.

ومن بين المترددين على تلك المواخير، التقط الفنان «نجيب الريحاني» (١٨٩٠ ـ ١٩٤٩) شخصية «كشكش بك» التي لم تكد تظهر على خشبه المسرح في صيف ١٩١٦ حتى حققت جماهيريه كاسحة، واخترق صيتها جدران الصالات التي كان يمثلها فيها، لينتشر في جميع أنحاء مصر، وبين كل الطبقات، حتى تلك التي لم تكن تملك من الموارد ما يتيح لها مشاهدتها على خشبة المسرح.

وكان «الريحاني» يعاني آنذاك من البطالة والإفلاس بعد أن اكتسحت بارات الحرب وكازينوهاتها وكباريهاتها كل مسارح التمثيل الجدي، فانصرف الناس عن مشاهدة عروض المسارح الكلاسيكية وأغلقت أبوابها، وسرحت ممثليها. مما اضطره إلى العمل في أحد كازينوهات الحرب، وقد وصفه فيما بعد في مذكراته، بأنه من النوع الذي لا يتفق العمل به مع كرامة الإنسان، هو كازينو «آبيه دي روز» ـ وكان يقع في المكان الذي تشغله الآن سينما «كايرو بالاس» ـ ويملكه مستوطن إيطالي هو السنيور «روزاتي». وعلى مسرح هذا الكازينو قدم «الريحاني» ـ باللغة الفرنسية ـ مسرحيات من فصل واحد، تقوم على شخصيتين من الذكور، وحشد من فتيات الاستعراض، لم يكن أحد من رواد الكازينو يهتم بها أو يحرص على متابعتها، إذ كان معظمهم يديرون ظهورهم إلى المسرح، بمجرد ارتفاع الستار ليتسامروا مع جيرانهم أو جليساتهم.

وقبل أن يستغني عنه الخواجا «روزاتي» أخذ «نجيب الريحاني» يهرش رأسه بحثا عن فكرة جديدة تغري رواد الكازينو بالمشاهدة، وتقنع الخواجة بأنه يقدم له ما يوازي الأجر اليومي الذي يحصل عليه منه، إلى أن استيقظ ذات فجر ليجد شخصية «كشكش بك» تتخلق أمامه في صورة عمدة ريفي ذي لحية شهباء وشارب كث يضع على رأسه عمامة كبيرة ويرتدي الجبة والقفطان.. فاتخذه منذ ذلك الحين ـ ولخمس سنوات تالية ـ بطلا لعدد لا يحصى من العروض المسرحية، تدور كلها حول محور واحد وتبدأ من نفس النقطة: إذ يغادر «كشكش بك» عُمدة «كفر البلاص» قريته بصحبة تابعه المخلص «زعرب» شيخ خفراء الكفر إلى «القاهرة» أو «الإسكندرية» لبيع القطن. ومن اللحظة الأولى تذهله المدينة الكبيرة باتساع شوارعها وزحامها الخانق ولهاث الحياة ومظاهر التحضر فيها، ويكتشف المحتالون من أبناء المدينة «الملحلحين» ذوي الخبرة الاجتماعية الواسعة مدى سذاجته وقلة خبرته وتغريهم أوراق النقد الكثيرة التي باع بها قطنه، وحشى بها جيب قفطانه فيحتاطون به ويقودونه

إلى كل الأماكن التي تتيح لهم استلاب أمواله، من المطاعم إلى صالات الغناء، ومن ميادين سباق الخيل وصيد الحمام إلى الكباريهات وبيوت البغاء وصالات القمار، ويعابثون رغبته العارمة في التظاهر وسعيه الدائب للتعرف إلى الفئات العليا، وشهواته الجنسية التي تنتعظ بقوة، حين يرى نساء المدينة السافرات اللواتى يتضوعن في كل مكان فتنة وإغراء.. فيفقد الرجل وقاره ويطير ثمن القطن من جيب قفطانه إلى جيوب هؤلاء النصابين ويعود إلى «كفر البلاص» مفلسا إلا من الندم.

وذهل «الريحاني» للاحتفاء الذي استقبل به رواد كازينو «آبيه دي روز» أول عروض «كشكش بك»، وكان اسكتشا قصيرا لا تزيد مدة عرضه على ثلث ساعة بعنوان «تعالي لي يا بطة» إذ كان يعتبره - كما قال فيما بعد في مذكراته - «مثلا أعلى للسخافة» ويتوقع «أن يلعن المتفرجون خاش المؤلف» وازداد ذهوله من النجاح المضطرد الذي حققته العروض التالية، مما دفعه إلى الارتقاء بها من الاسكتشات القصيرة إلى مسرحية الفصل الواحد ثم مسرحية الفصول الثلاثة، وشجع ذلك «السنيور روزاتي» على الامتداد بعروضها الأولى من أسبوع إلى أسبوعين، ثم إلى شهر من دون أن تفتر حماسة المتفرجين لرؤيتها.

وبفضل هذا النجاح المذهل انتقل «الريحاني» من ممثل ثانوي في فرقة كازينو «آبيه دي روز» إلى بطل للفرقة وارتفع أجره - خلال شهور قليلة - من ثلاثة ريالات في الليلة إلى تسعة ريالات فضلا عن خمسة بالمائة من صافي الإيراد. وتنافس أصحاب كازينوهات الحرب على إغرائه بالعمل معهم، ونجح المسيو «كينجس» صاحب «مسرح الرينسانس» - الذي أنشأه في المكان الذي يشغله الآن محل شملا بشارع ٢٦ يوليو - في احتكار جهوده ورفع أجره اليومي إلى أربعة جنيهات فتبعه جمهوره إلى المسرح الجديد.

وخلال عام واحد كان اسم «كشكش بك» - كما يضيف «الريحاني» في مذكراته - قد «أصبح على كل لسان في الدور والقصور والميادين والأزقة ولم يعد أحد في مصر كلها - قاصيها ودانيها - لم يردد هذا الاسم بل ويبتسم حين يطرق سمعه».

لم يخترع «نجيب الريحاني» شخصية «كشكش بك»، كما لم يخترع كل من «أمين صدقي» و«بديع خيري» أنماط السلوك وأشكال الصراع وتفاصيل الأحداث التي كان عُمدة «كفر البلاص» محورا لها في عشرات المسرحيات التي قاما بوضعها بعد أن تفرغ «الريحاني» للتمثيل وترك لهما على التعاقب مهمة التأليف، إذ كان «كشكش بك» نمطا إنسانيا شائعا وملحوظا وشديد الحضور على الخريطة الاجتماعية لمصر قبل أن يعيد «الريحاني» اكتشاف الطبعة الثالثة منه بعد الطبعة الأولى التي قدمها «النديم»، والطبعة الثانية التي قدمها «المويلحي» وينتقل به من مقاعد الذين يشاهدون عروضه المسرحية في كازينو «آبيه دي زور» ليتقمصه على خشبة المسرح.

وكان منطقيا وقد أصبح جمهور «كشكش بك» يضم الأجانب والوطنيين أن يعوج لسانه ليرطن بكلمات هي خليط من اللغات العربية واليونانية والإنجليزية والفرنسية، وأن يتحول إلى مدرسة مسرحية عرفت بـ«الفرانكو ـ آراب» وأن ينتقل من الواقع الاجتماعي إلى خشبة المسرح المجاور لـ«كازينو دي باري» ـ حيث كان «الريحاني» يقدمه ـ إلى غيره من كباريهات المدينة، بعد أن أغرى نجاحه الساحق آخرين من الممثلين بتقليد عمدة «كفر البلاص»، فأصبح هناك عمدة «كفر رحرح» وعمدة «كفر البقرة» ثم ما لبث أن تحول إلى أحد رموز العصر فانتشرت مستنسخات لتمثال من الجبس لشخصية «كشكش بك» كانت مئات الآلاف منها تباع في أسواق القرى والمدن ليلعب بها أطفال ذلك الزمان.

ولو أن «علي كامل فهمي» وأضرابه من أبناء الكبراء والأمراء في ذلك العهد كانوا يحسنون فهم نصوص مسرحيات «الفرانكو ـ آراب» لما ضحكوا وهم يشاهدونها، ولما اعتبروا «كشكش بك» غريبا عنهم؛ إذ كان في الواقع الطبعة الريفية لنفس النمط الذين كانوا هم طبعته الحضرية، ولو أنهم قرءوا بوعي خواطر الأجانب المحليين الذين كانوا يشاركونهم الضحك على التنويعات المختلفة من شخصية «كشكش بك» لأدركوا أنهم يسخرون منهم ويعتبرونهم طبقة من «البلاليص» و«البقر» لا دور لهم في الحياة سوى تجميع ما لم ينهبه الأوروبيون من عرق الفلاحين، ليلقوا به تحت أقدام الغواني الأوروبيات، أما وهؤلاء الأجانب يحتالون عليهم في الصباح، فقد كان منطقيا أن يرفهوا عن أنفسهم بمشاهدتهم على خشبة المسرح ـ في الليل ـ وهم يضربون على القفا.. ويرفسون بالنعال!



والحقيقة أن «علي كامل فهمي» لم يكد يتسلم أطيانه وإيرادات سنوات الوصاية حتى دخل مسلحا بهما إلى مجتمع الكشاكش المصريين، ليحدث فيه قلقا واسعا بعد أن ارتفع بمستوى الإنفاق على ضرورات الوجاهة الاجتماعية إلى ذرى غير مسبوقة، إذ لم يكتف ـ كمن سبقوه من كشاكش ذلك الزمن ـ بخواتم البرلنت والزمرد والياقوت يضعها في أصابعه، بل واتخذ لقمصانه أزرارا من اللؤلؤ، ولرباط عنقه مشبكا من البرلنت، ووضع في عروة جاكتته ساعة صغيرة قيل إنها كلفته خمسمائة جنيه وارتفع ثمنها في روايات أخرى إلى ألفي جنيه.

ومع أن ظهوره بهذا الشكل في البارات وصالات الغناء وكباريهات «شارع عماد الدين» كان كفيلا بأن يحقق رغبته العارمة في أن يلفت إليه كل الأنظار، وبأن يدفع كل الراقصات إلى التنافس فيما بينهن لكي يحظين بشرف دعوتهن إلى مائدته، واثقات

من أنه سينفق على الجلسة ضعف ما ينفق غيره، إلا أنه لم يكتف بذلك إذ كان حريصا على أن يهزم منافسيه بالضربة القاضية التي تعجزهم عن محاولة اللحاق به.

وكانت تقاليد تلك الأماكن تقضي بأن تجالس كل راقصة من راقصاته العديدات الزبون الذي يختارها لمؤانسته، فإذا طلبت كأسا من نوع معين من الخمر جاءتها دستة من زجاجاته في قفص من الجريد مقسم إلى اثنتي عشرة عينا بعدد زجاجاته، فإذا ما وصل في زفَّة من الخدم لم يفتح رئيسهم منه إلا زجاجة يملأ منها كأس الراقصة وقدح مضيفها ثم تعود الزفة بالقفص بعد أن يضاف ثمنه كاملا على حساب الزبون، ولأن وحدة الحساب هي «الدستة»، فقد كانت البيرة ـ باعتبارها أرخص أنواع الخمور ـ هي المشروب التقليدي لجلسات المؤانسة، إلى أن ظهر «علي كامل فهمي» في الساحة، فإذا به يحدث انقلابا هائلا في مستوى الإنفاق على تلك الجلسات فيغير وحدة الطلب ـ في قفزة واحدة ـ من أقفاص «البيرة» إلى أقفاص «الويسكي»، ويغير وحدة «البقشيش» الذي يدفعه لمن يزفون القفص، من «الريال» إلى «الجنيه» ثم إلى خمسة جنيهات، ولا يكتفي بأنيسة واحدة، ولا بصالة واحدة في الليلة الواحدة، بل يظل يتنقل بين صالات عماد الدين والأزبكية حريصا على أن يصحب معه حاشية من الأتباع والأصدقاء، يلفت عددها إليه الأنظار، ويسرق الكاميرا من كل رواد الماخور، يتصدرهم دائما «سعيد العناني».. يأكلون ويشربون هم وجليساتهم على حساب الشاب الذي كان ينافس أنداده بقوة على لقب «كشكش مصر الوحيد».



علي فهمي بك في مطلع شبابه

ومع أن كل الكشاكش المصريين كانوا يعبرون عن حالة مراهقة قومية نجمت عن شعور غلاب بالنقص تجاه الأوروبيين عموما والمحتلين خصوصا، تقود أصحابها إلى محاولة إثبات ذواتهم كطبقة راقية مؤهلة لكي تتساوى

بهؤلاء الأوروبيين واختارت الميدان الخطأ لإثبات ذلك، إلا أن «علي كامل فهمي» كان يتميز بينهم بأنه كان مراهقا فعلا من الناحية السيكلوجية، فقد دخل الميدان وهو لم يكمل عامه السابع عشر. ودلت محاولاته لإثبات وجاهته ورجولته على روح طفولية غالبة. وأثارت مشاكل بينه وبين كثيرين، فقد اشترى زورقا بخاريا تصل قوته إلى ٤٥ حصانا، ورغم تحذير كثيرين له بأنه لا يصلح للسير في النيل بسبب قوته غير العادية، فقد دفع عدة آلاف من الجنيهات ثمنا له؛ إذ كان يريد أن يتميز عن غيره بتملك هذا الزورق غير العادي الذي ما كاد يدور به على سطح النيل حول الجزيرة حتى أثار رعب سكان العائمات التي كانت ترسو على شاطئها، بسبب ما أحدثه بها من اهتزازات عنيفة أدت إلى سقوط قطع الأثاث، ولأن معظمهم كانوا من وجهاء القوم، فقد ثاروا عليه إلى أن اضطروه إلى الكف عن المرور بزورقه بالقرب من عائماتهم.

ولأن استخدام السيارات لم يكن شائعا في مصر آنذاك، فقد كانت حيازتها من علامات الوجاهة التي لم يكن ممكنا أن تفوته. لكنه لم يكتف بالبحث عن أنواعها النادرة ولا بتغيير طرازها كل عام، بل كان يقود سيارته بسرعة شديدة في شوارع المدينة، فيلفت انتباه المارة ويربك المرور الذي كان يزدحم أيامها بالعربات التي تجرها الخيول، وبالمارة الذين يمتطون ظهور الحمير، ويثير الذعر بين بسطاء المصريين الذين كانوا يرتبكون لمجرد رؤية سيارة.

ولما كانت الإمارة هي ذروة الوجاهة في ذلك الزمان فقد فتنه لقب «أمير الشباب» الذي أطلقه عليه بعض الصحفيين الذين كانوا يعيشون على عطاياه، ويبتزونه أحيانا بنشر فضائحه، فقرر أن يتخذ لنفسه رسوم الأمراء وتقاليدهم، ووكل أحد كبار الخطاطين بأن يكتب له «طُغُراء» باسمه ـ وهو ما يعرف الآن بـ«اللوجو» ـ ليطبعها بعد ذلك بالذهب على كل ما يملكه: من السيارة إلى الإسطبل، ومن الزورق إلى الجياد التي يملكها، ومن مبسم السيجارة المطعَّم بالياقوت إلى أواني الطعام الذهبية، ومن ملابس الخدم في قصره إلى المناديل التي يضعها في جيبه، ومن علبة السجائر الذهبية إلى الجواهر الثمينة التي كان يهديها إلى عشيقاته!

وكان لابد وأن يستكمل متطلبات الإمارة فينشئ لنفسه قصرًا يزدري قصور الأمراء الذي كان أغنى من بعضهم، فقرر أن يترك القصر الذي بناه الوالد الراحل في باب اللوق ـ حيث لا يزال الشارع يحمل اسمه إلى اليوم ـ لينشئ قصرًا آخر على النيل في «جزيرة الزمالك» فيصبح جارًا للصفوة الاجتماعية من رجال الوكالة البريطانية والوزراء والأعيان. فاشترى الأرض بأربعة عشر ألفًا من الجنيهات وهي لا تساوي أكثر من أربعة آلاف، وعرض عليه أحد مقاولي البياض من المصريين أن يتولى زخرفة القصر بستة آلاف فرفض، وأسند العملية إلى مقاول إيطالي تقاضى ثمنا لها

ثلاثة عشر ألفا من الجنيهات، وتكلف بناء القصر ـ وهو المعروف الآن بقصر «عائشة فهمي» نسبة إلى شقيقته التي ورثته عنه ـ مائة ألف جنيه بزيادة قدرها ثمانون ألفا على تكلفته الحقيقية، ذهبت جميعها إلى جيوب الحاشية والسماسرة الذين كانوا يحيطون به.

وكما أنه دخل بورصة المسامرة مزايدا على أسعار جلسات المؤانسة لكي ينفرد وحده بالساحة، فقد دخل بورصة العشق مزايدا على الصعود تحقيقا للهدف نفسه.

والحقيقة أن جولاته في ملاهي «شارع عماد الدين» و«الأزبكية» كانت أشبه بفترة الانتشار التي يلجأ إليها الفنانون في زماننا. فلم تطل إقامته فيها، إذ لم تكن تضم المستوى الرفيع الذي ينشده على صعيد العشق، لذلك اكتفى منها بالمؤانسة وبما حققه من شهرة وانتشار لمع معها اسمه في مجتمع الكشاكش المصريين، لذلك كان منطقيا أن يزحف من تلك المناطق إلى الفنادق الكبرى حيث سبقته شهرته المدوية باعتباره «ثريا أمثل» ينافس حاتم الطائي في الكرم، ويبحث عن التفرد في لذائذه ومسراته، ويتوق إلى أرقى مستويات العشق.. إلى أجساد نساء المستعمرين، اللواتي يتوهمن ويتوهم رجالهن أنهن أنقى دما، وأرقى عنصرا، ويأنفن من ملامسة أجساد المصريين، بينما يستبيح جنودهم أعراض المصريات ويطئوهن بلا خجل!

وكانت سوق الرقيق الأبيض قد عرفت الأوروبيات من بنات الهوى قبل الحرب، إذ كانت مصر مجتمعا مفتوحا أمام المهاجرين، فلم تكد الحرب تنشب حتى ازدحمت بآلاف من مهاجري الأرمن واليهود الذين فروا إليها من ويلات ميادين القتال. وما كادوا يستقرون في مخيمات الإيواء، حتى دفع فقرهم ببناتهم وزوجاتهم إلى سوق الهوى فاتسع نشاطه وانقسم جغرافيا إلى أسواق شعبية تضم البغايا الوطنيات اللواتي توزعن بين أحياء «الفجالة» و«باب الشعرية» و«باب البحر» و«شبرا»، وأسواق أخرى تضم البغايا الأجنبيات وتقع في «شارع كامل» ـ الجمهورية الآن ـ و«عماد الدين» و«التوفيقية» و«معروف».

وما كاد اسم «علي كامل فهمي» يظهر في هذا السوق حتى أحدث الأثر نفسه الذي أحدثه ظهوره في بورصة المؤانسة، فارتفع مرتب العشيقة إلى ألف جنيه شهريا غير هدايا ثمينة من الملابس الفاخرة والمجوهرات الغالية كان يقدمها لحبيبة القلب في المناسبات وأحيانا من دون مناسبة، ويختارها من أحدث ما وصل إلى القاهرة من مبتكرات أرقى معارض المجوهرات في أوروبا،فضلا عن برامج للسهرات والرحلات البحرية والنهرية والصحراوية كانت تتكلف الكثير، إذ لم يكن يكتفي برفيقة واحدة أو يطيل علاقته برفيقاته.



وما لبث الأسلوب الذي يمارس به حياته أن أثار قلق شقيقاته وبقية أفراد أسرته الذين تصوروا أن الوسيلة الوحيدة للحيلولة دون مزيد من انحداره في هذا الطريق هو تزويجه، واقتنع هو بالفكرة خاصة عندما وقع اختيار الأسرة على فتاة من أسرة كريمة هي «منيرة» ابنة اللواء «إسماعيل سرهنك باشا» أحد كبار ضباط البحرية المصرية، وعديل «سعد زغلول» باشا ـ الوزير الأسبق والوكيل المنتخب للجمعية التشريعية التي كانت معطلة منذ نشبت الحرب ـ ووافقت أسرة العروس ـ بعد تردد شديد ـ على الخطبة.. واشترطت أن يكف عن سلوكه المتهتك الذي كان مثار الأقاويل.

وقبل هو الشرط، وذهب إلى قصر والد العروس ليقدم لها الشبكة على رأس موكب من ٢٠ خادما يرتدي كل منهم بذلة «ردنجوت» ويحمل صندوقا من الفضة فيه بعض المجوهرات، لكنه لم يلتزم بما تعهد به؛ إذ لم تكد تمر أيام على الخطبة حتى شاهده بعض أقارب العروس وهو يحمل في سيارته إحدى ممثلات مسرح «نجيب الريحاني» فثارت الأسرة وقررت فسخ الخطبة!

وكان تأثير فسخ الخطبة عليه قويا على نحو لم يكن يتصوره أحد. بل واعتبره بعض الذين أرَّخوا لسيرته أحد أهم أسباب وقوعه في شباك «ماجي ميلر». ويبدو أنه قد عزَّ عليه أن يرفض أحد مصاهرته وهو أغنى شباب جيله وأكثرهم وجاهه، فرفض كل محاولات أسرته للبحث عن زوجة أخرى من بين بنات الأسر الكبيرة الأقل تزمتا من أسرة «سرهنك»، واندفع في الطريق نفسه، وأخذ يتنقل بين أحضان عشيقاته الأوروبيات ويواصل الإنفاق عليهن بجنون.

وفي تلك الفترة تعلق بممثلة ناشئة، لمعت بعد ذلك هي «فاطمة رشدي» التي تقول في مذكراتها، إنه أغرم بها غراما عنيفا وعرض على أمها أن يتزوج منها على أن يدفع لها صداقًا قدره أربعة آلاف جنيه، ورحلة إلى «سويسرا» تتعلم فيها ما فاتها تعلمه في مصر من لغات وعلوم حديثة، ولكن أستاذها المخرج الكبير «عزيز عيد» ـ الذي كان يرغب في الزواج منها ـ نجح في معالجة الموقف فكف عن مطاردتها.

وظلت حماقاته المالية والاجتماعية تتصاعد إلى أن فكّرت أسرته جديًّا في رفع دعوى قضائية للحجر عليه باعتباره سفيها وبدءوا يجمعون أدلة على سفهه.

وما أن وصلت أنباء ذلك إلى «علي كامل فهمي» حتى أسرع إلى تابعه «سعيد العناني» يطلب مشورته. وأثبت «العناني» أنه ذو مواهب متعددة، وأنه ضليع في حل المشكلات، كما هو ضليع في تسهيل سبل الشهوات؛ إذ رسم خطة كاملة للخروج من المأزق، تقوم على تجميع دلائل مضادة يثبت بها أنه شاب رشيد وعاقل بل وتقي كذلك، ينفق أمواله في سبيل الخير. وبدأ «علي فهمي» تنفيذ الخطة بالتحاقه بالعمل



فبراير ١٩٢١: السلطان فؤاد يضع حجر الأساس لمستشفى أمراض العيون في «آبا الوقف».. وقد وقف أمامه، وهو يحمل أدوات البناء علي بك فهمي الذي تبرع بنفقات إنشائها

كمترجم شرف بالقنصلية الفرنسية بالقاهرة، فأصبح له عمل معروف أمام الناس بصرف النظر عن أنه لم يكن يتقاضى عنه أجرا أو يمارس من واجباته شيئا.

وأعلن عن تبرعه بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه سنويا للإنفاق على تعليم عدد من الطلبة المصريين الذين يدرسون بأوروبا باسم «البعثة الفهيمية»، كما تبرع بقطعة من الأرض ليبنى عليها مسجدا ومستشفى لأمراض العيون بأملاكه في «آبا الوقف».

وانتهز فرصة زيارة «السلطان فؤاد» إلى الصعيد في فبراير ١٩٢١ ليلتمس منه أن يشرّفه بزيارته في بلده،ليضع بيده الكريمة حجر الأساس للمستشفى والمسجد، وعندما وافق السلطان شق «علي كامل فهمي» شارعا واسعا من شاطئ النيل عند «مغاغة» ـ حيث رست الباخرة التي كانت تقل السلطان ـ إلى مكان الاحتفال في «آبا الوقف» ونصب على جانبيه الأعمدة ورفع عليها الأعلام، وأقام أقواس النصر، ونصب سرادقا ضخما ألقيت فيه خطب الترحيب.

وانتهز أمير الشباب الفرصة ليرد اللطمة لأقاربه الذين كانوا يخططون للحجر عليه،

فأعلن أنه سيوقف بعد وفاته ثلاثمائة فدان من أملاكه على الأعمال الخيرية، وقدم وثيقة الوقفية إلى السلطان ليوقع عليها باعتباره شاهدا، ولكنه لم يتخذ الإجراءات الرسمية لتسجيل الوثيقة شرعيا لتظل سيفا مشهرًا في وجوه أقاربه يتهددهم بالحرمان من الميراث إذا ما فكروا في طلب الحجر عليه إذا تدخلوا في شئونه.

وهكذا وبفضل مشورة «العناني» خرج «علي كامل فهمي» من المأزق فلم ينج من الحجر عليه فحسب، بل وتبارت الصحف في مدحه باعتباره نموذجا لتأثير النهضة المصرية الأخيرة ـ ثورة ١٩١٩ ـ على أبناء الأمراء والكبراء الذين قرروا أن ينفقوا أموالهم في سبيل نهضة بلادهم بدلًا من تبديدها فيما لا يفيد أو إنفاقها على ما يضر بصحتهم ويسيء إلى سمعة أوطانهم، وفضلا عن ذلك، فقد وجد ذريعة لكي يدعي في الأوساط الأوروبية أنه دبلوماسي في السفارة الفرنسية، ومنحه «السلطان فؤاد» رتبة البيكوية من الدرجة الأولى، فأصبح يعرف باسم «البرنس علي بك كامل فهمي».

وعلى عكس ما قالته الصحف فإن شيئا من ذلك لم يكن قد حدث؛ إذ كان التأثير الوحيد الذي أحدثته ثورة ١٩١٩ في نفس «علي كامل فهمي» هو ضيقه الشديد لأن المواجهة بين الثوار وقوات الاحتلال، كانت قد اضطرت أصحاب البارات والكباريهات لإغلاقها مراعاة للشعور العام، أو توقيًا من هجمات الرعاع.

والحقيقة أنه كان لا يزال ينافس بقوة على لقب «كشكش بك» لذلك لم يحل انشغاله بمواجهة مؤامرة الحجر عليه دون اهتمامه بالمرأة الفرنسية الجذابة التي سيضيفها المسيو «ألبير موصيري» بفندق «سميراميس» وما لبثت عيونه أن جاءته بتفاصيل ما جرى أثناء زيارتها السابقة إلى مصر، وبالصراع الذي دار بين «شريف باشا» وابن خالته «عمر باشا سلطان» حولها، وبالمكانة الرفيعة التي تحتلها في المجتمع الباريسي، فشغفته بقوة وبدا له أن الحصول عليها هو الذي سيتوج مكانته في دنيا العشق، ويحقق له الانتصار النهائي على كل الكشاكش المصريين.

ومع أن صغر سنه ووسامته وما كان يبدو عليه من مظاهر الثراء، وما كان يبديه من مظاهر التعلق بها، قد جذبت «ماجي ميلر» إليه إلا أن الأنباء التي وصلتها عنه من أوساط بنات الهوى الأوروبيات في القاهرة جعلتها تتردد في الاستجابة لمغازلاته، صحيح أن هذه الأنباء قد بالغت في تقدير ثروته مما جعلتها تطمئن من هذه الناحية، إلا أن وكالات الأنباء العاطفية قد أذاعت أيضا أنباء تدعو لعدم الاطمئنان، فقد قيل لها إن الشاب رغم ثرائه البالغ من نوع الرجال «البنج بنج»، فهو يتظاهر بالكرم مع جميع النساء الفاتنات اللواتي يلتقي بهن، ويغرقهن بهداياه.. ويقدم إليهن جواهر كريمة وحليًا ثمينة، لكنه مايكاد يدخل معهن في علاقة غرام حتى يستغل صلته بهن

لكي يسترد كل هداياه، بالحيلة أو بالقوة، وبذلك يخرجن من علاقتهن به وقد فقدن كل ما أهداه إليهن، وأحيانا ما أهداه إليهن آخرون مع العشاق.

وكانت هذه الأنباء هي التي جعلت «ماجي ميلر» تهرب منه وتتحايل عليه فتتظاهر بأنها قبلت الدعوة إلى العشاء الذي أقامه تكريمًا لها وتحدد له موعدا كانت تعلم أنها ستكون فيه على ظهر الباخرة التي أقلتها لبلادها.

ولعلها كانت تثق بأنه سوف يشد الرحال خلفها.

وهو ما فعله بعد شهرين.

الفصل الرابع

رحلة صيد شرقية في غابة أوروبية



«.. وهكذا أخذ الجيل الجديد من الشبان المصريين يتلفتون حولهم بحثا عن نموذج أنثوي جديد يحقق لهم حلمهم الرومانتيكي بامرأة تتبادل معهم الحب ولا تكتفى بمجرد الاستجابة السلبية لرغبتهم فيها، بل ترغبهم كما يرغبونها، وتطلبهم كما يطلبونها.. وتشاركهم كل ساعات حياتهم وليس مجرد لحظات اللقاء في الفراش».



المطربة «بَمبَة كشَّر» نموذج الجمال الأنثوي في بداية القرن الماضي



مدخل غابة بولونيا في باريس



عندما وصل «علي كامل فهمي» بك إلى باريس في أوائل مايو ١٩٢٢، كانت «ماجي» قد عادت إلى صديقها المليونير الشيلي.. ومع أنهما كانا قد جددا عقد العشق بنفس شروطه السابقة، إلا أن ما نشب بينهما من خلافات أدت إلى إيقاف العمل بالعقد، وما تجدد منها بعد استئناف العمل به لم يمض من دون أثر، صحيح أنها عادت لتقيم معه ولتصاحبه في الفنادق وصالات الرقص والقمار وساحات سباق الخيل، وظلت ـ كذلك ـ تحتفظ بلقب عشيقته الرسمية إلا أن فتورا تدريجيا أخذ يلحق علاقتهما، فلم يعد «أستوريكا» يتورع عن الظهور علنا مع صديقاته من السمراوات البدينات وأصبحت «ماجي» أكثر إقبالًا على الحبيب الاحتياطي رقم واحد في حياتها آنذاك، وهو «بارون» فرنسي كان قد شغف بها فأشعل غيرة زوجته التي شنت عليهما حملة دعائية واسعة اضطرت البارون إلى الانفصال عن زوجته وشراء حظائر لخيوله إلى جوار حظائر «ماجي» حيث كان ينتظرها كل صباح لكي يتنزها معا على ظهور الخيل.

وكانت ماجي تترجل عن جوادها ذات صباح عائدة من نزهتها في غابة «بولونيا» حين وجدت نفسها فجأة أمام الشاب الذي غادرت مصر دون أن تحضر حفل العشاء الفخم الذي أقامه تكريما لها.. وكان بصحبته صحفي مصري، أصبح بعد ذلك شهيرا جدا هو «محمود أبو الفتح» - مراسل جريدة «الأهرام» في باريس ـ الذي كان صديقه ودليله إلى مدينة النور التي لم يكن «علي فهمي» قد تعرف إليها بشكل كاف.. أما هي فكانت بصحبة الحبيب الاحتياطي رقم واحد، لذلك اكتفت بتبادل تحية سريعة معه

ثم ابتعدت عنه بصحبة البارون الذي لم يدرك أن هذه المقابلة العابرة، سوف تفقده مرتبة العشيق الاحتياطي رقم واحد ليحل محله فيها ذلك الشاب المصري الذي بدا له مهذبا وشديد الخجل.

ولم يقنع الأمير الشرقي بتلك التحية العابرة ولم يعتبرها نهاية المطاف، إذ كان قد عزم على أن يحوزها لنفسه ويعود بها إلى مصر ليتفاخر على بقية الكشاكش المصريين، بحيازته لامرأة إفرنجية من النوع الأصلي المستورد رأسا من أوروبا، ويرد على شماتتهم فيه وسخريتهم منه حين توافدوا على الحفلة التي أقامها تكريما لها فلم يجدوها.

وما لبث أن أثبت لها أن نفوذه في باريس، لا يقل عن نفوذه في فندق «سميراميس» بالقاهرة، عندما تلقت ـ خلال الأيام التالية ـ أكثر من دعوة لتناول الشاي أو العشاء من صديقات لها، فكانت تجد «علي كامل فهمي» دائما بين المدعوين. ولم يكن الأمر في حاجة إلى ذكاء لكي تدرك أن تلك المصادفات جميعها من ترتيبه، بل ولعله كان صاحب الدعوة الحقيقي الذي يدفع كل نفقاتها من جيبه.

وحتى تلك اللحظة لم تكن «ماجي» قد قررت حسم أمر علاقتها بالمليونير الشيلي، إذ كان لا يزال يفي بتعهداته المالية بسخاء على الرغم من فتور علاقتهما. وكانت لا تزال تتردد في التوقيع على العقد الذي يعرضه عليها البارون خوفا من تأثير انفصاله عن زوجته على مستقبل التعاقد بينهما.

وزاد ظهور الأمير «علي كامل فهمي» على الساحة من حيرتها، إذ بدا أكثر الجميع إغراء لها، فقد كان أصغر من العاشقين الآخرين بكثير، بل وكان أصغر منها هي نفسها بعشر سنوات. ثم إنه كان أكثر سخاء منهما على نحو يجعله ـ من هذه الناحية ـ خارج المنافسة معهما.. والأهم من هذا كله أنه كان يبدو عاشقا من نوع لم يتكرر في حياتها منذ عرفت ـ وهي مراهقة ساذجة ذات ضفيرتين ـ أول عشاقها ووالد طفلتها «أندريه الأول» فهو محب مشبوب العواطف، يتصرف تجاهها بشكل بالغ الرقة والتهذيب، كأن شيئا لا يعنيه في الحياة سوى رضاها عنه.

ولعله كان أقرب عشاقها إلى شخصية «البرنس أوف ويلز» فقد كان مثله يصغرها بعدة سنوات وكان مثله أميرًا وهو لقب يندر أن يتكرر في قائمة عشاق أمثالها من بنات الهوى، مما يجعل حيازتها



محمود أفندي أبو الفتح المستشار الإعلامي والأوروبي لأمير الشباب

له ارتفاعا بمكانتها بينهن، خاصة وأنه كان متاحا لها أكثر مما كان ولي عهد بريطانيا الذي انقطعت علاقتها به منذ انتهاء الحرب.

صحيح أنها كانت تعلم أن «البرنس أوف مغاغة» ليس وليًا للعهد، وأن احتمال صعوده إلى العرش ليس واردًا إلا أن كل الذين يحيطون بها كانوا يصدقون زعمه بأنه أمير، ويتصرفون معه على هذا الأساس وكان هو ينفق بسخاء لا يقدر عليه كثيرون من الأمراء الحقيقيين.. والأهم من ذلك كله أنه كان أميرا شرقيا ينتمي إلى تلك البلاد البعيدة، التي تحيط بها في عقول الأوروبيين غلالات من الغموض والسحر نشرها المستشرقون والمبشرون والرحالة الأجانب الذين جابوا في فيافيها وعادوا ليرسموا لها صورا خلطت بين الحقيقة والخيال، وجعلتها طبعة من «ألف ليلة وليلة» التي كانت ترجماتها إلى اللغات الأوروبية تتوالى منذ القرن السابع عشر.

وكانت أنباء المصريين والعرب والشرقيين عموما تتصدر ـ آنذاك ـ صفحات الصحف الأوروبية منذ شق عرب المشرق عصا الطاعة على الأتراك، وانضموا إلى الحلفاء أثناء الحرب وثار عرب المغرب ضد المحتلين من الإيطاليين في ليبيا والأسبان والفرنسيين في المغرب، ثم شدت وفود من زعمائهم رحالها إلى باريس لتطلب الاستقلال من مؤتمر الصلح الذي انعقد لترتيب أوضاع العالم بعد الهدنة، فلفتت أزياؤهم الغريبة نظر الأوروبيين، مما دفع بعض بيوت الأزياء الباريسية لاستلهام خطوطها فأصبحت إحدى «موضات» العشرينيات.

لكن الانطباعات السريعة التي كانت «ماجي» قد كونتها عن شخصية «علي كامل فهمي» خلال الشهرين اللذين عرفته فيهما في القاهرة،وماكانت قد سمعته عنه أثناءها ثم أعيد على سمعها في باريس، جعلها تتردد من جديد في الاستجابة لمغازلاته، إذ أخذت مراصد العشق الباريسية تحذرها منه وتؤكد لها أن تهذيبه المبالغ فيه ورقته الزائدة على الحد، هما مجرد طلاء خارجي يخفي وراءه حقيقته كرجل من نوع «البنج بونج» يعطي باليمين ويسترد ما يعطيه باليسار.. لا يمكن الإمساك به أو الاطمئنان إليه، فهو يتظاهر بالعبودية وهدفه أن يكون السيد ويتمسكن حتى يتمكن، وآنذاك يسيطر، لذلك احتفظت بمسافة كانت تظنها ملائمة بينها وبينه، فلم تمانع في شهود الحفلات التي كانت تعلم أنه ينظمها خصيصا لكي يلتقيا ولم تجد بأسا في أن ترقص معه التانجو، واستقبلت بسرور ورضا ما كان يقدمه إليها من هدايا وما يرسله إلى منزلها من زهور.. لكنها لم تتجاوز ذلك إلى غيره.

ولم يكن «علي كامل فهمي» قد ضيع وقته عبثا في الفترة بين وصوله إلى مدينة النور وعثوره عليها، إذ لاحظت بشيء من القلق أنه كان يصطحب بعض فتيات الملاهي إلى الحفلات التي كان يتحايل لإقامتها حتى يلتقيا فيها، كما أبدى اهتماما

ـ يثير الضيق ـ بشقيقتها «إيفون» ـ وكانت تصغرها بأربع سنوات ـ ومع أنه كان ـ على الرغم من ذلك ـ حريصا على أن يثبت لها عدم اكتراثه بأية امرأة أخرى طالما هي تجلس إليه أو ترقص معه، إلا أن درجة قلقها قد تزايدت حين بدأت واحدة منهن هي «بوزيني» تلازمه، ثم ما لبثت أن أقامت معه، فنشبت حرب خفية بين المرأتين للاستحواذ على اهتمامه، وبالتالي هداياه، أثبت «علي كامل فهمي» ذكاءه حين أخذ يشعل أوارها بتمييز إحداهما على الأخرى فيما يهديه إليهما، ثم يعود فيميز الثانية عن الأولى.

ولم تتنبه «ماجي» ـ في حومة صراعها مع «بوزيني» ـ إلى أنها أخذت تلغي تدريجيا المسافة التي كانت قد قررت أن تظل قائمة بينها وبين الرجل «البنج بونج» بل واعتبرت ما يروج عن أسلوبه في التعامل مع النساء مجرد شائعات ترددها منافساتها لكي تدفعنها للانسحاب من الحلبة، بعد أن أدركن مدى تعلقه بها، وحين دب الخلاف بينه وبين «بوزيني» ـ بعد ذلك بأسابيع ـ وأشيع أنه ضربها واسترد منها ما كان قد قدمه لها من هدايا، لم تدع لها سعادتها بالانتصار على غريمتها فرصة للاهتمام بما قيل.

والحقيقة أن الدلائل على سخونة عواطف الأمير الشرقي أخذت تتوالى على نحو كان يتطلب قوة غير عادية لكي تستطيع «ماجي» المقاومة.. إذ أخذ «علي كامل فهمي» ينفق بمستوى من البذخ لم تعرفه في أحد عشاقها السابقين، وبدا وكأن الأمير الشرقي يغرف من بحر لا تنفد لآلئه، إذ لم يكن يعنيه ثمن الشيء، بل كان ما يهمه هو أن يكون هذا الشيء بلا نظير، وألا يحوزه أحد غيره على الأقل في اللحظة الراهنة.

ولأن شراء تحف يستكمل بها تأثيث قصره الذي كان يبنى آنذاك على شاطئ النيل في القاهرة، كان أحد أهداف رحلته إلى باريس، فقد كان كثير التنقل بين الأسواق بحثا عن الغريب والمثير، وكان يحرص على أن تصاحبه «ماجي» في بعض تلك الجولات فتذهل للطريقة التي يبدد بها أمواله ولما يدفعه إليه حرصه الشديد على التميز من حماقات، فقد ظل يبحث عن حقيبة غير عادية للسفر، إلى أن عثر ـ بعد بحث طويل في المعارض ـ عن واحدة من أحدث وأغلى نوع، أغراه البائع على شرائها عندما استعرض أمامه قائمة بأسماء الشخصيات العالمية اللامعة التي تستعمل النوع نفسه من الحقائب،



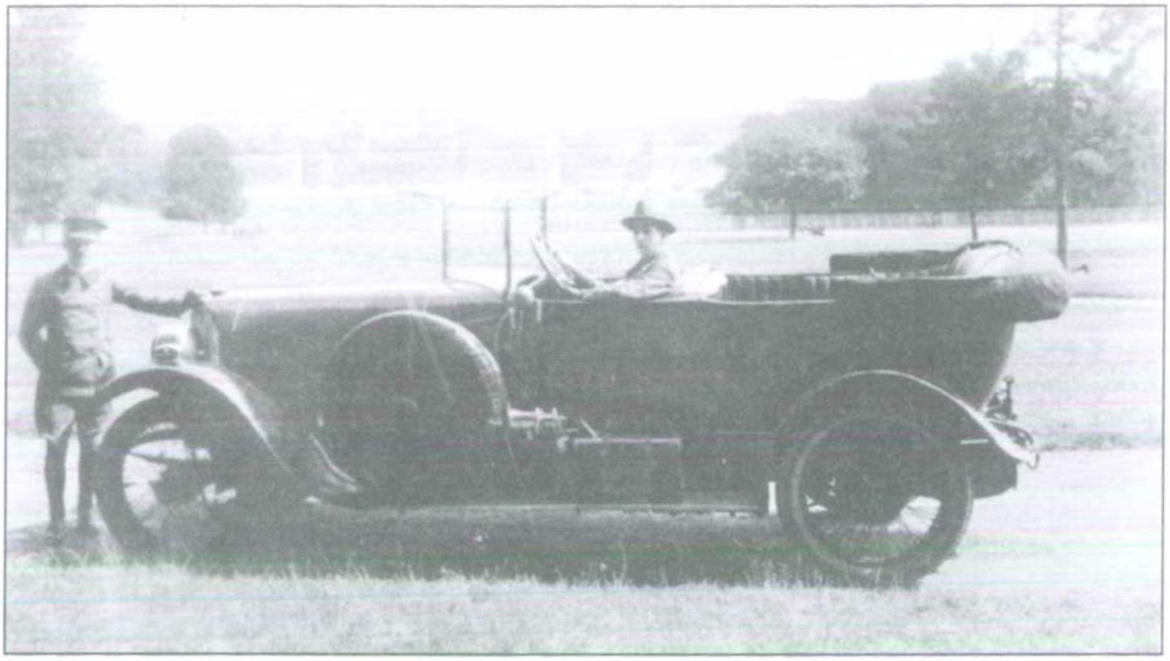
فاتنة فرنسية ترتدي العقال ضمن موضة الولع بالعرب التي سادت أوروبا في أعقاب الحرب العالمية الأولى

ولكنه لم يقنع بأن يتساوى بهم وأصر على إدخال تعديلات عليها لتتميز حقيبته عن حقائبهم، فطلب استبدال كل الأجزاء المعدنية فيها بأجزاء من الذهب الخالص.

وكانت جولته في معرض باريس الدولي للسيارات نموذجا للعقلية التي يفكر بها، فعلى الرغم من أن المعرض كان يزدحم بأنواع من الجرارات الزراعية وسيارات الحرث والحصاد مما يمكن أن يثير اهتمام الزراع من أصحاب الضياع الشاسعة مثله، فقد توقف أمام سيارة للركوب أعجبته، فطلب شراءها ولكن العارضين اعتذروا بأنها الوحيدة من نوعها، فهي ليست للبيع ولكن للعرض فقط، ولن تكون متاحة لأحد في العالم قبل طرحها للبيع بشكل تجاري خلال أسابيع، وكان ذلك هو موطن الإغراء الوحيد فيها، فأصر على ألا يغادر جناح العرض إلا وهو يقودها ليكون الوحيد في العالم الذي يملك طرازها، وفشلت كل محاولات العارضين في إقناعه بأن ذلك أمر مستحيل، إذ ظل يزايد على ثمنها دون منافسين إلى أن وصل الفارق بين ثمنها الأصلي والثمن الذي يعرضه إلى ألفين من الجنيهات، وإزاء إصراره اضطر المسئولون بجناح العرض إلى الاتصال بالشركة المنتجة، فوافقت على الصفقة وخرج الأمير «علي كامل فهمي» من الباب الرئيسي لمعرض باريس الدولي للسيارات وهو يقود سيارة دفع ألفين من الجنيهات فوق ثمنها لمجرد أن يقال إنه أول من تملكها.

ولم يحل اهتمامه بمطاردة «ماجي» والسهر مع «بوزيني» دون انشغاله بقضية دهش منها الجميع، إذ كان كثير التباحث مع عدد من المهندسين والمقاولين الفرنسيين حول قاعة المرايا بقصر فرساي التي كان اسمها يتردد في كل صحف العالم آنذاك، بعد أن تم توقيع معاهدة الصلح بين الحلفاء والألمان بها، وكان قد زار القصر ـ الذي يقع على مبعدة ١٨ كليو مترا من باريس ـ بصحبة أحد مديري البنوك الفرنسيين، وتجول بين جنباته ثم توقف مذهولا أمام اتساع وفخامة قاعة المرايا التي كان طولها يبلغ ٧٣ مترا وعرضها ١١ مترا وارتفاعها ١٣ مترا، وقبل أن تنتهي الزيارة كان قد قرر إنشاء قاعة للمرايا بقصره في جزيرة الزمالك، تكون صورة طبق الأصل من قاعة قصر فرساي الذي أنشأه لويس الرابع عشر، فتكون فيها ١٧ نافذة تطل على النيل وفى مواجهة كل منها ـ وعلى الحائط المقابل لها ـ مرآة بنفس مساحة النافذة في إطار مذهب تعكس ضوء الشمس.

وبدأ يجمع المعلومات عما يتكلفه إعادة تصميم القاعة بكل ما تحتويه من مرايا وستائر مذهبة وثريات ولوحات زيتية تزين سقفها وحوائطها، وأثاث صنع من المينا البيضاء المذهبة لتكون قاعة للحفلات والولائم التي يقيمها لضيوفه لا مثيل لها في مصر ولا في أي مكان في العالم، ولم يسبقه إليها إلا واحد من أشهر ملوك التاريخ، وهو «لويس الرابع عشر».



علي فهمي يغادر معرض باريس الدولي للسيارات وهو يقود السيارة التي أصر على أن يقتنيها بأي ثمن لمجرد أنها الوحيدة من نوعها

ولولا أن الذين استشارهم من المهندسين والمقاولين الفرنسيين قد أجمعوا على أن تكلفة المشروع لن تقل عن مليون جنيه، وعلى أن القاعة المقلدة لن تكون ـ على الرغم من ذلك ـ بمثل جمال الأصل لما عدل ـ وهو آسف ـ عن تنفيذه.

وفيما بعد أخذت «مرجريت» من تلك الوقائع وغيرها دليلًا عن مدى ما كان يتمتع به الأمير الشرقي من غرور يصل إلى حد الجنون بالمظاهر، إلا أنها لم تنكر أن ذلك الجنون كان أهم العوامل التي شدتها بقوة إليه، إذ كانت تدرك ولا شك بأن إغواءها كان أهم دوافعه لبعثرة نقوده، ولم يكن ذلك ـ من حيث المبدأ ـ غريبا عليها إذ كانت ـ بحكم المهنة ـ تعرف أن إنفاق الأموال لإغواء أمثالها من النساء سلوك شائع في الرجال الذين يتنافسون للحصول عليها، بما في ذلك الأوروبيون منهم لكن مستوى الإنفاق ومصادره هي التي أثارت ذهولها.

والحقيقة أن «علي كامل فهمي» وأمثاله من أثرياء الشرق كانوا يبعثرون أموالهم آنذاك ـ وربما إلى اليوم ـ بطريقة تدعو الأوروبيين لتصديق قصص «ألف ليلة وليلة» الخرافية عن ذلك الجني الذي يخرج من القمقم ليستجيب لطلب سيده بأن يحول كل ما تقع عليه عيناه إلى ذهب.

وعلى عكس عشاقها من الأوروبيين الذين كانوا يديرون أعمالهم بأنفسهم ويعملون على تنمية ثروتهم ويفرقون بين أوقات العمل وأوقات اللهو، ويعتبرون الترفيه حقا يقابله واجب هو أن يعملوا ليشعروا بمتعة الترفيه، فقد بدا «علي كامل

فهمي» نموذجا للشرقي الذي لا عمل له إلا الترفيه عن نفسه مع أنه لا يقوم بأي عمل يستحق من أجله هذا الترفيه، أو يحقق له دخلًا ينفقه عليه.

ومع أن «ماجي» لم تفهم ـ في البداية ـ معنى اسم «علي بابا» الذي كان المقربون من أصدقائه وحاشيته وفى مقدمتهم «سعيد العناني» يدللونه به، إلا أنهم عندما أحالوها إلى القصة العربية الشهيرة عن «علي بابا والأربعين حرامي» لم تجد في ذلك مدعاة للدهشة، إذ كان «علي بابا كامل فهمي» يبدد أمواله بطريقة رجل عثر عليها في مغارة على الطريق، ولم يبذل أي مجهود في الحصول عليها حتى لو كان مجهود سرقتها.

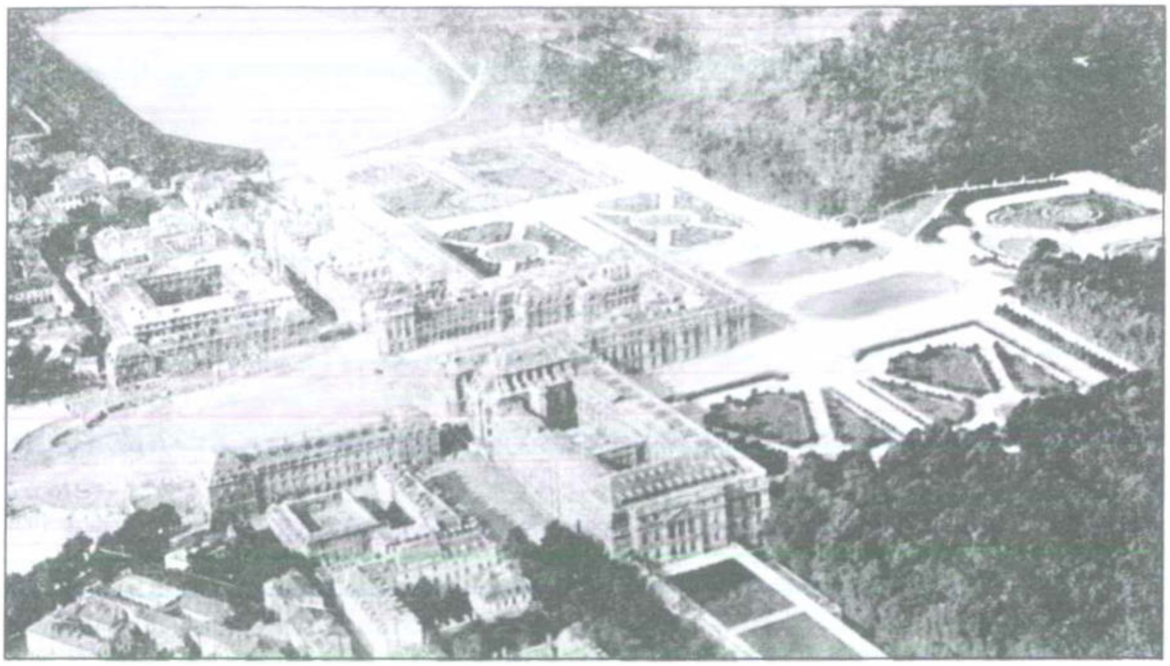


وقبل أن تغادر باريس إلى «دوفيل» كانت مجتمعات اللهو في العاصمة الفرنسية تتناقل قصة خلاصتها، أن الأمير «علي بابا البنج بونج» قد صحب فتاة فرنسية اسمها «دالاباني» إلى معرض «بوشيرون» للمجوهرات، وطلب إليها أن تختار ما تشاء من المجوهرات المعروضة ليكون هدية التعارف بينهما وتفتحت شهية الفتاة، فقلبت المعرض رأسًا على عقب بحثا عن أثمن ما فيه، إلى أن اختارت خاتما بفص ثمين من الزمرد أبدى الأمير إعجابه به وطلب من البائع إرساله إلى عنوان «دالاباني» في اليوم التالي.. وكان منطقيا أن ترد الفتاة على هذه المبادرة الطيبة بمبادرة مثلها فدعته إلى قضاء الليل في منزلها.. وما كاد يغادر المنزل في الصباح حتى وصل إليه مندوب من معرض «بوشيرون» يحمل الخاتم لتكتشف «دالاباني» أن فص الزمرد الثمين قد استبدل بآخر زائف في حجمه وشكله تماما.

وعندما ذهبت إلى «بوشيرون» تحتج على هذا الغش الذي لا يليق بسمعة المعرض العالمية، اعتذر لها صاحبه قائلا بأنها لم تكد تغادر المكان بصحبة الأمير حتى عاد إليه سكرتيره فطلب منه استبدال فص الزمرد بآخر من الزجاج.

ومع أن كثيرين من أصدقائها اتخذوا من القصة دليلًا جديدا على أن «علي كامل فهمي» من النوع الذي لا يمكن الاطمئنان إليه أو الثقة فيه، إلا أن «ماجي» اتخذتها مبررا للسخرية من طمع «دالاباني» واعتبرتها دليلا على أن البرنس الشرقي ليس جادا ولا حريصا على علاقته بغيرها من النساء، وأنه يضيع وقته معهن في انتظار أن ترضى عنه، وتقبل إنشاء علاقة معه.

والغالب أن «ماجي» كانت رغم خبرتها بالرجال ـ وربما بسبب هذه الخبرة ـ لا تخلو من الغرور الأنثوي الذي جعلها تعتبر نفسها استثناء من القاعدة التي يتعامل بها الأمير الشرقي مع غيرها من النساء، ولذلك علقت على ما فعله مع «دالاباني» قائلة: ولكنه لا يمكن أن يفعل ذلك معي.



صورة عامة التقطت من الجو في عام ١٩١٩ لقصر فرساي الذي شغف به علي فهمي إلى حد التفكير في بناء قصر مشابه له في مصر.. استغرق بناء قصر فرساي ٢١ سنة.. وشهد معظم حوادث تاريخ فرنسا منذ عهد لويس الرابع عشر الذي بناه

وجاء هذا التعليق ليكون واحدا من مؤشرات عديدة على أنها كانت قد حسمت أمرها وقررت الاستجابة لمغازلاته رغم كل الظواهر التي كانت توحي بترددها. فما كادت تصل إلى «دوفيل» حتى لحق بها «علي كامل فهمي» في اليوم التالي، ونزل في فندق «رويال» على مبعدة مائتي متر فقط من فندق «نورمندي» الذي كانت تنزل فيه بصحبة «أستوريكا» ـ وما كادا يلتقيان في مساء نفس يوم وصوله، بقاعة المقامرة بكازينو «دوفيل»، حتى تكفل «أستوريكا» بإعطائها الذريعة التي كانت تنتظرها عندما كرر ما كان يفعله كثيرا منذ استأنفا علاقتهما ـ بعد القطيعة ـ فظهر وإلى جواره واحدة من فتياته السمراوات البدينات، فثارت «ماجي» ثورة عارمة واعتبرت ذلك مخالفة لشروط التعاقد بينهما، بأن تكون عشيقته الرسمية الوحيدة، وعادت إلى فندق «نورمندي» فأيقظت وصيفتها «إيميه» وطلبت إليها حزم حقائبها وانتقلت في الليلة نفسها إلى فندق «رويال».

ولم تكد تستيقظ في الصباح حتى وصل إليها رسول من معرض «أربل» للمجوهرات يحمل إليها أولى هدايا الأمير «علي كامل فهمي» بعد انفصالها رسميا عن «أستوريكا»، وهي علبة بودرة مطعمة بالأحجار الكريمة،ولم تكن في حاجة إلى السؤال عن ثمنها، أو الشك في أنها من نوع الخاتم الذي أهداها إلى «دالاباني» إذ كانت قد رأتها من قبل وألمحت إليه بإعجابها بها وكانت تعلم أن ثمنها هو ٣٥ ألف فرنك.

وبعد يومين آخرين كانت مرحلة المطاردة قد انتهت، فحقق كشكش مصر الوحيد الانتصار في المعركة، واقتنص الغانية الفرنسية المراوغة بعد أكثر من عام من التنقل بين ميادين الصيد في فنادق وملاهي «القاهرة» و«باريس»، أنفق خلالها ما لا يمكن ـ ولا يهم ـ إحصاؤه من الأموال، وحمل نفسه على صبر لا يطيقه مع أمثالها من الفرائس، وعلى أسلوب رقيق في التعامل كان يكبده مجهودا بالغا إذ كان ضد طبيعته العصابية.

وانتقلت «ماجي» للإقامة معه بجناحه في «فندق رويال».

ثم غادر الاثنان «دوفيل» إلى «باريس» حيث أمضيا بها أياما أتاحت للأمير الشرقي الفرصة لكي يزهو بانتصاره ويفخر به في دوائر اللهو بها، وبعد أن شهدا معا الحفلات التي أقامها أصدقاؤهما المشتركون تدشينا لعلاقتهما، غادرا العاصمة في جولة بين المصايف الفرنسية والإسبانية، كانت بمثابة شهر العسل الحقيقي والوحيد لهما.. فعندما تزوجا بعد ذلك بشهور لم يكن قد تبقى لهما شيء من العسل.

وكان عرض الزواج من بين العروض التي قدمها «علي كامل فهمي» بعد أسابيع قليلة من لقائهما بباريس، لكنها لم تحمل العرض على محمل الجد، إذ كانت تعرف بأنه إحدى وسائل الأمير الشرقي لإغوائها، فضلا عن أنها لم تكن تفكر في الزواج بعد تجربتين فاشلتين عانت خلالهما الكثير من المضايقات، وأدركت خلالهما أنها حين تصبح زوجة تفقد سيطرتها على الرجل وتختل موازنة السلطة بينهما فترجح كفته كفتها، بعكس ما تكون عليه الحال حين تكون عشيقته.

لكنها اتخذت من العرض دليلًا على أنه ينظر إليها نظرة تختلف عن نظرته إلى غيرها من النساء اللواتي عرفهن في القاهرة، مثل «دينالسكا» أو في «باريس» مثل «بوزيني» و«دالاباني» وحجة ترد بها على اللواتي كن ينقلن إليها الشواهد على أنه رجل «بنج بونج» وتؤكد بها مدى تعلقه بها وحبه لها وإلا ما فكر في الزواج منها!

لكن «علي كامل فهمي» لم يكف خلال شهر العسل عن تكرار عرضه عليها بأن تسافر معه إلى القاهرة، لتقيم معه في قصره، وتكون أميرته المتوجة.. وحين تكرر رفضها للعرض دخل كعادته مزايدا على الصعود على شروط العشق، وظل يواصل تلك المزايدة على الصعود، إلى أن عاد إلى تقديم عرض الزواج الذي كان قد أصبح غير ذي موضوع منذ انتقلت إلى الإقامة معه في فندق «رويال».

ورفضت «ماجي» أن تكون القاهرة مكانًا لأية علاقة بينهما سواء كانت عشقا أم زواجا، إذ كانت تعتقد أنها ستظل الأقوى والأكثر سيطرة على تلك العلاقة طالما هي في بلدها، وأن انتقالها إلى مصر سيخل بموازنة القوة بينهما لصالحه فيصبح هو الأقوى، ومع أنه كان لا يزال يتصرف معها بنفس الرقة والدماثة وينفق عليها بجنون،

إلا أنها كانت تشك في أنه سيواصل ذلك حين تصبح غريبة في بلد يملك الأمير فيه أموالا لا حصر لها ونفوذا لا رادع له.

وكما حدث قبل عام حين غادرت القاهرة فجأة دون أن تحضر الحفل الذي كان قد أقامه تكريما لها، فقد أثاره رفضها إلى حد الجنون. فباخت فرحته بالنصر الذي حققه والصيد الذي اقتنصه، إذ لم يكن لأيهما ـ في رأيه ـ معنى إذا لم يرجع إلى القاهرة ومعه فريسته الأوروبية فيختال في أبهاء الفنادق الكبرى وذراعها في ذراعه فيعلن بذلك لمجتمع الكشاكش المصريين أنباء فتوحاته، ويستعرض أمامهم حصيلة رحلة الصيد الفرنسية التي استغرقت خمسة شهور، ويقلب هزيمته في معركة الوليمة إلى نصر تتحدث عنه كل الكباريهات، ويثبت أن في السويداء كشاكش قادرين على دك أمنع الحصون واختراق أعتى القلاع فيغيظ منافسه ويخرج لسانه لمن شمتوا فيه ويتوج ملكا على كل الكشاكش.

ومع أنه اضطر أخيرا لأن يغادر باريس دون أن يصحبها معه، إلا أن أسفه على ذلك لم يمنعه من مواصلة الإلحاح على دعوتها ـ بالرسائل المصحوبة دائما بهدايا من المجوهرات كان يوصي بإرسالها إليها ـ لكي تزور القاهرة فتتيح له أن يضع فوق رأسها ما كان يصفه في تلك الرسائل بأنه «التاج الذي أعده لها»، ولكي تتفقد قصره الذي يزخرفه ويؤثثه بكل ما هو نادر لكي يكون عشا لا مثيل له لغرام بلا مثيل.

ولابد أن هناك أسبابا أكثر خصوصية وراء تعلقه المرضي بها وإصراره على الزواج منها، رغم أنها كانت قد أصبحت متاحة له، ربما بأكثر مما يريد.. وهي أسباب لا يصعب استنتاجها مما أذيع بعد ذلك عن حياتهما الخاصة، فقدكان «علي كامل فهمي» شابا مراهقا نقل السير «مارشال هول» ـ المحامي الذي دافع عن «ماجي» أمام المحكمة ـ عن لسانها هي نفسها وصفها له، بأنه كان «من النوع الذي وهبته الطبيعة حيوية جنسية زيادة على الحاجة» والغالب أن «ماجي» التي كانت أكبر منه بعشر سنوات وتملك خبرة جنسية أعرق من خبرته ـ قد أدركت ذلك فتعاملت معه بطريقة جعلتها تبدو له الأنثى الأكثر ملاءمة لما سماه السير «مارشال هول» بـ«إسرافه المبالغ فيه في استعمال وظيفته الجنسية العظيمة» فسيطرت بذلك عليه مما جعله يصر على «حيازتها» لمدة أطول من المدة التي تتيحها له علاقة العشق عادة، وتكفل له فضلا عن هذا سيطرة توازن سيطرتها عليه لا تتحقق ـ فيما ظن ـ إلا بالزواج.

وكانت فكرة الزواج منها موضوع بحث جدي بينه وبين شقيقاته وأزواجهن وأخواله خلال الشهور التالية التي كانت رسائل وهدايا العشق تسافر فيها من القاهرة إلى باريس، ومع أن الجميع كانوا يعارضون في الفكرة ويلحون عليه في أن يكرر محاولة التقدم لخطبة فتاة من إحدى الأسر المصرية الكبيرة، إلا أن رفض «إسماعيل



مارجريت البير.. نموذج للفتنة الأنثوية في بداية القرن العشرين

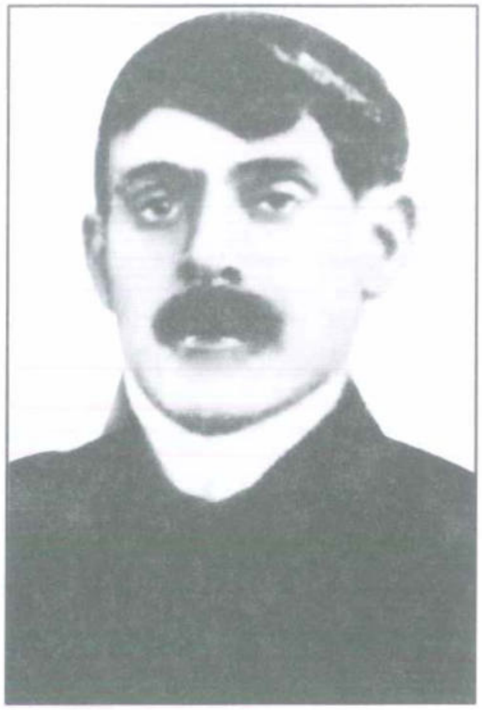
باشا سرهنك» لمصاهرته كان لا يزال يحز في نفسه، بحيث بدا وكأن زواجه من امرأة أوروبية ـ بصرف النظر عما إذا كانت هي «ماجي» أو غيرها ـ هو الرد الملائم على تلك اللطمة التي جرحت اعتزازه المراهق بكرامته.



والحقيقة أن الزواج من الأوروبيات كان ـ آنذاك ـ حلما يعابث كثيرين من الشبان المصريين، بعد قرن من الاحتكاك بالحضارة الأوروبية، وثلاثين عاما من الاحتلال أتيح خلالها لآلاف من المصريين وخاصة الأثرياء والمتعلمين أن يسافروا إلى أوروبا لكي يتعلموا ويسيحوا أو يعربدوا، كما أتيح لكثيرين منهم أن يشاهدوا عن قرب آلافا من النساء الأوروبيات اللواتي يزرن مصر لمشاهدة آثارها، أو يقمن فيها مع أزواجهن من الأوروبيين الذين كانوا يزحمون مكاتب الحكومة والشركات التجارية والصناعية الخاصة والعامة باعتبارهم خبراء، فانتشر النموذج الأوروبي للمرأة في شوارع القاهرة يجتذبن أنظار الرجال بوجوههن السافرة، وأزيائهن الأنيقة ذات الألوان المبهجة في وقت كانت فيه المرأة المصرية من الطبقة العليا لا تمشي مترجلة في الشارع، ولا تعبره إلا وهي تختفي وراء زجاج سيارة أو ستائر «فيتون» أو غطاء عربة حنطور، ومع ذلك فهي تخفي وجهها وراء «الياشمك»، وهو حجاب من قماش أبيض شفاف، فإذا كانت من الطبقة الوسطى لم تخرج إلى الطريق إلا بصحبة رجل، وهي تتلفع ملاءة سوداء تخفي تفاصيل جسمها، كما يخفي البرقع الأبيض أو الأسود وجهها حتى أصبح السفور يرتبط في الوجدان العام بما كان يوصف بـ «الطبقات الواطئة من النساء» أي بنات البلد.

وجاء تعود المصريين على رؤية النساء الأوروبيات سافرات بوجوههن البيضاء وعيونهن الزرقاء ليضفي على السفور ما كان لهن من احترام وهيبة باعتبارهن نساء الطبقات السائدة وليغير ـ تدريجيا ـ المزاج الجنسي للرجال المصريين، فحل النموذج الأنثوي الأوروبي محل النموذج الشرقي الذي كان موضوع اشتهائهم حتى ذلك الحين، وأصبحت المرأة الرشيقة المتناسقة الأعضاء أكثر جاذبية لهم من المرأة ذات الأرداف الثقيلة والصدر المتضخم التي تمشي ببطء لأنها لا تتحمل ثقل وزنها.

وكانت سنوات طويلة قد مرت منذ نشر «قاسم أمين» كتابيه الشهيرين «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» ليطالب فيهما بتعليم المرأة وتثقيفها، لتستطيع إدارة شئون منزلها وتحسن تربية أطفالها، وتكون لنفسها عقلًا يهتم بما يدور حوله من شئون المجتمع والكون فتشاطر الرجل همومه وأفكاره، كما تشاركه فراشه وتصبح سميرًا له يتبادل معه الرأي والمشورة، وأخذت المطابع تقذف كل عام بمئات الروايات المترجمة عن الإنجليزية والفرنسية، نقلت إلى اللغة العربية أهم ما كتبه الرومانسيون



قاسم أمين رائد الدعوة لتحرير المرأة



مصطفى لطفي المنفلوطي رائد رومانتيكية أوائل القرن

الأوروبيون في القرن التاسع عشر، وراجت بين طلاب المدارس الذين فتنوا بهذا النوع الأدبي الجديد لأنه كشف لهم عن نمط من العلاقة بين الرجل والمرأة يختلف تماما عما عرفوه في بيوتهم المزدحمة بنساء لا يتقن سوى الحديث عن الخبيز والطبيخ، ولا يعرفن شيئا عما يدور خارج نطاق الحياة الضيقة التي يعشنها خلف أسوار تلك البيوت.

وربما لهذا السبب لم يصدقوا وقائع رواية «زينب» وهى أول رواية عربية على النسق الأوروبي ـ مع أن كاتبها الدكتور «محمد حسين هيكل» وصفها على غلاف طبعتها الأولى ـ التي صدرت عام ١٩١٢ ـ بأنها «مناظر وأخلاق ريفية» إذ بدا لهم غريبا ومشوقا كذلك أن تحب بطلتها وتعشق ويتوزع قلبها بين الرجال،وأن تلتقي ـ وهي الفلاحة العذراء ـ بحبيبها في ضوء القمر عند الجميزة العجوز لتبثه غرامها ثم تموت بالسل اللعين الذي قضى على حياة «غادة الكاميليا»، «مرجريت جوتيه»، فتستنزف الدموع الساخنة من مآقيهم وكان الواقع حولهم يؤكد أن شيئا من ذلك لا يمكن أن يكون قد حدث، ومع ذلك فقد أحبوا الرواية التي بدت لهم أشبه بالبشارة، كما أحبوا أسلوب السيد «مصطفى لطفي المنفلوطي» الذي أعاد صياغة ثلاثة من عيون الأدب الرومانتيكي ـ هي «بول وفرجيني» و«ماجدولين» و«سيرانو دي برجراك» ـ في لغة عربية دافئة خفقت لها قلوب ذلك الجيل من أجدادنا وهم يقرءون وصفه ـ وهو الشيخ المعمم ـ للعيون الجميلة، والشفاه الرقيقة والقبلات الدافئة فظلت الروايات



النبيلة الإنجليزية المصرية زوجة الأمير عباس حليم، وفي عنقها عقد اللؤلؤ الذي اشتراه لها خطيبها الأمير جلال بستين ألفا من جنيهات أوائل عشرينيات القرن العشرين

الثلاث لسنوات طويلة المصدر الذي يقتبس منه هؤلاء الأجداد عبارات يضمنونها خطابات غرام يكتبونها إلى حبيبات لا يعرفونهن.

وهكذا، أخذ ذلك النمط الجديد من الشبان المصريين يتلفتون حولهم بحثا عن نموذج أنثوي جديد يحقق لهم حلمهم الرومانتيكي بامرأة تتبادل معهم الحب، ولا تكتفي بمجرد الاستجابة السلبية لرغبتهم فيها، بل ترغبهم كما يرغبونها وتطلبهم كما يطلبونها، وتشاركهم كل ساعات حياتهم، وليس مجرد لحظات اللقاء في الفراش وتزين مجالسهم ومنتدياتهم التي أصبح الأوروبيون ـ بحكم سيطرتهم على شئون البلاد ـ يتصدرونها مع زوجاتهم.. فلم يجدوا هذا النموذج في بيوتهم أو في وطنهم.

ولأن الحلم كان يغشى أبصارهم فإنهم لم يتنبهوا إلى فضائل إنسانية عديدة تتميز بها النساء الشرقيات.. على الرغم من تخلفهن وأطنان اللحم التي كن ـ بسبب قلة الحركة ـ يراكمنها حول هياكلهن العظميّة،واندفعوا بلا تردد نحو النموذج الأنثوي الأوروبى الذي فتنهم بصفاته الشكلية والموضوعية، لمجرد أنه كان يختلف عما ألفوه ـ فبرزت ظاهرة التزوج من أجنبيات بين أبناء الفئات العليا الذين ساحوا في البلاد الأوروبية أو الذين سافروا إلى جامعاتها للدراسة.

ومع أن الظاهرة لم تكن واسعة النطاق بحكم محدودية النخبة التي سنحت لأفراد منها ظروف للتعرف إلى النساء الأوروبيات عن قرب، إلا أنها لفتت النظر بقوة بسبب مكانتهم الاجتماعية الرفيعة،إذ كان بين الذين فضلوا الزواج من أجنبيات عدد من أمراء الأسرة المالكة على رأسهم الخديو «عباس حلمي الثاني» وعدد من الوزراء كان من أبرزهم «حسين رشدي باشا» وعدد من كبار الكتاب والصحفيين كان من أكثرهم شهرة الدكتوران «طه حسين» و«محمود عزمي».

وكان منطقيا بحكم التباين بين طبائع هؤلاء وظروفهم أن تتباين المستويات الاجتماعية والشخصية لزوجاتهن الأوروبيات.. فكان بينهن عدد من فضليات

النساء اللواتي عشن مع أزواجهن حياة مستقرة، وتكيفن مع جوهر التقاليد الشرقية وأضفن إليها لمسات أوروبية مزجت بين أفضل ما في الاثنتين، كما كان بينهن عدد من المغامرات الأوروبيات اللواتي أغراهن بالزواج من الشرقيين رغبة في المغامرة أو في الثراء، أو خضوع للأوهام الغربية عن الشرق التي لم تكن تقل مبالغة ـ أو خطأً ـ عن الأوهام الشرقية عن الغرب.

وبينما نجد بين هؤلاء الزوجات نساء مثل الكونتس النمساوية «ماي دي توروك» التي تزوجها الخديو «عباس حلمي الثاني» حرصت على أن تؤهل نفسها للمكانة التي أصبحت تشغلها إلى جوار الجالس على العرش، فدرست اللغة العربية وتاريخ الحضارة الإسلامية بعمق جعلها تكون انطباعات إيجابية عنهما برزت بعد ذلك فيما كتبته عن حياتها مع زوجها.. ومثل الزوجة الفرنسية لرئيس الوزراء «حسين رشدي باشا» التي ألفت بالفرنسية وباسم مستعار ـ كتابا بعنوان «حريم مسلمات مصر» وصفت فيه حياة المصريين بشكل يتعاطف مع عاداتهم وتقاليدهم ويرد على الكتابات الأوروبية التي تتعمد إساءة الظن بتلك التقاليد.

فسوف نجد كذلك ـ بين الأوروبيات اللواتي تزوجن بمصريين ـ عددا كبيرا من المغامرات والغانيات وصائدات الرجال، نجحن في اقتناص كثيرين من وجهاء المصريين، فوقعوا بين براثنهن بسبب قلة خبرتهم واندفاعهم وراء أحلامهم الرومانتيكية المريضة.. حتى إن واحدة منهن، كانت من ممثلات المسارح الإنجليزية، تزوجت من اثنين من أمراء الأسرة المالكة على التوالي. وكان الأمير «جلال الدين» نجل الأميرة «فاطمة إسماعيل» قد تعرف إليها في أحد مراقص القاهرة، فهام بها وأغدق عليها الهدايا الثمينة، ومن بينها عقد من اللؤلؤ يبلغ ثمنه أكثر من ٦٠ ألف جنيه ثم تزوجها، ولكنه سرعان ما بدأ يشعر بغيرة عنيفة عليها ونشبت المشاجرات بينهما، وتدخل النبيل «عباس حليم» ليصلح بينهما، فتعرفت إليه ومالت إليه وطلبت الطلاق من زوجها لتتزوجه، لكنها سرعان ما قتلت في ظروف غامضة، وقيل إنها كانت تنظف مسدسا تملكه فانطلقت منه رصاصة أصابتها في صدرها فقتلتها على الفور.

فى هذا المناخ العام والخاص نشأت فكرة زواج «علي كامل فهمي» من «ماجي ميللر» واستطاع بإلحاحه وإصراره أن يتغلب على معارضة أسرته، التي اضطرت ـ كارهة ـ للموافقة على المشروع حتى لا تتجدد الخلافات التي نشأت بينها وبينه، عندما فكرت في طلب الحجر عليه بسبب سفهه، لكن قليلين من أفراد الأسرة هم الذين كانوا يأملون في أن يكون هذا الزوج داعيا لاستقراره فيكف عن حياة اللهو التي تبدد أمواله.

وما كاد «علي كامل فهمي» يحصل على موافقة الأسرة حتى أسرع يبرق إلى «ماجي ميلر» يستنجزها وعدها بأن تمضي ـ في ضيافته ـ الشتاء تحت شمس مصر الساطعة، ويبشرها بأن لديه نبأ سارا سيبلغه إليها بمجرد وصولها.

وعندما لم ترد على البرقية، أرسل إليها خطابا عاطفيا لا شك أنه اقتبسه من إحدى الروايات التي كان يقرأ ترجماتها، ثم طلب إلى سكرتيره «سعيد العناني» أن ينقله إلى الفرنسية، إذ كانت معرفته بلغة العشيقة النافرة محدودة وقاصرة على الكلام دون الكتابة.. وعلى لغة التعامل اليومي دون لغة الرسائل العاطفية، لكن الخطاب رغم ذلك يكشف عن جانب آخر مهم من العوامل النفسية التي جعلته يندفع إليها بكل هذا الجنون، وقد قال لها فيه إنه قد أصيب بمرض خطير وأنه على وشك الموت ولم يعد لديه أمل في الحياة إلا أن يراها ليودعها قبل موته، ويؤكد لها أنه باق على حبها وأنه يغادر الدنيا وهو يحبها حبا طاهرا قويا نقيا كذلك الحب الذي يكنه لأمه.

ولعله خشي أن يكون نبأ وفاته الوشيكة مبررا لعدم حضورها بدلا من أن يكون حافزا على ذلك، فعاد ليختم خطابه بقوله «ليتك تأتين.. إن برقية منك بموعد حضورك سوف تملؤني سعادة وتمنحني قوة وتطيل من عمري حتى أراك.. وسوف تحدث المعجزة بعد حضورك فأشفى من مرضي».

ومع أن «ماجي» لم ترد على الرسالة، وظلت تتردد في الاستجابة للدعوة، حتى بعد أن وصلتها برقية أخرى بالمعنى نفسه تحمل توقيع سكرتيره «سعيد العناني» تقول: « تأخرت حالة الأمير الصحية وشارف على الموت وهو يلح في رؤيتك لأمر مهم» إلا أن الرسالة كغيرها من رسائله مضت من دون أثر، وقد قالت فيما بعد إن رسائله إليها رغم ما كانت تزدحم به من خيالات مراهقة، كانت تملؤها زهوًا بنفسها وثقة في أنوثتها، إذ كانت تكشف لها عن مقدار ما تملكه من سحر على هذا المخلوق الشرقي الغامض والجميل!

وكان ما حسم ترددها في النهاية شيء لا صلة له بخطابات العاشق الشرقي الذي كان افتتانه بها ـ على الصعيد الشخصي ـ لا يختلف كثيرا عن افتتان الشرق بالغرب آنذاك، إذ كان الشرقيون رغم كراهيتهم للغرب الذي يستعمرهم ويقهرهم ويتعالى عليهم، يفتنون به ويرغبون في تقليده ويحلمون بأن يكونوا مثله، فبعد أيام قليلة من وصول تلك الرسائل أذيع نبأ اكتشاف مقبرة «توت عنخ آمون»، وتصدَّر الصفحات الأولى لصحف العالم، وبدأ أمراء أوروبا ووجهاؤها بل وملوكها يشدون الرحال إلى مصر؛ ليشاهدوا كنوز الفرعون الشاب، حتى أصبح السفر إلى مصر آنذاك من دلائل الوجاهة الاجتماعية التي لا يجوز لمومس من طبقة رفيعة مثل «ماجي ميلر» أن تعجز عن القيام بها، بينما كانت الوحيدة التي وصلتها دعوة رسمية من «البرنس أوف مفاغة» لزيارة مصر.

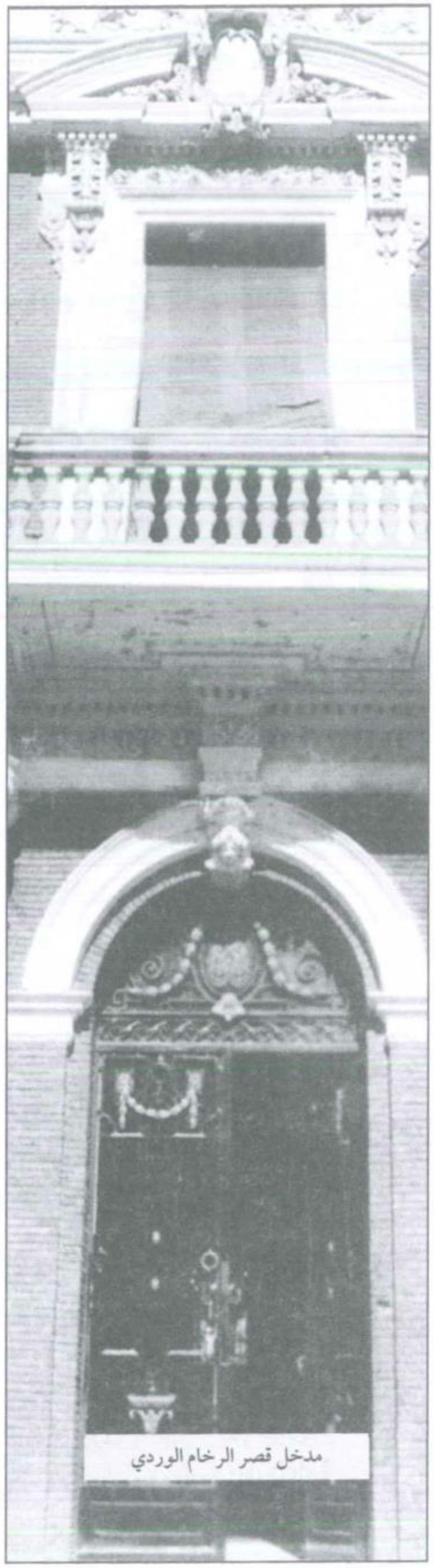
وهكذا، وفي ٢٢ نوفمبر ١٩٢٢ وصلت الباخرة التي تقل «ماجي ميلر» إلى ميناء الإسكندرية لتجد في انتظارها مفاجأة لم تكن تخطر لها على بال!

الفصل الخامس

في مغارة «علي بابا»



«أما وقد اصطاد كل منهما الآخر.. فقد تعطلت تدريجيا فاعلية قانون العشق لتبدأ فاعلية قانون الزواج.. أصبحت مناورات الإغراء والتمنع والمطاردة والصيد غير ذات موضوع، وتحرر كل منهما من التكلف الذي كان يُكره نفسه عليه لكي يحوز على إعجاب الآخر».



مدخل قصر الرخام الوردي



قصر الرخام الوردي لا يزال قائمًا إلى اليوم في مدخل جزيرة الزمالك

14

ما كادت الباخرة التي تقل «ماجي ميلر» تصل إلى ميناء الإسكندرية ظهر يوم الخميس ٣ نوفمبر ١٩٢٢،حتى وجدت العاشق الذي أرسل يستحثها للحضور ليراها قبل أن يغادر الدنيا يتقدم نحوها وهو في كامل صحته وعافيته فيستقبلها على سلم الباخرة، وعلى وجهه ابتسامة وضيئة دافئة كشمس الشتاء مرحبا ومعتذرا عن الحيلة التي لجأ إليها ليستدرجها إلى مصر، بشوقه إليها الذي لم يستطع مغالبته.

ومع أنها كانت تدرك منذ البداية أن قصة المرض هي مجرد مناورة عاطفية، إلا أنها تظاهرت بالغضب، ثم ما لبثت أن اندمجت في حرارة الاستقبال الفخم الذي كان قد أعده لها، وسارت إلى جواره لتستعرض حرس الشرف من حاشيته، الذين انحنوا لهما ثم تقدما الجميع في طريق من الزهور كان يفرش رصيف الميناء من سلم الباخرة إلى سيارة استقلاها ومعهما صديقه وسكرتيره «سعيد العناني» وفي إثرها رتل من سيارات الحاشية والأتباع.

وفى طريقهما إلى القاهرة، حيث نزلت ضيفة عليه في فندق «سميراميس»، أخبرها «علي كامل فهمي» بأن أسرته وافقت على زواجهما..ومع أنها تلقت النبأ ـ كما تلقاه «سعيد العناني» ـ بتحفظ، إلا أن ما كان يبدو عليه من سعادة بالغة وما

كان يبديه من أمارات الحب غمرا مخاوفها، فتراجعت هذه المخاوف تدريجيا إلى الخلف، ثم اختفت تماما حين اصطحبها - في مساء اليوم نفسه - إلى قصره لتتعرف إلى شقيقاته.

وذهلت «ماجي» من مظاهر الثراء والرفاهية التي شاهدتها في قصر الرخام الوردي الذي أقيم على شاطئ النيل ليكون واحدا من أجمل قصور القاهرة، إذ بني على طراز عصر النهضة، وأثث بأثاث لم يكن فخما فحسب بل وتاريخيا كذلك، فغرفة النوم كانت إحدى الغرف التي ينام فيها ملك الصرب، وأدوات غرفة المائدة كلها من الفضة الخالصة تكلفت وحدها ما يزيد على ٤٥٠ ألف جنيه، وكل شيء فيه مستورد من أشهر البلاد في صناعته، فالمفروشات صنعت في فينيسيا، والزجاج البللور والمرايا جاءت رأسا من بلجيكا، والذهب يدخل في تكوين كل شيء حتى أصغر وأتفه أدوات الاستخدام اليومي.

لم يكن مجرد بيت أو حتى قصر عادي، بل كان تحفة معمارية وفنية تليق بالملوك، بل وتنقل عن قصور نبلاء العصور الوسطى بعض تقاليدها، إذ كانت «الطغراء» التي تحمل اسم «علي كامل فهمي» مطبوعة بماء الذهب على كل تحفة ومقعد ولوحة، بل وعلى ملابس الخدم، وكل ما يمكن أن يقع عليه النظر.

ولم تكن الأبهة والعظمة والثروة التي شاهدتها في القصر وفاقت كل ما كانت تتوقعه، على الرغم مما رأته قبل ذلك من شواهد ثرائه، هي وحدها التي أغرقت كل ترددها في الزواج منه، فقد فوجئت كذلك بالصورة العصرية التي شاهدت عليها شقيقاته، إذ كُنَّ - على عكس الصورة الشائعة عن المرأة الشرقية - سافرات، يرتدين ملابس على أحدث الموديلات الباريسية ويعرفن الفرنسية، ويتقن ذلك النوع من أحاديث الصالونات الأوروبية، بل وعبَّر الجانب الشرقي في شخصياتهن عن نفسه بطريقة آسرة للقلب، فمع أنهن لم يكن خاليات الذهن عن البيئة التي تربت فيها أو الأسلوب الذي عاشت به، فقد استقبلنها بمودة دافئة وباحترام بالغ، وتنافسن في إطراء جمالها وظرفها، وعبرن - بكلمات مشحونة بالعواطف - عن سعادتهن بانضمامها إلى أسرتهن، وكما تفعل الأمهات عادة، وخاصة إذا كان الابن ضالا، فقد دعون الله أن يكون زواجه منها بداية استقراره ومبعث هنائه، وقلن لها بصراحة إنهن واثقات بأن هدايته إلى سواء السبيل ستكون على يديها.

ولابد أن «سعيد العناني» - وكان أحد الذين حضروا تلك الجلسة - تمنى لو أنه علق على ذلك الدعاء بضحكة ساخرة، أو بتعليق بذيء، إذ كان أكثر الجميع معرفة بأن الضلال الذي يغرق فيه الأمير عصي على الهداية، وعلمًا بالتاريخ الحقيقي للمرأة الضالة التي ستكون زوجته، وثقة بأن الضال لا يهدي ضالا، لكن الوقت لم يكن فقط غير ملائم للتعليق، بل وكان أوان الاعتراض قد فات، بعد أن كرره أمام سيده أكثر من مرة، فاستهان به مرة ورفضه أخرى، ثم عنفه في الثالثة.

ومع أن علاقته بسيده الأمير كانت تتجاوز بكثير حدود العلاقة بين «السيد» و«التابع» لتصبح علاقة صديق بصديق. إذ كان هو الذي أطلق عليه اسم «علي بابا»، كما أنه كان الوحيد بين أتباعه الذي يسمح له باستخدام هذا الاسم في جلساتهما الخاصة، إلا أنه أدرك بخبرته بالدنيا، وبذلك النمط من أولاد الذوات الفاسدي الأخلاق أن شهوة «علي كامل فهمي» لامتلاك «ماجي» تبلغ من القوة درجة تجعل مقاومتها عبثا لا طائل من ورائه، ولا جدوى منه إلا أن يخسر مكانته في قلب سيده، وكانت تعطيه نفوذا واسع النطاق على حياته وممتلكاته، وتدر عليه مكاسب مادية وحسية يصعب التفريط فيها، فاختار أن يحني رأسه للعاصفة، واثقا أن «علي بابا» سوف يمل سريعا خضراء الدمن الفرنسية.

ولم تكن دوافع «العناني» للاعتراض على الزواج تنطلق جميعها من عوامل نفعية، ترتبط فقط بخوفه من أن تغلق «ماجي» صنابير المال الذي كان يتدفق عليه من سيده، أو أن تنافسه على المكانة التي كان يحتلها لديه، إذ كان يدرك أن «ماجي» ليست بالمرأة التي تصلح زوجة لشاب مدلل وعصبي مثل سيده، كما كان واعيًا بالفروق الكثيرة التي تحول دون تآلفهما، والغالب أنه لم يكن خاليا تماما من العواطف تجاه الشاب الذي كان ـ على الرغم من عيوبه الأخرى الكثيرة ـ يغمره بعواطفه وبعطاياه، ويعتبره صديقا له، بل لعله كان صديقه الوحيد، وموطن سره، كما كان مرشده في مسائل تتجاوز تسهيل سبل الشهوات إلى تدبير المصالح وإدارة الأطيان، والتعامل مع الدنيا التي كان «العناني» ـ بحكم العمر وطريقة التنشئة ـ أكثر خبرة بها.

والحقيقة أن طبيعة العلاقة بين «علي بابا» وتابعه «سعيد العناني» تلفت النظر، إذ كانت من أهم روافد المأساة، بل ربما تكون أهمها على الإطلاق، فقد كانت «ماجي» تغار ـ على نحو ما ـ مما كانت تعتبره نفوذا يملكه «العناني» على زوجها، ومع أنه لا يوجد ما يدل على أنها قد عرفت بأنه كان يعارض في زواج سيده منها، إلا أن احتمال علمها بذلك من «علي كامل فهمي» نفسه ليس مستبعدا، أما المؤكد فهو أن هذه الغيرة قد تحولت- بعد ذلك ـ من تنافس بينهما على تملك «علي بابا» إلى غيرة أنثوية،حتى إن «ماجي» بدأت تتعامل مع «العناني» باعتباره «ضرتها»!

ولأن شيئا من ذلك لم يكن قد اتضح بعد خلال تلك الأيام من نوفمبر وديسمبر ١٩٢٢، فإن ترددها في قبول عرض الزواج أخذ يتراجع بسرعة في مواجهة مظاهر الحب الذي يكاد يقترب من العبادة، فالزهور الجميلة تستبدل كل ساعة، والهدايا تقدم كل صباح، وكل رغبة من رغباتها ـ مهما كانت تافهة ـ أمر ينفذه بنفسه أو يأمر بتنفيذه أحد أتباعه الكثيرين، والأيام كلها مرحة تتفجر بالضحك وتمضي ـ بلا هموم ـ في النزهة والسياحة، والأمسيات تنقضي في الرقص وسماع الموسيقى وتناول العشاء



بهو قصر الرخام الوردي تتصدره نوافذ من الزجاج المعشق رسمها فنان إيطالي.. انتقلت ملكية القصر بعد مصرع «علي فهمي» إلى شقيقته «عزيزة فهمي» بعد أن اشترت أنصبة بقية الورثة. وبوفاتها عام ١٩٦٢ انتقلت ملكيته إلى شقيقتيها. وفي عام ١٩٦٤ صدر قرار بنزع ملكيته لتحويله إلى فندق.. ولكن المشروع لم ينفذ وتقرر عام ١٩٧٤ تحويله إلى متحف لمجوهرات الأسرة المالكة.. ثم تبين عدم صلاحيته لهذا الغرض، ثم خصصته الدولة لوزارة الثقافة، ويعرف الآن بـ«قصر الفنون» حيث تنظم فيه معارض للفنون التشكيلية

في أجواء غريبة ومثيرة، على سطح النيل ـ حيث كان يملك يختا يرسو على مرسى خاص يواجه قصر الرخام الوردي ـ أو في الصحراء تحت ضوء القمر أو في ظلال النخيل وبين الخضرة وفي حقول الزهور على أضواء المشاعل.

وكانا يتنزهان يوما في حديقة القصر الواسعة التي تمتد إلى نهر النيل وتنتهي ببناء من الزجاج، حين سألها:

ـ متى تنتقل الأميرة لتقيم في قصرها وتسعد قلب الأمير لتصبح أميرته؟

فقالت بدلال:

ـ دعني أفكر في الأمر!

وكانت تلك أول إشارة صريحة تكشف عن أن «ماجي» قد بدأت تأخذ عرض الزواج مأخذ الجد. وليس مستبعدا ـ طبقا لقاعدة السلوك الأنثوي الثابتة ـ أنها كانت تتمنع وهي راغبة، لكن العوامل الداعية لترددها لم تكن بسيطة. وعلى العكس

من «علي بابا» ـ المراهق الذي تقوده عواطفه ـ فإن «ماجي» كانت- بحكم السن والخبرة ـ سيدة ناضجة تدربت على أن تقود عواطفها، لذلك كان لابد وأن تتدبر في عرضه بالزواج وتقلبه على كل وجوهه، وتحسب حسابات الربح والخسارة فيه.. قبل أن تقدم ـ للمرة الثالثة ـ على مغامرة الاقتران برجل بعد تجربتين فاشلتين، لم تستطع خلالهما التواؤم مع «مؤسسة الزواج» بتقاليدها وعاداتها.

وكان الفارق في السن بينهما على رأس ما يدفعها للتردد. ومع أن زواج المرأة برجل يصغرها في العمر لم يكن نادرا آنذاك فإنه ـ كذلك ـ لم يكن شائعا أو مقبولا لاعتبارات فسيولوجية تتعلق بانتهاء خصوبة المرأة قبل الرجل بسنوات، مما يحتم أن يكون أكبر منها وليس العكس.. ولابد أن عمليات عقلية وحسابية معقدة، قد جرت قبل أن تقبل «ماجي» المخاطرة بقبول الزواج رغم الفارق المحسوس في العمر بينهما، والغالب أنها نظرت بقلق إلى بلوغها سن الثلاثين، صحيح أن منحنى فتنتها وأنوثتها كان في ذروته ولكن من الصحيح كذلك أن هذا المنحنى كان قد أوشك أن يتحول من منحني صاعد إلى منحنى هابط، ولعلها حسبت ما تبقى لها من سنوات الجمال والدلال، فأدركت أن أسعار أسهمها في بورصة العشق سوف تبدأ في التدهور خلال سنوات قليلة، فبدا لها الزواج من «علي كامل فهمي» احتياطا واجبا من تقلبات الزمن الوشيكة.

لكن الأمر لم يكن يخلو من بواعث القلق، فقد كشف «علي كامل فهمي» عن جانب من شخصيته، بدا لها متناقضا مع الصورة التي رأته عليها حتى ذلك الحين، إذ كان سريع الغضب بالغ القسوة مع الخدم، إذا ما تباطأ أحدهم في تنفيذ أوامره أو عز عليه فهمها.. وكان غضبه في معظم الأحيان بلا مبرر، وكان عقابه يتجاوز دائما كل الحدود ليصل إلى حد البطش، ومع أنها أدركت أنه يفعل ذلك أمامها على سبيل التباهي بسلطته وقوته، فقد ارتجفت من لجوئه إلى القسوة والبطش لإثبات ذاته، وقلقت من النزعة الاستعراضية والروح التنافسية العالية التي كانت تسيطر عليه، إذ لم يكن يكتفي بقيادة سيارته بسرعة هائلة تثير الذعر في شوارع القاهرة، بل كان حريصا على أن يسبق الجميع، فإذا ما تجاوزه قائد السيارة التي تسير خلفه، دخل معه في سباق لكي يلحق به، ثم انحنى بمقدمة سيارته نحوه، فأوقفه ونزل ليتشاجر معه وقد يضربه بسوطه، إذا كان سائقا مسكينا وليس صاحب السيارة.

وكان قد عاد لممارسة هوايته في إزعاج سكان العائمات التي ترسو على شاطئ الجزيرة بقيادة زورقه البخاري القوي على سطح النيل، والاندفاع به بأقصى سرعة ليحدث دوامات عنيفة تثير الرعب بين سكانها فيخرجون إلى شرفات تلك العائمات وهم يهددونه بقبضات أيديهم، فيرد عليهم بضحكات عالية تعبر عن سعادته لما لحق بهم من ذعر وخوف.

ومع أنها أدركت ـ بعد أسابيع من إقامتها في مصر ـ أن هذه الظواهر كلها، شأنها في ذلك شأن التنافس في الإنفاق بسفاهة هي من تقاليد الجيل الشاب من وجهاء المصريين الذين كانوا يعتقدون أن الشرف يقضي عليهم بمنعه من أن يسبقهم بسيارته أو بزورقه، إلا أن ذلك قد جدد مخاوفها من أن يقودها الزواج منه، لدخول مغارة «علي بابا» لتعيش سجينة داخل جدران زنزانة من الذهب، تفتح فقط بكلمة سر لا يعرفها سوى صاحبها الذي بدأت توقن بأنه أمير شرقي مجنون مصاب بعقد التسلط والسيطرة.

وعلى الرغم من أنها ـ في مذكراتها التي نشرتها فيما بعد ـ اتخذت من هذه الظواهر مبررا لكي تقرر العدول عن مشروع الزواج فأخطرته بأن الأوان قد آن لكي تعود إلى «باريس»، وحجزت لنفسها بالفعل مكانا على الباخرة «سفنكس» ـ التي كان مقررا أن تغادر الإسكندرية في ٢٢ ديسمبر ١٩٢٢ ـ إلا أن كل الشواهد تدل على أن الأمر لم يكن أكثر من مناورة أرادت بها أن تدفعه لحسم مشروع الزواج، إذ كان قد كف عن الحديث عنه بعد أن ألقى بالكرة في ملعبها، ولعلها خشيت أن يكون قد عدل عنه بعد أن تحقق كل ما كان يرجوه منه، إذ كانا يعيشان معا في القاهرة كزوجين، وكانت كل مجتمعات «الكشاكش» المصريين قد عرفت بأنه استرد كرامته واقتنص الغانية التي كانوا يتندرون بهروبها منه.

وحققت المناورة هدفها بسرعة تتناسب مع ضيق الوقت الفاصل بين إعلانها لعزمها على السفر وموعد تحرك الباخرة، فعاد «علي كامل فهمي» يلح عليها بالبقاء، فهي لم تزر بعد آثار «توت عنخ آمون» واليخت الذي يملكه جاهز للتحرك بها على سطح النيل من القاهرة إلى الأقصر، لتتفقد ـ بصحبته ـ آثار أجداده، في رحلة نيلية لم تكن تتاح إلا للملوك والأمراء، إذ كان من غير المنطقي ـ في رأيه ـ أن تغادر الأميرة مصر دون أن تشاهد عيونها الجميلة المعجزة التي يتحدث عنها العالم.. ولو أنها وافقت على عقد زواجهما المدنى الذي لم يكن ينقصه سوى



«علي فهمي» يقود زورقه البخاري قوة ٤٥٠ حصانا.. وإلى جواره سعيد الشناوي

توقيعها، فما أجمل أن يمضيا شهر العسل على سطح النيل، ويتوجا غرامهما تحت أعمدة معبد الكرنك، ويزورا قبر الفرعون الشاب الذي مات وهو في عمر يناهز عمر «علي بابا فهمي»، لترى نموذجا من الحياة المترفة التي وعدها ـ في عبارات عاطفية مشبوبة ـ بأن تعيش مثلها، فلم تتنبه وهي تسمعها إلى دلالة قوله بأن أصدقاءه يتراهنون عما إذا كانت ستتزوجه أم لا.. ووافقت ـ بعد يومين كاملين من الإلحاح المتواصل ـ على الزواج منه.

وهكذا دخلت «ماجي» مغارة «علي بابا».

ودخل «علي كامل فهمي» قبر «توت عنخ آمون».

وكان منطقيا أن يحيط الأمير «علي كامل فهمي» هذا النبأ العظيم بالطقوس التي تتناسب مع أهميته الكبرى لديه، فحجز القاعة الرئيسية بفندق«شبرد» ليقيم بها ـ في مناسبة أعياد الكريسماس ـ مأدبة عشاء فخمة، دعا إليها عشرات من وجهاء المصريين كان من بينهم جميع منافسيه من «الكشاكش» وتصدرها وإلى جواره «ماجي»، وهي في قمة فتنتها وتألقها وبشر أثناءها الجميع بأن عقد زواجهما المدني سيتم التوقيع عليه في اليوم التالي، فعلت وجوه بعضهم أمارات البهجة واغتاظ آخرون، أو هكذا توهم هو بأنه أغاظهم؛ لأنه كسب الرهان منهم وانتصر في حربه المظفرة لكي يحوز امرأة أوروبية مستوردة رأسا من بلادها، وليست مستوطنة ممن تعود المنافسون حيازته، فهي صنف نادر من النساء لايقتني مثله إلا القليلون. وتلقى التهاني وهو يشعر بفخر شديد لأنه نجح أخيرا في أن يقتني امرأة يزري جمالها وأرومتها بكل بنات الباشوات المصريين الذين تعالى أحدهم عليه، واستهان به ورفض تزويجه من ابنته، صحيح أن عم «ألبير» والد «ماجي» لم يكن يحمل رتبة اللواء البحري،أو لقب البارون، أو يصاهر «سعد زغلول» كما كانت حال «إسماعيل سرهنك باشا» بل كان مجرد سائق سيارة ترقى فأصبح كاتبا لمحام إلا أنه كان ينتمي للجنس



صالة الرقص في المبنى القديم لفندق «شبرد».. لم يكن يتردد عليها أيامها سوى الأجانب ووجهاء المصريين

الأوروبي المتفوق الذي يحكم الدنيا ـ بما فيها مصر ـ والذي يشحذ منه «سعد زغلول» الاستقلال، وقبول ابنته لزواج منه دليل على أنه ينتمي لهذا الجنس العظيم إن لم يكن بالعصب.. فبالنسب!

ولم تكن «ماجي» تقل عنه سعادة أو فخرا وقد قالت فيما بعد: «شعرت في تلك الساعة بسعادة عظيمة وكنت مخلصة في هذا الشعور، فقد توهمت أننا بتنا على أبواب حياة مشتركة كالتي قرأت عنها في كتاب «ألف ليلة وليلة» كلها رغد وصفو وآمال بعثها في نفسي عبارات الشاب الذي عبر لي عن غرام لا يوصف، ووضع ثروته الطائلة ـ بكل ما تعد به من سعادة ـ تحت أقدامي».



في اليوم التالي ـ الثلاثاء ٢٦ ديسمبر ١٩٢٢ ـ وقَّع الاثنان عقد الزواج المدني الذي ظلت بنوده موضع مراجعة حتى اللحظات الأخيرة التي سبقت إعلان «ماجي» لموافقتها على الزواج، بل وكانت بعض هذه البنود محل خلاف عنيف بينهما؛ إذ أصر «علي كامل فهمي» على أن تترك «ماجي» ديانتها ـ وكانت مسيحية كاثوليكية ـ لتعتنق الدين الإسلامي، ولم يكن لذلك أية علاقة بتدينه، إذ لم يكن يعرف عن الإسلام شيئا أو يقوم بأي طقس من طقوسه، وكان ـ شأن كثيرين من أمثاله ـ شابا منفلتا يعيش حياته باستهتار لا يجعل لديه وقتا للإيمان بشيء خارج نفسه، بل وكان يقول كلما آخذه أحد على أسلوب حياته: «أنا لا أخشى أحدا لا الله ولا الشيطان» لكن إلهاما خفيا كان قد أوحى لأمه بأن توقف جانبا كبيرا من ثروتها عليه على أن يستغلها ويعيش على ريعها، ولكن حق التصرف فيها لا ينتقل إليه إلا إذا تزوج، فإذا تزوج بغير مسلمة، فقد حق الاستغلال وحق التصرف معا.. فلم يكن هناك مفر من أن تغير «ماجي» دينها وإلا فقد الاثنان حق التمتع بميراثه الطائل من أمه، ونقصت الكنوز المخبوءة في مغارة «علي بابا» بما يساوي حمل جمل!

ومع أن «ماجي» ترددت في قبول هذا الشرط، وتذرعت بأنها لا تستطيع ـ هي التي تربت في مدرسة للراهبات ـ أن تترك دينها، إلا أن نمط الحياة التي كانت تعيشها كان تكذيبا علنيا لهذا الادعاء، وفضلًا عن أن التفريط في حمل جمل من كنز «علي بابا» ـ الذي كان الزواج يمنحها حق مشاركته فيه ـ كان مستحيلًا على امرأة من نوعها، فقد هوَّن «علي كامل فهمي» عليها الأمر، وتعهد لها بأنه لن يمنعها من التردد على الكنيسة كل أحد، بل وكل يوم إذا شاءت، وأن اعتناقها الإسلام هو أمر شكلي لتنفيذ وصية الأم الراحلة لن يكون له أثر عملي، فوافقت على تغيير دينها، وكشفت ـ عند ذاك ـ عن سبب معارضتها الحقيقي، إذ أصرت على أن تحتفظ لنفسها ـ بنص صريح في العقد المدني ـ بحقها في الانفصال عن زوجها إذا ما تزوج عليها.

وفي اليوم التالي بدأت تتخذ الإجراءات القضائية لإشهار إسلامها.. وما كادت تتقدم بطلب رسمي بذلك إلى «محكمة مصر الشرعية» حتى أحالته المحكمة إلى محافظة القاهرة التي أبلغت الكنيسة الكاثوليكية بالأمر.

وطبقا للإجراءات التي ينص عليها القانون في حالات تغيير الدين فقد أوفدت الكنيسة أحد قساوستها ـ وهو الأب «مارشال» ـ إلى مبنى المحافظة حيث التقى بـ«ماجي» بحضور ممثل للمحافظ لكي يتثبت من أنها لم تتعرض لضغط أو إكراه أو إغراء لكي تغير دينها، ويحاول إثناءها عن ذلك وأكدت «ماجي» أنها تقدمت بالطلب بإرادتها الحرة.. واستمعت لموعظة الأب «مارشال» بعيون شاردة ثم قالت:

ـ ذلك ما أراده الله يا أبي ولم يعد في استطاعتي أن أتراجع عما عزمت عليه، ومع ذلك فلن أنسى ديني الذي نشأت عليه.

وهَّم الأب «مارشال» بمواصلة موعظته لكنها قاطعته قائلة:

ـ لقد سعيت إليك يا أبي لكي تساعدني على اجتياز محنتي لا لكي تزيدها.

ومع أن القسيس وقَّع ـ على إثر ذلك ـ على المحضر الرسمي الذي يدل على أنه قام بمهمته، إلا أنه كرر المحاولة بعد ذلك بيومين، فقد وجدته ينتظرها في مدخل محكمة مصر الشرعية لتقوم بآخر إجراءات إشهار إسلامها، وانتحى بها ركنا بعيدا عن زوجها الذي كان يصحبها هو وشقيقاته، وقال لها:

ـ فكري في دينك يا بنتي.

فقالت له:

ـ إنك تؤلمني يا أبي.. فأنا أحب خطيبي.. ويجب أن أحترم مصالحه.

ثم قدمت له خمسين جنيها قالت إنها تبرع منها للمساهمة فيما تقوم به الكنيسة من أعمال خيرية، وأعطاها أحد كتب الصلوات وأسدلت «اليَشْمَك» الأبيض على وجهها، ومثلت أمام المحكمة وأخرجت ورقة كانت كتبت فيها الشهادتين بالحروف الفرنسية ورددتهما وراء القاضي.

وعندما انصرفت مع زوجها وشقيقاته من مبنى المحكمة، كان اسمها قد تغير إلى الاسم الذي اختاره لها «علي كامل فهمي» وهو اسم أمه وخطيبته السابقة فأصبحت تعرف ـ في الأوراق الرسمية فقط ـ باسم «منيرة هانم ميللر»!

وبعد أيام قليلة أخرى، حصلت على شهادة من القنصلية الفرنسية بأنها ليست متزوجة، إذ كان الحصول على شهادة بهذا المعنى ضروريًا لإتمام الزواج الديني، إذ هي التي تثبت «خلوها من الموانع الشرعية» التي تحول دون الزواج طبقا للشريعة

الإسلامية، كأن تكون على ذمة رجل آخر.. أو مطلقة أو أرملة لم تنقض مدة عدتها.

لكن الحصول على تلك الشهادة لم يحل دون نشوب خلاف شرعي بين الزوجين، كاد يعصف ـ في آخر لحظة ـ بمشروع الزواج من أساسه.

ففي ظهر يوم الإثنين ١٥ يناير ١٩٢٣، انتقلت «ماجي» وبصحبتها محاميها «البروفسير أسود» إلى مقر دائرة «علي كامل فهمي» بقصر والده بـ«باب اللوق»، فوجداه ينتظرهما بإحدى قاعاته الفسيحة، وبصحبته مأذون الشرع واثنان من الشهود وعدد من موظفي الدائرة، وتلا المأذون نص العقد الديني باللغة العربية وترجمه «البروفسير أسود» إلى الفرنسية، وكان أول ما لاحظه الاثنان، هو أن العقد الديني قد خلا من نص يكفل لها الحق في تطليق نفسها بنفسها، كما اتفقا على ذلك في عقد الزواج المدني، واعترف «علي كامل فهمي» بأنه الذي استبعد النص من العقد، ومع أنه لم يستطع أن ينكر أن الشريعة الإسلامية تبيح للزوجة أن تحتفظ بعصمتها في يدها، وأن تتساوى مع الرجل في حق الانفصال عنه، إلا أنه اعتذر بأن التقاليد الاجتماعية تنظر باستهانة ـ تصل إلى حد الازدراء ـ إلى الرجل الذي يوافق على أن تتساوى زوجته معه في حق الانفصال.



١٩٢٣: الممثلة الأمريكية «واندا هاولي» تقف أمام مدخل فندق «شبرد» القديم، لتمثل مشهدًا في فيلم سينمائي صامت، تدور قصته حول غرام أحد الأمراء المصريين بفاتنة أوروبية.. كان واحدًا من أفلام هوليود الشرقية.. وقد طارت «واندا هاولي» بعد التصوير إلى الأقصر لتزور آثار «توت عنخ آمون» وكانت بين المدعوين إلى الوليمة التي أقامها «علي فهمي» في جبانة وادي الملوك احتفالاً بزفافه

وهكذا توقفت مراسم التعاقد، واشتبك الاثنان في مناقشة طويلة لم تنته إلى نتيجة، إذ أصر كل منهما على رأيه وأبى أن يتزحزح عن عناده.

ولو تنبه أحد ممن كانوا يحاولون تقريب وجهات النظر بينهما لحظتها، لأدرك أنهما شخصيتان صراعيتان تشغفان بالمبارزة، ولأشفق من حرب الإرادات التي ستنشب بينهما حين يعيشان تحت سقف بيت واحد، بعد أن ينتهي وهج الحب وتنطفئ نار الشهوة، لكن الجميع كانوا مشغولين بمحاولة دفع أحدهما للتنازل من أجل إرضاء الآخر.. وحين تركز الإلحاح ـ أخيرا ـ على «منيرة هانم» ووصل إلى حد وضع القلم بين أصابعها، ثارت في وجه الذين كانوا يتوسلون إليها بأن توقع، لأنهم يتوهمون أنها الطرف الأضعف الذي يجب أن يتنازل.

وحط الصمت والوجوم على الجميع!

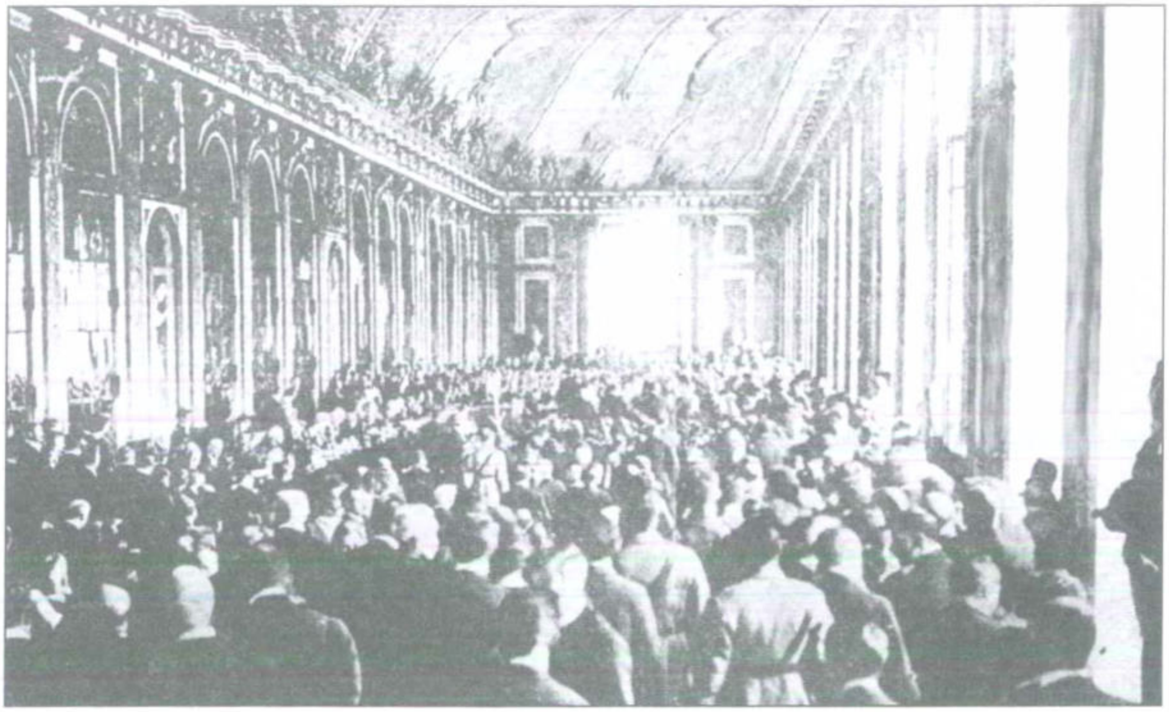
وكان «علي كامل فهمي» هو الذي قطع حبل الصمت فطلب من «ماجي» أن تصحبه إلى قاعة مجاورة، حيث أخذ يتوسل إليها، بعيدا عن عيون الجميع، أن تتنازل عن حقها في تطليق نفسها، مؤكدا لها مدى المهانة الاجتماعية التي سوف يتعرض لها، إذا شاع بين الناس أن زوجته قد احتفظت بحق تطليقه.. واستمرت المناقشة بينهما لمدة أربع ساعات كاملة، خرجت ـ بعدها ـ «منيرة هانم» لتعلن عدولها عن موقفها، وتردد وراء المأذون النصوص الشرعية لعقد الزواج، وتقر أمامه بأنها تسلمت مقدم صداقها ـ مليون فرنك ـ ثم توقع أمامه على العقد فيتنفس الجميع الصعداء، وكان أسعدهم بانفراج الأزمة هو المأذون والشاهدان إذ لو لم يتم العقد لما حصل كل منهم على الساعة الذهبية الفخمة التي أهداها له العريس.

وفيما بعد ـ وأثناء محاكمتها بتهمة قتل زوجها ـ اتخذت «ماجي» ومحاميها من هذه الواقعة، وسيلة لإثارة نعرات التعصب الديني والعنصري لدى الأوروبيين، لكي يتعاطفوا معها ضد الزوج الشرقي المتخلف، وقالت إن تفريطها في حقها بتطليق نفسها هو أكبر أخطائها إذ افتقدت بتنازلها عن هذا الحق للإحساس بالاستقرار، وعاشت في قلق دائم مع زوج يعطيه دينه الحق في أن يطلقها في أي وقت ولأتفه الأسباب بمجرد كلمتين يتلفظ بهما أمام اثنين من الشهود، وأصبحت ـ من جانب آخر ـ سجينة بين يديه، فهي لا تستطيع أن تنفصل عنه حتى لو استعمل الحق الذي يعطيه له دينه واتخذ إلى جوارها ثلاث زوجات أخريات، ولكي تحقق هدفها في استثمار الواقعة بالغت ـ في أقوالها أمام المحكمة ـ في تصوير الضغوط التي تعرضت لها لكي تتنازل عن حقها في تطليق نفسها.

والحقيقة أن الخلاف كان أبسط مما حاولت تصويره أثناء المحاكمة، إذ لم تكن ـ بحكم مذهبها الكاثوليكي ـ تملك أصلًا حق الانفصال عن أي من زوجيها السابقين، مما اضطرها أن تتزوج من كل منهما بعقد مدني.. ثم إن حقها في الانفصال عن «علي كامل فهمي» كان مكفولًا لها بمقتضى عقد زواجهما المدني، مما يعطيها حق المقاضاة لما بين العقدين من تناقض.

والغريب أنها اعترفت ـ بعد ذلك بسنوات ـ أنها شعرت بسعادة بالغة عندما رفض زوجها منحها الحق في طلب الطلاق، ووجدت في ذلك دليلًا على حبه العظيم لها وتعبيرا عن رغبته في أن يحتفظ بها مدى الحياة.

وهكذا ـ وبعد أكثر من خمسة عشر عاما من حياة اللهو والمجون ـ تحولت الغانية الفرنسية «ماجي ميللر» من عشيقة شبه رسمية لأمير الشباب «علي كامل فهمي» إلى



قاعة المرايا في «قصر فرساي» التي نقل «علي فهمي» تصميمها وأراد أن ينشيء قاعة مثلها في قصره

زوجة شرعية له، وكان الزفاف قد تم في مساء اليوم الذي وقعا في صباحه على العقد المدني ـ وهو ٢٦ ديسمبر ١٩٢٣.

وانتقلت «منيرة هانم» ـ في موكب أشبه بمواكب الملكات ـ من فندق «سميراميس» إلى قصر الرخام الوردي.

وبعد احتفال ذكَّرها بليالي ألف ليلة وليلة، صعدت إلى غرفة نومها التي كانت غرفة لنوم ملك الصرب، وما كادت تدخلها حتى خيل إليها أنها قد دخلت إلى مغارة «علي بابا».

كانت صورتها الفوتوغرافية تستقر على منضدة تجاور سرير الأمير داخل إطار من الذهب المطعم بالماس والأحجار الكريمة، وكان الحرفان الأولان من اسمها قد حفرا بالماس على أدوات الزينة الخاصة بها، وكانت كلها من الذهب الخالص: الأمشاط وفرش الشعر، وزجاجات العطور وعلب البودرة وأقلام الحواجب، وحتى مقصات ومبارد الأظافر.

كان كل شيء في المغارة من الذهب لكنها كانت على الرغم من ذلك كانت مغارة!

وما كاد «علي كامل فهمي» يلحق بها ـ بعد أن ودع آخر المدعوين إلى حفل

الزفاف الأسطوري ـ حتى اقترب منها وسحبها من ذراعها ـ بلا تمهيد ـ ليلقي بها على الفراش وأدهشها أن الرجل الذي كان يقطر رقة وعذوبة وعطفا في ليالي شهر العسل الأولى التي قضياها في فنادق «رويال» «بدوفيل» و«ماجستيك» بباريس وفي إسبانيا، قد انقلب فجأة ليصبح وحشا حين دخلت مفارته.

وأذهلها أنه كان يعاملها وهي عشيقته باحترام يليق بالزوجة، فلما أصبحت زوجته عاملها ـ في ليلة زفافهما الأولى ـ بفحش تحمر منه وجوه البغايا خجلًا!

ومع أنها التمست له العذر بجو الإثارة الذي كان يشيع في حفل الزفاف، وبما احتساه من خمر إلا أن الشواهد أخذت تتراكم أمامها خلال الأيام الأولى من شهر العسل، لتكشف أنه لم يكن قد تبقى من العسل ـ بعد ما تذوقاه منه في دوفيل وباريس وإسبانيا ـ إلا النزر اليسير، وأنها خسرت بزواجها منه بدلا من أن تربح، وأن مكانة الزوجة في الشرق، كما هي في الغرب، أدنى من مكانة العشيقة، وأنها فقدت جاذبيتها له بعد أن أصبحت ملك يمينه وطوع رغباته.



وكان ما حدث صباح ليلة الزفاف نموذجا للفارق بين مراسم عهد العشق ومراسم عهد الزواج، إذ لم تكد تغادر مخدعها وقد لفّت جسدها بروب منزلي حتى رأته ـ وهي تهبط السلم الذي يقود إلى بهو القصر ـ يقف في غرفة الاستقبال، وقد اصطف أمامه جميع خدمه، فتوهمت أنهم سيكررون التشريفة التي استقبلتها عندما وصلت إلى ميناء الإسكندرية.

وقبل أن تهبط آخر سلالم الدرج، كانت قد استيقظت من وهمها على صوت أمير الأحلام وهو يصرخ في وجهها طالبا منها أن تعود إلى غرفتها فورا ولا تغادرها إلا وهي ترتدى ملابس الخروج، ولا تهبط إلى الدور الأرضي إلا بعد أن ترسل «الباش أغا» أو إحدى وصيفاتها ليستأذن منه في مغادرة سموها لغرفة نومها وفي نزولها من الطابق الأعلى.

فعلى عكس ما كانت تتوهم فلم يكن تنظيم التشريفة هو موضوع الاجتماع الذي حضره كل العاملين في القصر، إذ كان الموضوع الوحيد في جدول أعماله هو «تنظيم الحَرَمْلك» بعد أن أصبح للقصر سيدة!

احتجت «منيرة هانم» على الطريقة الفظة التي عاملها بها الأمير أمام الخدم، فعادت إلى حجرتها لتعتكف فيها لمدة يومين، اضطر خلالهما «علي كامل فهمي» لكي ينام في غرفة إضافية، وتأجلت رحلة شهر العسل التي كان مقررا أن تبدأ في اليوم التالي للزفاف، وظل اليخت الفاخر الذي يملكه الأمير واقفا عند مرساه المواجه للقصر، في انتظار حل الخلاف بين الزوجين ليبحر بهما من القاهرة إلى الأقصر، واضطر قائده

إلى استبدال بعض المواد الغذائية التي كان قد زوده بها وخاصة الخضراوات بعد أن دب فيها الفساد.

ورفض «علي كامل فهمي» أن يقوم بأية مبادرة لاسترضاء زوجته، فقد استفزه احتجاجها واعتبره تمردا على إرادته، رد عليه بتجاهلها تجاهلا تاما حتى لا تتعود على معاملته بالأسلوب نفسه.. لكن شقيقتيه انزعجتا من تلك البداية السيئة لحياته الزوجية التي أحبطت آمالهما في أن يهدأ وأن يستقر.. وأدركتا بمرارة أن تلهفه على الزواج من «ماجي» الذي دفعهما للموافقة عليه والتهاون في كثير من الاعتبارات الاجتماعية، لم يكن حبا.. ومع ذلك فقد تشبثتا بآخر خيوط الأمل وتدخلتا للصلح بين الزوجين، وزارتا «ماجي» في غرفتها لتسترضيانها وقالت إحداهما وهي تربت على ظهرها:

ـ إنه صغير السن.. وعذره أنه يحبك!

ولم تكد تقول ذلك حتى دخل الأمير الغرفة ليدلل على صحة ما قالته شقيقته، فاحتضن زوجته وحملها بين ذراعيه القويتين وسار بها ـ عبر البهو ـ إلى المعبر الذي يربط بين القصر واليخت.

وما كادت تستقبل شمس الشتاء الدافئة على سطحه، حتى أشار الأمير إلى أحد معاونيه فتقدم نحوه وانحنى أمامه بصينية من الفضة تحمل علبة من القطيفة السوداء، تناولها الأمير وفتحها وأخرج منها دبوسا يتكون من ماسة كبيرة على هيئة قرص الشمس تحيط بها ماسات صغيرة تمتد منها أشعتها، فعلقه على صدرها وحين استدارت تلألأت أشعة شمس الماس، فاختلطت بأشعة شمس الطبيعة وانعكس الاثنان على وجهها الجميل فزاداه جاذبية.

ومع أنها ما كادت ترى الهدية حتى أدركت أنها هي نفسها التي ورد وصفها في شائعات وكالات أنباء العشق في باريس تدليلا على أن «علي كامل فهمي» رجل «بنج بونج»، حين ذكرت أنه كان قد أهدى الدبوس نفسه من قبل إلى ثلاث نساء على التوالي، واستخدمها كطعم لاستدراجهن إلى غرفة نومه ثم استرده منهن بطريقته الخاصة، فقد أسعدها ما فعل، إذ لو لم يسترد الدبوس منهن لما وصل إليها.

١٩٢١: امرأة من الطبقة الوسطى المصرية تسير مع زوجها في الشارع وقد وضعت على وجهها حجابًا من نسيج شفاف أبيض كان يسمى بـ«التول» شاع استخدامه بعد الحرب الأولى كخطوة نحو السفور.. والصورة نشرتها صحيفة بريطانية ضمن تحقيق عن أوضاع المرأة المصرية في العشرينيات





الأمير «علي فهمي» يساعد زوجته الأميرة «منيرة فهمي» على النزول إلى اليخت الذي سيقلهما إلى الأقصر لزيارة آثار «توت عنخ آمون».. وقضاء شهر العسل

وكانت لا تزال تقف على سطح اليخت بجلال الملكات، حين أصدر الأمير أوامره بالإبحار، ليبدأ شهر العسل الأسود شديد المرارة.

مضى يخت الأمير «علي كامل فهمي» يشق سطح النيل الذي انعكست على صفحته أشعة الشمس فأحالته إلى بساط من الفضة يتوسط بساتين من الخضرة امتدت على الضفتين حتى تلامس مع زرقة السماء عند حد الأفق، فبدأ كما لو كان زورقا للأحلام ينتمي إلى عالم غير العالم، ودنيا غير الدنيا، ويقل ناسا يختلفون عن كل الناس.

وكانت تلك ـ على نحو ما ـ هي الحقيقة أو على الأقل جانبا منها.. إذ لم يكن اليخت واحدًا من أفخم اليخوت التي تبحر في النيل فحسب، بل كان ـ ككل ما يملكه الأمير ـ الوحيد من نوعه من مصر سواء في هندسته أو في تأثيثه أو في وسائل الراحة المتاحة لمن يقيمون على سطحه، وكان ـ من حيث دلائل العظمة ـ أقرب ما يكون إلى جناح عائم من قصر الأمير.

لكن أحلام العاشقيْن اللذين أبحرا على سطحه ـ في منتصف يوم الثلاثاء ٢٣ يناير ١٩٢٣ ـ في طريقهما إلى الأقصر لقضاء شهر العسل الشرعي لم تكن بمثل تلك العظمة: تمزقت ـ بعد أكثر من خمس سنوات على أول لقاء بينهما ـ ستر الأحلام،

وتبدد ضباب الأوهام، أما وقد اصطاد كل منهما الآخر وأدخله إلى قفصه، وأشبع لهفته على اكتشافه، وأرضى رغبته في التعرف على تضاريس جسده وروحه، وحقق فرحة الاندماج به واقتحامه، فقد تعطلت تدريجيا فاعلية قانون العشق لتبدأ فاعلية قانون الزواج: أصبحت مناورات الإغواء والتمنع، والمطاردة والصد غير ذات أثر أو موضوع،وتحرر كل منهما من التكلف الذي كان يكره نفسه عليه لكي يحوز على إعجاب الآخر أو ليحول دون نفوره منه، بل وأصبح مستحيلا أن يمارس ذلك التكلف مهما أجبر نفسه عليه وهما يعيشان معا في بيت واحد وجها لوجه وعلى امتداد ساعات الليل والنهار.. لأن ذلك فوق طاقة البشر.

وهكذا لم يعد هناك مفر من أن يبدو كل منهما ـ أمام الآخر ـ على حقيقته دون زينة تخفي قبح الوجه، أو قبح النفس، أو مجرد الاختلاف في العادات والتقاليد.

ومع أنهما لم يكونا أول زوجين يواجهان أزمة الانتقال من حالة العشق إلى حالة الزواج، إلا أن عوامل عديدة جعلت هذا التناقض التقليدي يطرح نفسه على حياتهما الزوجية بشكل أكثر حدة مما يطرحه على غيرهما.

ولأن كلًا منهما كان ينتمي إلى حضارة تختلف عن حضارة الآخر، وبالتالي إلى منظومة مختلفة من القيم الخلقية الفردية والاجتماعية، وعادات السلوك، فقد كان منطقيًا أن يبرز التناقض بينهما، وكان يمكن احتواء هذا التناقض ـ كما حدث في كثير من الزيجات المماثلة ـ لو أن «علي كامل فهمي» كان أكثر نضجا من الناحية الانفعالية وأكثر ثقافة من الناحية العقلية، ولو أن «ماجي» كانت ذات تاريخ يختلف عن تاريخها، ولو أن الزواج بينهما كان قد تم استجابة لحب حقيقي، وليس إشباعا لرغبة كل منهما في تملك الآخر.

ولم يكن ما حدث في صبيحة ليلة زفافهما الثاني سوى تعبير عن هذا التناقض بين الحضارتين وبين الحالتين ـ العشق والزواج ـ إذ لم تتصور «ماجي» أن ظهورها بملابسها المنزلية أمام رجال غرباء يمكن أن يكون باعثا على غضب الأمير أو حتى عتابه.. إذ كانت قد تعودت ـ كمعظم النساء الأوروبيات ـ أن تخرج سافرة وأن ترتدي ملابس تكشف عن ذراعيها، وجانب من ساقيها وأحيانا صدرها، دون أن يثير ذلك انتباه أحد في «باريس»، فإذا اقتحمتها عيون بعضهم اعتبرت ذلك إعجابا بجمالها لا تضيق به حتى لو تجاوزت بعض النظرات المقتحمة التخوم بين الإعجاب والشهوة، فذلك ليس مبررا لكي تسجن نفسها في بيتها أو في ملابسها، إذ المشكلة ـ في تلك الحالة ـ هي مشكلتهم لا مشكلتها.

ثم إنها كانت تظهر كثيرا بفساتين السهرة وبملابسها المنزلية أمام أصدقائهما المشتركين سواء في «باريس» أو في «القاهرة»، فما الذي استجد ليغضب الأمير كل

هذا الغضب لمجرد ظهورها بروب منزلي أمام رجال هم في حكم خدمها، ويفقد سيطرته على نفسه فيهينها علنا؟!

وكان لا بدأن ينقضي شهر العسل الثاني وأن تتعدد الأزمات قبل أن تجد «ماجي» إجابة لهذا السؤال، فتكتشف أن كل الحسابات التي أجرتها قبل أن توافق على الزواج منه قد أغفلت حساب أثر التحول من «حالة العشق» إلى «حالة الزواج» على علاقتهما.. فحين كانت عشيقته كان حريصا على أن يبدو أمامها في الصورة التي تجذبها إليه، لذلك كان يضغط على نفسه ليتكلف الرقة ودماثة الخلق، وليعلن افتتانه بكل ما تقوله أو تفعله حتى لو كان يكاد ينفجر غيظا منه، فلا يعترض على أن يراها الرجال بل لعله كان حريصا على أن يعرضها عليهم، من باب المباهاة بشرف مصاحبتها، ولا يضايقه إذا ما رآها تحادثهم أو تجلس إليهم أو أن تراقصهم شأن كل جنتلمان أوروبي يؤمن بمساواة المرأة بالرجل.

ولأنه ـ بحكم ثقافته التي كانت أقرب إلى الأمية.. وبحكم خبرته المحدودة التي لم تكن قد غادرت سن المراهقة ـ لم يكن يؤمن بشيء من ذلك، بل كان يتظاهر به ليغطي إحساسا بالنقص تجاه الأوروبيين عموما، وهو إحساس كان أقرب ما يكون إلى «المزاج القومي» للمصريين خلال تلك السنوات، فقد كف ـ بمجرد أن دخلت الغانية الفرنسية قصره وتحولت من عشيقته إلى زوجته ـ عن التظاهر بشيء من ذلك، بل واعتبر الزواج نهاية لاختلال ميزان القوة بينهما، فمن الآن لم يعد هو الطالب الذي يلح ويتوسل، ولم تعد هي المطلوبة التي ترفض وتتدلل وتتعالى.. بل وآن لها أن تدفع ثمن المشاق التي تكبدها في مطاردتها.. والإذلال الذي عرَّضته له حين كانت تلاوعه.

ومع أن الرحلة من «القاهرة» إلى «الأقصر» لم تكن تستغرق سوى عشرين ساعة بالقطار، فإنهما اختارا السفر على ظهر اليخت الذي يقطعها في أسبوعين، لكي تتاح للأميرة فرصة للاستمتاع بالرحلة النهرية، ولكي يقيما في بيتهما العائم الأكثر فخامة وراحة من كل الفنادق، خاصة وأنه لم يكن يوجد بالفندقين الوحيدين بالأقصر ـ آنذاك ـ غرفة واحدة خالية بعد أن ازدحمت المدينة بآلاف من الأجانب توافدوا عليها لمشاهدة آثار «توت عنخ آمون».

وفضلا عن ذلك، فقد كان السفر على ظهر فندقه العائم هو ما يتناسب مع المكانة الخاصة التي أراد أن ينتزعها لنفسه بين الملوك والأمراء والوزراء وكبار الشخصيات العالمية التي كانت تزحم المدينة، إذ لم يكن مما يليق بمكانته ـ وهو أعظم أحفاد «توت عنخ آمون» ـ أن يزاحمهم على غرفة في فندق، أو أن يقيم في خيمة من عشرات الخيام التي نصبها الفندقان في حديقتيهما لكي يأوي إليها الذين لم يجدوا في المدينة غرفة تأويهم.

ولما كانت الرغبة في التميز على كل تلك الشخصيات العالمية فضلا عن التباهي أمام زوجته نفسها، هي أحد أهداف الرحلة، بل لعلها كانت أهم أهدافها، فقد زود



١٩٢٣: أمام باب مقبرة «توت عنخ آمون».. اللورد «كارنافون» الثري البريطاني الذي مول الحفائر التي انتهت بأهم الاكتشافات الأثرية في النصف الأول من القرن العشرين، وإلى جواره ابنته.. ثم مكتشف المقبرة «المستر كارتر» (بالقميص الأبيض) ومساعده

اليخت قبل إقلاعه بأدوات احتياطية للمائدة، وبعدد كبير من الطهاة فضلا عن الخدم والوصيفات والبحارة، وكان الأمير يصدر إليهم تعليماته مباشرة ومن خلال سكرتيره «سعيد العناني» الذي كان الرجل الأول في بلاط الأمير العائم.

وعلى الرغم من كل ما كان يحيط بهما من مظاهر العظمة والجمال والهدوء داخل اليخت وخارجه، إلا أن انفراده بها في هذا المكان المحدود المنقطع الصلة بالعالم والذي يخضع كل المقيمين على ظهره لإرادته دون مناقشة، سرعان ما أغراه باستعراض قوته، فاستفزها للاعتراض على سلوكه، فانقضت الهدنة التي عقداها على إثر معركة صباح ليلة الزفاف.. واستأنف الطرفان الحرب بعد ثلاثة أيام من بداية رحلة شهر العسل الثاني، واكتشفت «ماجي» بأسى أنه لم يكن قد تبقى لشهر العسل الشرعي شيء منه بعد الذي تذوقاه في شهر العسل غير الشرعي.

وكانت تستلقي ذات ضحى على مقعد في أحد أركان سطح اليخت تستمتع بدفء الشمس، وهي تقرأ في كتاب بين يديها حين فوجئت بوميض نار تصحبه فرقعة شديدة تعبر بالقرب من وجهها، فقامت فزعة لتجد «علي كامل فهمي» يقف على بعد أمتار قليلة منها وهو يمسك بمسدسه وقد صوبه نحوها، وهو يقول بجدية شديدة:

ـ لا تخافي فإنني أجيد التصويب.

ثم أخذت الطلقات تتوالى على مبعدة سنتيمترات قليلة من جسدها الذي جمد من الرعب، بينما كان يواصل استعراض مهارته في التصويب، وهو يقول بالجدية نفسها:

ـ تحركي كما تشائين ولن يصيبك ضرر.

ومع أنه اعتبر الأمر ـ بعد انتهائه ـ مجرد نكتة أخذ يتبادل التعليق عليها مع «سعيد العناني» وهما يتضاحكان، إلا أنها ـ بالطبع ـ لم تضحك عليها، بل ثارت ثورة عارمة في وجهه وانسحبت لتختفي في قمرتها، وحين لحق بها ـ بعد ساعات ـ ليسترضيها، اتهمته بأنه كان يحاول إرهابها وطلبت منه أن يأمر اليخت بأن يرسو في أقرب مدينة لتنزل إلى البر، فتعود إلى «القاهرة» بالقطار.

وكانت دهشتها شديدة حين اختصر محاولة استرضائها وانصرف دون أن يحاول تكرار المحاولة، ولم يكترث بعدم ظهورها على المائدة أثناء الغداء أو العشاء، وحين طلبت وصيفتها الفرنسية «إيميه»، من كبير الخدم أن يحمل إليها الطعام في قمرتها، أشار إليه بتنفيذ الأمر دون تعليق.. وعندما مرت أربع وعشرون ساعة دون أن يعيد الطرق على باب قمرتها، اضطرت لإنهاء اعتكافها بعد أن ضاقت به، واكتشفت أنها لا تعاقبه بل تعاقب نفسها.. وما كادت تظهر على سطح اليخت حتى استقبلها بابتسامة عريضة، وأخذ يتحدث إليها وكأن شيئا لم يحدث!

ولم يستمر جو الصفاء بينهما ـ في أعقاب ذلك ـ سوى يوم واحد، ففي ضحى اليوم التالي كان الأميران يجلسان على ظهر اليخت، حين مر إلى جواره أحد الزوارق البخارية التابعة لشركة «كوك» للسياحة، لم يستطع قائده ـ وهو مراكبي مصري عجوز ـ أن يتحكم في توجيه دفته حتى كاد يصطدم باليخت، لولا أن ربانه تنبه إلى ارتباك المراكبي، فاستطاع في اللحظة الأخيرة، أن يتفادى الاصطدام بالقارب ويحول دون وقوع الكارثة.

لكن الاهتزاز الذي نجم عن ذلك، وكاد ينزع الأمير من فوق مقعده، أثار غضبه، فأصر على تأديب قائد الزورق الجاهل، ونفخ في صفارة ذهبية تحلِّيها الأحجار الكريمة، كان يعلقها في رقبته ليستدعي بصفيرها أتباعه، وبعد ثوان قليلة كان الزورق البخاري الصغير الملحق باليخت، قد أدرك القارب، وقفز أتباع الأمير إلى سطحه، فأوقفوا محركه وقبضوا على المراكبي ومساعده، وعادوا بهما في زورقهما إلى اليخت، وما كادا يمثلان أمام الأمير حتى انحنيا على قدميه يقبلانهما طالبين عفوه.

لكن الأمير، الذي بدا في منامته الحريرية السوداء أشبه بالمارد، انتزع نبُّوتا من أحد

أتباعه، وانهال به على الرجلين اللذين تجاوزا السبعين وظل يواصل ضربهما بوحشية حتى كادا يهلكان بين يده، ثم أمر رجاله بإبعادهما عن مسار اليخت، فحملوهما في الزورق وألقوا بهما على الشاطئ وعادوا إلى اليخت الذي استأنف سيره.

وكان آخر ما رأته «ماجي» منهما، مشهدهما وهما يلطمان وجهيهما بجنون بعد أن بات مستحيلا عليهما أن يدركا قاربهما الذي كان يقف بلا قائد في عرض النهر.

لم تتحمل «ماجي» ما حدث وعاتبته بعنف على الطريقة الفظة التي عامل بها الرجلين، فقال لها:

ـ هذا هو ما يليق بمثل هذا النوع من البشر.

فقالت له:

ـ ولكنه لا يليق بك.

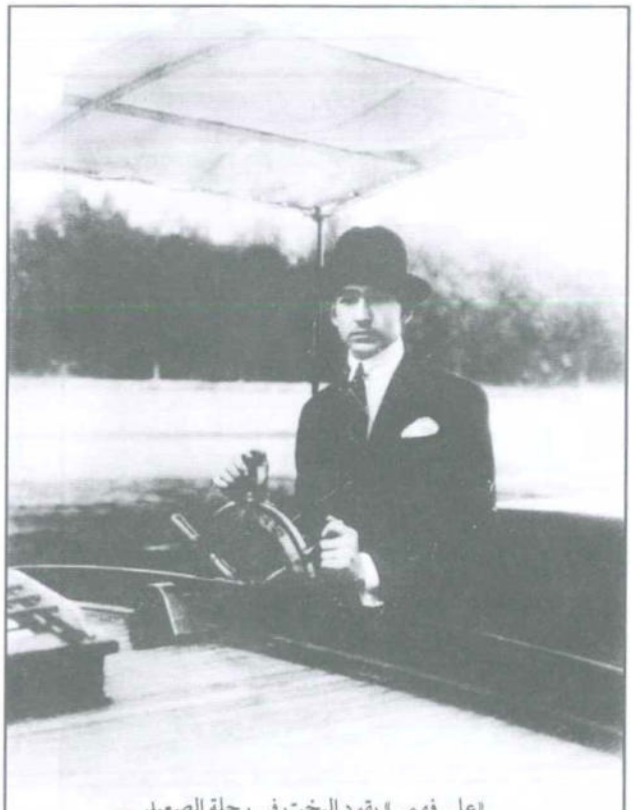
فقال:

ـ هذا هو أنا.

فقالت:

ـ ولكني لا أحب أن أراك كذلك.

وتصاعدت المناقشة بينهما حتى تحولت إلى مشاجرة، ارتفعت خلالها أصواتهما، وحسمها «علي كامل فهمي» بأن لطمها على وجهها على مرأى ومسمع من الخدم فانسحبت إلى قمرتها واعتكفت بها.


«علي فهمي» يقود اليخت في رحلة الصعيد

وتعددت المشاجرات بين الزوجين بإيقاع وبمستوى جعلا الذين يحيطون بهما يجزمون ـ في أعقاب كل مشاجرة ـ بأنها الأخيرة ويتوقعون أن يكون الطلاق هو الخطوة المنطقية التي تتلوها، لكنهم كانوا يفاجئون ـ في كل مرة ـ بالزوجين يخرجان من قمرة

أحدهما وهما يتضاحكان، وكأن شيئا لم يكن، إلى أن تقع بينهما بعد يوم أو يومين وأحيانا ساعة أو ساعتين، مشاجرة أخرى.. بحيث بدا وكأن كلا منهما كان يقصد أن يستفز الآخر لأن شهيته للحب لا تتنبه إلا في هذا المناخ المتوتر.. ولا تشبع إلا إذا سبقها شجار وعراك.

ولم يكن قد مضت سوى ساعات على واحدة من تلك المشاجرات العنيفة حين وصل اليخت إلى «الأقصر»، فطرق «علي كامل فهمي» باب مقصورة زوجته، التي كانت قد انسحبت إليها احتجاجا، ودخل عليها وعلى وجهه ابتسامة وصفتها ـ فيما بعد ـ بأنها ابتسامة «خبيثة» ليقول لها إن ما حدث لم يكن سوى «مباراة حُبية»، وأن عليها أن تستعد للنزول إلى البر لتتفقد معه المدينة، ثم يتوجها معا إلى فندق «ونتر بالاس»، ليشهدا مأدبة العشاء التي سيقيمها احتفالا بزواجهما ويدعو إليها عشرات من الشخصيات المصرية والأوروبية، في مقدمتهم «الجنرال ماكسويل» ـ القائد العام لجيش الاحتلال البريطاني في مصر ـ واللورد «كارنافون»، ممول الحفريات التي انتهت باكتشاف قبر «توت عنخ آمون».

ولم تدهش «ماجي» لانقلابه المفاجئ من الشجار إلى حفل التكريم، ولم تناقشه في أسباب المشاجرة، ومع أنها أدركت أنه لم يقم المأدبة تكريما لها كما زعم، بل لمجرد أن يتباهى بنفسه وبها أمام الشخصيات اللامعة التي كانت تزحم الفندق، إلا أنها لم تتردد في الاستجابة لطلبه، إذ كانت ـ مثله ـ شديدة الرغبة في أن تستعرض نفسها وزوجها أمام تلك الكوكبة المتألقة من نجوم العالم.



«علي فهمي» و«مرجريت» وصديقهما «محمود أبو الفتح» أمام آثار الأقصر

وهكذا لم يكد الليل يرخي سدوله حتى كانت تقف إلى جواره في كامل زينتها وفتنتها لكي تستقبل ضيوفهما.

وفى المساء التالي أقام «علي كامل فهمي» مأدبة أخرى على ظهر اليخت دعا إليها فريقا آخر من الشخصيات اللامعة.

أما أفخم تلك المآدب وأكثرها إثارة، فقد أقيمت في

وادي الملوك بعد أن مهد رجال «علي كامل فهمي» طريقا قصيرا بين المكان الذي يرسو فيه اليخت والموقع الذي اختاره ـ في بطن الجبل ـ لإقامة المأدبة، واستحضروا لإضاءته مولدا كهربائيا خاصا. ونزل الضيوف، بعد أن شاهدوا غروب الشمس من فوق سطح اليخت، ليجدوا في انتظارهم مأدبة على الطريقة الشرقية، فقد فرشت رمال الصحراء بعدد من السجاجيد الفاخرة، تتوسط كل واحدة منها منضدة منخفضة، ويتناثر حولها عدد من الوسائد ويحيط بها عبيد سود يحملون المشاعل التي أسهمت ـ مع ضوء القمر ـ في إضفاء جو شاعري على الحفل.

أما خلفية المشهد الشرقي فكانت دائرة من الحمير والجمال والعربات التي تجرها الخيول ظلت ـ على امتداد السهرة ـ في خدمة الضيوف الذين قد يرغبون في القيام بجولة في الصحراء.

ولأن «علي كامل فهمي» كان ينتمي إلى ذلك النمط «الفرانكو ـ آراب» من المصريين، فإنه لم يشأ أن يحرم ضيوفه مما ألفوه في سهراتهم، وفضلا عن زجاجات الخمر التي سالت أنهارا، فقد غنى الثنائي الإيطالي «بيكالوجيا» غناء أشجى المدعوين وشنفت «منيرة هانم فهمي» آذانهم، بما كانت تحفظه من أغنيات فرنسية شائعة، وحين آن أوان تناول العشاء نزل بحارة اليخت يرتدون ملابسهم الرسمية بنفسجية اللون، وعلى رءوسهم طرابيشهم الحمراء، وكل منهم يحمل صينية ضخمة من الفضة الخالصة عليها خروف كامل مشوي، ليضعها أمام مجموعة من الضيوف.

وكان «علي بابا» فخورا لأنه استطاع أن يحشد كل تلك الشخصيات اللامعة لتمضي ليلة سعيدة إلى جوار قبر جده العظيم «توت عنخ آمون»، وفيما بعد قالت «ماجي» إن عينيها التقت بعينيه وهي تغني، فرأت فيهما نظرة وَلَهٌ ذكرتها بأيام العسل غير الشرعي، لكن أحدا منهما أو من ضيوفهما لم يتنبه طوال السهرة التي امتدت حتى الفجر، إلى أنهم كانوا يأكلون ويشربون ويغنون ويرقصون في جبانة!



ولم تمتد إقامتهما الأولى بالأقصر إلا ثلاثة أيام فقط، كانت كل ما استطاعا جنيه من شهر العسل، إذ كان عليهما أن يعودا إلى القاهرة ليتما بعض الإجراءات الخاصة بزواجهما الشرعي، فسافرا بالقطار وعادا به ـ بعد يومين ـ إلى أسيوط، حيث وجدا اليخت في انتظارهما فاستقلاه ليعود بهما مرة أخرى إلى «الأقصر»، فيشهدا ـ بدعوة من اللورد «كارنافون» ـ الاحتفال الرسمي بافتتاح مقبرة «توت عنخ آمون»، ثم يبحرا جنوبا إلى أسوان فيمضيا بها عدة أيام، يعودان بعدها إلى القاهرة ليستقرا في قصرهما بالزمالك!

وخلال تلك المرحلة من شهر العسل، تكررت مشاجراتهما على ظهر اليخت لأوهى الأسباب، ومع أنها كانت تنتهي ـ كالعادة ـ بالصلح، إلا أن الغيرة المتبادلة ـ المعلنة أو الخفية ـ برزت كأحد أهم أسبابها، كما دخلت ألفاظ السباب قاموس التعامل اليومي بينهما.

ولابد أن شيئا ما قد حدث خلال رحلتهما القصيرة إلى القاهرة، أحيا نوازع الشك في نفس «علي كامل فهمي» تجاه سلوك زوجته، ولعلها هي التي تعمدت إحياء هذه النوازع، نقلا عن الخطط التي كانت تتبعها مع عشاقها السابقين، حتى تحافظ على توهج عواطفه نحوها،وتحول دون الاستقرار الذي يقود إلى الملل، أو ضمن نزوعها الغريزي لإثارة التوتر في العلاقة بينهما، كأحد منبهات رغبة كل منهما في الآخر، وربما للهدفين معا.

لكن اليخت ما كاد يغادر أسيوط، حتى تفجرت المشاكل بعنف لم يسبق له مثيل. وكانت البداية حين اصطحب الأمير ذات ليلة سكرتيره «سعيد العناني» وغادر اليخت في الزورق البخاري الصغير، ليزورا إحدى القرى.. ولكنهما تأخرا لعدة ساعات كادت خلالها «ماجي» تنفجر من الغيظ، وعندما عادا كانا في حالة غير طبيعية، وقال «علي فهمي» إنهما كان يتفقدان «دنيا العجائب» في القرية، فثارت «ماجي» في وجهه، لأنه تركها وحيدة على ظهر اليخت كل تلك الساعات ليقوم بعمل كانت تراه مريبا، وانتهت المناقشة بأن ضربها.

ومع أن الصفاء كان قد عاد إلى علاقتهما، فإنها اعترضت طريقه، حين هم في الليلة التالية، بالنزول إلى الزورق ليستكشف ـ بصحبة «العناني» ـ عجائب القرية التالية.. وأصرت على أن تصحبهما في جولاتهما الاستكشافية، التي كانت تشك فيما يبدو أنها زيارات يقومان بها لأحياء الدعارة في مدن الصعيد، فلما رفض هددته بأنها ستفعل كما يفعل، وتغادر اليخت في إثره لكي تتفقد هي الأخرى تلك العجائب التي يتفقدها، واستفزه التهديد، فسحبها من يدها بالقوة وألقى بها في قمرتها، وأصدر أوامره إلى أربعة من عبيده السود، بأن يقفوا على الباب ولا يسمحوا لها بالخروج حتى يعود من جولته.

وحين عاد ـ بعد ساعات ـ من تلك الجولة الغامضة، وجدها تتحرك كالنمرة الحبيسة في غرفتها، فأثاره ذلك بقوة دفعته لمحاولة استرضائها، وكان يجلس على مقعد يواجه منضدة صغيرة تستخدمها في كتابة رسائلها، حين وقع بصره مصادفة على ورقة من أوراق النشاف دلته على أنها كانت تكتب رسالة فأخفاها ـ دون أن تلحظ ـ في جيبه. وعندما عاد إلى غرفته وضع ورقة النشاف أمام المرآة فاستطاع بذلك أن يقرأ سطورها القليلة وكانت أشبه باستغاثة أرسلتها إلى محاميها الأستاذ «أسود» في القاهرة، تخطره فيها بأنها «سجينة» وتطلب تدخلة لإنقاذها.

ومع أن الرسالة قد استفزته، إلا أنها لم تكن من الأهمية، بحيث يخاطر بكشف الطريقة التي مكنته من قراءتها لمجرد الرد على ذلك الاستفزاز وكانت فرحته عظيمة بهذا الاكتشاف الذي يمكنه من معرفة ما تفكر فيه النمرة الأوروبية المتمردة، خاصة حين بدأت تتعمد إثارة غيرته، فوضع أوراق النشاف التي تستخدمها ـ سواء في غرفتها باليخت.. أو في القصر ـ تحت مراقبة صارمة، فكان يحصيها كل يوم ليعرف من النقص في عددها عدد الرسائل التي كتبتها في اليوم السابق. ويحتفظ بما تلقيه منه في سلة مهملاتها، ليضعه أمام المرآة ويحاول قراءته.



شتاء ١٩٢٣: المستر «ساند» ملك الحديد في أمريكا.. وإلى جواره زوجته ثم «محمد بك رفعت الروزنامجي» وإلى جواره زوجته «عزيزة هانم فهمي» ثم أحد الأصدقاء أما هياكل الأقصر

وما لبث أن أقام نظاما كاملا للتجسس عليها، ففضلا عن أتباعه الذين أصدر إليهم تعليمات صارمة بأن يبلغوه بكل ما تفعله، بصرف النظر عن أهميته أو عدم أهميته، فقد زود القصر بثلاثة خطوط للهاتف كان يستطيع ـ من خلال ثلاث آلات يضعها على مكتبه بالبهو ـ أن يتنصت على كل مكالماتها الهاتفية.

وما لبثت جولات التصعلك الليلية التي كان يصحب فيها سكرتيره «سعيد العناني» إلى القرى الواقعة على ضفتي النهر، أن أثارت ريبتها بعد فضولها، فتلبسها شك عميق، بأن ما يربط بينهما هو علاقة جنسية غير طبيعية، وجزمت بأنها ليست زوجة الأمير الأولى أو الوحيدة؛ إذ سبقها إلى ذلك «العناني» الذي لا يزال يتمتع بميزات الزوجة الأولى بالرعاية، وأخذت تجمع من ثرثراتهما عقب كل جولة، الشواهد التي تؤكد شكوكها، وكانت في معظمها تفاصيل تافهة، من بينها أنهما كانا يحرصان على استبدال ملابسهما الأوروبية، بملابس وطنية قبل القيام بتلك الجولات المريبة، مما يدل على تعمدهما التخفي حتى لا يثيرا الشك في أمرهما، وأنهما كانا يتجولان عادة في الأزقة والحواري، حيث كان الأمير يأكل الفول المدمس، بينما يصر السكرتير على ألا يأكل إلا الدجاج.

ومع أن الشذوذ الجنسي بين الرجال لم يكن من الأمراض البعيدة عن مجتمع الكشاكش المصريين، بحيث لا يستبعد أن يكون ما روته «ماجي» صحيحا، إلا أن إذاعتها لهذا التوصيف للعلاقة بين زوجها وسكرتيره، ضمن عدد من الوقائع الأخرى استخدمتها لكي تجد دافعا معقولا لقتلها لزوجها، يمكن أن ينقذها من الجلوس على الكرسي الكهربائي ـ قد يدعو لعدم تصديقها.. خاصة وأنها وصفت «العناني» بأنه كان «قبيح» الشكل.. أصفر اللون.. ذا شعر أسود كثيف تملأ البثور بشرته.

ويغلب على الظن أن الأمير وتابعه كانا يترددان، خلال تلك الجولات الغامضة، على بعض غرز الحشيش المنتشرة على ضفاف النهر، وإن كانت «ماجي» تروي قصة خلاصتها أن زوجها ثار ثورة عارمة حين افتعل «العناني» عذرا ليتخلف في إحدى القرى، ثم علم من الجواسيس الذين أرسلهم خلفه، أنه شوهد مع شخص معين فظل ينتظر عودته فوق سطح اليخت، حتى عاد في السادسة صباحا، وما كاد يصعد إليه حتى اشتبك معه في مشاجرة عنيفة، وصفتها «ماجي» بأنها من النوع الذي كان ينشب بينها وبين زوجها عادة، انتهت بأن طلب إليه الأمير مغادرة اليخت فورا، ثم اندفع إلى «ماجي» ليلقي بنفسه بين أحضانها والدموع تهطل من عينيه.

والشيء المؤكد أن «ماجي» أصبحت تغار من نفوذ «العناني» لدى زوجها، بل وتتعامل معه باعتباره ضرتها، وقد اعترفت فيما بعد بأنه كان على وجه العموم يعاملها برقة واحترام، بل ويقدم إليها أحيانا بعض الهدايا، لكنه لم يكن يستطيع ـ هو أو غيره ـ أن يخفي عن سيده خبرًا من أخبارها، مما كان سببا لكثير من المشاحنات بينهما.

ولعل ذلك، ضمن أسباب أخرى، قد يكون من بينها معارضته في زواج الأمير منها، هو الذي جعلها تشك في العلاقة بينهما، حتى إنها أصبحت تستريب في إصرار «علي فهمي» على أن يزور كل ليلة غرفة سكرتيره ليمضي معه بعض الوقت، قبل أن يدلف إلى غرفة نومهما.. ولابد أن تلك الغيرة قد أضافت ذريعة أخرى إلى الذرائع التي كان كل منهما يفتعلها لكي يتخذ منها سببًا لتوتير الجو بينهما ليصبح أكثر ملاءمة للحب كما يريدانه.

ولم تكن «ماجي» تُقَصِّر في القيام بنصيبها في اصطناع هذا التوتر، وقد ذكرت فيما بعد أن اللعبة بينهما قد أصبحت بعد أيام قليلة من الزواج تخضع لقانون ثابت، وأن كلًا منهما كان يخاطب الآخر بينه وبين نفسه بعبارة «سوف أقهرك». وعندما اكتشفت أن رد فعلها البارد تجاه استفزازاته يثير غضبه بدرجة أوفر مما يثيره ردها على تلك الاستفزازات، أصبحت تتعمد إظهار عدم الاكترات بكل محاولاته لاستفزازها، وتستمع بصمت إلى ألفاظ السباب السوقية التي كان ينهال بها عليها أمام الخدم، من دون أن ترفع عينيها عن الكتاب الذي تقرأ فيه، أو تحوّل بصرها عن المشهد الذي تتابعه، فكان ذلك يشعل غضبه ويدفعه أحيانا لضربها.

وكان اليخت قد اقترب من «أسوان» حين واجه قائده بعض الصعوبات نتيجة لكثرة الصخور في مجرى النهر، فأخذ يحاول تخطيها، لكن «علي فهمي» ثار في وجهه غاضبا واتهمه بالإهمال، وما كادت تتدخل لتطلب منه أن يترك الربان يقوم بعمله الذي يتقنه، حتى انتقل بغضبه إليها ولكنها على عكس ما كانت تفعل عادة لم تفتح فمها بكلمة، وظلت تنظر إليه بجمود، نقل الغضب إلى حالة من الفوران، هبطت فجأة حين قال لها.

ـ حسنا سأتركك تدبرين الأمور كما تريدين، وأعود إلى القاهرة بالقطار.

لكنها لم تكترث لهذا التهديد، فلم تعلق عليه، ولم تحاول إثناءه عن تنفيذه حتى عندما شرع في ذلك، فوضع بعض ملابسه في حقيبة وغادر اليخت إلى أحد الزوارق البخارية التي نقلته إلى الشاطئ.

وعلى عكس ما كان يتوقع «علي فهمي» فإن مغادرته لليخت لم تفزعها أو تقلقها، بل إنها لم تحاول إرسال أحد من البحارة خلفه ليعيده.

ومع أن الذعر كان قد تلبسها فعلا إلا أنها لم تستطع أن تقاوم رغبتها في إظهار عدم اهتمامها به. وبعد أقل من ساعة، كان خلالها الربان قد استطاع الخروج من المأزق، شاهد الجميع «علي فهمي» يشير إليهم من الشاطئ طالبا إرسال الزورق، وعندما صعد إلى سطح اليخت، كان غضبه للإهانة يبدو في احتقان وجهه وهو يقول مبررًا عودته.

ـ لقد فاتني القطار.

وقضيا في أسوان عدة أيام، بدا خلالها وكان الأمير قد برئ تماما من آثار الإذلال الذي عرضته له أمام رجاله، حين لم تكترث بتهديده بمغادرة اليخت، ولم تظهر أي لهفة على بقائه، ولم تقم بأية مبادرة لاسترضائه، وقد أدهشها حين طلب إليها ـ أثناء إحدى جولاتهما بين آثار المدينة ـ أن تدخل إلى تابوت فرعوني كبير، ليلتقط لها عدة صور بين آثار أجداده العظام، وحين اقترحت أن يصورها وهي جالسة داخل التابوت، أصر على أن تنام وتغلق عينيها وتضم ذراعيها إلى صدرها، وتتخذ الوضع الذي كان يتخذه موتى الفراعنة فاستجابت له بعد ممانعة قصيرة، ولكنها تطيَّرت من الصور حين رأتها، بينما أخذ هو يتأملها بإعجاب جعلها ترتعب منه.

وفي طريق عودتهما من «أسوان» إلى «القاهرة» اكتشفت «ماجي» أن «علي فهمي» لم يبرأ من اللطمة التي وجهتها إليه، وأنها أخطأت حين عاملته أمام خدمه بشكل اعتبره مهينًا لكرامته، وأن ردود فعله العنيفة ـ التي كانت تشارك في تهيئة أجوائها ـ أصبحت تخيفها أكثر مما تسعدها، وكان قد أدرك لعبتها فأصبح يرد على استفزازاتها بالأسلوب البارد نفسه.

وكانا يتناولان الغداء ذات يوم على ظهر اليخت، حين أخذت تحاول مشاغبته كما تعودت، لكنه لم يستجب لاستفزازتها، ولما حاولت أن تبرر له موقفها من واقعة تهديده، بالعودة إلى القاهرة، غادر المائدة ليعود بمصحف صغير ليقسم عليه بأنه سوف يقتلها يوما، ولأنه فعل ذلك ببرود ودون ثورة أو غضب، فقد ارتعبت من تهديده ومع ذلك فإنها لم تفقد الأمل في أن تستطيع إعادة الصفاء إلى علاقتهما أثناء توقفها للمرة الثالثة في «الأقصر». وكانت قد أدركت من المقارنة بين أسلوب تعامله معها أثناء وجودهما بها وبين الطريقة التي يعاملها بها على ظهر اليخت، أن قيمتها لديه ترتفع حين تكون في بيئتها الطبيعية، وبين أوروبيين مثلها، وأنه يحرص آنذاك على أن يبدو متحضرا في تعامله معها ومعهم.

لكنه كان يحتفظ برده على إهانة أسوان حتى تلك اللحظة التي وصل فيها اليخت إلى «الأقصر»، إذ ما كادت تخرج من قمرتها بعد أن ارتدت ملابسها استعدادًا للنزول معه إلى المدينة حتى أبلغها بخشونة أنه لن يصحبها معه، وأن عليها أن تظل مع البحارة على ظهر اليخت وحين احتجت على ذلك، قال لها ببرود وعلى وجهه ابتسامة شمائه:

ـ إن اليخت جميل جدا وسيكون البحارة تحت أمرك.

وقبل أن تستأنف احتجاجها، كان قد نزل إلى البر وأمر برفع السلم بعد نزوله هو و«عناني» وبقية الحاشية.

ومع أن البحارة عاملوها باحترام، إلا أن إحساسها بالإهانة كان يملؤها بالغيظ، وقد قالت فيما بعد، إنها شعرت في تلك اللحظة بأن آمالها قد انهارت دفعة واحدة، وبأن كل الوعود التي قطعها «علي فهمي» بأن يجعلها أميرة، وبأن يوفر لها حياة كالحياة التي قرأت عنها في كتاب «ألف ليلة وليلة» قد تكشفت عن كابوس، حين وجدت نفسها تجلس وحيدة على ظهر اليخت، وتعامل كالأسيرة أو الجارية، وتتعرض لسخرية الخدم.

وتحت ضغط تلك المشاعر أعادت «ماجي» التفكير في إصراره على أن يصورها داخل تابوت فرعوني، وفي قسمه على القرآن بأن يقتلها، فكتبت سطورا على ورقة طوتها، ووضعتها داخل مظروف مغلق كتبت عليه من الخارج «يحفظ لدى البروفسير أسود ولا يفتح إلا بعد وفاتي» ثم أرفقته برسالة إلى محاميها بالمعنى نفسه ووضعتهما في مظروف آخر عنونته بعنوان مكتبة بالقاهرة. وكان من حسن حظها أن قرار الأمير بحظر التجوال لم يكن يشمل وصيفتها «إيميه» التي نفذت أمر سيدتها، فخرجت بالخطاب إلى حيث سلمته إلى أحد الأجانب، وطلبت إليه أن يرسله بالبريد.

وحين وصلت «ماجي» إلى القاهرة، بعد انتهاء أسابيع العسل الخمسة، كان أول

ما فعلته أن اتصلت بالمحامي وتأكدت من وصول الخطاب، الذي لم يعرف أحد بمحتواه إلا بعد ذلك التاريخ بحوالي ستة شهور، حين فتح لسبب يختلف عن السبب الذي كتب على المظروف، وبعد أن قتلت «منيرة هانم ميلر» زوجها وليس العكس. وكان أعجب خطاب يمكن أن تكتبه عروس في شهر العسل، إذ كان يقول بالنص:

«أنا الموقعة على هذا «ماري مرجريت ألبير» أقر وأنا في كامل صحتي العقلية والجسدية أنني ـ في حالة مصرعي بالعنف أو موتي بسبب قهري أو بغيره ـ أتهم رسميًا زوجي «علي بك فهمي» بالاشتراك في القضاء علي، فقد أخذ قرآنه ظهر أمس (١٢ فبراير ١٩٢٣) وأقسم بأن ينتقم مني لنفسه ذات يوم، وبأنني سأهلك بيده سواء غدا أو بعد أسبوع أو شهر أو ثلاثة أشهر، وقد أقسم زوجي على ذلك، دون أن يكون هناك سبب يدعو له سواء كانت غيرة، أو سوء سلوك، أو مشاحنة وأطالب بإنصاف ابنتي وأسرتي من عواقب فعلته، والثأر لي منه، وقد أراد اليوم أن يأخذ مني مجوهراتي فرفضت وتسبب ذلك في مشاحنة جديدة».

وهكذا بدأ العد التنازلي لمأساة «فندق سافواي».



«ماجي مرجريت ميلر».. وعلى وجهها اليشمك الأبيض الشفاف الـذي كانت ترتديه نساء الطبقات العليا باعتباره حجابًا شرعيًا.. بعد أن أسلمت وحملت اسم «منيرة هانم فهمي»

الفصل السادس

أسلحة العشق المحظورة



أقر أنا الموقع على هذا أدناه «علي فهمي» بأنني تزوجت زوجتي «ماري مارجريت ميلر» وأنـا أعلم أنها «مومس» وأنني امتنعت عن الإنفاق عليها، وليس من حقي أن أعترض أو أتخذ أية إجراءات قانونية ضدها، إذا اتخذت لها عشيقا أو عشاقا ينفقون عليها.

«علي فهمي»



أحد المشاهد التي تكررت كثيرًا أثناء ثورة ١٩١٩: امرأة مصرية تهتف بالاستقلال التام، وهي تخفي وجهها خلف اليشمك الأبيض غير الشفاف في مظاهرات الابتهاج بالإفراج عن «سعد زغلول»

18

انتهى شهر العسل بهدنة غير معلنة بين العاشقين المتحاربين، توقفت خلالها العمليات العسكرية بينهما لمدة لا تزيد على ثلاثة أسابيع.

ومع أن الحرب بينهما لم تضع أوزارها، ولم يعلن أحد الطرفين هزيمته، أو يسحب قواته، أو يتنازل عن هدفه في قهر الآخر، إلا أنهما وجدا نفسيهما مضطرين لوقف إطلاق النار بصورة مؤقتة، إذ لم يكادا يعودان إلى القاهرة من رحلة شهر العسل، حتى وصلت إليها «إيفون» شقيقة «مرجريت» التي تصغرها بأربع سنوات. لتهنئ شقيقتها الكبرى ـ والوحيدة ـ بالزواج وتشاهد ـ بدعوة من الأمير ـ آثار «توت عنخ آمون»، فكان ذلك مبررًا للكف مؤقتا عن العراك والشجار والنقار.

وفضلًا عن أن «مرجريت» لم تكن ـ كما قالت فيما بعد ـ تريد أن تعطي أحدًا مبررًا للحكم بأن حياتها الزوجية قد فشلت، وبأنها قد أخطأت الاختيار، فقد كانت لا تزال كبيرة الأمل في أنها ستنتصر في المعركة، وتقهر هذا الوحش الشرقي الجامح، وتعيده إلى حالة العبودية التي رأته عليها في «باريس»، فجذبتها إليه، ولأنها كانت لاتزال ـ على الرغم من كل ما حدث في رحلة شهر العسل ـ شديدة الثقة بسيطرتها عليه وبقدرتها على أن تروي عطشه الغريزي غير العادي، وهو ما كان يزيد افتتانها بأنوثتها، فقد كانت حتى ذلك الحين تجد متعة في الحرب بينهما وتعتبرها من ألعاب العشق

اللذيذة، وقد وصفته فيما بعد فقالت: إنه «كان أشبه بالنمر الجميل المستكين الذي ينام عند قدمي. فإذا أراد أن يداعبني.. لم يجد غير أظافره ينشبها في جسدي».

وكانت إقامة «إيفون» معهما في قصر الرخام الوردي خلال فترة زيارتها القصيرة للقاهرة، دافعًا كافيًا لكي تتراجع شخصية «علي فهمي» الشرقية الجموحة التي توحي بالجلافة والتخلف، لتفسح الطريق للصورة التي كانت تتغلب على شخصيته إذا ما وجد نفسه في مجتمع من الأوروبيين: مهذبًا ورقيقًا وحريصًا على آداب السلوك.

ومع أن الرقة الزائدة التي كان يعامل بها «إيفون» سرعان ما استثارت غيرة «ماجي» التي كانت تعلم بمحاولاته السابقة لمغازلة شقيقتها، إلا أنها لم تتخذ من ذلك مبررًا لكسر وقف إطلاق النار، وإن كانت قد عملت على إنهاء زيارة «إيفون» للقاهرة بأسرع مما كان متوقعًا.

ولم تكد «إيفون» تعود إلى «باريس» حتى استأنف العاشقان الحرب، إذ عجزت «ماجي» عن التكيف مع الأوضاع الاجتماعية التي كان لابد وأن تترتب على تحولها من عشيقة إلى زوجة، ومن «مرجريت» إلى «منيرة».

وعلى عكس ما كان يحدث خلال الشهر الذي قضته في مصر قبل زواجهما، فإنه لم يعد يخرج معها أو يصحبها معه إلى الحفلات الصباحية في الفنادق أو صالات الرقص، أو يسمح لها أن تقابل أصدقاءها من الرجال، واقتصر خروجهما معًا على مشاهدة عروض الأوبرا، من خلال ستارة شفافة كانت تسدل على البنوار الذي تجلس فيه معه، أو مع شقيقاته، لتخفي الجالسين بها عن أعين الآخرين، أو مشاهدة سباق الخيل من مكان بعيد عن المضمار.

وانكمشت حياتها الاجتماعية العريضة، إلى عدد محدود من النساء كانت تدعوهن لتناول الشاي في القصر كان في مقدمتهن شقيقتاه، وعدد من نساء الأسر السورية والأرمنية والقبطية، كان يراجع أسماءهن بنفسه، ليطمئن إلى مستواهن الاجتماعي والخلقي.

وفيما عدا ذلك، فقد كان عليها أن تلازم القصر، وأن تعيش فيه وحيدة معظم ساعات النهار والليل مع الباش أغا، وعدد من الخدم النوبيين الذين كانوا- بسبب قسوة الأمير في معاملتهم ـ لا يجسرون على مخالفة ما يصدره إليهم من أوامر بشأن معاملتها قبل أن يغادر القصر، ليغيب طوال النهار ومعظم الليل، أو يعود مع عدد من أصدقائه ليسهروا في جناح من القصر دون أن يسمح لها بأن تجلس معهم، أو تظهر أمامهم.

ولم يعد من حقها أن تخرج وحيدة دون إذن مسبق منه، على أن يصاحبها «الباش

أغا» في سيارة تسدل ستائرها، وينتظرها حتى تتسوَّق أو تقوم بزياراتها لصديقاتها أو للأطباء أو غير ذلك من الشئون، ثم يعود معها إلى المنزل.

ومع أنه كان قد تعهد لها أثناء مفاوضات الزواج ـ بألا يجبرها على وضع الحجاب على وجهها ـ كما كان شائعًا آنذاك بين أمثالها من زوجات الأعيان المصريين ـ إلا أنه أخذ يتحلل من التزامه تدريجيا، مرة لأنه لا يليق به أن تظهر زوجته سافرة في المحكمة الشرعية، وأخرى لأنها تبدو أجمل باليشمك، وثالثة لأن أقاربه يعيبون عليه عدم التزام زوجته بالتقاليد، إلى أن تحلل من هذا التعهد نهائيًا وأصدر أمرًا بألا تخرج سافرة، التزم خدمه المخلصون والخائفون بتطبيقه بكل صرامة.

«صفية هانم زغلول» في صورة نورية لها نشرتها الصحف عقب عودتها مع زوجها من المنفى.. لم تخلع الحجاب فحسب، بل وكشفت كذلك عن شعرها وقصّته «ألاجارسون».. وكان قص شعر النساء آنذاك بدعة جديدة في أوروبا.. انتقلت إلى مصر وتعرضت لهجوم عنيف من الصحف



ولم يكن فيما يفعل «علي فهمي» شيئًا غريبًا على التقاليد التي كانت سائدة آنذاك في المجتمع، فيما يتعلق بمعاملة المرأة، إذ كانت نسائم التحرر التي بدأت موجاتها الأولى مع مشاركة المرأة المصرية في ثورة ١٩١٩، لا تزال في بداياتها الأولى، بل إن المتظاهرات ضد قوات الاحتلال البريطاني من نساء الطبقات العليا والوسطى، كن حريصات على أن يشاركن فيها وهن يرتدين الحجاب لكي لا يراهن الرجال سافرات، وكن يتنقلن إلى مكان المظاهرة ويعدن منه وهن في سيارات أزواجهن.

ومع أن عددا منهن كن قد خلعن الحجاب بالفعل، إلا أنهن كن يفعلن ذلك ـ دون اعتراض من أزواجهن ـ طالما هن في أوروبا.

وكانت أول امرأة مصرية من نساء الطبقات العليا تظهر بدون حجاب في بلدها هي «هدى هانم شعراوي» ابنة خالة «علي فهمي» التي كانت تمثل المرأة المصرية في أحد المؤتمرات النسائية الدولية، وعادت إلى مصر على نفس الباخرة التي عاد عليها الزعيم «سعد زغلول» وحرمه «صفية هانم زغلول»، ومع أن الصحف كانت تنشر صور الهانمين أثناء وجودهما في أوروبا

وهما سافرتان، وتشيد بما تبذلانه من مجهودات لإثبات رقي المصريين وتحضرهم وأهليتهم للاستقلال، إلا أن الباخرة «لوتس» ما كادت تدخل ميناء الإسكندرية يوم ١٨ سبتمبر (أيلول) ١٩٢٣، حتى فوجئت «صفية هانم» بعشرات الألاف من المصريين يزحمون أرصفة الميناء، ليستقبلوا زعيم الثورة العائد بعد عامين من النفي، فوضعت «اليشمك» على وجهها. بينما اختارت «هدى هانم شعراوي» هذا التوقيت بالذات لكي تنهي التناقض بين سفورها في الخارج وتحجبها في الداخل، فنزلت من الباخرة بلا يشمك، وبعدها بأيام سمحت «صفية هانم زغلول» لمصوري الصحف بنشر صورتها وهي سافرة.

ولم يمض الأمر دون اعتراض رغم مكانة السيدتين اللتين كانتا زوجتين لاثنين من زعماء الثورة، ولذلك حاول «سعد زغلول» أن يختبر تأثير نشر صورة زوجته وهي سافرة لدى الرأي العام، فانتهز فرصة كان يخطب فيها أمام جماهير غفيرة، ليذكر المصريين بالدور الذي لعبته المرأة في أثناء الثورة، وتحدث عن شجاعة زوجته يوم اقتحم الإنجليز بيته وهو في المنفى ليفتشوه، وتهدج صوته وهو يروي الواقعة حتى كاد يبكي، ثم اعتذر عن روايتها قائلا:

ـ «نعم.. إن العادة عندنا قد جرت على عدم الكلام عن النساء باعتبارهن من المخدرات، ولكن لكل قاعدة استثناء، فأنا وحرمي لسنا الآن ملكا لأنفسنا بل ملكا وفداء للأمة».

وأحدثت العبارة التأثير الذي قصده الزعيم العجوز، فارتفعت أصوات الجماهير تهتف بحياة حرم الرئيس.. ثم خطا خطوة أخرى بعدها بأيام، فاستهل خطبته في الحفل الذي أقامة له تجار العاصمة قائلا:

ـ «سادتي.. كنت أود أن أقول سيداتي وسادتي.. لأن للسيدات دخلا كبيرا في نهضة الأقوام عمومًا، وفي نهضة مصر خصوصًا، وأتعشم أن يأتي يوم أرى فيه خطباءنا يبدءون بتلك البداية، فلقد أظهرت السيدات في النهضة الحاضرة من الشجاعة ومن الإقدام ما أعجب به كل واحد منا وكل ناظر إلينا، وكن في كل موقف موضع إعجاب الجميع، وكن أيضا يملين على الرجال من الثبات والإقدام ما رأينا آثاره الآن.. وكتبن بأعمالهن المجيدة صفحة من أجمل صحائف تاريخ النهضة الحاضرة، فلهن الشكر، ولتصيحوا جميعًا معا: « لتحيا السيدة المصرية».

وردد الجميع الهتاف.

ولعل ذلك هو الذي شجعه على أن يقفز قفزة غير مسبوقة، وينزل بكل ثقله الجماهيري وراء الدعوة لسفور المرأة، فانتهز فرصة سؤال وجهته إليه الآنسة «بثينة يوسف» ـ ابنة صديقه الصحفي الكبير الراحل «علي يوسف» ـ أثناء اجتماع

جماهيري، ليطلب إليها أن تخلع الحجاب وهي تتحدث ليستمع إليها، وبعدها بأيام وقفت الأنسة «فكرية حسني» لتخطب بين يديه في مؤتمر يحتشد بآلاف المواطنين، فتقدم نحوها ورفع الحجاب عن وجهها بيديه.

وفى المرتين صفق الجميع.

ولم يكن هذا التصفيق حماسًا لتحرير المرأة، بل مجرد رد لكيد الاحتلال، إذ كانت الصحف البريطانية تتخذ من الحجاب مبررًا للقول بأن المصريين شعب بدائي متخلف، لا يصلح لحكم نفسه بنفسه، بل إن مسئولا بدار المندوب السامي البريطاني بالقاهرة، صاح في وفد من النساء المتظاهرات قائلا:

ـ إن المرأة المصرية التي لا تزال تضرب وتركل في بيتها لا يحق لها أن تطالب بحرية بلدها قبل أن تتحرر هي نفسها.

وهكذا نظر الجميع الى سفور المرأة باعتباره إحدى التضحيات التي لابد من بذلها في سبيل استقلال مصر، فوافقوا على أن تخلع نساء الزعماء الحجاب، واعتبروا ذلك القدر المناسب من التضحية في هذا المجال.

وصحيح أن شيئًا من ذلك كله، لم يحدث إلا في خريف ١٩٢٣، بعد أن سبق السيف العذل، وأطلقت «ماجي» رصاصاتها التي أردت«علي فهمي» قتيلًا، ولكن من الصحيح كذلك أن المصريين لم يكونوا يفرضون تقاليدهم على الأجانب الذين يقيمون في بلادهم، ولم تكن أسر المتزوجين منهم بأجنبيات تتشدد مع الزوجات فيما يمكن اعتباره من تقاليد بلادهن، وقد تأثرت «سوزان» ـ زوجة الدكتور «طه حسين» الفرنسية ـ بشدة، حين زارت أسرة زوجها في «كوم أمبو» بأعماق الصعيد، فتناول حموها ذراعها وخرج معها في جولة بالقرية، وهو شيخ وقور معمم، وهي شابة سافرة تعتمر قبعة، وأدهشتها حماتها حين سألت ابنها ـ وهي المسلمة المتدينة ـ عن نوع النبيذ الذي يجب شراؤه من أجل زوجته.

لكن «علي فهمي» لم يكن «طه حسين» و«مرجريت ميلر» لم تكن «سوزان»، لذلك كان لابد وأن تأخذ الأمور مسارًا مختلفًا، فتصبح التقاليد ـ التي لم يكن «علي بابا» يأبه بها أو يحترمها ـ مجرد أسلحة يستخدمها في حرب العشق التي نشبت بينه وبين الغانية الأوروبية التي تزوجها، ووسيلة يستخدمها لتأكيد سيطرته عليها وملكيته لها.

وهكذا تحول الخدم ـ الذين يقيمون في الحرملك ليكونوا في خدمة النساء ـ إلى السادة، بعد أن فوضهم بكل سلطاته عليها، فأصبحت تتلقى منهم الأوامر بدلا من أن تصدرها لهم، وكان قد اختار لحراستها اثنين من العمالقة كان مظهرهما العام

كافيا لبث الرعب في قلبها.. أحدهما بلغاري الأصل اسمه «كوستا» أنقذه «علي كامل فهمي» من القتل فأصبح يدين بحياته له، أما الثاني فكان جزائريا، من أصل بربري اسمه «يوسف» وكانا يصحبانها كلما غادرت القصر، وينفذان التعليمات التي تلقَّيانها من سيدهما حول خط سير الرحلة في صمت وجمود ودون أن يرجعا إليها في شيء.

وعلى عكس غضبته العنيفة صبيحة يوم الزفاف حين ثار في وجهها لأنها نزلت إلى بهو القصر وهي ترتدي روبًا منزليًّا، فقد كان يدعو «الباش أغا» للدخول إلى غرفة نومهما بينما هي ترتدي ملابس نومها، أو وهي تستبدلها بملابس الخروج، وحين كانت تحتج على ذلك كان يشير إليه قائلا:

ـ إنه لا شيء.. ولا خوف منه!

ومع أن «الباش أغا» كان ـ كغيره من الأغوات ـ خصيًا تعرض منذ طفولته لعملية جب لذكورته لكي يكون مؤهلًا لخدمة الحريم دون خوف عليهن من هذه الناحية، فقد كان مصدرا للخوف من كل النواحي الأخرى، إذ كان عين سيده التي تتابع كل ما تفعله أثناء غياب السيد عن المنزل، وأذنه التي تتنصت على مكالماتها الهاتفية، وعلى ما تتبادله مع ضيوفها الذين يزورونها في المنزل من أحاديث.

وهكذا لم يعد القصر، كما تخيلت «ماجي» في البداية، أحد القصور التي قرأت عنها في كتاب «ألف ليلة وليلة»، يموج بالضحك والغناء والرقص وكل مظاهر الترف التي تحبها، بل أصبح أقرب ما يكون إلى القصور التي قرأت عنها في روايات «إدجار آلان بو» المرعبة، تحيط به العواصف ويظلله الغموض وتسكنه الأشباح وتسمع لأبوابه ـ في هدأة الليل ـ صريرا مخيفا.

ولم يكن «علي كامل فهمي» يقصِّر في تأكيد هذا الانطباع لديها، ففضلا عن أنه كان يعتبر استخدام أساليب الحرب النفسية أمرا مشروعا في الحرب بينهما، فقد كان يرضي غروره أن يبدو أمامها في صورة الأمير الشرقي المنغمس في الدسائس والمؤامرات ولعله ظن أن ذلك

«د. طه حسين» وإلى جواره زوجته الفرنسية «سوزان».. واحدة من الزيجات المختلطة التي احترم فيها كل من الزوجين ثقافة الآخر وحضارته



قد يزيد من افتتانها به، وقد ذكرت فيما بعد أنه فتح أمامها مناقشة مع سكرتيره «سعيد العناني» حول أفضل الترتيبات التي ينبغي أن يتخذها زوج يريد أن يقتل زوجته لكي يفلت من العقوبة على ذلك.

ولم يكن دخول سلاح التقاليد إلى المعركة بعيدا عن عدم ثقته بها، إذ لم يعد ماضيها المزدحم بالعشاق موضوعا لتسامحه، كما كانت الحال حين كان يصارع هؤلاء العشاق لكي ينتزعها من بين أيديهم، أما وقد تحولت من عشيقته إلى زوجته، فقد اكتشف أنها ليست غادة الكاميليا ـ مرجريت جوتيه ـ التي دفعتها ظروف الفقر إلى احتراف الدعارة، واكتشف أنه لا يملك القدرة على التسامح التي كان يمتلكها «أرمان دوفال»، فكف عن التظاهر بالتفرنج وعن ادعاء العصرية وعن البغبغة بآراء لم يكن ـ بحكم تربيته الشرقية ـ يؤمن بها، ولم يبذل جهدا عقليا لفهمها كالإيمان بأن ماضي الزوجة هو ملك لها لا يجوز له كزوج محاسبتها عليه.

وبذهاب السَّكرة ومجيء الفكرة، أصبح ذلك الماضي مصدرا لإحساسه بالعار ومبررا لشكه المستمر فيها وموضوعا يعايرها به إذا ما اشتبكا في شجار عنيف، وهو ما كانا يفعلانه عادة مرتين أو ثلاثا كل أسبوع، إذ لم يكن يتردد عن أن يصيح في وجهها أمام الخدم معيِّرا إياها بأنها «مومس»!

ولأنها لم تكن امرأة سهلة أو ضعيفة.. ولأن نزوعها للسيطرة عليه لم يكن يقل عن نزوعه للسيطرة عليها، فقد خاضت المعركة ببسالة بلسانها وبيدها وأحيانا بأسنانها، فإذا ما قال لها: يا عاهرة.. ردت عليه التحية بأحسن منها، وصاحت في وجهه: ياقوَّاد.. وإذا ما صفعها صفعته أو عضته، لكن رده الباطش وقوته البدنية المفرطة أقنعاها بالعدول عن استخدام سلاح الاشتباك الجسدي، وقد ذكرت فيما بعد أنها عضته في إصبعه أثناء إحدى مشاجراتهما، فلم يكف عن ضربها حتى كادت تفارق الحياة، بل وحبسها في غرفتها لمدة ١٨ يوما، قضت منهما يومين بلا طعام تحت حراسة كان يتناوب عليها «الباش أغا» و«كوستا» و«يوسف».

ثم اكتشفت أن تحديه وإثارة غيرته أسلحة أكثر فاعلية وأمضى تأثيرا من غيرها من الأسلحة، فدخلت الحرب ضده بالأسلحة السيكلوجية التي كانت تثير ضيقه وتوتره، ومع أنه كان يرد على ذلك بضربها إلا أنه لم يكن ذلك النوع من الضرب الذي يريحه أويخلصه من توتره، كما كان يحدث حين يرد على ضربها له بضرب أعنف، إذ كان يريحه في تلك الحالة، هو أن تدلل له على حبها إياه ورغبتها فيه، وبأنه لا يزال سيدها الذي تشتهيه.

فقد طلبت منه يوما أن يسمح لها بالخروج لكي تتسوق لكنه لم يوافق.وحين أصرت ثار في وجهها قائلا: إن كل سيارات القصر مشغولة بمهام أخرى عاجلة،

وأضاف متحديا أنها تستطيع إذا أصرت على الخروج أن تستخدم الترام، وقبلت التحدي ببساطة، فأوقعته في مأزق لم يجد له حلا إلا بإرسال الحارسين خلفها، واستقلت «منيرة هانم» عربة الحريم بخط الترام الذي يربط الزمالك بوسط المدينة، وعادت بالطريقة ذاتها.

ولأن «علي فهمي» كان يظن أنه بهذه الطريقة يقوم بإذلالها، فقد تكرر ذلك عدة مرات، رغم تنبيه الحارسين له، بأن مراقبة الهانم في الترام عسيرة، إذ هي تستقل عربة الحريم التي لا يحق لهما ركوبها معها، إلى أن حدث ما كانا يخشياه، فهربت من المراقبة ذات صباح وذهبت إلى إحدى دور السينما بوسط المدينة، وأثناء الاستراحة التقت بصديق لزوجها هو الوجيه الشاب «مختار بك» الذي دعاها ـ بعد انتهاء العرض ـ لكي تستقل سيارته حين لم يجد في انتظارها سيارة، فاستجابت لدعوته دون تردد، وما كادا يغادران السيارة عند باب القصر، حتى وجدا «علي فهمي» ينتظرهما عنده.

وبعد أن استمع إلى قصتهما شكر ضيفه على مروءته، واقتاده إلى البهو وأمر له بفنجان من القهوة، واستأذنه في أن يغيب عنه قليلا، ثم سحب «منيرة هانم» من يدها وصعد بها إلى الدور العلوي.

وبعد نصف ساعة كانت صرخات «ماجي» خلالها تتصاعد، نزل إلى ضيفه وعلى فمه ابتسامة واسعة ليكرر ترحيبه به وشكره له ويلح عليه في البقاء لكي يتناول الغداء معه.

وما لبث كلاهما أن اتخذ من المشاكل المالية ذريعة لإشعال نيران التوتر في العلاقة بينهما.. إذ أخذت «ماجي» تطالبه بما تبقى من مقدم صداقها ـ وهو ٢٠٠٠ جنيه مصري كانت تساوى آنذاك ٢٠٠٠ جنيه إسترليني ـ وكانت قد أقرت في مجلس العقد ـ وأمام المأذون الشرعي ـ بأنها قد قبضته كاملا، لكنها لم تكن قد تسلمت منه سوى نحو ٤٥٠ جنيها ووقع لها «علي كامل فهمي» سندا يتعهد فيه أن يدفع لها المتبقي بمجرد أن يبيع القطن، لكنه ظل يسوِّف في السداد.. ومع أنه كان يمر بأزمة مالية بعد سنوات الإنفاق السفيه، إلا أنها لم تصل إلى الحد الذي يعجزه عن دفع بقية مقدم الصداق، ولم يكن لرفضه من سبب إلا رغبته في معاندتها وفي كسر أنفها وفي ترويضها. وحين كررت المطالبة قائلة إنها خسرت بزواجها منه معاشها من زوجها الثاني «شارل لوران» وكان يصل إلى ٣٦ ألف فرنك، قال لها:

ـ وما حاجتك إلى المال ما دمت معي.. وما دمت أشتري لك كل ما تشتهين؟.. أما عن صداقك فإني أدخره له.

وردا على ذلك أخذ هو يطالبها بأن تسلمه مجوهراتها التي اشتراها لها، لكي يحتفظ بها في خزينته بالقصر أو في البنك، لكنها استرابت في الأمر واسترجعت ما

كان تناهي إلى سمعها، من أنه رجل «البنج بونج» يعطي باليمين ويسترد بالشمال ولا يقبل أن تخدعه امرأة، وخشيت أن تسلمه المجوهرات، فلا يعيدها إليها فتخرج من مولد الزواج به بلا حمص، ودون صداق أو مجوهرات، فرفضت بشدة وتحول الأمر إلى أزمة من الأزمات الثابتة في علاقتهما تفور ثم تهدأ لتفور مرة أخرى.

ولم تكن المجوهرات هي ما يعني «علي كامل فهمي»، كما لم يكن ما تبقى من مقدم الصداق هو ما تكترث له «ماجي» على الرغم من الطابع التجاري الذي تم على أساسه زواجهما؛ إذ لم تكن خلافاتهما المالية سوى عرض من أعراض الحرب المتواصلة بينهما دون نصر، ينتهي بسيطرة أحدهما على الآخر وإخضاعه لإرادته، مما جعل كلا منهما يخشى أن يمل الآخر من تأخر النصر فينسحب من حياته، فازداد حرصها على أن تحتفظ بنصيبها من غنائم المعركة وازداد حرصه على أن يقلل خسائره إلى الحد الأدنى.

وكانت المشكلة أن أحدهما لم يكن يريد نصرا سريعا بل لعله لم يكن يريد نصرا على الإطلاق، إذ كانا يمارسان الحرب من أجل الحرب، أو بمعنى أدق يمارسان الحرب من أجل الحب، ولا يستطيعان أن يستمتعا بأحدهما دون الآخر، ولم يكن ممكنا أن تنتهي الحرب بينهما إلا بذلك المشهد الدموي الذي انتهت به في «فندق سافواي لندن» في تلك الليلة العاصفة من يولية ١٩٢٣، أي بضغطة غير مقصودة على زناد مسدس بينما كانا يمارسان واحدة من ألاعيبهما العاطفية.

ومع أن مشاجراتهما المتكررة كنت تقلق كل الذين يحيطون بهما وتدفعهم للظن عند كل مشاجرة، بأنها الأخيرة وبأن الطلاق هو النتيجة المنطقية لها، إلا أنهما كانا يدهشان الجميع حين تنتهي المشاجرة، التي تبادلا أثناءها أفحش ألفاظ السباب، بالصلح لتبدأ ـ بعد أيام قليلة ـ مشاجرة أخرى، مما دفع أسرة «علي كامل فهمي» إلى الكف عن التدخل بينهما أو محاولة دفعه لكي يطلقها حتى يستريح وتستريح.

ومع أنها كانت كثيرة الشكوى من ضربه إياها وتنكيده عليها إلا أنها لم تبد أي استعداد جدي لكي تنفصل عنه، وبدا وكأن هناك قانونا سريا لعلاقتهما لا يعرفه أحد غيرهما.

وفيما بعد كشف «علي كامل فهمي» عن جانب من هذا القانون في رسالتين كتبهما إلى «إيفون» شقيقة «ماجي» بعد سفرها من مصر، التي اضطرت ـ فيما بعد ـ لتقديمهما إلى السير «مارشال هول» المحامي لعلهما تساهمان في إنقاذ شقيقتها من الكرسي الكهربائي، فأذاعهما على الرغم مما تحفل به سطورهما من دلائل، على أن العلاقة بين «علي كامل فهمي» و«إيفون» كانت تتجاوز العلاقة المحترمة بين رجل وشقيقة زوجته، لتصل إلى درجة من التبسط الباعث على الريبة، جعلته يستأمنها على



مرجريت مبلر..

أسرار علاقته بشقيقتها بل ويبعث إليها وإلى غيرها من النساء بعواطفه من دون أن يخشى تسرب السر إلى زوجته.

فقد ألمح في الرسالة الأولى إلى رحلتها إلى مصر قائلا:

«ثقي يا حبيبتي إيفون بأنني لم أضق بوجودك في مصر، ويا ليتك قضيت باقي الشتاء معنا، لكن مسألة زواجي جعلت الحالة دقيقة، لذلك فضلت ـ وكلي أسف ـ أن تعودي إلى باريس لأن ذلك كان من مصلحتك».

وعبر في الرسالة الثانية عن أمله في أن تقضي معهم شتاء العام القادم، وختمها قائلا:

ـ «اكتبي لي عن نساء باريس الجميلات، وإذا رأيت هيلانة فقولي لها إن قلبي وروحي، وعواطفي عند قدميها فما زلت أحبها وأرجو أن لا تنساني».

ولكن المهم في الرسالتين هو إشارات «علي كامل فهمي» التي تدل على أن معاملته لزوجته لم تكن عشوائية، أو نتيجة لرد فعل على سلوكها اليومي، لكنها كانت تطبيقا لنظريته في أسلوب التعامل مع المرأة، أو مع «مرجريت» على وجه التعيين إذ قال فيه:

ـ «وأنا الآن مهتم بتدريبها فلن أعود إلى المنزل على الغداء أو العشاء، وقد تركتها في الأوبرا وانصرفت لتعلم كيف تحترم رغباتي.. ونحن ما زلنا نعيش كما تعرفين في الأوبرا والتياترو والخصام والشتائم والمشاكسة، واقبلي يا صغيرتي كل محبتي».

أما الخطاب الثاني فقد قال لها فيه.

ـ «نحن في كل حين في خصام، وقد أريتها أنني أستطيع أن أتصرف بحزم.. وهذا ما يجب أن تعامل به النساء».

وإذن فقد كان «علي كامل فهمي» يعامل زوجته في إطار النظرة الشرقية التقليدية التي ترى أن المرأة لا تحترم ـ أو تحب ـ إلا الرجل القوي

علي فهمي بك يرتدي ملابس ركوب الخيل.. وبيده العصا التي كان يستخدمها في توجيه الحصان.. وأحيانًا في تأديب «منيرة هانم»



الذي لا يُخضعها في الفراش فحسب، بل ويخضع إرادتها لإرادته في كل تفاصيل الحياة اليومية، ولم تكن معاملته لها منذ اللحظة التي صرخ فيها صبيحة ليلة الزفاف طالبا إليها أن تعود إلى غرفتها إلى اللحظة التي اتخذ منها شاخصا للتدرب على إطلاق الرصاص سوى خطوات متدرجة ضمن خطة هدفها ترويض النمرة الباريسية، بدأت بتنفيذ النصيحة الشعبية التقليدية التي توصي الزوج بأن يقتل قطة أمام زوجته في أول أيام الحياة الزوجية، لتعرف مكانتها في بيته، وتتنبه إلى المصير الذي ينتظرها إذا تمردت على إرادته.

أما وهذه الزوجة هي «مرجريت ميلر» التي عاشت حياة طليقة عوَّدتها على أن تكون الطرف المسيطر في كل علاقة تدخلها مع الرجال، فما بالك إذا كانت تلك العلاقة من رجل شرقي تشعر في أعماقها بتفوقها العنصري عليه، فقد كان منطقيا أن تقاوم كل محاولاته لترويضها وهي مقاومة، وجد فيها لذة على الرغم مما كانت تثيره في نفسه من ضيق إذ كانت تستحث قدرته على مواصلة التحدي.

ومع أن «ماجي» قد حرصت فيما أذاعته عن علاقتهما أثناء محاكمتها، وفى أعقابها، على أن تصور نفسها في صورة المرأة الأوروبية المتحررة التي أوقعها سوء حظها أسيرة بين براثن أمير شرقي مجنون أراد أن يحولها إلى جارية، وأن يحطم إرادتها ويسلبها حريتها التي هي نعمة من نعم الله اختص بها الغرب، وسردت ـ في التدليل على ذلك ـ عشرات الوقائع عن الطريقة الفظة التي كان يعاملها بها، إلا أنها عجزت عن الرد على سؤال تكرر بعدد الوقائع التي روتها، هو: ما الذي كان يدفعها للصبر على تلك المعاملة؟

وفى كل مرة يوجه إليها السؤال لم تكن ترد إلا بعبارة: كنت أحبه.

والأغلب أنها لم تضق يوما بحياتها مع «علي كامل فهمي» رغم كل ما كان يفعله بها، وأنها انتحلت هذا الضيق بعد ذلك كإحدى ضرورات الدفاع حين شاء سوء الحظ أن تنتهي واحدة من ألعابها العاطفية بقتله. بل لعل كثيرًا من وقائع التعذيب التي نسبتها إليه قد انتحل هو الآخر للسبب نفسه، وأن الحقيقي منها لم يكن فوق قدرتها على الاحتمال، وإلا فقد كان أمامها فرص كثيرة لكي تحتج احتجاجا عمليا، خاصة وأن يدها لم تكن خالية من أوراق القوة، إذ لم تكن غربتها من عوامل عجزها عن الاحتجاج، كما ادعت بعد ذلك، فقد كان للأجانب ـ يومذاك ـ حصانة تمنحها لهم الامتيازات الأجنبية، وكان للأوروبيين منهم نفوذ يتجاوز غيرهم، وكان باستطاعتها أن تلجأ إلى سفارة بلادها لتطلب إنقاذها مما هي فيه، بل وكان باستطاعتها وهي امرأة خبيرة بالدنيا ولديها محامون أكفاء في القاهرة وفي باريس أن تهجر منزل الزوجية، وأن تطلب من المحكمة الشرعية ـ طبقا للشريعة الإسلامية التي اعتنقتها ـ التفرقة بينها وبين زوجها بسبب قسوته في معاملتها.

وقد اعترفت فيما بعد أنها كانت تتمنى الانفصال عنه أثناء مشاجراتهما، لكنها

لم تفكر جديا في طلب الطلاق منه سوى مرة واحدة بعد أن حبسها في القصر لمدة ١٨ يوما، فناقشت الأمر مع محاميها «البروفسور أسود» لكنها عدلت عن الفكرة.. وبررت ذلك بأنها كانت تتراوح بين اليأس والرجاء، إذ كان يعاملها أحيانا بلطف إلى درجة تعيد إليها ثقتها فيه، ولكنه كان ينقلب إلى العكس في اليوم التالي.

والحقيقة أن هذا التفسير لا يتناسب مع ما روته عن الطريقة الفظة التي كان يعاملها بها. والأرجح أنها لم تكن تضيق بطريقة معاملته لها، بل كانت ترغبها وتستلذها وتسعى للاستزادة منها وقد ألمحت في مذكراتها ـ التي نشرتها بعد ذلك باثني عشر عاما ـ إلى نمط هذا الحب الذي جعلها تصبر على ذلك كله فقالت:

ـ ما أكثر المرات التي كان فيها زوجي ينهال عليَّ فيها ضربا، فإذا ما انسابت الدموع من عيني احتضنني وقبلني. وكان يجد في ذلك لذة كبيرة، وفى أحيان أخرى كان يغازلني ويداعبني لفترة طويلة حتى إذا أهاج مشاعري تركني وانصرف.. كذلك كان يحدث ونحن نتنزه في باخرة.. أو سيرا على الأقدام.. أن يشير إليَّ بيده إشارة خاصة، فكان على أن أتبعه إلى أي مكان سواء كان كهفا أم ممرا مظلما أو مخزنا للحبوب، بل إن الأمر وقع في مطبخ منزلنا ذات مرة، في الوقت الذي كانت فيه حجرتنا الملكية الفاخرة في انتظارنا!

ذلك هو نوع الحب الذي جعل «ماجي» تتحمل كل ما وصفته ـ فيما بعد ـ بأنه همجية شرقية، أرادت أن تجعل منها جارية بعقد زواج بينما كان العقد في جوهره تعاقدا بين شخصيتين من النمط نفسه تسعيان للهدف نفسه: نمرة أوروبية ونمر شرقي يحاول كل منهما بأسلوبه الخاص ترويض الآخر.

وهكذا مضت شهور الشتاء ثم الربيع على الوتيرة نفسها، شجار يعقبه صلح.. ونقار يعقبه حب.. صفعات وقبلات.. ولكمات وتنهدات.. إلى أن بدأت بشائر الصيف وقرر الزوجان أن يسافرا إلى باريس لكي يمضيا الصيف بين ربوع أوروبا.

وكانت آخر مناسبة مصرية عامة يظهر فيها أمير الشباب «علي كامل فهمي» هي مهرجان الزهور الذي أقيم بالنادي المختلط ـ الزمالك الآن ـ في ٢٣ إبريل ١٩٢٣، إذ كان أحد أعضاء لجنة تحكيم المهرجان الذي اشترك فيه عدد من المؤسسات التجارية والشركات الصناعية بعربات مزينة بالزهور، وهو من المناسبات التي كان يحتفي بها مجتمع الأجانب والمتمصرين والمتيّمين بهم من الكشاكش المصريين.

وكانت «ماجي» ـ بحكم خبرتها بشخصيته ـ تثق في أن سفرهما إلى بلدها سوف يعيد ميزان القوة بينهما إلى الاعتدال، بل ربما تجعل هذا الميزان يميل لصالحها، ولا تشك في أن «علي كامل فهمي» سيسترد شخصيته الأوروبية، بمجرد وصوله إلى



في ٢٢ إبريل ١٩٢٣ وقبل أسابيع من مقتله: «علي فهمي» بك يقف في الصف الأول من المستوى الثاني ضمن لجنة الاحتفال بمهرجان الزهور الذي نظمه «نادي المختلط» ـ الزمالك الآن

«باريس» وسيحرص على أن يبدو أمام أصدقائهما المشتركين في العاصمة الفرنسية في الصورة التي يعرفونها عنه، حفاظا على سمعته في أوساط اللهو كرجل رقيق دمث الخلق مهذب مع النساء. وكانت تتوقع أن تضفي مصاحبة شقيقتيه وزوجيهما لهما في الرحلة، جوا ملطفا يقلل من حدة المشاحنات بينهما، بل وسعت كذلك لكي تقنع «قليني فهمي باشا» ـ أحد كبار أعيان محافظة المنيا ـ لكي يصحبهم باعتباره صديقًا لزوجها ولوالده من قبل، ولكن الرجل لم يرحب بالفكرة، إلى أن نجح محاميها «البروفيسير أسود» ـ بناء على طلبها ـ في إقناعه بأن تأثيره في نفس «علي» ـ باعتباره في سن ومكانة والده ـ قد يجعله صمام أمن يحول دون انفجار الموقف بين الزوجين.

19

لكنهم ما كادوا يصلون إلى «باريس» حتى أخذت مشاكلهما التقليدية تبرز، وتتراكم وتنفجر.. وفشلت كل محاولات المصاحبين لهما في تلطيف الجو حتى بعد أن انضمت إليهم شقيقتها «إيفون».

وعلى عكس ما كانوا يتوقعون انعكس جو التوتر بين «ماجي» و«علي كامل فهمي» على الجميع، فبدءوا يضيقون بصحبتهما ويسعون للتقليل

ـ بقدر الإمكان ـ من البرامج التي تجمعهم بهما، ليبتعدوا بأنفسهم عن حالة التوتر الدائمة التي كانا يشيعانها في كل مكان.

فما كادوا يصلون إلى «باريس»، حتى نشب أول خلاف بينهما حول مكان الإقامة، وكانا قد اتفقا على أن يقيما في منزلها بـ «ميدان نابليون».. لكنها اعترضت على أن يقيم «العناني» معهما، كما اعترضت كذلك على إقامة الحارسين العملاقين اللذين كانا يتناوبان حراستها في القاهرة وهما البلغاري «كوستا» والجزائرى «يوسف»، وأصرت على أن يقيما مع بقية الحاشية في فندق قريب من المنزل، وأثار ذلك التحكم غضب «علي» فقرر الرحيل عن منزلها وانتقل الجميع ـ بما فيهم «ماجي» ـ ليقيموا في فندق «ماجستيك». ورفض «علي» أن يحرر «ماجي» الفرنسية من رقابة العملاقين أو يرحمها من مطالعة وجه ضرتها «العناني» كل صباح.

وما لبثت المشاهد التقليدية لمغامرات «علي بابا» وجاريته «منيرة هانم» أن أخذت تتالي بشكل ثبت معه للجميع أنه لا فائدة من تدخلهم لتلطيف الجو؛ لأن هذا التلطيف هو آخر ما يريده صاحبا الشأن.

فبعد أيام قليلة من انتقالهما إلى الفندق، اكتشف «علي كامل فهمي» أن زوجته قد روت لإحدى صديقاتها بعض شئون حياتهما الخاصة. وكانا يجلسان في أحد صالونات الفندق حين بدأ يعاتبها على ذلك، وبعد قليل تحول العتاب إلى مشاجرة عنيفة ارتفعت خلالها أصواتهما فصاح في وجهها بأنها «مومس»، وبأن نهايتها ستكون على يد «كوستا». وصاحت في وجهه بأنه «قواد».

وفشلت محاولات «قليني فهمي باشا» ـ الذي أقبل مسرعا على أصوات شجارهما ـ في إيقاف تدهور الموقف: لم تستجب «ماجي» لرجائه بأن تكف عن ترديد تلك الكلمات البشعة التي لا تليق بامرأة محترمة مثلها، وواصل «علي» إطلاق قذائفه الكلامية. وحين قال له «قليني باشا»:

ـ كيف تعامل امرأة بهذه الطريقة.. وقد كان والدك «جنتلمان».

رد عليه قائلا:

ـ ولكني لست كذلك!

وأضاف وجودهما في باريس لأسباب الشجار بينهما سببا جديدا أضفى على مشاجرتهما درجة من الحدة غير المسبوقة، إذ كانا يلتقيان ـ أثناء جولاتهما الليلية في الملاهي والمطاعم والمراقص ـ ببعض عشاق «ماجي» السابقين. ولأن «علي» لم يكن يعرف معظمهم، فقد أصبح يشك في أن كل الذين يتقدمون لتحيتها وهي معه، هم من المقيدين في دفتر عشاقها، ثم انتقل شكه إلى هؤلاء الذين يلاحظ ـ أو يتوهم ـ

أنهم يتبادلون معها النظرات، والأغلب أن «ماجي» قد قررت استثمار هذا الشك، وأصبحت تتعمد إثارته حتى من دون مبرر لذلك، ضمن سعيها للانتقام منه وترويضه والاستمتاع بإثارة غضبه الذي لا يهدأ إلا بعد أن يتبادلا الحب.

وكانا يجلسان ذات ليلة في ملهى «الفولي برجير» حين لفت نظره أنها أحنت رأسها لشاب كان يجلس إلى مائدة على الطرف الآخر من المكان الذي يجلسان فيه، فثار في وجهها وتبادلا الشتائم وقبض على كفها لكنها سحبته منه بقوة، وظل يجذبها وهي تقاوم إلى أن وقع على الأرض، بعد أن خرج السوار من كفها، فتعالت ضحكات المحيطين بهما.

وعلى هذا النسق جرت وقائع الشهرين اللذين قضاهما الزوجان في «باريس». لم يسترد الأمير شخصيته الأوروبية بمجرد وصوله إلى مدينة النور، كما توقعت «ماجي»، إذ لم تضع في اعتبارها، وهي تتنبأ بذلك، مدى التغير الكيفي الذي حدث في علاقتهما.. واكتشفت ـ بأسى قليل ـ أن صورة الرجل المهذب الرقيق مع النساء لا تغلب على شخصيته إلا في حالة العشق، أما في حالة الزواج، فإن الأمر يختلف، إذ لم يكن لديه أدنى ذرّة استعداد لكي يتظاهر بالتهذيب مع زوجة يشك ـ أو تدفعه هي للشك ـ في أن كل رجل يحدثها هو عشيق سابق أو لاحق.


«قليني فهمي باشا»: صديق الوالد الذي سافر مع الزوجين إلى باريس ليلطف الجو بينهما.. حاول الدفاع عن «مدام فهمي» أثناء المحاكمة أن يستعين بشهادته عن الطريقة التي كان يعاملها بها في محاولة لإنقاذها من الكرسي الكهربائي.. فاكتفى بإرسال شهادة مكتوبة لم تأخذ بها المحكمة

وهكذا لم تحل «باريس» دون وضعها تحت رقابة عدد من أفراد حاشيته الذين كان يصطحبهم معه ـ عادة ـ كجزء من رسوم الإمارة المدعاة ودلائل العظمة الوهمية، فأصبحت مراقبة الزوجة المتنمرة مهمتهم الأولى في تلك الرحلة، ولم تحل إقامتها في فندق «ماجستيك» الفخم دون صدور قرارات الاعتقال بحقها، إذ كان يفرض عليها أحيانا أن تتناول الطعام في حجرتها الخاصة، بينما يتناوله هو في المطعم الفخم، بين حشد كبير من أصدقائه، فإذا ما دعاها لتناوله على مائدته الحافلة الفخمة أحاطت بها الحاشية ـ وفي مقدمتهم ضرتها «سعيد العناني» ـ من كل جانب لكي يحولوا بينها وبين التماس مع الآخرين حتى لو كان ذلك بمجرد تبادل النظرات.

لكن تلك المشاحنات لم تحل بينهما وبين المرح واللهو، إذ كانا يسهران كل ليلة في المسارح وصالات الرقص وحفلات الاستقبال؛ لأن حياتهما معا لم تكن

تستغني عن الأمرين معا أو تمضي بأحدهما دون الآخر.. وكان عاديا أن يبدأ النهار ـ أو المساء ـ بصفعات يتبادلانها، ثم ينتهي بقبلات يتعاطيانها أو بهدايا يقدمها كل منهما للآخر.. فقد أهدته دبوسا ماسيا لرباط الرقبة، وأهداها مجموعة نادرة لأدوات الزينة، كلها من الذهب الخالص المرصع بالماسات الفاخرة، أودعتها عند أحد تجار المجوهرات لكي ينقش اسمها عليها بأحرف من الماس.

وكان من بين فوائد الرحلة أنها مكنتها من أن تخرج من القاهرة بمجموعة مجوهراتها الثمينة، إذ لم يكن منطقيا أن تظهر «ماجي» في سهرات «باريس» دون أن تتزين بمجوهرات تتناسب مع ادعاء زوجها بأنه أمير.

أما وقد أصبحت تخرج أحيانا إلى الشارع وهي تتزين بجانب من مجوهراتها الثمينة في وقت كانت فيه «باريس» تزدحم بعصابات من قطاع الطرق يهاجم أفرادها النساء ليسلبوهن حليهن، فقد وجد الأمير من المناسب أن يهديها مسدسا أوتوماتيكيا صغيرًا من طراز «براوننج» لتستطيع الدفاع عن نفسها إذا ما تعرضت لأي هجوم من هذا النوع.. وقال لها، إنه محشو ـ ومعد للإطلاق، وأن كل ما هو مطلوب منها أن تشد ذراعه ثم تضغط على الزناد فينطلق الرصاص.

وكانت تحمله أحيانا في حقيبة يدها ذات المقابض المزينة بالماس.. لكنها ما لبثت أن أصبحت تتركه في أحد أدراج غرفتها بالفندق، ففضلا عن أنها لم تكن تعرف كيف تستخدمه، فإنها لم تتعرض لأية أخطار من هذا النوع.

وطوال إقامتها في «باريس» لم تستخدم «ماجي» هذا المسدس سوى مرة واحدة أثناء واحدة من مشاجراتهما العنيفة توعدها خلالها «علي كامل فهمي» بأن يجلدها بسوطه إذا لم تكف عن التمرد على إرادته، فهددته بمسدسها لكنه هجم عليها وانتزعه من يدها وألقاه على أحد مقاعد الغرفة وثنى ذراعها خلف ظهرها ودفع بها نحو السرير وأطبق بأصابعه على عنقها.

وجاءت شقيقتها «إيڤون» على صوت استغاثتها فالتقطت المسدس وهددته به فخفف قبضته على عنقها، وغادر الغرفة ساخطا وهو يتوعد «ماجي» بالانتقام ويقسم بأنه سوف يكلف «كوستا» بأن يلقي على وجهها رملا مبللا بحامض الكبريتيك المركز، الذي تشحن به بطارية السيارة لكي يشوِّه جمالها الذي تتفاخر به!

وكانت «إيڤون» سببا في مشاجرة عنيفة بينهما تخلفت عنها وثيقة كشفت عن مدى التوتر والتدهور اللذين كانا يغلفان قصة حبهما



المسدس الذي أهداه «علي فهمي» لزوجته.. وانطلقت منه الرصاصات التي أنهت حياته

المميت، فقد دعا «علي كامل فهمي» رفاقه في الرحلة للسهر في ملهى «بوبيت».. وما إن تحركت بهم السيارات حتى أخذت «ماجي» تنفخ ساخطة لأن شقيقتيه اعتذرتا عن مصاحبة زوجيهما إلى الملهى الذي كان يقدم عروضا للتعري ومشاهد جنسية حية، وتعترض على دعوتها هي وشقيقتها لكي تسهرا مع فريق من الرجال في ملهى لا يرتاده إلا الفاسقون منهم، وكأنهما امرأتان بلا حياء.

ثم تركز اعتراضها على اصطحاب «إيفون». ولم يكن للاعتراض معنى، ففضلا عن أن «إيفون» لم تكن طفلة صغيرة، بل كانت امرأة ناضجة في الثامنة والعشرين من عمرها، فإنها كانت قد رحبت بالسهرة، ثم إنها كانت قد سبقتهم في سيارة أخرى بصحبة «قليني فهمي باشا»، فلم يعد للاعتراض جدوى.

وعلى الرغم من ذلك واصلت «ماجي» التعبير عن سخطها وهو ما أسعد زوجها الذي أدرك أن سبب الاعتراض الحقيقي هو غيرتها من شقيقتها «إيفون» واستثار بروده غضبها، فأخذت توجه إليه ألفاظا قاسية، رد عليها بألفاظ أقسى منها، وانتهت المشادة بأن أصدر أمره للسائق بإيقاف السيارة، وطلب إليها أن تغادرها إلى الفندق.

ولم يتنبه «علي فهمي» في فورة غضبه إلى أن الحارسين اللذين يمكن الاعتماد عليهما للتأكد من أنها ستعود بالفعل إلى الفندق، كانا قد سبقاهما في سيارة أخرى إلى الملهى.

وعندما عاد إلى الفندق، بعد منتصف الليل، اكتشف أن المحظور قد وقع: ردت له النمرة الباريسية اللطمة بأسخن منها، فلم تعد إلى الفندق، بل أمضت سهرتها في مكان مجهول.. فظل ينتظرها وهو يتجول في الفندق كالأسد الحبيس إلى أن عادت في الثانية صباحا.

ولم يصدق «علي كامل فهمي» زعمها بأنها أمضت شطرا من الليل تتجول في معارض الملابس، ثم قضت السهرة برفقة بعض صديقاتها في أحد الملاهي، ولم يهتم بفحص الفاتورة التي قدمتها إليه لتدلل بها علي أنها اشترت فساتين يبلغ ثمنها ١٨ ألف فرنك، إذ تلبسه شك يبلغ حد اليقين بأنها اشترت الملابس على سبيل التعمية، وبأنها قضت السهرة في منزل أحد عشاقها انتقاما منه لإصراره على اصطحاب شقيقتها إلى «بوبيت».

ودارت بينهما مناقشة طويلة من النوع الذي لا جدوى من ورائه، لأن كلا من طرفيه لا يقصد إقناع الآخر وليس لديه أدنى استعداد للاقتناع بشيء مما يقول، إذ الهدف المشترك منها هو أن ينفس كل منهما غضبه في الآخر، ويمارس عدوانيته ضده، ويوجه إليه أفحش الأوصاف وأكثرها إيلاما.

وبعد ساعتين من المصارعة اللفظية، كان الإجهاد قد بلغ بهما حدا كفا معه عن الكلام لعدة دقائق، حاولت بعدها «ماجي» أن تغير الموضوع فطلبت إليه أن يدفع قيمة الفاتورة التي قدمتها له، لكنه أصر على ألا يغير الموضوع بل قال لها وقد زايلت صوته حدة الغضب من فرط الإجهاد، إن عليها أن ترسل بها إلى الرجل الذي أمضت الليلة في فراشه ليسدد قيمتها.. فقالت له ساخرة:

ـ ولكنه رجل فقير.

فقال:

ـ سوف أسمح لك في الليلة المقبلة بأن تخرجي إلى الشارع، لعل الحظ يحالفك فتصطادين رجلا ثريا تنامين معه.. ويدفع لك نفقاتك!

وعلى هذا النحو المبتذل مضت المناقشة بينهما، إلى أن انتهت بإعلان «علي كامل فهمي» بأنه لا يحبها ولا يغار عليها ولا يعنيه في شيء ما تفعله، وبأنه ليس ملزما بالإنفاق عليها.. ولن يتخذ أية إجراءات قانونية ـ بصفته زوجها ـ لاتهامها بالزنا، إذا ما وجدت عشيقا يحمل عنه عبء نفقاتها، وعندما تحدته أن يكون جادا فيما يقول، أبدى استعداده لكي يوقع لها على وثيقة بهذا المعنى، ولما كان لا يتقن الكتابة بالفرنسية، فقد أملاها إقرارا بذلك يقول فيه:

«أقر أنا الموقع على هذا أدناه «علي كامل فهمي» بأنني تزوجت زوجتي «ماري مرجريت ميلر» وأنا أعلم أنها مومس، وبأنني امتنعت عن الإنفاق عليها، وليس من حقي أن أعترض أو أن أتخذ أية إجراءات قانونية ضدها، إذا ما اتخذت عشيقا أو عشاقا ينفقون عليها».

ثم وقع عليه بالعربية والفرنسية!

ومع أن هذه المشاحنة بينهما قد انتهت بالصلح كالعادة، فقد احتفظت «ماجي» بالوثيقة التي أثبتت ـ فيها بعد ـ أنها ذات فائدة قصوى!

ولم تكن تلك آخر المشاحنات التي أشعلتها غيرة كل منهما على الآخر، إذ ما لبثت هذه الغيرة ووسائل التعبير عنها أن أصبحت الوجه الأكثر بروزا لمشكلتهما الزوجية، إذ بلغت من العنف حدا أصبح من الصعب معه على المحيطين بهما أن يفصلا بين الفعل ورد الفعل ليحددا مسئولية كل منهما عن تلك المشاحنات المستمرة التي أزعجت شقيقتيه وزوجيهما، فتكررت محاولاتهم لتهدئة الجو بينهما، إلى أن أدركوا أن الأمر عصي على الإصلاح، وحين استمعوا إلى الأوصاف البشعة التي كان كل منهما ينعت بها الآخر نصحوهما بالانفصال لأنه سيكون أقل إيلاما مما هما فيه.

وكم كانت دهشتهم بالغة حين نسي «علي كامل فهمي» كل ما نعت به زوجته وثار في وجوههم وطلب منهم ألا يتدخلوا في حياته الزوجية!

وكان «سعيد العناني» هو المصدر الرئيسي لغيرة «ماجي»، ففضلا عن أنه لم يكن يدع شيئا مما تفعله أو تقوله أمامه أو يصل إلى علمه أنها فعلته أو قالته إلا وينقله إلى زوجها، فقد كانت على يقين بأن بينه وبين «علي كامل فهمي» علاقة جنسية غير طبيعية، وبأن دوره في هذا المجال يتسع ليشمل قيادة زوجها إلى مباءات الشذوذ الجنسي في باريس، فهو قواد لا يقدم لزوجها نساء، بل فتيانا يشاركونها فيه ويعوِّدونه على احتياجات جنسية وجدت نفسها مطالبة بأن تشبعها لديه، وقد ذكرت ـ فيما بعد ـ أنها رفضت في البداية، أن تستجيب لما طلبه منها في هذا الاتجاه، وقالت له:

ـ ابعد عني، أنا لست «عناني» ولا أمل فيما تطلبه.

لكنها اضطرت في النهاية للتجاوب معه واشترطت عليه أن يكون رفيقا بها أمام إلحاحه من ناحية ولكي تنافس «العناني» وفتيانه وتحول بينهم وبين انتزاع زوجها من فراشها من ناحية أخرى.

وما لبثت بعد أن أدركت أهمية هذا الجانب لدى زوجها، أن اتخذت منه موضوعا لمساومته على بعض مطالبها ـ وخاصة المالية منها ـ أو لتحديه بالامتناع عليه أو لإخضاعه لإرادتها بالاستجابة له.. واتخذ هو من «العناني» وفتيانه وسيلة لإثارة غيرتها، وقد ذكرت فيما بعد أنها رفضت أن يقيم «العناني» معها في منزلها بباريس لأنها لم تتحمل أن تقيم مع ضرتها في المنزل نفسه، فأصر الأمير على أن ينتقلوا جميعا إلى «فندق ماجستيك» ليكون قريبا من «العناني» وأنه كان في بعض الأحيان يمضي معها شطرا من الليل يلاطفها حتى يثير عواطفها ثم يغادرها إلى حجرة ضرتها، فلا يعود إلا عند الفجر، وكان في معظم الليالي يمر على غرفة «العناني» قبل أن يعود إليها.



«مرجريت فهمي».. وفي عنقها ومعصمها المجوهرات التي أهداها لها عشاقها.. وآخرهم «علي فهمي»

والغالب أن هذا الجانب من مشكلتهما الزوجية كان أحد أسباب تصاعد حدة مشاحناتهما في «باريس»؛ إذ بدأت «ماجي» تشعر بآلام عنيفة، كلما استجابت لرغبته ولم تكتشف إلا عند وصولها إلى «لندن» أنها قد أصيب بالتهاب حاد في البواسير، فتزايدت مقاومتها لشهواته وتزايدت بالتالي مشاحناتهما.

ولما كان «العناني» بحكم العلاقة

الخاصة جدا التي تربطه بهما يملك حرية واسعة في الحديث معها في موضوعات بالغة الحساسية، فقد تحدث إليها صراحة ـ وفي حضور شقيقتها «إيفون» ـ بأن عدم استجابتها لما يطلبه، هو سبب كل ما بينهما من مشاكل، وأنها تستطيع أن تحصل منه على كل ما تريد إذا استجابت لما يريد.

لكن «ماجي» لم تستجب لنصيحة «العناني» ولم ترق لإلحاح زوجها، واعتذرت بأن آلام البواسير تجعل استجابتها لرغبته عذابا لا تستطيع تحمله.. وهو ما لم يصدقه«علي فهمي» الذي اعتبر الاعتذار مجرد ذريعة تفتعلها للهروب مما كان يعتبره «واجباتها الزوجية» فشن عليها ـ في ليلة ٢٥ يونيو ١٩٢٣ ـ هجوما مباغتا لم تستطع مقاومته بسبب قوته البدنية المفرطة، وحقق رغبته مما سبب لها آلاما لا تطاق ظلت تشكو منها لعدة أيام.

وجاء سفر «علي كامل فهمي» ـ بصحبة زوج إحدى شقيقتيه ـ في رحلة قصيرة إلى «ألمانيا» لأمور تتعلق بشئونهما الزراعية والتجارية، ليتيح للسفارة البريطانية في «باريس» الفرصة التي تسعى إليها للاتصال بالأميرة «مرجريت فهمي» ومفاوضتها ـ بعيدا عن أذن زوجها وعيون رجاله ـ في موضوع شائك كان يثير قلق الدوائر البريطانية العليا منذ أعلن ـ قبل خمسة شهور ـ نبأ زواج العشيقة السابقة للبرنس «أوف ويلز» ـ ولي عهد إنجلترا ـ من أمير مصري.

ومع أن هذه الدوائر قد تأكدت فيما بعد أن الشاب الذي تزوجته ليس من أمراء الأسرة المالكة المصرية، ولا علاقة له بالأفندية أو البكوات الذين يشاركون في قيادة ثورة ١٩١٩، أو يهتفون بسقوط بريطانيا في شوارع القاهرة إلا أن بقاء رسائل عاطفية بخط ولي العهد بين يدي امرأة أصبحت مصرية بالزواج، في ظروف التوتر المتصاعد في العلاقات بين مصر وبريطانيا، ظل مصدرا لمخاوف وقلق البلاط الملكي البريطاني، خشية أن تقع هذه الرسائل بين يدي الزوجة أو أن تستغل للتشهير بولي العهد، خاصة أن ظروف كتابته لها في ميادين القتال أثناء الحرب العالمية الأولى، كانت قد انعكست على بعض سطورها، ودفعت الأمير العاشق الذي كان يعاني من الوحدة في الخنادق، ومن الشوق إلى المرأة الجذابة ـ إلى الخلط في رسائله بين الحب والحرب، وبين الشوق إلى شفتي حبيبته، وبين أشواقه السياسية التي يتوقع تحقيقها بعد انتهاء الحرب، مما كان يمكن ـ لو أذيع ـ أن يثير مشاكل سياسية للبلد الذي يفخر بالتزامه الصارم بأن الملك يملك ولا يحكم.

وهكذا ما كادت «ماجي» تصل إلى «باريس» ـ في بداية مايو ١٩٢٣ ـ حتى قرر البلاط الملكي البريطاني إيفاد مبعوث رفيع المقام للمفاوضة معها في استرداد تلك الرسائل.. زُوِّد بشواهد تدفعها للثقة بأنه مفوض من «البرنس أوف ويلز» للحديث معها في الموضوع، وبتعليمات تنص على أن تتم المفاوضة معها وحدها وبشكل

مباشر ومن دون علم زوجها، وعلى أن يستجيب ـ دون أدنى مساومة ـ لكل ما تطلبه مقابل إعادتها لتلك الرسائل.

وكان المبعوث البريطاني يتوقع ألا تفرِّط «ماجي» بسهولة فيما تحتفظ به من وثائق عاطفية وسياسية نادرة، وأن تقوده ـ بخبرتها كواحدة من بنات الهوى المحترفات ـ إلى سلسلة من المناورات لتدفعه للمزايدة على ثمن الخطابات إلى أن يرتفع هذا الثمن إلى أقصى ما تريد، ولذلك استعد لمفاوضات مجهدة وطويلة.

وكانت الصعوبة الأولى التي واجهته هي الرقابة الصارمة التي فرضها عليها زوجها، وحالت دون بدء المفاوضة بالشروط المطلوبة.. ثم ما لبث أن اكتشف أنها الصعوبة الوحيدة، إذ ما كاد يتمكن أخيرا من الالتقاء بها ـ أثناء رحلة الزوج القصيرة إلى «ألمانيا» ـ ويثبت لها أنه مبعوث من صديقها «البرنس أوف ويلز» ويطلب إليها باسمه أن تعيد ما تحتفظ به من رسائله، حتى أذهلته باستجابتها السريعة للطلب وبإنهائها للمشكلة التي أقلقت البلاط البريطاني لمدة خمسة شهور، في جلستين فقط سلمت الرسائل في الثانية منهما.

والحقيقية أن «ماجي» أثبتت أثناء هاتين الجلستين حصافة وذكاء بالغين وتصرفت بمنهج المومس العاشقة التي تفاجئ الرجل الذي قضى الليل معها فتعيد إليه ما دفعه من نقود تعبيرا عن شكرها لما منحه لها من متعة.. إذ لم تضع أية شروط لإعادة الرسائل ولم تشر أدنى إشارة لأية مطالب مالية مقابل تسليمها، وكان كل همها هو أن تتثبَّت من أنها ستعود إلى صاحبها، ولن تتسرب إلى طرف ثالث، ولم تطلب سوى إبلاغ الأمير تحياتها واحترامها وأسفها لحرمانها من رسائل تذكِّرها بفترة من أسعد فترات حياتها.


«البرنس أوف ويلز».. ولي عهد إنجلترا في العشرينيات

ومهما تكن قيمة ما تلقته «ماجي» من عبارات الشكر و«هدايا» الامتنان، فإن الشكر الحقيقي الذي تلقته مقابل هذا التصرف النبيل كان إنقاذها ـ فيما بعد ـ من الجلوس على الكرسي الكهربائي.

وكما رفع الستار عن رحلة «باريس» بمشهد مشاجرة بينهما فقد أسدل على الرحلة بالمشهد نفسه.

ففى ليلة ٣٠ يونيو ١٩٢٣ دعا «علي كامل فهمي» عددا كبيرا من أصدقائه

الفرنسيين إلى مأدبة عشاء بواحد من أفخم مطاعم باريس هو مطعم «سيرو» بمناسبة سفره في اليوم التالي إلى «لندن»، ومر أمام المائدة شاب ممن تعودت «ماجي» أن تصفهم بأنهم من أصدقائها القدماء، فلما رآها تقدم نحوها محييا.. وما كادت تنتهي من رد تحيته حتى تلقت صفعة ساخنة من زوجها.. انسحبت على إثرها من المأدبة، وهي ترد على نظرات الدهشة التي أحاطها بهما المدعوون قائلة:

ـ إنه أمر عادي.. فلا تزعجوا أنفسكم.

وما كادت تغادر المائدة حتى لحق بها أحد أفراد الحاشية لكي يتأكد من أنها سوف تعود إلى الفندق ولن تنتهز فرصة الشجار لكي تقوم بنشاط مريب.

وعلى الرغم مما حدث في تلك الليلة، وما حدث فيما سبقها من أيام وليالي باريس، فإن «ماجي» لم تتخلف عن السفر معه إلى «لندن» في اليوم التالي، وهو ما أثار ـ فيما بعد ـ دهشة كل الذين سمعوا قصصها الكثيرة عما كانت تلاقيه من عذاب، لأنها لم تنتهز فرصة سفر سجانها إلى «ألمانيا» لكي تهرب من «باريس» إلى أي مكان لا تطولها فيه يده، ولم تنتهز فرصة سفره إلى لندن وتبقى في بلدها وبين أصدقائها في «باريس».

وقد بررت ذلك فيما بعد بأسباب تبدو في معظمها غير منطقية، وغير صادقة، من بينها أنها لم تكن تعرف مكانا آخر تذهب إليه في «باريس» سوى منزلها في «شارع نابليون» الذي كان «العناني» يستطيع أن يقبض عليها فيه بسهولة، وبأن «علي كامل فهمي» أوهمها بأن له أعوانا يستطيعون إعادتها إليه، حتى لو ذهبت إلى آخر العالم.. وقالت إنها لم تكن تملك فرنكا واحدا تستطيع أن تتصرف فيه بعيدا عن إرادته.

ولعل الأكثر منطقية فيما ذكرته من أسباب هو أنها كانت حريصة على المكانة الاجتماعية التي أصبحت تحتلها في مجتمعات اللهو الفرنسية بفضل زواجها من الأمير الشرقي البالغ الثراء.. لذلك عز عليها أن تعلن فشل حياتها الزوجية، خاصة وأنها لم تكن قد قطعت الأمل بعد في أن تستقيم الأمور بينها وبين زوجها.. وفضلا عن ذلك فإن الرحلة إلى «لندن» كانت ستتيح لها الفرصة التي تنتظرها لرؤية ابنتها غير الشرعية،وكانت تقيم في إحدى المدارس الداخلية بالعاصمة البريطانية.

ولم يكن قد تبقى بصحبتهما من رفاق الرحلة سوى شقيقته «عائشة» وزوجها الدكتور «أحمد بك سعيد» فضلا عن «العناني» وبقية أفراد الحاشية، إذ كانت الشقيقة الأخرى «عزيزة» وزوجها «رفعت بك الروزنامجي» قد رحلا بصحبة «قليني فهمي باشا» إلى «فيشي» لقضاء عدة أيام بها، كما سافرت «إيفون» شقيقة «ماجي» إلى أمريكا.

الفصل السابع

لعبة الحب الأخيرة



«لم يعودا رجلًا وامرأة تختلط منهما العواطف والأبدان والتنهدات، ويسبح كل منهما باسم الآخر منتشيا، كما كان يحدث في اللقاءات الحميمة بينهما.. بل باتا عدوين، يشهر كل منهما سيف لسانه ليتبارز مع الآخر في معركة حياة أو موت.. كما ينبغي لفصل دموي من حوار الحضارات»..



علي فهمي بك.. في مطلع الصبا



لندن على شاطئ نهر التايمز



ارتفع الستار عن رحلة لندن بالمشهد نفسه الذي ابتدأت به رحلة «باريس».. إذ ما كادوا يحطون رحالهم في فندق «سافواي» حتى طلب «علي كامل فهمي» من إدارة الفندق جناحا يضم غرفتين متداخلتين للنوم، وأدركت «ماجي» أنه يريد أن يخصص إحداهما لـ«سعيد العناني»، فعارضت في الطلب، وقبل أن تتحول المناقشة بينهما إلى مشاجرة، أجَّل مدير الفندق المواجهة معتذرًا بأن الفندق لا يضم أجنحة خالية بالصورة التي يرغبها الأمير، وأن ذلك قد يكون متيسرا خلال يومين.

لكن «ماجي» أبلغته في اليوم التالي بأنهم لا يريدون تغيير حجراتهم، وأقامت هي وزوجها بجناح في الطابق الرابع، وأقام «العناني» بحجرة في الطابق الثامن، بينما أقامت شقيقته وزوجها في جناح ملحق بالفندق أقام فيه ـ كذلك ـ «قليني فهمي باشا» الذي لحق بهم بعد يومين من وصولهم إلى «لندن».

ولم تختلف المشاهد التالية في رحلة «لندن» عن مثيلاتها في رحلة «باريس» إذ مضت على نفس النسق: حفلات ومشاجرات.. وقبلات وصفعات وضحكات ودموع.. فذات ليلة خرج الزوجان وبصحبتهما «سعيد العناني» من باب أحد الملاهي الليلية، بعد أن أمضيا به سهرة لم تعكرها ـ كالعادة ـ مشاجرة، وقبل أن يصلوا إلى المكان الذي تنتظرهم فيه سيارة الأمير، انقض أحد صعاليك «لندن» على حقيبة يد «ماجي» المزينة باللآلئ والأحجار الكريمة فخطفها وانطلق يعدو بها، وكان «العناني»

هو أول من أفاق من المفاجأة، فاندفع وراء اللص، حتى أدركه في شارع مظلم فاشتبك معه في معركة أسفرت عن إصابته بكدمة في أنفه، وباستعادته الحقيبة.

لكنه لم يجد «علي» و«مرجريت» حيث تركهما واضطر إلى أن يعود إلى الفندق، وما كاد يدخل عليهما بأنفه المتورم وهو يحاول إخفاء الحقيبة النسائية التي يحملها في يده، حتى لا تلفت إليه الأنظار حتى استقبلاه بترحاب، وانتقلوا إلى صالة الرقص ليشربوا نخب انتصاره في المعركة، وبعد قليل من الأنخاب، تحولت الإشادة ببطولته إلى سخرية من أنفه المتورم، ومن منظره وهو يسير في الطريق وفي يده حقيبة نسائية.. وتعالت الضحكات. وما لبث «العناني» أن شارك فيها، وبدا وكأن الليلة ستكون صافية من الأكدار والمشاحنات.

لكن ذلك كان مستحيلا بحكم القوانين التي تحكم العلاقة بين الزوجين؛ إذ كانت ضحكاتهم لا تزال ترن في جنبات القاعة،حين قامت «ماجي» إلى الحمام لتصلح زينتها، وبالقرب من باب القاعة سقط منها منديل يدها دون أن تتنبه، فالتقطه شاب وسيم كان يجلس إلى مائدة قريبة من مكان سقوطه، وما كاد يراها تعود، حتى استوقفها وقدم إليها المنديل، وتبادلت معه كلمات قليلة قطعها ظهور «علي كامل فهمي» المباغت بينهما ليسدد للشاب - بقبضته - لكمة عنيفة في فكه، كادت توقعه أرضًا لولا أن «ماجي» سندته بيدها، ثم اعتذرت له عما حدث، وربتت بكفها على المكان الذي تلقى فيه اللكمة.

ووجد الأمير أن الوضع قد تدهور، فسحبها بعنف ليصعد إلى جناحهما بالفندق، لتبدأ مناقشة من ذلك النوع العدواني الغضوب الذي كانا قد أدمناه.. فقد أصر «علي كامل فهمي» على أن الأمر كان مرتبا منذ البداية، وعلى أنها ظلت تتبادل النظرات مع الشاب منذ دخلا إلى الصالة، وأنها أسقطت منديلها متعمدة ليكون أشبه برسالة تدعوه بها للحديث إليها، وهي حيلة شائعة بين المومسات من مثيلاتها لا تجوز على ذكائه، وأصرت «ماجي» على أنه حمار ولا يفهم شيئا، وانتقى كل منهما من قاموس شتائمه أفحش ألفاظ السباب ليوجهها إلى الآخر!

وفي اليوم التالي نجح «قليني فهمي باشا» في تصفية الجو بينهما بعد أن استمع - كالعادة - إلى تفاصيل كثيرة صغيرة تدل على أن كلًا منهما ما زال شديد الحرص على معاندة الآخر، كان من بينها رفض «علي كامل فهمي» شراء كلب صغير من نوع نادر، كانت «ماجي» قد أبدت رغبتها في شرائه، فاشتراه «قليني باشا» وأهداه إليها!

ولم يستمر الصفاء بينهما سوى يوم واحد، ففي صباح يوم ٣ يوليو ١٩٢٣ تلقت «ماجي» - على عنوانها في «فندق سافواي» - خطابا من مجهول يقول لها فيه:

«أرجو أن تسمحي لرجل جاب أقطارا عديدة من بلاد الشرق.. ودرس أخلاق

الشرقيين وعرف اعوجاج طباعهم، أن يسدي إليك بعض النصح: لا تعودي مع زوجك إلى مصر، إن الرحلة إلى بلاد الشرق لا تخلو عادة من أحداث غامضة تبدو بريئة تماما، فالشرقيون مغرمون بالسم، وهو سلاح قاتل يمضي دون أن يترك آثارا تدل على القاتل الذي قد يقدمه لك على شكل زهرة جميلة، أو في طبق من الطعام الشهي، أو في فنجان قهوة زكية الرائحة.. وخير لك أن تخاطري بثروتك من أن تخاطري بحياتك».

ولم تكن «ماجي» تتوقع حين أطلعت زوجها على الخطاب أن يثور كل تلك الثورة، ولعلها كانت تتوقعها لذلك تعمدت أن تطلعه عليه، فإذا به يخضعها لتحقيق مرهق، انتهى كالعادة بتبادل الشتائم واللكمات.. إذ كان الخطاب يحمل أختام بريد «باريس» وهو ما استنتج منه «علي فهمي» أن صاحبه ليس مجهولا لدى «مرجريت»، التي شك في أنها مصدر ما وصل إلى علم كاتب الخطاب من معلومات عن حياتهما الزوجية، دفعته إلى إرسال خطابه، وإلا كيف عرف عنوان إقامتهما في لندن بعد أيام قليلة من وصولهما إليها، وما الذي يقصده من تحذيره لها من العودة إلى مصر، إلا إذا كان هدفه هو أن تبقى لكي يستولي عليها؟! وهل كان يمكن أن يفعل ذلك دون أن يكون بينهما ما يشجعه على إغوائها على ترك زوجها؟!

والحقيقة أن هذا الخطاب، الذي لا شك في أن الذي أرسله كان صاحب مصلحة في إنهاء زواجهما، كان ذا أثر بالغ السوء على علاقتهما ولعب دورا رئيسا في تدهور الموقف بينهما بشكل سريع، وبدأ «علي فهمي» ينفث عن غضبه منها بتهديده لها بالقتل إذا هجرته، وفى الليلة التي وصل الخطاب في صباحها، سهرا في «ريفييرا كلوب» على شاطئ «نهر التايمز» وعندما لاحظ نظراتها الساهمة إلى مياه النهر قال لها:

ـ سألقيك يوما في أعماق هذا النهر قبل أن تكوني لغيري.

وما كادا يعودان إلى جناحهما في الفندق حتى استأنفا المناقشة في موضوع الخطاب، وظلا يتشاحنان حتى هطلت دموعها، فقال لها:

ـ لماذا لا تلقين بنفسك من هذه النافذة فتريحين وترتاحين؟

وفتح النافذة، ثم عاد فأغلقها ليرتمي إلى جوارها على الفراش فيرتاح فيها وترتاح فيه.

وقد ذكرت فيما بعد أنه شن عليها ـ في تلك الليلة ـ عدوانا غادرا كالذي شنه عليها بباريس في ٢٥ يونيو، وأنها حاولت أن تمنعه وأن تعتذر بما كانت تعانيه من آلام فلم تستطع!

ومرّ اليوم التالي دون مشاحنات، بل وأرسلها «علي كامل فهمي» إلى أحد معارض الملابس بصحبة «العناني» لتشتري ما تريد من ثياب، فاشترت ثوبا فاخرا للسهرة دفعت ثمنا له ثمانية آلاف فرنك.. وكانت سعادتها به عظيمة حتى إنها لم تعترض على دخول «العناني» معها إلى غرفة القياس.

إلا أنها بدأت منذ صباح يوم السبت ٧ يوليو ١٩٢٣ تشكو من آلام شديدة اضطرت معها إلى استدعاء الدكتور «جوردون» الذي فحصها وأبلغهما أن التهاب البواسير قد بلغ درجة من الحدة تتطلب تدخلا جراحيا، وأنه يشك في وجود تشققات توجب إجراء جراحة عاجلة قبل أن تتلوث فتؤدي إلى تسممها، وانصرف بعد أن وصف لها بعض المسكّنات وأرسل إليها اثنين من الجراحين، قاما بفحصها وأكدا على ضرورة إجراء العملية الجراحية بأسرع وقت مستطاع.

وما لبث المكان الذي ستجرى به العملية الجراحية أن أصبح موضوعا لخلاف عنيف بينهما، فقد أصرت «ماجي» على أن تجريها في مستشفى «بتشيني» بباريس بينما أصر «علي كامل فهمي» على أن تجريها بأي مستشفى بريطاني تختاره. وإزاء إصرارها بدأ يشك في أن الأمر كله مناورة، وأن لديها سببا غامضا يدعوها للسفر إلى باريس، وربط بين الخطاب الذي أرسله إليها المجهول وبين البروز المفاجئ لمشروع العملية الجراحية العاجلة، مما اضطرها إلى طلب شهادة رسمية من الدكتور «جوردون» بحاجتها إلى إجراء الجراحة، لكي تدلل له على أن الأمر خطير فعلا ولكنه استهزأ بالأمر، وأبلغها أنه يستطيع أن يحصل على عشرين شهادة مثلها بأن زائدته الدودية ملتهبة وفى حاجة إلى جراحة عاجلة، بل ورفض أن يدفع أتعاب الأطباء الذين قاموا بفحصها.

وفشلت محاولات «قليني فهمي باشا» في إقناعه بأن واجبه كزوج لا يفرض عليه فحسب أن يستجيب لرغبتها في إجراء الجراحة في المستشفى الذي تطمئن إليه، بل وأن يصحبها إلى «باريس» لكي يكون إلى جوارها أثناء إجرائها.

لكن شيطانا كان قد تلبسه دفعه لكي يتعامل مع الأمر باستهانة بالغة، فأعلن لها أنه لن يدفع لها بنسا واحدا من نفقات السفر أو الإقامة في المستشفى إذا أصرت على العودة إلى «باريس».

وعلى عكس ما كان يتوقع «علي كامل فهمي» فإنها لم تتراجع أمام العراقيل التي وضعها في سبيلها ليحول دون سفرها إلى «باريس» وعلى عكس ما كانت تدعي، فقد ثبت أن لديها نقودا تكفي لتنفيذ مشروعها، دفعت منها أتعاب الأطباء التي رفض دفعها وأرسلت وصيفتها صباح يوم الأحد ٨ يوليو فحجزت لهما تذكرتين للسفر إلى «باريس».

وفي صباح اليوم التالي أرسلت بالفعل حقائبهما إلى المحطة، فلم يبق لديها سوى الملابس التي تحتاجها حتى موعد السفر الذي كان قد تحدد له الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء ١٠ يوليو ١٩٢٣.

وفوجئ «علي كامل فهمي» الذي ظل طوال يومي الأحد والاثنين يتجاهل كل ما تفعله بما اتخذته من إجراءات، فاضطر إلى العدول عن سياسة التجاهل، فدخل عليها في مساء يوم الإثنين ٩ يوليو في غرفتها وقال لها:

ـ يا عزيزتي المسكينة.. لو كنت أعلم أن هذا العبث الصبياني سيؤدي إلى نتائج كهذه ما أقدمت عليه، إنني أود أن أصلح خطئي.. ولذلك فقد حجزت مقصورة في أحد المسارح نشاهد مسرحية «الأرملة الطروب» فإذا كان في وسعك النزول فسوف نشاهد المسرحية ثم نعود لتناول العشاء معا، فأنا لا أتحمل أن تسافري وبيننا خصام.

ولأنها لم تكن تريد هي الأخرى أن يبدو سفرها وكأنه انفصام لعلاقتهما، فضلا عن أنها لم تكن قد فقدت الأمل في أن يغير موقفه من سفرها، كما كان يحدث في كثير من الحالات المشابهة، فقد قبلت اعتذاره ودعوته، وتحاملت على نفسها وقامت لترتدي فستان السهرة الذي اشترته قبل يومين ولم تكن قد ارتدته بعد، وكان فستانا من الحرير الطبيعي الأبيض مزينًا، بالخرز، بديكولتيه واسع يكشف عن صدرها المرمري، ورقبتها الملساء الجميلة التي زينها عقد من الماس من فرعين.

وقبل أن يغادرا الفندق وبصحبتهما «العناني» حرصت على أن تتوجه إلى مكتب التلغراف، لكي ترسل برقية إلى مستشفى «بتشيني» تؤكد فيها أنها ستصل إلى باريس ظهر اليوم التالي في إيماءة واضحة إلى ما فهمته من اعتذار زوجها وإعلان صريح بأن موافقتها على الصلح لا تعني تنازلها عن الهدف.

ومع أن الجو كان لا يزال حارا فقد شعرت «ماجي» لأول مرة منذ بدأت الأزمة بنسمات السعادة ترفرف من حولها، ليس فقط لأنها سوف تتخلص من الآلام المبرِّحة التي كانت تعاني منها، ولكن أساسا لأن تلك أول جولة من جولات الحرب بينهما تنتهي بانتصار كامل لها.. فقد استطاعت أخيرا أن تفرض إرادتها على إرادته وأن تجبره على قبول ما تريد.

ولم يتبادل الاثنان حديثا عن المشكلة خلال السهرة التي أسعدت «ماجي» رغم ما كانت تعانيه من آلام اضطرتها إلى الوقوف أكثر من مرة أثناء عرض المسرحية، حتى تخفف مما كان يسببه لها الجلوس من آلام مفرطة، ولكنها ـ رغم صمته عن الحديث في الموضوع ـ كانت تتوقع أن يعلن استسلامه النهائي أثناء العشاء الذي دعاها إليه.. فيعطيها نفقات الرحلة إلى باريس، ويودعها وداعا رسميا تشترك فيه الحاشية.

وحين أخطأ أثناء الاستراحة فأخرج من جيبه ـ بدلا من علبة السجائر ـ رزمة من أوراق النقد الفرنسية تيقنت من أن ما تتوقعه سيحدث!

لكن الثلاثة ما كادوا يدلفون من الباب الرئيسي لـ«فندق سافواي»، ويتحلقون حول مائدتهم في المطعم الكبير حتى انقلب الجو في العاصمة البريطانية فجأة، بدأت العاصفة من ضواحي المدينة في كنجستون وريتشموند، ثم وصلت إلى لندن في اللحظة التي كانوا يعودون فيها، وتتابع هزيم الرعد وضوء البرق، فأخذوا يتابعونه من وراء الزجاج لفترة قصيرة حط خلالها الصمت عليهم.. إلى أن قطعه «علي فهمي» قائلا:

ـ أما زلت تصرين يا حبيبتي على السفر غدا إلى باريس؟

وكانت هذه العبارة هي بداية النهاية لعمره العاصف الذي لم يكن قد تبقى منه سوى ساعتين.

١٩٣٧: قليني فهمي باشا وإلى جواره فاتنة تركية..كان من كبار أثرياء الأقباط في مصر.. وتتاخم أملاكه في محافظة المنيا أملاك علي فهمي





لم يكد «علي كامل فهمي» ينتهي من إلقاء سؤاله، حتى انتقلت العاصفة التي كانت تزأر في الخارج إلى المائدة التي كانوا يجلسون حولها بالمطعم الكبير لفندق «سافواي»، اكفهر وجه «ماجي» التي أدركت مغزى السؤال، وعرفت أنه كان طوال الوقت يمارس معها واحدة من ألاعيبه السيكلوجية، وأنه تعمد أن يوحي لها بدعوتها إلى المسرح ثم إلى العشاء، أنه قد خضع لإرادتها وانهزم أمامها فلم يوافق فقط على سفرها، بل وتركها ـ كذلك ـ تتوهم أنه إذا لم يصحبها إلى «باريس» فإنه ـ على الأقل ـ سيقوم عنها بنفقات السفر ونفقات إجراء العملية الجراحية لكي يفاجئها ـ في نهاية السهرة ـ بسؤال يخيب آمالها ويطفئ فرحتها لكي يستمتع برؤية أمارات الهزيمة على ملامحها وعكارة الهم في عمق عينيها.

لكنها لم تستسلم طويلا لمرارة الإحساس المفاجئ بالهزيمة، إذ استدعت دلالة السؤال كل طاقة الغضب الكامنة داخلها، وكل قدرتها على

التحدي، وشهوتها للعراك، ورغبتها المستعرة في أن تقهر هذا الثعلب الصغير الماكر، فمكنتها ـ على الرغم مما كانت تعانيه من آلام جسدية ونفسية ـ من السيطرة على ملامحها لتكتفي بهزة من رأسها، وكأن السؤال بلا دلالة، أو كأن الأمر لم يعد يستحق المناقشة.

وبهذا المشهد بدأت لعبة الغرام الأخيرة بينهما على خلفية موسيقية من قعقعة الرعد ووهج البرق اللذين حالا بين المحيطين بهما وبين الاستماع إلى المناجاة العاطفية بين الشرق والغرب، أو بين «علي بابا» وجاريته الأوروبية القادمة من البلاد التي اختصها الله ـ دون غيرها ـ بنعمة الحرية.

لم يعودا رجلا وامرأة تختلط منهما الأبدان والتنهدات ويسبِّح كل منهما باسم الآخر منتشيا، كما كان يحدث في اللقاءات الحميمة بينهما.. بل باتا عدوين يشهر كل منهما سيف لسانه ليتبارز مع الآخر في معركة حياة أو موت.. ليتكرر الكلام نفسه الذي تبادلاه خلال الأيام الثلاثة الأخيرة:

ـ ولماذا في باريس.. وفى لندن عشرات المستشفيات تستطيعين فيها إجراء العملية؟

ـ لأننى أثق بأطباء بلادي.

ـ ولكن الجراحين الإنجليز أكثر مهارة من الفرنسيين.

ـ هذا رأيك وأنا أدرى بمصلحتي.

ـ لن أعطيك فرنكا واحدا لنفقات سفرك أو نفقات الجراحة

ـ أعرف هذا.. ولن أعدم وسيلة للحصول على نفقاتي.

ـ هل وجدت عاشقا آخر يدفع لك أكثر مما أدفع؟

ـ وماذا أفعل إذا كان زوجي يرفض أن ينفق علي؟

ـ أنا على استعداد لأنفق عليك كل ثروتي بشرط أن تجري العملية هنا.

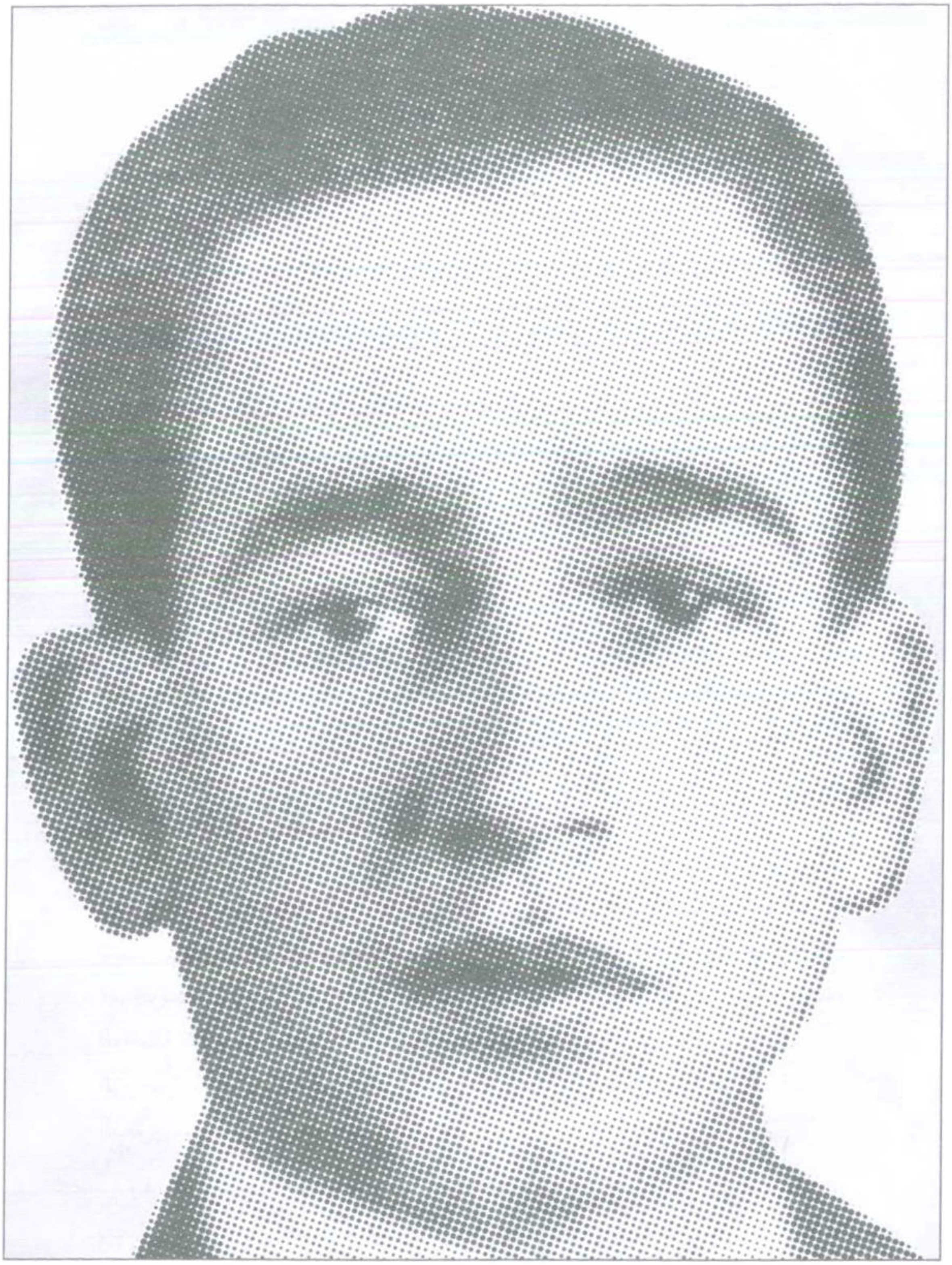
ـ ولكني أريد أن أجري العملية في بلدي لأدفن فيها إذا ما مت!

ـ حسنا سوف تموتين قبل أن تغادري لندن.. وباستطاعة «كوستا» أو «يوسف» أن يقوما بكل شيء بما في ذلك نقل الجثمان إلى بلدك.

ـ افعل ما بدا لك ولكني سأسافر في الصباح.

ـ أراهن على أنك لن تجري جراحة.. ولن تدخلي مستشفى.

ـ لولا وحشيتك وجنونك لما كان هناك ضرورة للعملية.



علي فهمي.. آخر صورة قبل الرحيل

ـ ولكنك استمتعت به أليس كذلك؟

ـ اخرس.

ـ هل أبرقت للعشيق الذي ينتظرك هناك بموعد وصولك؟

ـ نعم.. وسيكون في استقبالي.

ـ ومن هو؟

ـ لا شأن لك.

ـ أتجسرين على أن تعترفي بذلك في وجهي؟

ـ هذا هو الرد الوحيد على كلامك السافل.

ـ أنا أستحق كل ما يجري لي لأنني تزوجت من مومس لا ترتوي من الرجال.

ـ بل أنا التي تستحق كل ما يجري لها لأنني تزوجت من قواد مجنون وشاذ.

ـ ولماذا تبحثين عن عاشق آخر.. ألا أكفيك؟

ـ كف عن هذا الكلام القذر؟!

ـ تعال نصعد إلى شقتنا لأغنيك عن كل العشاق لمدة شهر على الأقل.

ـ اسكت يا حيوان.

ـ اختاري ألفاظك وإلا حطمت هذه الزجاجة فوق رأسك.

وكان «سعيد العناني» هو الذي حال بين زجاجة الصودا التي رفعها «علي كامل فهمي» قبل أن يقذف بها في وجه النمرة الباريسية، ونجح في أن ينتزعها منه قبل أن يلفت ما يجري نظر المحيطين بهم الذين كانوا يلقون نظرات إعجاب على فستان «مرجريت» الأبيض المطرز باللآلئ الصغيرة.. ومن حسن الحظ أن أصوات قعقعة العاصفة كانت قد تصاعدت آنذاك إلى ذروة غير مسبوقة أسهمت في إثارة أعصاب الزوجين، لكنها حالت بين الآخرين وبين الاستماع إلى ما كان يدور في هذا الفصل الدموي من حوار الحضارات.

وفي أعقاب ذلك غادر الزوج المائدة غاضبا.. وقبل أن يصل إلى الباب الذي يفصل بين المطعم وصالة الرقص، كان «العناني» قد أدركه، وانتحيا ركنا أخذا يتهامسان فيه.. وعاد «العناني» ليكرر عليه نصيحته بأن يحني رأسه للعاصفة، وأن يتركها لتسافر كما تريد، وعاد «علي كامل فهمي» ليكرر على مسامعه السبب الرئيسي لاعتراضه على سفرها؛ إذ كان يخشى إذا سافرت ألا تعود، وهو ما كانت تهدده به منذ وصولها إلى لندن.

وعلى عكس كثير من تهديداتهما المتبادلة، التي لم تكن معظمها جدية، بل مجرد انفجارات عصبية تتولد عن الاحتكاك بين شحنة الغضب داخل كل منهما وتعبر عن الرغبة في إيلام الآخر، فقد هز هذا التهديد «علي كامل فهمي» من الأعماق. وربما لو كان قد صدر عنها وهي في القاهرة لما اهتم به كل هذا الاهتمام.. ولما نظر إليه بجدية.. ومع أنه ظل ـ خلال الشهرين اللذين قضياهما في باريس ـ يمارس درجة من السيطرة عليها، إلا أنها كانت أقل بكثير من درجة سيطرته عليها في القاهرة.

وبهذا اختل ميزان القوة بينهما، على الرغم من أنها كانت لا تزال تشكو من عدم اعتداله لصالحها.

ولأن «علي كامل فهمي» لم يكن شديد الثقة بنفسه، فقد هزته تهديداتها غير المباشرة بأن تهجره خاصة أنها كانت تلمح إلى ذلك دون تفصيل، وفي ساعات الصفو بينهما لا في ساعات الخصام، مما خلق لديه هاجسا قويا، بأنها تهديدات جدية وليست مجرد تهديدات من ذلك النوع الذي تعودا أن يتبارزا به أثناء المعارك، ثم ما لبث هذا الهاجس أن تحول إلى يقين، بأنها قد حزمت أمرها ـ أخيرا ـ وقررت أن تهجره، وبأنها تخطط لذلك سرا، وبأن إصرارها المفاجئ على إجراء الجراحة، وتشبثها بأن تجريها في باريس هو مجرد ذريعة افتعلتها لكي تسافر بلا عودة!

ولأن «ماجي» لم تكن جادة في إيماءاتها الغامضة إلى هجره، بل كانت تفعل ذلك كواحد من أساليب استخدام سلاح الحرب السيكلوجية، الذي تنبهت متأخرا إلى فعاليته، فإنها لم تكتشف العلاقة بين تلك الإيماءات وبين إصراره على رفض السماح لها بالسفر، وفشلت كل الجهود التي بذلتها وبذلها المصاحبون لهما ـ ومنهم شقيقتاه وزوجاهما و«قليني فهمي باشا» ـ في إقناعه بأن لديها مبررات حقيقية للسفر.. كما فشل هو في إقناعهم بمنطقية معارضته؛ إذ كان يخفي عنهم أسبابها الحقيقية حتى لايكشف أمامهم عن حرصه عليها وتمسكه بها وخوفه من أن تهجره، فيظنون برجولته الظنون.

وكان «العناني» ـ بحكم العلاقة الخاصة بينهما ـ هو الوحيد الذي يعرف سبب المعارضة الحقيقي.. وهو الذي أدرك ـ من ذعر سيده البالغ لمجرد شكه في أن «ماجي» تخطط للفرار منه ـ مدى سيطرتها عليه على الرغم من كل المظاهر التي تشير إلى العكس. ولأنه كان ـ في أعماقه ـ يتمنى أن تتحقق مخاوف الزوج وأن تسافر «ماجي» بلا عودة، لينفرد وحده من دون شريك.. بعواطف «علي بابا» وعطاياه، فقد سعى لإقناعه بالسماح لها بالسفر.

لكن «علي كامل فهمي» لم يكن مستعدا ـ وهما يقفان في تلك الليلة العاصفة إلى جوار الباب الذي يفصل بين المطعم وصالة الرقص ـ للاقتناع بشيء مما ساقه له

«العناني» من دلائل على أن «ماجي» ستعود لأنها تحبه، ومن شواهد على أنها فعلا مريضة وفى حاجة إلى العملية الجراحية، وحتى لو لم تكن الجراحة عاجلة، فلا بأس من إجرائها الآن، طالما أن آلام البواسير أصبحت تنغص عليها حياتها.

وكان من رأي «العناني» أن مخاوفه لا مبرر لها وأن فكرة سفرها بلا عودة مستبعدة، وأن يده تستطيع أن تطولها ـ إذا تحققت شكوكه ـ في أي مكان تهرب إليه، فهي زوجته بمقتضى عقدين للزواج، أحدهما مدني والآخر شرعي، ولو أنه أقام عليها دعوى أمام المحكمة الشرعية، يثبت فيها نشوزها فسوف تحكم المحكمة بإدخالها إلى بيت الطاعة.

ولم يكن «علي كامل فهمي» ساذجا ليصدق أنه يستطيع أن يسترد العصفور بعد أن يطير من القفص، وكان يعلم أن حكم المحكمة الشرعية، ربما يمكن تنفيذه إذا كانت «منيرة هانم» لا تزال تقيم في القاهرة، أما وهي تقيم في باريس، فإن تنفيذه سيكون من رابع المستحيلات. وحتى لو كان ذلك ممكنا، فإن لجوءه إلى المحكمة، هو إعلان بإفلاسه في بورصة العشق وبهزيمته في معركة الحب وتشهير بخيبته وبعجزه عن الاحتفاظ بصيده الذي ظل يطارده بين المدن والموانئ لمدة تزيد على خمسة شهور.

وكان الشيء الوحيد الذي نجح «العناني» في إقناع سيده به هو أن يعود إلى المائدة، إذ لا فائدة من وراء انسحابه من السهرة، وكانت «ماجي» تتبادل بعض العبارات مع قائد الفرقة الموسيقية الذي ما كاد يراهما يعودان حتى تراجع بخفة إلى مكانه، وحط الصمت على الثلاثة إلى أن قطعه «العناني» مقترحا عليهما أن يقوما للرقص معا، ولما لم يتحمس أحدهما للاقتراح دعاها لترقص معه فقبلت دعوته.

وأثناء الرقص، واصل «العناني» محاولاته لتلطيف الجو، فطلب إليها أن تعالج الأمر بهدوء وألا تسعى لاستفزاز «علي بابا» أو ترد على محاولاته لاستفزازها حتى تمر الأزمة.. فلم تعلق. ولم يطل بهما وقت الرقص، إذ كانت مجهدة، فألقت عليهما تحية المساء.

ولم يرد «علي كامل فهمي» التحية، لكن «العناني» صحبها حتى باب المصعد ثم عاد إلى سيده، فلامه على إصراره على مواصلة توتير الجو، واقترح عليه أن يصعد إليها قبل أن تنام حتى لا تغادر لندن والقطيعة بينهما قائمة، فاستجاب لنصيحته، وصعد وراءها إلى الطابق الرابع، وكان «العناني» شديد الثقة ـ استنادا إلى السوابق ـ بأن العلاقات بينهما ستصفو قبل أن تشرق الشمس.

لم تكد «ماجي» تدخل إلى الجناح الذي يقيمان فيه حتى أغلقت الباب الذي يربط غرفتها ببقية غرف الجناح، ثم أخذت تجمع ما تبقى من أمتعتها في حقيبة صغيرة

دون أن تستبدل ملابسها؛ إذ كان في نيتها أن يكون الفستان الذي قضت به السهرة هو آخر ما تضعه في الحقيبة، وأثناء تفتيشها في الأدراج لكي تتأكد من أنها لم تنس شيئا، عثرت يدها بالمسدس الصغير في أحدها، فألقته على مقعد إلى جوار سريرها لكي تضعه ـ فيما بعد ـ في حقيبة يدها.

وكان آخر ما وضعته في الحقيبة هو الإطار الذي يضم صور زوجها، ولم يكن قد بقي أمامها سوى أن تخلع ملابسها حين سمعت صوت قدميه، وهو يدخل من باب الجناح الرئيسي، وبعد قليل حدث ما كانت تنتظره، وطرق الباب الذي يفصل بين غرفتها وبقية غرف الجناح، لكنها لم ترد عليه، على الرغم من أنه ناداها باسمها وطلب إليها أن تفتح له؛ لأن لديه ما يقوله لها.. وعندما يئس من ردها عليه غادر الطابق عائدًا إلى صالة الرقص، حيث كان «العناني» لا يزال يواصل سهرته، فأخطره ـ بضيق شديد ـ بما حدث.. وضحك «العناني» قائلا له، إن هذا هو المتوقع وإنه لو صبر قليلا فسوف تفتح له.

وفي هذه المرة عاد «علي كامل فهمي» إلى غرفته وخلع ملابسه وارتدى منامته الحريرية، ثم خرج إلى الممر ليواصل الطرق على باب غرفتها المطل عليه فواصلت صمتها الذي استفزه فارتفع صوته ـ هذه المرة ـ يهددها بأن يستدعي الشرطة لكي تضبط الرجل الذي تخفيه تحت سريرها، وكانت خشيتها من إزعاج جيرانها هي التي دفعتها لكي تفتح له الباب، ثم عادت لتجلس إلى السرير، وإلى جوارها كلبها الصغير، وما كاد يدخل حتى أخذ يتظاهر بالبحث عن الرجل الذي تخفيه في غرفتها، وألقى نظرة على الحقيبة، ثم عاد لتكرار سؤاله المزعج عما إذا كانت لا تزال تصر على السفر.. فقالت له بتحد:

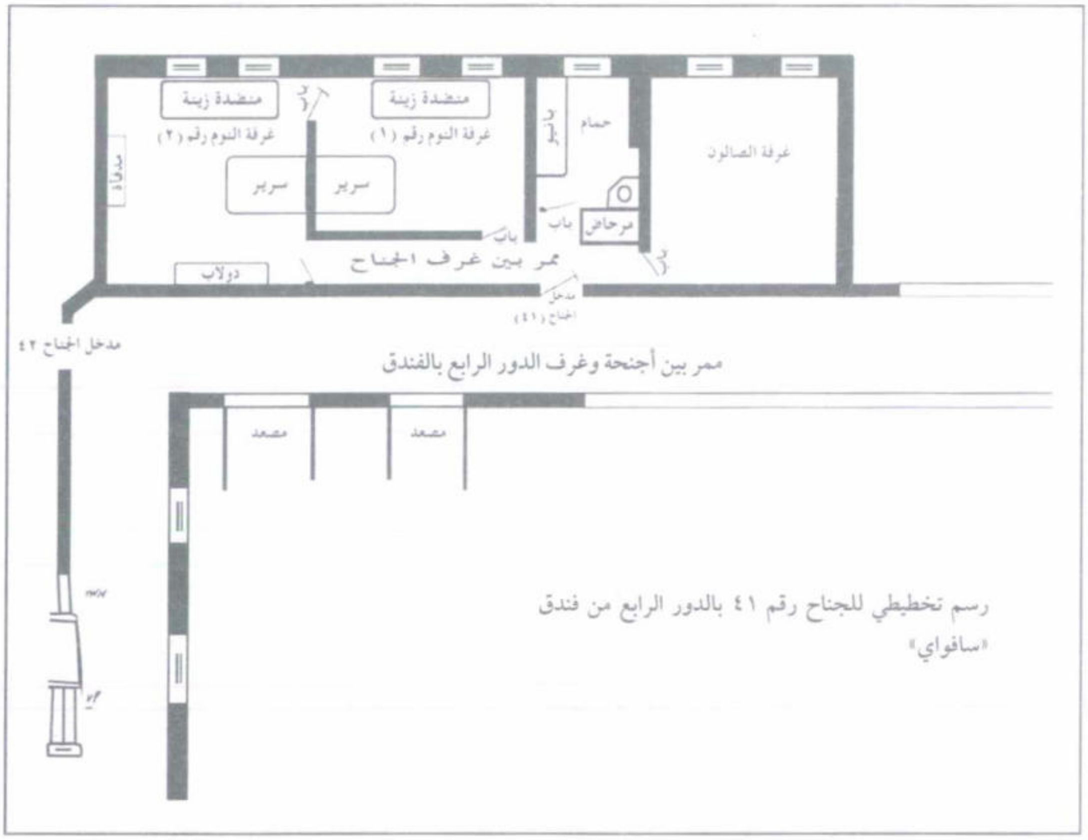
ـ سأرحل مهما كلفني الأمر.. فأنا أفضل الموت على الحياة معك.

ومع أنه غضب من تحديها له، إلا أن رد فعله بدا أقرب ما يكون إلى عتاب المحبين، أو احتجاج الأطفال على إهمال أمهاتهم لهم.. وقد ظلت خلال الدقائق القليلة التالية، تتابع من مكانها على السرير، حركته القلقة وهو يقوم بأشياء لا معنى لها، ويقول عبارات لا يعنيها: يمد يده إلى صورته التي تقبع على سطح ما جمعته من أشيائها في الحقيبة فيخرجها من إطارها ويمزقها ويلقيها إلى جوارها وهو يقول:

ـ أنا لا أريدك أن تحتفظي بصورتي.

ويخرج إلى غرفته ـ عبر الباب الداخلي لغرفتها ـ ثم يعود بالدبوس الماسي الذي كانت قد أهدته له، فيلقيه إلى جوارها وهو يقول:

ـ لا تنسي أن تأخذي هذا معك.



رسم تخطيطي للجناح رقم ٤١ بالدور الرابع من فندق «سافواي»

ثم يفتح النافذة ويشير إليها قائلا:

ـ لماذا لا تلقين بنفسك من هذه النافذة لأستريح منك؟

ثم يردف بعد لحظة صمت:

ـ بودي أن أعرف السبب الحقيقي لسفرك؟

ـ قالت بهدوء:

لأنني لم أعد أتحمل الحياة مع رجل بلا قلب وبلا روح.. وقد آن الأوان لكي أعترف بهزيمتي وأنسحب من المعركة!

لم يعلق «علي كامل فهمي» على ما قالته بشيء، بل أعطاها ظهره وأخذ يستمع إلى قعقعة الرعد، ويتأمل ضوء البرق عبر النافذة، ولابد أن اعترافها بالهزيمة قد أسعده، لكن إعلانها الانسحاب من المعركة كان يفقد النصر لذته، فلا قيمة لانتصاره عليها إلا بأن تبقى معه شاهدا على أن هذا النصر حقيقة لا وهم.

وحين استدار إليها أخيرا، والتقت عيونهما، قرأت في عينيه تلك النظرة التي تعودت أن تقرأها فيهما حين يصل التوتر بينهما إلى ذروته، وتأكدت من صحة ما قرأته حين وجدته يستلقي فجأة إلى جوارها على السرير، ثم يحتضنها وهو يقول:

ـ لماذا لا نتصالح كما كنا نفعل دائما بعد الشجار؟

ومع أنها ذعرت من الفكرة إلا أنها حاولت ألا تعكر لحظة الصفو الطارئة، فقالت بعتاب:

ـ كيف أصالح رجلا يبخل عليّ بنفقات الإقامة في المستشفى؟

فقال وقد استبدت به رغبة جارفة عجز عن مقاومتها:

ـ سأعطيك ما تريدين.. ولكن فلنتصالح أولا.

ثم اندفع نحوها تحت وطأة رغبته الجنونية في أن يتأكد أنها ما زالت المرأة التي تهتف كل جارحة من جوارحها باسمه، فدفعته عنها وهي تصيح في وجهه:

ـ أنت مجنون، إن جسمي ملفوف بالضمادات التي وضعها الطبيب.

فقال بصوت تخنقه الرغبة:

ـ هذا ليس مهما.

لكن الأمر بالنسبة لها لم يكن ممكنا بأية حال.. فأنشبت أظافرها في عنقه، وكان أول ما وقع بصرها عليه حين نجحت في الإفلات منه هو المسدس الذي كان لا يزال حيث وضعته على المقعد، فالتقطته وصوبته نحوه، وطلبت منه ألا يقترب منها وأن يغادر غرفتها فورا.

لكنه لم يهتم بتهديدها، وظل يتقدم نحوها وهي تتراجع بظهرها أمامه. ولما رأت إصراره على التقدم سحبت ذراع المسدس إلى الخلف لتوهمه بجدية تهديدها، ولما لم يوقف ذلك تقدمه، صوبت المسدس نحو النافذة، وضغطت على الزناد فانطلقت رصاصة واحدة ضاع صوتها في زئير العاصفة.

وآنذاك تظاهر «علي كامل فهمي» بالاستسلام، فرفع ذراعيه إلى أعلى وأطاع تعليماتها له فتراجع بظهره نحو باب الغرفة، ثم انتهز فرصة انشغالها بفتحه له، وضرب كفها الذي كان يحمل المسدس ضربة خاطفة أسقطته من يدها، ثم جذبها من ذراعها ومن ثوبها ليخرجها معه، فحاولت المقاومة، ثم استسلمت حين تساقطت أثناءها حبات من الخرز وبعض الماسات التي كانت تزين الثوب، فانتقلت المطاردة إلى الممر الذي يفصل بين الغرف، وخرج كلبها الصغير خلفهما يتابع المطاردة وهو يهز ذيله بسرور.

وحين نجح «علي كامل فهمي» أخيرا في محاصرتها في أحد الأركان وهم بتقبيلها ظهر «بيتي» خادم الفندق وهو يدفع أمامه عربة تحمل حقائب نزلاء مغادرين، فأنقذها من الحصار، وانتهزت «ماجي» فرصة انشغال زوجها بتبرير الموقف له، لكي تندفع إلى غرفتها وتعيد إغلاق بابها عليها.

وكانت تبحث في الأرض عن الماسات الصغيرة التي تساقطت من ثوبها بينما كان صوت صفيره بفمه للكلب يأتيها من الخارج، ولم تتنبه إلى أنه كان قد فتح الباب الفاصل بين غرفتيهما إلا حين وجدته يقف بين دفتيه وعلى فمه ابتسامة واسعة. وعلى الرغم من المفاجأة، فقد استطاعت أن تلتقط المسدس الذي كان ما زال في مكانه على أرض الغرفة، فتوجهه نحوه، وتطلب إليه بحزم أن يغادر غرفتها على الفور، ولكنه لم يعبأ بالتهديد، ولوح في وجهها برزمة من أوراق النقد الفرنسية كانت بيده وهو يقول:

ـ تستطيعين أن تكسبي هذه النقود لو وافقت على أن نتصالح الآن.

فقالت: ما تطلبه مستحيل.. فاخرج فورا.

لكنه لم يعبأ بالتهديد، وعاد يلوح في وجهها برزمة أوراق النقد الفرنسية التي كانت بيده وهو يقول:

ـ هذه النقود لك لو وافقت على أن نتصالح الآن.

فقالت:

ـ ما تطلبه مستحيل فاخرج فورا.

ولكنه ظل يتقدم نحوها، وهي تتراجع حتى استندت بظهرها إلى باب الغرفة، ولما واصل تقدمه فتحته بيدها لتجد نفسها في الممر مرة أخرى، وظلت تتراجع وهو يتقدم إلى أن استندت بظهرها إلى حاجز السلم وكانت تكرر بآلية:

لا تقترب مني.. ودعني وشأني.

إلا أنه ظل يواصل تقدمه نحوها حتى لم يعد يفصل بينهما سوى متر واحد فتوقف. واندفع نحوها بغتة ليحتضنها ويشل حركتها، فضغطت على زناد المسدس لتنطلق من فوهته ثلاث رصاصات أصابته في عنقه، فسقط على الأرض واندفع شلال من الدماء شربه ذيل فستانها الأبيض، بينما وقف الكلب الصغير ينظر إلى ما جرى بدهشة بالغة!

وذهلت «ماجي» لما حدث إذ كانت واثقة أنها لم تسحب ذراع المسدس، لذلك توهمت أن ما سمعته ليس صوت الرصاصات التي أطلقتها وأن ما رأته ليس ضوء انفجارها، ولكنه صوت الرعد وضوء البرق الذي كان لا يزال يملأ سماوات لندن وأن سقوط جسد «علي كامل فهمي» ليس سوى مشهد من لعبة الحب التي كانا يلعبانها منذ دقائق وأنه يمزح معها ويتظاهر بأنه قد أصيب، ثم يقوم لينقض عليها ويصالحها فانحنت على جثته وأخذت تهزه وهي تقول:

ـ «علي».. قل لي يا حبيبي.. إنك تمزح.. قل إن شيئا لم يصبك!

لكن لعبة الحب.. كانت قد انتهت هذه المرة بالموت!



وهكذا انتهت السهرة التي بدأت بمشاهدة مسرحية «الأرملة الطروب» وقد أصبحت «ماجي ميلر» أرملة.. ولكن غير طروب.. ينتظرها حكم بالإعدام على الكرسي الكهربائي.. وانتصر «علي كامل فهمي» في آخر معاركه المظفرة في حرب الحب التي استمرت خمسة شهور، فحال بينها وبين السفر إلى «باريس» ولكن بعد أن غادر كلاهما فندق «سافواي»: انتقلت هي إلى قسم شرطة «بوستريت»، وانتقل هو إلى معرض الجثث الملاصق له.

وفي الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء ١٠ يوليو ١٩٢٣، وهو الوقت الذي كان محددا لكي تغادر فيه «لندن»، كانت تجلس أمام المحقق الذي استمع إلى أقوالها ثم إلى أقوال شهود الحادث..وفي مقدمتهم «سعيد العناني» ـ سكرتير القتيل ـ و«بيتي» ـ خادم الفندق ـ الذي كان آخر من رآه على قيد الحياة قبل مصرعه بدقائق قليلة، والمدير المناوب للفندق الذي أبلغ الشرطة بالحادث، والجاويش الذي قبض على القاتلة، فضلا عن الدكتور «جوردون» ـ طبيب الفندق ـ وكان الوحيد الذي وقف إلى جوارها في تلك الساعات الصعبة، التي وجدت نفسها فيها امرأة وحيدة في بلاد غريبة، وقد تخلى عنها الجميع بعد أن قتلت الرجل الذي صحبها معه، فأرسل لها «د. جوردون» محاميا إنجليزيا ـ هو المستر «فردريك بالمر» ـ حضر معها المرحلة الأولى من التحقيق والمحاكمة.

وبعد منتصف النهار بقليل، وفي الوقت الذي كان محددا لكي تصل فيه إلى «باريس»، نقلتها إحدى سيارات الشرطة إلى «محكمة بوستريت» في «حي وستمنستر» القريب، فدخلت قاعة المحكمة بين حشود من نزلاء الفندق الذين استيقظوا في الصباح، ليفاجئوا بأن العاصفة قد خمدت، ولكن بعد أن قتلت الأمير المصري الفاتن، فقادهم الفضول لإلقاء نظرة على الأميرة الجميلة التي قتلت زوجها.. وكانت «ماجي» تجلس في قفص الاتهام كتمثال من الشمع، بعد ليلة عاصفة لم تذق فيها طعم النوم، بدأت بمسرحية غنائية وانتهت بثلاث رصاصات وسيل من الدماء شربه ذيل فستان السهرة الأبيض.

وحين نقلت جثة القتيل من المستشفى إلى المحكمة لتوضع في زاوية من زوايا القاعة، تركزت عليها عيناها، فلم تنتقل عنها إلا مرة واحدة، ارتفع فيها صوت نشيج إحدى شقيقات «علي كامل فهمي» فنظرت إليها ذاهلة، وكأنها لم تستوعب بعد

حقيقة ما حدث، ثم عاد بصرها الشارد ليتركز على الصندوق الذي يضم جثة العاشق الشهيد، فلم يتحول عنه حتى انتهت الجلسة، وانتهى معها آخر لقاء بين العاشقين اللذين أضاعهما ذلك الحب الغريب: رجل وامرأة جاء كل منهما من واد سحيق يبعد عن الوادي الذي جاء منه الآخر آلاف الأميال، جمع بينهما حب جارف، لكن بحور التقاليد وجبال العادات وعقد التكوين تفصل بينهما في الفراش، فيتحول الحب العنيف إلى عذاب شديد، ثم ينتهي بأن يقتل كل منهما الآخر على هذا النحو أو ذاك!

ولم تضف «محكمة بوستريت» الكثير إلى ملف القضية، فقد أعادت الاستماع إلى الشهود الذين استمع إليهم المحقق في الصباح نفسه، فكرروا أقوالهم، واستمعت إلى مرافعة المدعي العام ثم إلى دفاع «المستر بالمر» عن المتهمة، وانتهت إلى الاقتناع بأن التهمة جدية. ولأنها ـ في مثل هذا النوع من القضايا ـ تمارس الاختصاصات التي يمارسها ـ فى النظام القانوني المصري ـ «قاضي الإحالة»، فقد قررت ـ في نهاية الجلسة ـ إحالة «مرجريت فهمي» إلى محكمة جنايات «أولد بايلي» لمحاكمتها بتهمة قتل زوجها عمدا.

ولم تعد القاتلة ـ بعد انتهاء الجلسة ـ إلى قسم شرطة «بوستريت»، بل نقلت في اليوم نفسه إلى «سجن هولواي للنساء» بشمال لندن.. وإذ كانت الإجازة القضائية قد بدأت، ولم يكن متوقعا أن تبدأ محاكمتها أمام محكمة الجنايات قبل استئناف الموسم القضائي في مطلع الخريف.

وخلال الشهرين اللذين قضتهما في هذا السجن ـ الذي كان أشبه بقلعة حصينة ـ عوملت بالصرامة القانونية التي عرفت عن السجون الإنجليزية، فأجبرت على ارتداء ملابس السجن، وعلى تناول طعامه، وحرمت من استعمال أدوات الزينة بما في ذلك دبابيس الشعر، وأقامت في البداية مع زميلاتها من السجينات في إحدى الزنازين المخصصة لهن، لكنها نقلت بعد أيام إلى مستشفى السجن لتعالج من آلام البواسير التي كانت في طريقها إلى «باريس» لتعالجها في مستشفى «بتشيني».

والغريب أن رأي أطباء السجن كان هو نفس الرأي الذي قال به «علي كامل فهمي» إذ لم يجدوا ضرورة لإجراء الجراحة، وعالجوها بأدوية موضعية أدت إلى اندمال جروحها خلال أسبوعين فقط، وأرجعت «ماجي» ذلك إلى النظام الغذائي الذي اتبعته أثناء فترة العلاج، إذ أجبرها الأطباء على أن تعيش على زيت كبد الحوت، وأكدت أن شفاءها ما كان يمكن أن يتم ـ دون عملية جراحية ـ وهي تعيش حياتها العادية، وتتنقل بين المسارح والمطاعم والفنادق.

وكان عليها ـ وقد تخلصت من آلامها الجسدية ـ أن تتدبر أمر المحاكمة التي تنتظرها بعد أسابيع.

ولم تكن صعوبة وضعها القانوني خافية عليها، فقد ضبطت متلبسة في جريمة قتل، واعترفت بجريمتها؛ إذ لم يكن في استطاعتها أن تنكر الواقعة. وكان «المستر بالمر» ـ الذي حضر معها تحقيق الشرطة ودافع عنها أمام قاضي الإحالة ـ قد أفادها فائدة عظمى حين لفت نظرها إلى أن القانون الإنجليزي يفرق بين جريمة «القتل» ـ التي تعني القتل العمد أو مع سبق الإصرار والترصد ـ وبين جريمة «القتل الخطأ» التي تقع دون تعمد أو ترصد أو سبق إصرار، ونتيجة حالة انفعالية طارئة أو أثناء مشاجرة أو ممارسة لحق الدفاع الشرعي عن النفس، ويعاقب على الأولى بالإعدام بينما تقتصر العقوبة، في الحالة الثانية على السجن لمدد تتفاوت بحسب ظروف الجريمة. واستنادا إلى تلك النصيحة فقد صورت «ماجي» الواقعة ـ في الأقوال التي أدلت بها في التحقيق وأمام قاضي الإحالة ـ تصويرا يجعلها «جريمة قتل بالمصادفة» وليس «مع سبق الإصرار والترصد» وعندما وجدت أن الاتهام الموجه لها هو القتل العمد، أنكرت التهمة وقالت إنها غير مذنبة.

وكان من حسن حظها أن بعض تقارير القضية وجانبا من أقوال الشهود كانت تدعم تصويرها للحادث، إذ ذكر «المفتش جروس» الذي قام بمعاينة مكان الجريمة في تقريره عن تلك المعاينة أنه وجد في رواق الدور الرابع من فندق «سافواي» ثقوبا بحجم الرصاص في الأرض والأبواب، وأنه وجد في غرفة المتهمة بالجناح الذي تقيم فيه مع زوجها ثوبا أبيض من ثياب السهرة مزينا بخرز أبيض وماسات صغيرة، ووجد في ذيل هذا الثوب بقعًا عديدة من الدم، كما وجد على الأرض خرزا متكسرا كالخرز الذي رآه على ثوب الزوجة، وهو ما أكد ما ذكرته «ماجي» من أن وقوع مشادة بينها وبين زوجها ترتب عليها سقوط بعض الخرز الذي كان يزين ثوبها، وعن مطاردته لها التي أدت إلى خروجها من غرفتها إلى الرواق حيث وقع الحادث.

واتفقت أقوال الدكتور «جوردون» مع أقوال «سعيد العناني» حول ظروف مرضها وإصرارها على السفر إلى «باريس» وقيامها بحجز بطاقات السفر، وبإرسال حقائبها إلى الميناء، مما ينتفي معه الظن بأنها كانت تخطط مسبقا لقتل زوجها.

وأضاف الدكتور «جوردون» نقطة مهمة لصالحها، فقال إنها ذكرت له أثناء فحصه لإصابات زوجها ـ بعد الحادث مباشرة ـ أنها ذهلت حين وجدت الرصاصات الثلاث تنطلق بشكل متتال، إذ كانت تتوهم أن الضغط على الزناد لا يكفي وحده لذلك، وأن الرصاصة لا يمكن أن تنطلق إلا إذا سحبت أولًا ذراع المسدس قبل أن تضغط على الزناد، وأن عليها أن تكرر ذلك مع كل رصاصة، وهو ما يعني أن القتل قد وقع على سبيل الخطأ، ونتيجة لخلطها بين أسلوب إطلاق المسدسات العادية، وطريقة إطلاق المسدسات الأوتوماتيكية.

لكن ذلك كله لم يكن كافيا لحسم موقفها من القضية ولا لإعادة تكييف التهمة، من «قتل مع سبق الإصرار» إلى «قتل بالمصادفة»، ففضلا عن أن تلك الشواهد تتسع للاحتمالين، فقد كانت هناك شواهد أخرى ترجح احتمال القتل العمد، كان معظمها يرتبط بالتعليقات العفوية التي قالتها «ماجي» لمن أحاطوا بها فور وقوع الجريمة، وقبيل أن تلتقي بالمستر «فردريك بالمر»، وترتب دفاعها معه، كان من بينها ما ذكرته لمدير الفندق عما كانت تعانيه من عذاب مع زوجها خلال شهور زواجها الخمسة، وما قالته للجاويش الذي أرسله «قسم شرطة بوستريت» ليقبض عليها في أعقاب الجريمة مباشرة، إذ قالت له:

ـ لقد قتلته ولا أخشى شيئا.

بل إن «المفتش جروس» نفسه ذكر في شهادته أمام قاضي الإحالة بأنها كانت هادئة الأعصاب عندما التقى بها في التاسعة من صباح يوم الجريمة في المكان الذي حُجزت به في مبنى شرطة «بوستريت»، وأنه وجه لها تهمة قتل زوجها عمدا، فأقرت بالتهمة، لكنها عادت إلى نفيها بعد ساعتين فقط، كانت قد التقت أثناءها بمحاميها «المستر بالمر».

ومع أن «مرجريت» ضاقت ـ في البداية ـ عندما علمت أن عليها أن تظل رهن السجن طوال الشهرين اللذين تستغرقهما الإجازة القضائية، وتمنت لو أنها حوكمت بسرعة، لتعرف مصيرها الذي كانت توقن ـ آنذاك ـ أنه سيكون الإعدام بالكرسي الكهربائي، بل وناوشها إحساس بالذنب بأنها تستحق ذلك المصير، إلا أنها سرعان ما استعادت توازنها وتفاؤلها ورغبتها في الحياة وفي الحرية، وأدركت أن تأخير المحاكمة هو من علامات حسن حظها؛ إذ مكنها من ترتيب دفاعها على نحو لم تكن تستطيع أن تقوم به، لو أن المحاكمة قد بدأت وهي في حالة اليأس التي ناوشتها عقب الجريمة مباشرة.

وكان مما ساعدها على استعادة توازنها وتفاؤلها، ذلك الطابور من الأصدقاء الذين توافدوا يعلنون تضامنهم معها، فيزورونها بأنفسهم في السجن، ويلتقون بشقيقتها «إيفون» ـ التي عادت من «أمريكا» بمجرد أن عرفت نبأ القبض على شقيقتها بتهمة القتل ـ ليقدموا أشكالًا كبيرة الفائدة، من الدعم المالي والقانوني، فلم تتغلب فقط على إحساسها بالوحدة والضعف بل وأدركت أنها لا تزال تحتل مكانة كبيرة في قلوب عشاقها المتعددين، ومعظمهم من ذوي المقامات الرفيعة، فاستعادت ثقتها بنفسها وتوثبت ـ بمساندتهم ـ للنضال من أجل الدفاع عن حياتها، وإنقاذ نفسها من المصير الأسود الذي ينتظرها.

ولم تكن هذه الحماسة قاصرة على أصدقاء «ماجي» وعشاقها السابقين، ممن

أخذوا يتباحثون معها، ومع بعضهم البعض حول أفضل الوسائل للدفاع عنها، بل انتقل إلى آخرين لم يسبق لها أن رأتهم، ولم تكن تتصور أن هناك ما يدفعهم للتحمس لقضيتها.. ويعود الفضل في ذلك إلى عدد من أصدقائها، أدركوا أن جانبا مهما من محاولة إنقاذها يرتبط بموقف الرأي العام من القضية، فدفعوا عددا كبيرا من الصحف الأوروبية للاهتمام بوقائعها، وهو أمر لم يتطلب منهم مجهودا؛ إذ كانت وقائع القضية من النوع الذي يثير ـ بطبيعته ـ شهية الصحف للنشر عنها.

لذلك ركزوا جهودهم على أن تضع تلك الصحف وقائعها في الإطار الذي يضمن تعاطف الأوروبيين ـ وخاصة النساء ـ مع «مرجريت فهمي» باعتبارها نموذجا للمرأة الغربية التي أوقعها الحب في ورطة قادتها إلى قصر أمير شرقي، ينتمي إلى حضارة متخلفة تنظر إلى المرأة باعتبارها شيئًا من الأشياء التي يقتنيها الرجل، وتعطى الرجل الحق في استذلالها وإهانتها وضربها بالكرباج، ففقدت سيطرتها على نفسها في لحظة لم تطق فيها مزيدا من إهدار كرامتها، وأطلقت عليه النار فأردته قتيلا!

وكان الذين أشاروا بتلك الخطة الإعلامية يدركون أنها سوف تجمع حول «ماجي» أقساما من الرأي العام، لأسباب إنسانية محضة، ترتبط بتقديس المواطن الأوروبي للحرية الشخصية، وبإيمانه بأن مساواة المرأة بالرجل هو من علامات التحضر والتقدم، وأن أقساما أخرى ستتعاطف معها ـ في تلك الحالة ـ لأسباب سياسية تتعلق بذلك التناقض الذي ساد في المجتمعات الأوروبية، في أعقاب الحرب العالمية الأولى بين شعورها الظاهر بالفخر لما تحملته من تضحيات في صد العدوان عن أراضيها وتحرير ما تم احتلاله منها، وشعورها الباطني بالعار لمعارضتها في الاعتراف بحق تقرير المصير لشعوب المستعمرات، حتى لا تفقد ما يمنحها لها بقاء تلك المستعمرات ضمن جسد الإمبراطورية من أحاسيس بالتفوق ومشاعر بالعظمة والاستعلاء، وهو تناقض كان يجد حلا له في كل واقعة تثبت للأوروبيين، أن شعوب المستعمرات تعيش في حالة من التخلف والبدائية.. تجعل المعارضة في منحها حق تقرير المصير موقفا ديمقراطيا ولصالحها هي نفسها إلى أن ترتقي وتتقدم وتصبح أهلًا لممارسته.

ولو أن مأساة «مدام فهمي» قد وضعت في هذا الإطار لاجتذبت مشاعر كثيرين من البريطانيين والفرنسيين، ممن كانوا يعارضون في الاعتراف بحق المصريين في تقرير مصيرهم بأنفسهم، ويصفون ما كانوا يقومون به من مظاهرات تطالب بالاستقلال التام أو الموت الزؤام بالهمجية والفوضى، ولأعطتهم الذريعة التي تقنعهم بأنهم على حق في رفضهم الاعتراف بحق المصريين في الحرية والمساواة، إذ كيف يعترفون بهما لشعب يستعبد نصفه النصف الآخر، ويرفض الاعتراف بحرية المرأة ولا يقر مساواتها بالرجل ويتعامل رجاله مع زوجاتهم بالضرب بالحذاء.

وربما لهذا السبب ظلت الصحف البريطانية تتحدث عن القتيل باعتباره أميرًا مصريًا، رغم تأكدها من أنه قد انتحل اللقب بلا مسوغ، لكن ذلك ـ وحده ـ لم يكن كافيا للاحتفاظ باهتمام الرأي العام.

ولأن المستر «فردريك بالمر» لم يكن ـ في رأي أصدقاء «ماجي» ـ المحامي الذي يستطيع أن يكيف الجريمة باعتبارها ظاهرة من ظواهر التناقض بين التقدم والتأخر وبين الغرب والشرق، فضلا عن أنه لم يكن معروفا على نحو يثير شهية الصحف للنشر عن الموضوع، فقد بدءوا يبحثون عن محام لامع يضفي على القضية أهمية استثنائية فوقع اختيارهم على السير «مارشال هول» الذي كان واحدا من ألمع المحامين البريطانيين الذين تعدت شهرتهم حدود بلادهم إلى أنحاء القارة الأوروبية، ولما لم تكن هنالك مشكلة نقود لدى أصدقاء «ماجي» فإنهم لم يناقشوا المحامي الكبير حين طلب عشرة آلاف من الجنيهات الاسترلينية أتعابا عن دفاعه عنها.

ولم يكن الرأي العام المصري في حاجة إلى من يثير اهتمامه بالقضية، أو لمن يضعها في الإطار الذي كان أصدقاء «ماجي» يجهدون أنفسهم لوضعها داخله، إذ ما كاد خبر مصرع «علي كامل فهمي» يصل إلى مصر حتى اعتبره المصريون فصلا من الصراع المستعر بينهم وبين المستعمرين، وكانوا قد احتفلوا في الأسبوع نفسه بانتصارهم على بريطانيا، حين أجبروها ـ للمرة الثانية ـ على الإفراج عن «سعد زغلول» وزملائه واستقبلوا رفاقه الخمسة الذين كانوا بصحبته في منفاه بجزر «سيشيل» بمظاهرات ترحيب عارمة.

ولكن فرحتهم بالانتصار لم تطل وجاء خبر مصرع «علي كامل فهمي» لينقض على رءوسهم كالصاعقة. خاصة أن وكالات الأنباء كانت خلطت في البداية ـ بسبب تشابه الأسماء ـ بينه وبين «علي فهمي كامل بك» ـ شقيق الزعيم الراحل مصطفى كامل» ـ لكن إزالة هذا اللبس لم تقلل من إحساسهم بالفجيعة، ولم تحل بينهم وبين الحزن معرفتهم بأن القتيل كان مجرد شاب عابث لا صلة له بالوطنية أو بالنضال ضد الاستعمار؛ إذ كانت «المصرية» في تلك الأيام شعورا جارفا يجتمع حوله الجميع.. وكان يكفي أن يموت مصري في الغربة، حتى يخرج الشعب كله لتشييع جنازته، وهو ما حدث عندما وصلت جثة «علي كامل فهمي» إلى مصر، فقد شيعت من ميدان «باب الحديد» إلى مقابر أسرته بالإمام الشافعي في مشهد رهيب، وأعلنت جميع الصحف عن خط سير الجنازة، فانضم إليها كل الذين مر بهم موكبها من أصحاب الدكاكين، وتجمعت النساء على جانبي الطريق يودعن ـ بالدموع ـ شابا فقد حياته في الغربة على يد امرأة تنتمي للجنس الذي أفقد المصريين حياتهم وأمنهم عبر سنوات الاحتلال الثلاثين.



مأمور جمرك بورسعيد يشرف على نقل جثة «علي فهمي» إلى القطار الذي حملها إلى القاهرة

وهكذا انتهت ـ في العاصفة ـ حياة «علي كامل فهمي» القصيرة العاصفة!

لكن «العاصفة» نفسها.. لم تكن قد انتهت بعد!



في تلك السنة ـ ١٩٢٣ ـ كان «السير مارشال هول» قد بلغ الخامسة والستين من عمره، عاشها بالطول وبالعرض وبالعمق، وتنقل أثناءها بين كثير من مدن العالم، فأقام في «لندن» وفي «باريس» وفي «أستراليا» وعبر البحار والمحيطات، وصادق العظماء والصعاليك والصحفيين والفنانين ورواد البارات الرخيصة، وتاجر في المجوهرات والتحف، وعمل بالمحاماة أربعين عاما، وجمع بينها وبين عضويته في مجلس العموم البريطاني عن حزب المحافظين لمدة عشرين عاما، وجلجل صوته على امتدادها في قاعات المحاكم، يدافع عن عمال وبدالين وعابري سبيل، بالحماسة ذاتها التي يدافع بها عن وزراء وساسة وأصحاب ملايين.

ثم ما لبث أن تخصص في قضايا القتل، وبالذات حين يكون الدافع إليه عاطفيا، وحصل على عشرات من أحكام البراءة أو الأحكام المخففة لمتهمين كان الحكم بالإعدام هو أقل ما ينتظرهم.

وكان يكفي أن يترافع في قضية لتتركز الأضواء على وقائعها، وتحتشد قاعة المحكمة بعشرات الصحفيين، بل وبعشرات المحامين المبتدئين والراسخين، جاءوا ليستمعوا إلى الرجل الذي كان اسمه يدوي آنذاك كواحد من أساطين الفقه الجنائي في إنجلترا، والذي كان يوصف بأنه أعظم المحامين في العالم.

ولأنه كان قد تعرض في بداية حياته العملية لمأساة كادت تعصف بمستقبله، إذ هجرته زوجته الأولى ـ وكانت مرهفة الحس محطمة الأعصاب ـ لتعيش مع رجل آخر، حملت منه ثم ماتت أثناء إجرائها لعملية إجهاض، فقد توحد مع مآسي موكليه، وأصبح تعاطفه مع الإنسان في لحظات ضعفه، أكثر من تعاطفه معه في لحظات قوته، واعتمد على معرفته العميقة بسيكلوجية البشر التي اكتسبها من خبرته، ومن قراءاته في التعامل مع الجميع، وفى التأثير على الجميع: المتهمين الذين يدافع عنهم، والنيابة التي يدافع ضدها، والقضاة والمحلفين الذين يترافع أمامهم، أو بمعنى أدق يحارب في ساحتهم، من أجل إنقاذ حياة التعساء الذين تقودهم ظروف حياتهم إلى القتل دون إرادة، أو تتكاتف ضدهم الشبهات بأنهم قتلوا دون أن يكونوا قد فعلوا ذلك!

وكان يعتمد في دفاعه على دراسة تفاصيل القضية دراسة عميقة، لاكتشاف ثغرات الاتهام، سواء في إجراءات الشرطة أو في التحقيقات الأولية، ثم يضع خطة عامة للدفاع، لا يحتشد لها بالقراءة في القانون والأدب وفي السياسة والتاريخ فحسب، بل وبمناقشة المتخصصين في السموم وفي الأسلحة وفى الطب وفي الأرصاد الجوية، فإذا بدأت المحاكمة لم يلتزم بخطته بل يغير فيها طبقا للظروف والأحوال، فهو يفضل أن يرتجل دفاعه، ويعتمد على سرعة بديهته وذكائه وفصاحته في محاصرة الشهود، وعصرهم ليدفعهم إلى التناقض في أقوالهم أو إنكارها، فيشككهم في أنفسهم ويشكك القضاة في مصداقيتهم.

ولأنه كان يعتقد أن المحاماة حبكة مسرحية وأن المحامي ليس ممثلا للمتهم بالمعنى المجازي، بل هو ممثل فعلا يؤدي دورا في نص مسرحي لم يؤلفه أحد؛ إذ هو نص واقعي، صنعته الحياة بتعقيداتها، فقد كان يوقن بأن نجاحه في انتزاع أحكام البراءة رهين بقدرته على أن ينقل المشاهدين ـ وفى مقدمتهم القضاة والمحلفون ـ إلى جو المأساة، ليصبحوا جزءا من نسيجها، فإذا جاء دوره في المرافعة استدعى كل مواهبه الطبيعية العظيمة ودخل إلى قاعة المحكمة، كما لو كان يدخل إلى خشبة المسرح بقامته الطويلة وصدره العريض وقسمات وجهه الوسيم، ليقدم عرضا مسرحيا ممتعا سرعان ما يندمج فيه بكل جوارحه، فيعلو بطبقات صوته الجهير، ينخفض بها، يتحدث في القانون، ويقرأ أبياتا من الشعر ويقتبس من روايات الأدب وعروض المسرح، وتسيل دموعه على خديه، ويقتنص من مشاهد الطبيعة ومن وقائع الجلسة فيدمج ذلك كله ويندمج معه في بنية المأساة، فما يلبث جميع من في القاعة، حتى الذين يمثلون الاتهام، أن يجدوا أنفسهم، وقد أصبحوا جزءا من تلك البيئة، ينظرون إليها من الزاوية التي ينظر بها إليها «مارشال هول».

وخلال الشهرين اللذين فصلا بين وقوع الجريمة في ١٠ يوليو ١٩٢٣، وبدء المحاكمة في ١٠ سبتمبر من العام نفسه، انهمك «مارشال هول» في دراسة القضية،

وفي الاستعداد لأداء دوره الذي وصف بعد ذلك بأنه أعظم الأدوار التي أداها طوال عمره في المحاماة، فالتقى بـ«مرجريت فهمي» أكثر من مرة في سجنها، واستمع إلى قصتها مع زوجها، والتقى بشقيقتها «إيفون» وبأصدقائها الذين وكلوه للدفاع عنها ووضعوا تحت إمرته اعتمادا مفتوحا للإنفاق على متطلبات الدفاع، وكان في المقدمة منها بحث طويل عن شخصية الزوج القتيل وسلوكه في«القاهرة» و«باريس» و«لندن».

وكان بديهيا أن تقوم خطة الدفاع على الأساس نفسه الذي وضعه المستر «فردريك بالمر» وأذاعه أمام قاضي الإحالة، وهو القول بأن «مرجريت فهمي» قد قتلت زوجها بالصدفة أو على سبيل الخطأ، وليس مع سبق الإصرار والتعمد والترصد؛ إذ كان ذلك هو المنفذ الوحيد المتاح في القانون الإنجليزي لإنقاذها من عقوبة الإعدام، وهكذا تجمعت بين يدي «مارشال هول» شواهد كثيرة تكفي للبرهنة على أن الزوج القتيل كان يعامل زوجته بقسوة بدنية ونفسية، فيضربها بعنف ويهينها أمام الخدم، ويكرهها على معاشرة زوجية غير طبيعية، وهو ما يفيد النظرية التي أراد أن يبني عليها دفاعه، وخلاصتها أن الزوج هو الذي حرض زوجته على قتله؛ إذ حطم قواها النفسية ووضعها في حالة دائمة من الاستفزاز والاستثارة، أفقدتها السيطرة على نفسها حتى أطلقت عليه النار، وبذلك يكون القتل قد وقع بالمصادفة ودون قصد جنائي.

لكن الأمر ـ على الرغم من ذلك ـ لم يكن يخلو من مخاطرة شديدة، ذلك أن الحديث عن سلوك القتيل الشخصي كان سيفتح شهية ممثل الاتهام وحلفائه من المحامين الموكلين عن المدعين بالحق المدني ـ وهم أسرة القتيل ـ للحديث عن تاريخ حياة المتهمة وعن سلوكها قبل الزواج، لتبدو ـ أمام المحكمة ـ في صورة الغانية التي لم يكن لها هدف من الزواج به إلا اقتناص أمواله، فلما ضن بها عليها قتلته.

وفضلا عن ذلك، فإن تلك الشواهد نفسها كان يمكن استخدامها للتدليل على أن الزوجة القاتلة كانت تضطرم بمشاعر كراهية عنيفة لما يفعله بها، فقررت قتله انتقاما من معاملته القاسية، وبذلك يكون القتل قد وقع عمدًا ومع سبق الإصرار والترصد.



لم يكن الأمر سهلا على «مارشال هول»، كما لم يكن سهلا على المصريين الذين لم يجدوا في تاريخ «علي كامل فهمي» ما يدعوهم للفخر به، أو يستثير حماستهم للدفاع عنه، ومع ذلك فقد وجدوا في رصاصات «مرجريت فهمي» ما يدعوهم للهجوم عليها.. وكان من حسن حظها أنها كانت فرنسية وليست إنجليزية؛ إذ كان الزواج من إنجليزية ـ تلك الأيام ـ يرتبط في أذهان المصريين بفريق من الخونة الذين ينامون في

سرير واحد مع جاسوسة لدار المعتمد البريطاني، ويدينون بالولاء للبلد الذي تنتمي له زوجاتهم.

لكن ذلك لم يحل دون تنديدهم بها وإدانتهم لها وانحيازهم ضدها باعتبارها رمزا للغرب الذي يحتل بلادهم ويقتل أبناءهم، ونموذجا لما يجلبه الزواج المختلط من كوارث اجتماعية وأخلاقية، إذ ما كاد صدى رصاصات «مرجريت فهمي» يصل إلى القاهرة، فتنشر الصحف الواقعة حتى نشبت المجادلات بين الناس في الشوارع والمقاهي، وفي المنتديات والبيوت وعلى صفحات الصحف، وشارك فيها العوام والمثقفون والأدباء والمفكرون والرجال والنساء، وظلت تشغلهم لفترة طويلة تجاوزت الأسابيع التي أعقبت وقوع الحادثة، والأيام التي جرت فيها المحاكمة إلى ما تلاها من شهور وسنوات، كانت خلالها «مرجريت فهمي» تظهر بين الحين والآخر على خشبة المجتمع المصري، فتشعل نيران المناقشات الخامدة حول موضوعات تبدأ بتحليل الواقعة على صعيدها الشخصي، ثم تظل تتصاعد حتى تصل إلى قضايا اجتماعية كحرية المرأة والزواج المختلط، وقضايا سياسية كحرية الوطن ونفوذ الأجانب به، وقضايا حضارية كالعلاقة بين الشرق والغرب.

والغريب أن الواقعة على صعيدها الشخصي كانت أقل الموضوعات التي شغلت المتناقشين على صفحات الصحف، إذ لم يجد هؤلاء في سيرة القتيل الشخصية ما يستحق الزهو به أو ما يدعوهم للدفاع عنه، بل واضطرت بعض الصحف إلى إذاعة كثير مما كانت تعلمه عن تبذيره لنقوده على الغانيات وبنات الهوى في صالات الغناء والرقص، وحتى الذين وجدوا فيه بعض المزايا، لم يستطيعوا إغفال مسئوليته عن المصير التعيس الذي انتهى إليه، وإن كانوا قد اتخذوا من صغر سنه وطيشه وفساد حاشيته مبررا لسلوكه المعيب.

وفي هذا السياق وصفه صديقه الكاتب المتفنن «توفيق مفرج» بأنه «كان عظيما في كل شيء، كان وارثا عظيما وكريما عظيما وفاعل خير عظيما ومبذرا عظيما»، واستعرض ما أنشأه من أعمال خيرية وأضاف: «وكنا ننتظر نضوج دماغه حتى ينصرف عن صغار الأعمال إلى جلائل الأمور».

لكن عيوب «علي كامل فهمي» لم تكن في نظر هؤلاء مبررا لكي تقتله «مرجريت» إذ لم تكن هي ذاتها من بين تلك العيوب فحسب، بل وكانت لديها ـ في رأيهم ـ دوافع أخرى لقتله بحكم أنها أجنبية لا تنفذ وعدا، ولا ترعى عهدا، ولا تصون ذمة، ولا تعترف بجميل، فكان أن تعالت عليه وأساءت معاملته، واحتقرته رغم ما سكبه من ذهب مصهور تحت قدميها، ثم انتهى بها الحال إلى خيانته، فلما ضيَّق عليها السبل قتلته.

وكان فتح النار على ظاهرة التزوج من أجنبيات هو الحل السهل الذي لجأ إليه الجميع هربا من الدفاع في معركة خاسرة، هي واقعة «علي» و«مرجريت»، وهو موضوع شائك لم تكن الصحف المصرية تستطيع الحديث عنه بتوسع من قبل، بحكم أن الطرف المصري في تلك الزيجات المختلطة كان في الغالب من وجهاء المجتمع وشخصياته العامة، أما وقد قتل «علي كامل فهمي» برصاص زوجته الأوروبية، فقد أسرع الجميع يضعون الزواج المختلط في قفص الاتهام.

لكن تأثر المتحاورين بالحالة الخاصة التي كانت سببا في فتح باب المناقشة، وبالمناخ العام الذي كان معبأ بالمشاعر المعادية للغرب، ما لبث أن قادهم إلى تعميم خاطئ، بحيث بدا وكأن كل نساء الغرب هن نسخ متكررة من «مرجريت فهمي»، غانيات بلا خلق ولا ضمير وبلا عفة، يتعالين على الشرقيين ولا يتزوجن إلا الأثرياء منهم بهدف استنزاف أموالهم، ثم الغدر بهم، فالقاعدة التي قام عليها زواج «علي كامل فهمي» هي التي يقوم عليها كل زواج مختلط، وهي ذاتها القاعدة التي قامت عليها الحماية البريطانية المفروضة على مصر، أي التظاهر بالحب، دون حب بهدف نهب المال وقتل الحبيب.

وهكذا فتح كثيرون من الكتاب والمفكرين المصريين النار على الزواج المختلط، فاعتبرته جريدة «السياسة» ـ لسان حال حزب الأحرار الدستوريين الذي كان يضم بين عضويته معظم المثقفين المصريين الذين درسوا في الغرب وتأثروا بحضارته ـ شكلا من أشكال الاحتلال، ولكنه «احتلال نسوي». وندد «توفيق مفرج» بالأماكن العامة التي تتيح للشبان المصريين فرصة التعرف بالفتيات الأوروبيات، وفي مقدمتها «مشرب شاي جروبي» الذي وصفه بأنه «بؤرة من بؤر الفساد في المدينة، ومركزا من مراكز جيش الاحتلال في العاصمة»، وقال إنه في يوم تعرفه في حديقته إلى صديقه المليونير القتيل وجده يجلس «وقد أحاط به جيش من الشبان المصريين ويحيط بالشبان جيش من الحسان» وتمنى أنه لو كان يجلس على مقعد رئيس الوزراء ـ «يحيى إبراهيم باشا» ـ وإذن «لجعلت من شروط الاستقلال إلغاء جروبي قبل إلغاء الأحكام العرفية، ولطلبت جلاء جيوش المحتلات قبل جلاء جيوش المحتلين».

واستنتج «توفيق مفرج» من مأساة زواج «علي كامل فهمي» ـ على الصعيد الشخصي ـ أنه قد «أحبها لجمالها.. أما هي فقد أحبته لماله، ثم سئمت المال واحتقرت الرجل الشرقي»، أما على الصعيد العام فقد أبدى دهشته من هؤلاء الفتيان المصريين الطائشين، الذين «يركضون وراء راقصة من باريس أو غانية من برلين، ثم يعودون بها إلى أوطانهم وقد أصبحت زوجة لهم».

بينما حكمت مجلة «الأمل» ـ وهي أسبوعية نسوية كانت ترأس تحريرها الآنسة

«منيرة ثابت» ـ بأن «المرأة الغربية لا يمكن أن تحب رجلا شرقيا إلا إذا كان غنيا أو صاحب لقب.. فهي تحبه لماله وللقبه، ثم إذا شبعت مما حوله تنبذه نبذ النواة».

وفي رسالة مفتوحة على صفحات«المقطم» حذرت الآنسة «مفيدة شكري» الشبان المصريين من الزواج بأجنبيات، وقالت لهم «لا تزجوا بأنفسكم بين أيدي نساء لا يرعين لكم عهدا، ولا يتزوجن بكم إلا طمعا بالمال.. وأما أشخاصكم فموضوع احتقارهن، فهن الأجنبيات المتمدنات.. وأنتم الشرقيون المتوحشون».

ويلفت النظر أن الزواج من أجنبيات لم يكن ظاهرة اجتماعية على نحو يمكن أن يثيركل هذا القدر من الانزعاج، إذ كان لايزال محصورا في نطاق ضيق، كما أن النهاية المأساوية لزيجة «علي فهمي» المختلطة، لم تكن نتيجة حتمية لكل زواج من هذا النوع؛ إذ لم ترصد الصحف مثيلات لها إلا بعد سنوات، كان من بينها حادثة وقعت في بلدة «السنطة» ـ إحدى القرى الكبيرة بمحافظة الغربية ـ إذ تزوج الدكتور«إبراهيم فرج البدري» من فتاة بلجيكية أثناء دراسته للطب في بلادها، ثم جاء بها لتقيم معه في بلده، ثم ما لبثت ـ كما ذكرت مجلة «الأمل» ـ أن سئمت وملت فنكَّدت عليه حياته وأصابته بنوبات عصبية، انتهت بانتحاره بعد إنذارها له بأنها انتوت العودة إلى بلادها سواء رضي أم رفض.

والحقيقة أن المبالغة في التنديد بالزواج المختلط لم تكن بعيدة عن خشية النساء المصريات من أن يتحول إلى ظاهرة تطيِّر من بين أيديهن أفضل الشبان المصريين، من الأثرياء والمتعلمين في أوروبا، وهم الذين كانوا يقبلون على هذا النوع من الزواج آنذاك، وهي مخاوف ما لبثت أن عبرت عن نفسها بصراحة؛ إذ قالت مجلة «الأمل» النسوية إن تأصيل عادة الزواج من أجنبيات سوف يؤدي إلى ظاهرتين اجتماعيتين مترابطتين وخطيرتين، الأولى هي القضاء على مستقبل الفتيات المصريات، ولا سيما المسلمات منهن لأن الدين الإسلامي يحرم على المسلمة الزواج بغير المسلم بعكس الرجل، والثانية هي المساس بالقومية المصرية بوجود جيل مختلط من جنسيات مختلفة بعد زمن قصير.

وهكذا انتقلت المناقشة من التنديد بالنساء الغربيات إلى المفاضلة بينهن وبين النساء المصريات فجزم «توفيق مفرج» بأن «علي فهمي» لو كان تزوج من مصرية لما مات قتيلا، وبرر هذا الحكم بسرد فضائل النساء المصريات التي كانت تفتن الرجل المصري يومذاك فهن «راضيات.. ناعمات.. عاقلات.. ضعيفات.. مطيعات»، وأضاف أن «علي» لو كان قد تزوج من مصرية «لأحبته وصبرت على طفولته وفتوته وجهله وغرامه ولكانت له زوجا وأما وأختا وصديقة مخلصة وأمينة».

وناشدت الآنسة «مفيدة شكري» الشبان المصريين ألا يتركوا بنات بلدهم في «عقر

دورهن وفيهن الجميلات الوقورات وربات الخدور المحصنات وهن العفيفات المهذبات».

ولم يكن طبيعيا أن يتواصل الهجوم على الزواج المختلط دون أن يتصدى له المتزوجون من أجنبيات، خاصة بعد تعميم حالة «مرجريت فهمي» على كل زوجة أجنبية على نحو خلق الانطباع بأنهن جميعا غانيات لا هم لهن إلا الاستيلاء على أموال أزواجهن من المصريين، وهو ما أشار إليه صراحة مواطن من مدينة «بني مزار» ـ في قلب الصعيد ـ اختار أن يوقع رسالته إلى «المقطم» بالحروف الأولى من اسمه، وكتب يعترض على دعوة الآنسة«مفيدة شكري» للشبان بعدم الزواج من أجنبيات وقال «ليست كل أجنبية رديئة كزوجة.. ولا أعتقد أن زوجة «علي فهمي» قد ارتكبت هذه الجناية الفظيعة لأنها أجنبية، بل جنايتها هذه سببها أنها ليست من الأصل والحسب والنسب والأخلاق الشريفة في شيء».

وسرعان ما أدرك الذين فتحوا باب المفاضلة بين المرأة المصرية والمرأة الغربية أنهم سيخسرون معركتهم، فبدءوا يغيرون تكتيكاتهم فأعادت مجلة «الأمل» النظر إلى الزواج المختلط باعتباره تنافرا بين شخصيتين قوميتين مختلفتين دون أن تكون إحداهما بالضرورة أفضل من الأخرى، واستندت في ذلك إلى ما للبيئة والقومية واختلاف الأجواء والمظاهر الطبيعية من أثر في تكوين نفسية الإنسان، تجعله أكثر انجذابا إلى أشباهه ممن عاشوا في ظل الظروف نفسها، وأضافت: «إن بعض الشبان المصريين ـ ممن لا يقدرون القومية حق قدرها- يتوهمون أن مجرد اختلاطهم بالأوروبيين ومعرفتهم للغاتهم يكفي لكي يتخذ المصري منهم شريكة لحياته، ولا يتنبهون إلى مدى التنافر بين شخصيتهم القومية وشخصية زوجاتهم الأوروبيات إلا بعد أن يقع النفور ويستحكم الخلاف».

ومع أن الكاتبة المعروفة «الآنسة مي» فضلت أن يتزوج الشرقيون من بنات بلادهم، إلا أنها استحسنت الاستثناء «لأن الشعوب كالأسر المتزاوجة على الدوام فيما بينها تنحط مع الوقت أخلاقيا ومعنويا، وبالتالي فالزواج المختلط «يدخل من الدم الغريب على الدم القديم ما يحسن النسل ويجدد القوى ويشحذ المواهب».


١٩٢٣: يحيى إبراهيم باشا رئيس الوزراء

وفي الموازنة بين أضرار الزواج المختلط وفوائده رصدت «مي» من الأضرار تضارب النزعات والميول بين الزوجين مما يحول

الحياة إلى نكد متتابع متجدد. فليست كل امرأة أوروبية مستعدة للتنازل عما تحب وترغب فيه إكراما لزوجها، وليس كل رجل شرقي ـ كما أضافت ـ قادرا على احتمال ما ألفه الغربيون من اختلاط النساء بالرجال ولو في أبسط مظاهره وأطهرها وحتى لو كان من الدعاة إلى تحرير المرأة.

ومع اعترافها بأن الزواج المختلط يفيد في تفاعل الزوجين بما يجدد القيم الاجتماعية ويضيف إليها، إلا أنها حذرت من أن الأولاد الذين يولدون ثمرة له يكونون أقرب إلى «شيوعية الوطنية» لذلك بدت أكثر ميلا إلى الزواج من نفس البلد، أو على الأقل من الدين نفسه. وأشارت إلى أن العادات الإسلامية المحافظة في مسألة الزواج قد غلبت على الأقباط المصريين.

ولم يقبل الكاتب الكبير الدكتور «محمود عزمي» ـ وكان متزوجا من روسية ـ بهذا المنطق الذي ينظر إلى مسألة الزواج من منظور قومي، لذلك عارض فيه مؤكدا أنه ليس هناك مذهب فكري أو مبدأ وراء الزواج المختلط ليعارضه الآخرون بمذهب مضاد له؛ إذ الزواج مسألة شخصية محضة والذين تزوجوا من أجنبيات لم يفعلوا ذلك لأنهم أرادوا الزواج المختلط إرادة قائمة على تفكير سابق، أو لأنهم اعتنقوا مذهبا اجتماعيا مقررا، ولكنهم انصاعوا لعاطفة تملكتهم تجاه امرأة بعينها، تصادف أنها أوروبية.. فالزواج من أجنبيات أو وطنيات، لا يقوم ـ كما أضاف ـ على نظريات حتى تعارضها نظريات.

ولم ينكر «الدكتور عزمي» ـ على الرغم من ذلك ـ أن تلك العواطف تتكون من مناخ اجتماعي محدد يؤدي إلى تلك النتيجة التي يستنكرها الجميع. فالزواج في أوروبا يتم في مناخ أكثر تقدما واستنارة، وهو الخطوة الأخيرة من خمس خطوات متدرجة ومتتالية، فالشاب هناك «يرى» أولا ثم «يتعرف» ثانيا، ثم «يعرف» ثالثا، ثم «يميل» رابعا ثم «يتزوج» أخيرا. أما في بلاد الشرق فإن الآية تبدأ من النهاية، إذ «يتزوج» الشاب أولا، ثم «يتعرف» ثانيا، ثم «يعرف» ثالثا، ثم «يعتاد» رابعا، أما «الميل» ـ أي الحب ـ فلا محل له من الإعراب ولا مكان له في سلم الزواج الشرقي المقلوب.


الآنسة مي

وهكذا انتهى البحث عن أدلة الاتهام ضد الزواج المختلط إلى وضع الزواج على

الطريقة الشرقية في قفص الاتهام، ولم تصمد فضائل المرأة الشرقية التي تتباهى بها على المرأة الغربية أمام عيوبها التي لم تكن تخفى على أحد، وجزم كثيرون بأن تخلف المرأة المصرية هو سبب انصراف الشبان المصريين عنها، وتفضيلهم التزوج من أوروبيات لميزات فيهن لا تتوفر لديها، رصد منها «قارئ بني مزار» ميزتين بارزتين، هما «السفور» و«التعلم» فقال: «إن المرأة الأجنبية سافرة يمكن للمصري أن يحبها حبا شريفا، ثم يتفق معها على الزواج، ثم إنها متعلمة التعليم الكافي». وأضاف «إسماعيل جبران» ـ ليسانسيه في الحقوق ـ أن الشبان المصريين المستنيرين يفضلون الزواج من أجنبية لأنها تتسم «بالتهذيب الكامل والأدب الجم والرشاقة والخفة المتناهية، كما أنها أكثر معرفة للعاطفة والحب من المصرية». ونقل البحث الذي نشرته الصفحة النسائية بجريدة «السياسة» عن المتزوجين بأجنبيات اعتذارهم بأن الزوجة الأجنبية «أقدر من المصرية على إسعاد الحياة الزوجية، وأدرى بالواجبات الزوجية من المصرية.. وأنها تحسن إدارة المنزل وتربية الأطفال».

ولم يمض هذا التحول في مسار المناقشة من دون مقاومة، فقد اعترض الدكتور «عبد الحميد حسن» على تفضيل«قارئ بنى مزار» للزوجة الأجنبية وسأله مستنكرا:«هل سمعت يا سيدي عن امرأة مصرية سددت مسدسا أو رفعت عصا على زوجها؟.. المرأة المصرية لا تعمد إلى الانتقام على الإطلاق، فقد يهينها زوجها ويمس عواطفها ويضربها أحيانا كما تفعل الطبقات الواطئة، فلا تفكر في أن تثأر لنفسها، وكيف يجول في خاطرها أن تنتقم ممن تجمعه بها رابطة الدين والجنس والوطن؟».

منيرة هانم ثابت



بينما قلل «حنين عارز» ـ الموظف بمراقبة السكة الحديد ـ من شأن الفروق الحضارية بين الزوجة الأجنبية والزوجة المصرية وقال:«إن الزعم بأن الأولى أكثر رشاقة وتهذيبا من الثانية زعم خاطئ لا يبرره الواقع». فهو يرى «أن المصرية لا تقل رشاقة عن الأجنبية، أما مسألة التهذيب فالإفرنجية لا تمتاز عن المصرية في أغلب الأحيان إلا في تنظيم منزلها بشكل أدعى لبهجة النظر، وفي ميلها إلى الاقتصاد والتوفير وملاحظة تربية أولادها تربية بدنية صحيحة».

ولم يلبث التسابق على إخراج الزوجة

الأوروبية من قفص الاتهام لتنقل إليه الزوجة المصرية أن انتهى بإخراج الاثنتين من القفص ليحل محلهما فيه «الرجل الشرقي»، باعتباره المسئول عن نظام الزواج على الطريقة الشرقية، الذي انتهى بمشكلة قومية خطيرة هي انصراف الشبان عن الزوج نهائيا، أو سعيهم للزواج من فتيات أوروبيات. ونبه كثيرون إلى جدية الظاهرة وخطورة التهوين من شأنها، وقال «إسماعيل جبران»: «إن عدد المتزوجين بأجنبيات آخذ في النمو بدرجة مخيفة، بسبب الوضعية العقيمة لنظام الزواج في مصر، وبسبب كثرة البعثات التعليمية إلى الخارج، واختلاط المصريين بالأجنبيات المقيمات في مصر. وأضاف أن الزواج من أجنبيات أصبح نظرية لدى الشبان المصريين الذين يتلقون تعليمهم ـ في أوروبا على عكس ما يرى الدكتور «عزمي» وأن النتيجة المحتملة لذلك ستكون كارثة قومية؛ إذ سوف يختلط الحابل بالنابل.. والدم المصري بالدم الغربي، فننسى قوميتنا وشرقيتنا ونصبح لا بين هؤلاء ولا بين هؤلاء «لا شرقيين ولا غربيين».



د. محمود عزمي: صحفي وكاتب دعا إلى خلع الطربوش واستبداله بالقبعة..

ولفت «فكري أباظة» ـ وكان من أكثر الكتاب جماهيرية لدى الشبان آنذاك ـ النظر إلى ظاهرة الفشل الذريع الذي تمنى به الزيجات المختلطة، وقال: إن معظمها ينتهي بالطلاق، وأن ما ينجح منها نادر لا يقاس عليه، وفي تعريفه له قال: «الزواج المختلط هو أن يتزوج المسلم الحنبلي.. المصري الشرقاوي مثلا بإنجليزية بروتستانتية سكسونية، أو أن يتزوج القبطي الأرثوذكسي الفرعوني بفرنسية كاثوليكية أوروبية، فهو سكالانس في الدين وسكالانس في الجنسية وسكالانس في العادات الاجتماعية» ووضع «فكري أباظة» فأس المسئولية عن شيوع الزواج المختلط في رقبة الشبان المصريين الذين يسافرون إلى أوروبا فينسون أصولهم القومية وأوضاعهم الاجتماعية، ويوهمون الفتيات الأوروبيات بأنهم من أقارب «هارون الرشيد»، ثم ما تلبث الحقيقة أن تتضح فيختلف الزوجان حول تسمية أول مولود لهما، «هي تريد أن تسميها «ماري» وهو يريد أن يسميها ست أبوها وهي تريد أن تلقنها الإنجليزية وهو يريد أن يلقنها العربية، وهي تريد أن تلقنها تعليمات السيد المسيح.. وهو يريد أن يعلمها تعليمات سيد المرسلين.. فتتبدد الأحلام ويقع الانفصال».

ونبه «حنين عازر» إلى أن المشكلة ليست «طائفية»، ولكنها قومية وقال: «إن المصريين جميعا يعانون من أمر واقع هو انصراف الشبان المصريين ـ مسلمين ومسيحيين ـ عن الزواج من المصريات إلى التزوج من الأجنبيات». واتفق الجميع على أن نظام الزواج قد أصبح باليًا. ووصفته «منيرة ثابت» بأنه «من أسخف النظم، وبأنه لا يتفق مع الدين ولا يقره ناموس الطبيعة والاجتماع». وأضاف «حنين عازر» إنه «نظام عقيم وضعه بضعة أفراد في العصور الخالية وسارت عليه الأجيال الماضية حتى الآن».

وكان طبيعيا أن ترتبط الدعوة لإصلاح نظام الزواج بالدعوة لتحرير المرأة، فطالبت جريدة «السياسة» بالنهوض بالمرأة المصرية نهضة شاملة تعليمية وأخلاقية، لتستطيع أن تحرر البلاد من هذا الاحتلال النسوي.

وطالب «قارئ بني مزار» الأسر المصرية بأن تتيح للخطيب رؤية خطيبته، والتحدث معها في شئون الحياة الأدبية أو المعيشية أو العائلية، أو في أمور الإدارة المنزلية بحضور أحد أقاربها، وذلك لكي يتمكنا من التعارف قبل الزواج.

وانتقد «إسماعيل جبران» مغالاة الأسر المصرية فيما تطلبه من مهور يعجز الشبان المتعلمون عن دفعها، وطالب الأغنياء منهم بأن يعتبروا غنى العلم والأخلاق مساويا للغنى في المال، وأن يتيحوا الفرصة أمام الشبان لكي يتعرفوا إلى زوجاتهم في المستقبل.

ولم يكن طبيعيا ـ كذلك ـ أن تنشر هذه الآراء المتحررة من دون تعقيب. فقد اعترض الدكتور «عبد الحميد حسن» على المطالبة بالسماح للخطيب بأن يرى خطيبته و«كأنها سلعة تعرض في السوق» وقال «إنها بدعة لم نسمع بمثلها من قبل»، وبرر موقفه قائلا: «ولو كان مستوى الأخلاق بين شبابنا عاليا لساغ ذلك، أما ومستوى الأخلاق هو ما نعلم، فليس هناك مجال للتفكير في هذا الأمر».

على أن تشدد المحافظين لم يحل بين المتحررين وبين طرح أكثر الأفكار راديكالية، فطالب الدكتور «محمود عزمي» بالمساواة في التعليم بين البنين والبنات وبإعادة ترتيب خطوات الزواج لتسير على النسق الاجتماعي الطبيعي الذي ساد أوروبا، بإتاحة الفرصة لكل من الطرفين لرؤية الآخر، ثم التعرف إليه ثم معرفته، فإذا مال إليه كان الزواج هو الخطوة الأخيرة.

الكاتب الشاب فكري أفندي أباظة.. ألمع الكتاب الصحفيين في بداية العشرينيات وأكثرهم جماهيرية وصف الزواج المختلط بأنه «كلاس في الدين وفي العادات وفي القومية



ونفى «حنين عازر» التهم التي وجهتها النساء للرجال بأنهم أصحاب مصلحة في الحفاظ على نظام الزواج الشرقي، أو بأنهم راضون عنه وقال: «إن المرأة المصرية ليست وحدها التي تذهب ضحية لهذا النظام، بل إن هناك ضحايا كثيرين له من بين الشبان».. وطالب «بهدم نظام الزواج الشرقي من أساسه وإبداله بنظام يتفق مع الدين وناموس الطبيعة والاجتماع» ودعا إلى تنظيم «مؤتمر قومي» يضم بعض زعماء البلاد وبعض أولي الأمر والرأي ورجال الدين مسلمين ومسيحيين، على أن تمثل فيه المرأة المصرية ليضع قانونا للزواج والطلاق والنفقة والحضانة يراعي فيه روح الدين الإسلامي والدين المسيحي وروح ناموس الطبيعة، وحالة الاجتماع الحاضرة ليكفل لكل من الرجل والمرأة حقه، وأن تتقيد المحاكم الشرعية والمجالس الملية بتطبيق نصوصه.

أما الدكتور «طه حسين» فقد اختار أن يقول كلمته متقنعا وأن يدعم هذا الاتجاه «الراديكالي» في النظر إلى المشكلة، فلخص على صفحات جريدة «السياسة» مسرحية «قانون الرجل» لـ «بول هرفيو» وهي مسرحية تقول ـ طبقا لتلخيصه ـ إن «مصدر الظلم الذي تلقاه المرأة هو أنها محرومة من حقوقها السياسية، فلو أن لها هذه الحقوق.. لو أنها تنتخب ـ بكسر الخاء ـ وتنتخب ـ بفتحها ـ وتأخذ نصيبها من الواجبات الاجتماعية لاستطاعت أن تنفي هذا الظلم، وأن تقف من الرجل موقف الخصم. ثم علق على هذا الرأي قائلا: «ولو كان الأمر بيدي لما اكتفيت بإقرار المساواة بين الرجال والنساء في هذه الحقوق بل لتنازلت للنساء عن كثير من الحقوق».

ولأن القلب المصري لم يكن خاليا بما فيه الكفاية في تلك الأيام، فقد تراجعت قضية مصرع «علي فهمي» إلى خلفية اهتمامات المصريين خاصة بعد أن اختفت «مرجريت فهمي» وراء قضبان «سجن هولواي»، فلم يعد أحد يسمع عنها شيئا.

وهكذا ما كاد يتم تشييع جنازة الشاب القتيل في يوم الجمعة ٣ أغسطس ١٩٢٣ حتى كفكف الجميع دموعهم عليه، وعادوا إلى ما كان يشغلهم في تلك الأسابيع، فقد ألغيت الأحكام العرفية التي ظلت مصر ترسف في أغلالها لمدة تسع سنوات متواصلة منذ نشبت الحرب العالمية الأولى، وأطلق سراح ٢٦٠ من المعتقلين والمسجونين السياسيين، وبدأت الأحزاب المصرية تستعد لخوض أول معركة انتخابية في ظل الدستور.

وانشغل الناس بمصير «علي فهمي» آخر لم يكن مليونيرا، ولم يتزوج من «مرجريت ميلر» إذ كان واحدا من مئات الشبان المصريين الذين دفعوا حياتهم في

تلك السنوات ثمنا لاستقلال بلادهم.. وكان «علي فهمي علي» - وهذا هو اسمه الكامل - يحاكم طوال شهور الصيف ضمن ١٥ من الشبان المصريين بتهمة ارتكاب حوادث قتل الإنجليز وقتل المصريين الذين تعاونوا مع سلطات الاحتلال، فقدموا لها معلومات أدت للقبض على الثوار، أو شهدوا ضدهم أمام المحاكم العسكرية البريطانية، وحكمت المحكمة العسكرية البريطانية، بإعدامه مع اثنين من زملائه.

وفي يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر ١٩٢٣، وصل «سعد زغلول» إلى مارسيليا في طريقه إلى مصر بعد غياب استمر ٢١ شهرا، قضى منها ١٥ شهرا في المنفى، وستة شهور بمستشفى من آثار النفي.

وفي اليوم نفسه تم تنفيذ حكم الإعدام في «علي فهمي» الثاني وزميليه بثكنات جيش الاحتلال بقصر النيل.

وبدأت في لندن محاكمة «مرجريت فهمي» بتهمة قتل «علي فهمي الأول».

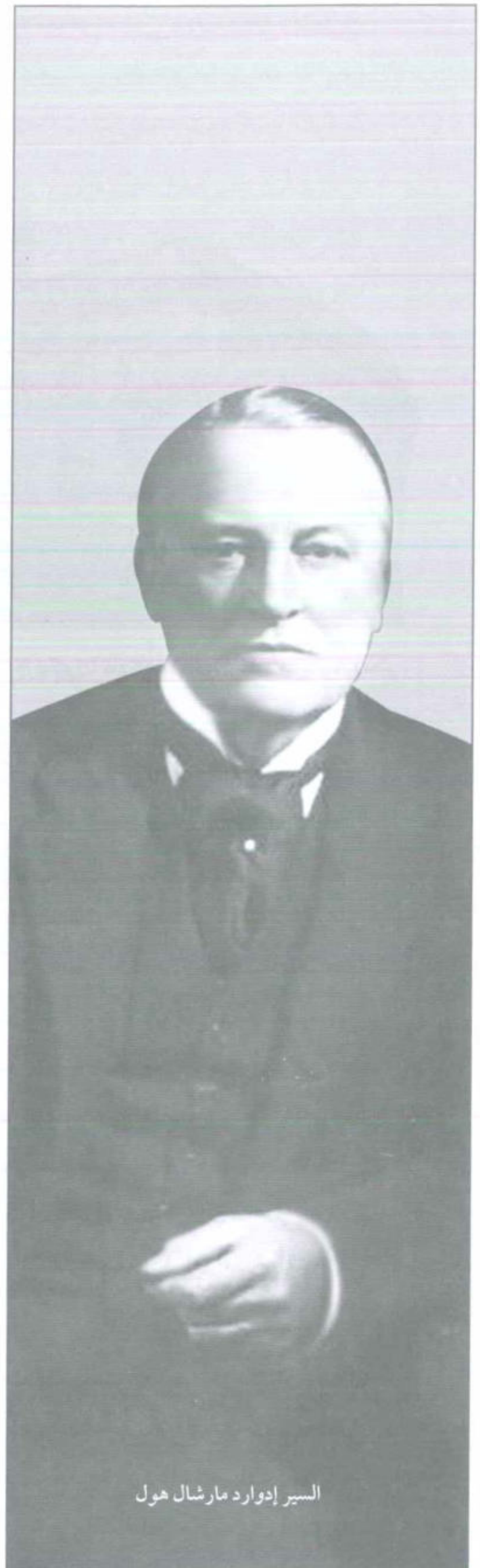
الفصل الثامن

قبلات العشاق.. وصراع الحضارات



«لكي تكونوا منصفين يا حضرات المحلفين.. فلابد أن تضعوا في اعتباركم طبيعة ذلك الإعجاب الذي يكنه الشرق للغرب.. والرجل الشرقي للمرأة الغربية، والانبهار الشرقي بحضارتنا ليس خاليا من الشوائب، إذ هو يختلط عادة بذلك النوع من الحسد الشرير، الذي يولده العجز عن المنافسة، والإحساس بالنقص والضعة فيحول الحب إلى كراهية.. وإلى رغبة في التدمير والتخريب».

«مارشال هول»



السير إدوارد مارشال هول



محكمة أولدبايلي.. أو محكمة الجنايات العليا البريطانية.. افتتحتها الملكة فيكتوريا عام ١٨٨٢ الذي احتلت فيه بريطانيا مصر

25

كانت شمس الخريف تتسلل من النوافذ الزجاجية العريضة التي تنتشر في أنحاء قاعة «محكمة أولد بايلي» حين دخل ـ في العاشرة من صباح يوم الإثنين ١٠ سبتمبر ١٩٢٣ ـ القاضي السير «ريجبي سويفت» وتبعه ممثلا الادعاء السير «برسيفال كلارك» والمستر «يوستاش فولتون» وعلى وجه كل منهما ابتسامة عريضة؛ إذ كان الجميع قبل بدء الجلسة يجزمون بقوة مركز الاتهام، خاصة وقد احتشد لمساندته اثنان من ألمع المحامين البريطانيين وكَّلتهما شقيقتا «علي فهمي» لإثبات التهمة ضد «مرجريت فهمي» هما «سيسل وايتلي» و«ج.ب ميلفيل» وفضلا عن حرصهما على متابعة المحاكمة برفقة زوجيهما، فقد وكلتا ـ كذلك ـ اثنين من كبار المحامين المصريين، وهما «عبدالفتاح رجائي» و«عبدالرحمن البيلي» حضرا الجلسة كمراقبين، تقتصر مهمتهما على تقديم المشورة للمحامين الإنجليز عن المدعين بالحق المدني مما أكد أن أسرة القتيل لن تتنازل عن ثأرها.

ولم يكن الدفاع عن سمعة القتيل ضد التهجمات المتوقعة من «السير مارشال هول» ـ محامي المتهمة ـ هو السبب الوحيد وراء هذا الحضور القوي ـ الشخصي والقانوني ـ لشقيقتيه، بل كان السبب الأهم، هو دعم نظرية الادعاء بأن القتل قد وقع عمدًا؛ لأن نجاح هيئة الدفاع عن «مارجريت فهمي» في إقناع المحكمة بأن القتل قد وقع خطأ أو بالمصادفة، لم يكن يعني إفلات القاتلة من الإعدام الذي تستحقه على

جريمتها فحسب، بل كان يعطيها كذلك الحق في المطالبة بنصيبها في إرث زوجها، وهو ما كانت شقيقتا القتيل تسعيان للحيلولة دون وقوعه حتى لا تموتا قهرا إذا ما كوفئت «مرجريت» على قتل زوجها بجانب من أمواله.

وبدأت إجراءات المحاكمة بالنداء على أسماء المحلفين، وكان عددهم اثني عشر محلفا، بينهم عشرة من الرجال هم «جورج أدموند جاليفورد» و«جيمس جون ستروهمنجر» و«ويليام كرونن» و«جيمس أتكنسجتو هولت» و«أرنست ويليام تيورنر» و«آرثر مي» «وهربرت هراك هولت» و«هربرت براسي إيليس» و«جون توماس»، واثنتان من النساء هما «مرجريت آن بارنويل» و«ماري آن أوستين» وصفتهما جريدة «الإيفننج ستاندارد» بأنهما «في نحو الثلاثين، ترتديان ملابس سوداء وتتحليان بمجوهرات لفتت الأنظار».

وما كاد المحلفون يأخذون أماكنهم في القاعة حتى دخلت المتهمة «مرجريت ميلر» بصحبة حارستها من باب صغير في ركن القاعة، يقود إلى غرفة المتهمين.

وكانت ترتدي ثوبا من الموسلين الأسود، أحضرته خصيصا من باريس لترتديه أثناء المحاكمة وتضع على رأسها قبعة يتدلى منها نقاب شفاف، وتحيط عنقها بعقد من اللؤلؤ ذي صف واحد، ولأنها كانت قد منعت من وضع المساحيق أو استخدام أحمر الشفاة، فقد بدا وجهها شاحبا بلون العاج، وأتعسها هذا في البداية كما ينبغي لامرأة كانت تعتقد أن جمالها هو رأس مالها.

لكنها سرعان ما أدركت فائدته، إذ بدت أمام الجميع في صورة الأرملة تعيسة الحظ، وربة المنزل البريئة التي قتلت زوجها دون أن تقصد، واختفت صورة الغانية التي كانت كفيلة بأن تثير ضدها المحلفين، خاصة وأن النساء الثلاث بينهم، كن من ربات البيوت المحافظات.

ومع أنها كانت تبدو ظاهريا وكأنها غائبة عن الوجود، إلا أن قلقها مما كان ينتظرها عكس نفسه حين قال لها القاضي السير «ريجبي سويفت».

ـ ماري مرجريت فهمي.. أنت متهمة بجريمة القتل العمد... فهل أنت مذنبة أم غير مذنبة؟

ومع أنه ألقى السؤال باللغة الإنجليزية التي لم تكن تعرفها، إلا أنها لم تنتظر حتى تتم ترجمته إلى الفرنسية، بعد أن فهمت من تقارب نطق بعض الكلمات في اللغتين، المقصود منه، فأجابت بالفرنسية وبصوت مرتفع:

ـ غير مذنبة.

وفي أعقاب ذلك بدأ «السير برسيفال كلارك»- ممثل الادعاء ـ في إلقاء خطبته

الافتتاحية، فلخص وقائع القضية كما استخلصها من التحقيقات وأقوال الشهود، استعرض كيفية تعرف المتهمة إلى المجني عليه الذي وصفه بأنه «كان شابا ذا ثروة ومكانة في بلده، يعمل في السلك السياسي» ـ وهو ما لم يكن دقيقا إذ إنه «علي فهمي» كان مجرد مترجم شرف متطوع في القنصلية الفرنسية ـ مشيرا إلى أن المتهمة «التي تكبره بعشر سنوات، وتشغف بالغلمان الأصغر سنا» قد قبلت دعوته، وسافرت إلى مصر في ديسمبر من العام السابق ١٩٢٢ حيث تزوجته، بعد أن اعتنقت الإسلام، بصرف النظر عما إذا كان ذلك ضروريا لإتمام الزواج أو لم يكن، واستعرض المشاكل التي وقعت بين الزوجين في مصر، ثم في باريس خلال إقامتهما بها، طوال شهري مايو ويونيو ١٩٢٣، ثم تصاعدت خلال الأيام العشرة التي تلت وصولهما إلى لندن في أول يوليو، وانتهت بوقوع الجريمة في سياق يومئ بأنه كان لدى المتهمة دوافع ربما تكون قد أغرتها بالتخطيط لقتل زوجها.

وتوقف السير «برسيفال كلارك» أمام تفاصيل اللحظات الأخيرة من حياة «علي كامل فهمي» كما جرت في الجناح ٤١ من فندق «سافواي» من خلال المقارنة بين أقوال المتهمة، وأقوال خادم الفندق «جون بيتي»، شاهد الرؤية الوحيد لآخر وقائع الجريمة. وشدد على قول «بيتي» بأنه شاهد «علي فهمي» يقف في الممر أمام الجناح، وحين نظر إلى الخلف قبل أن يدلف إلى الممر الذي يقع فيه المصعد وجده ينحني ليداعب بأصابعه رأس الكلب الصغير الذي خرج خلفه.. وفي أعقاب ذلك سمع طلقات الرصاص.

واستعرض المدعي العام ما نقله «د. جوردون» ـ طبيب الفندق الذي وصل إليه في أعقاب الحادث مباشرة ـ عن «مرجريت» بشأن محاولة «علي كامل فهمي» الهجوم عليها، مما اضطرها لرفع المسدس، وتهديده به، ثم سحبت الغطاء وأطلقت رصاصة في اتجاه النافذة، مؤكدا بأن ذلك ـ حتى لو صح ـ لم يكن له صلة بالتصوير الذي قدمته المتهمة للوقائع، لأن الرصاص لم يطلق على المجني عليه، أثناء محاولته الهجوم على زوجته، ولم يقع داخل الجناح حيث جرى ـ طبقا لأقوال المتهمة ـ هذا الهجوم، بل أطلق خارج الجناح، وفي الممر المواجه



السير ريجي سويفت قاضي «محكمة أولدبايلي» يقود سيارته

من بدايته بعد أن تنبه إلى أن الشاهد «مسلم»، وقد أقسم على «الكتاب المقدس» فسأله:

ـ هل تعتقد في القسم على التوراة والإنجيل وتعتبره مقيدا لضميرك؟

فأجاب «العناني»:

ـ نعم.

ولكن رئيس المحلفين عاد ـ بعد فترة ـ ليكرر السؤال نفسه. فقال «العناني»:

ـ نحن نؤمن بالله وكتبه ورسله، وأنا أؤدي شهادتي وأقسم بالله العظيم أنها حق.

فاعتبر القاضي ذلك كافيا، وأوقف المناقشة في الموضوع.

وفيما عدا ذلك فإن أحدا آخر لم يتدخل لإنقاذ «العناني» من بين براثن السير «مارشال هول»، الذي كان يعتقد أن نجاح خطة الدفاع يعتمد بالدرجة الأولى على مهارته في استخلاص حقائق معينة من الرجل الذي كان الطرف الثالث المباشر في العلاقة بين القاتل والقتيل. ولما كان «عصر الشهود» من الأساليب الشائعة عن «مارشال هول» والمواهب المعترف له بها، فقد تدافعت أسئلته نحو «العناني» كما لو كانت قذائف تنطلق من مسدس سريع الطلقات.

كان هدف السير «مارشال هول» من مناقشة «العناني» واضحا تماما في ذهنه، فهو شاهد الاتهام الرئيسي، الذي أصر في الأقوال التي أدلى بها في مختلف أدوار التحقيق ـ بما في ذلك الأقوال التي أدلى بها في الجلسة ذاتها- ردا على أسئلة ممثل الاتهام ـ على أن يرسم للواقعة صورة خلاصتها أن «علي فهمي» كان أفضل رجل في العالم حتى عرف «مرجريت» وعشقها وتزوجها، فقلبت حياته إلى جحيم بتعمدها استثارة غيرته، ثم أنهت هذه الحياة برصاصاتها التي صوبتها إليه مع سبق الإصرار والترصد.

فكان لابد من محاصرة «العناني» بالأسئلة والمعلومات التي استقاها «مارشال هول» من «مرجريت»، وجمعتها فرقة التحريات التي أرسلها لتجمع المعلومات عن سلوك الزوج القتيل ودفعه للاعتراف بها، لتتكشف أمام المحلفين حقيقة المعاملة الفظة التي كان الزوج القتيل يعامل بها زوجته القاتلة، مما وضعها في حالة نفسية مضطربة كان لابد وأن تقودها في لحظة ما إلى فقدان السيطرة على نفسها، وبذلك تتشوش الصورة ـ أمام المحلفين ـ فلا يظل «علي فهمي» هو ذلك الشخص المثالي الذي صورته أقوال تابعه الوفي، ولا تصبح «ماجي ميلر» حفيدة للشيطان الرجيم كما وصفها في أقواله، وتتقارب ملامح كل منهما من ملامح الآخر، وتتحول القضية إلى قضيتين ويتهم «علي فهمي» بمحاولة قتل «مرجريت» مما اضطرها ـ دفاعا عن نفسها ـ لقتله.

ولكي يخدر «مارشال هول» مراكز الحذر في عقل «العناني» الذي كان فضلا عن إخلاصه لسيده، وما يتميز به من ذكاء ومكر، يعلم أن عصر الشهود هواية لدى المحامي العتيد، فقد قسم أسئلته إلى أربع حلقات متداخلة، تقود كل منها للأخرى، بحيث تنتهي بمحاصرة «العناني» في أضيق واحدة منها.

وبدأ بأوسع هذه الحلقات وأكثرها مدعاة لاطمئنان الشاهد، وهي دائرة العلاقة بين «العناني» وبين «علي فهمي»: متى عرفه؟ وبكم سنة يكبره؟ وكم كان دخل سيده قبل رفع الوصاية عنه؟ وبعدها؟ وبأي شروط كان يعمل لديه؟

وقد أجاب «العناني» عن تلك الأسئلة التي بدت له عادية، فقال إنه يكبر سيده بسبع سنوات وأنه عرفه ـ كذلك ـ منذ سبع سنوات (١٩١٦)، وكان «علي فهمي» ـ آنذاك ـ لا يزال في السادسة عشرة من عمره، يخضع للوصاية، ويتقاضى مائة جنيه شهريا، فلما رفعت عنه الوصاية، ارتفع دخله إلى مائة وعشرين ألفا من الجنيهات سنويا، ولكن هذا الدخل انخفض في السنة الأخيرة إلى أربعين ألف جنيه فقط، وأضاف أنه كان يعمل موظفا بوزارة الداخلية براتب قدره ٢٢ جنيها شهريا، ولكنه استقال ليشغل وظيفة سكرتير «علي فهمي»، وتعاقد معه على مرتب يبلغ ٣٥ جنيها شهريا، يظل يتقاضاها لمدة عشر سنوات حتى لو حدث ما يدعوه للاستغناء عنه، أو فصله من العمل لديه.

وفي جو الاطمئنان الذي أشاعته تلك الأسئلة العادية في نفس «العناني»، انقض عليه «مارشال هول» فجأة بسلسلة من الأسئلة المتتابعة، كان يلقيها بسرعة وبطريقة أربكت الشاهد، الذي أجاب عن معظمها بالنفي، لكن المحامي الماكر، لم تكن تعنيه الإجابة التي كان يتوقعها، بقدر ما كان يعنيه أن يسوِّق المعلومات التي تتضمنها هذه الأسئلة إلى القاضي والمحلفين، وأن يتركهم يستنتجون من ارتباك «العناني» أنه يكذب.

السير «إدوارد مارشال هول» (١٨٥٨/١٩٢٦) أعظم محامي في العالم في زمنه.. اعتبر دفاعه عن مرجريت فهمي أعظم أعماله



ولأن الأسئلة ـ التي أخذ «مارشال هول» يلقيها بسرعة شديدة عجز معها المختزلون عن متابعته ـ كانت تدور حول الجانب السري جدا من علاقة «العناني» بسيده، والدور الخاص جدا الذي كان يلعبه في حياته. فقد كان مستحيلا على«العناني» ألا يرتبك بعد أن انهالت عليه أسئلة «مارشال هول» كالمطارق:

ـ هل كان سيدك يتحمل كل نفقاتك منذ تعرفت إليه؟ وهل كنتما تنامان معا في غرفة واحدة حين كان ما زال تحت الوصاية؟

وهل يعين لك ـ وأنت سكرتيره ـ سكرتيرا؟ وهل كنت تتبسط معه فتناديه باسم «علي بابا». وهل كنت تعرف أن له صلات خاصة بنساء عديدات ؟ هل قلت للمفتش «جروس» إنه شرقي وانطوائي وحار العواطف وعصبي وشرس؟ وهل كان معتادا على ضرب النساء عموما؟ وهل تعرف امرأة اسمها «بوزيني» كانت رفيقته ثم تركته بسبب شراسته؟

وانتقل «مارشال هول» إلى الحلقة التالية فحاصر «العناني» بسلسلة من الأسئلة حول ما سماه «مؤامرة استدراج مرجريت المسكينة ـ رغم إرادتها ـ إلى القاهرة»، دعمها بالاستشهاد بفقرات من الخطابات التي كتبها «علي فهمي» إلى «مرجريت»، يلح عليها في بعضها أن تقبل دعوته لزيارة القاهرة. لكي يضع على رأسها ـ بمجرد وصولها إلى بلد أسلافه الأقدمين ـ التاج الذي يليق بجمالها الفاتن، ويشكو في البعض الآخر من أن وطأة المرض قد اشتدت عليه، وأن حضورها هو العلاج الوحيد لإنقاذ حياته، والتلغراف الذي أرسله «العناني» نفسه، وقال فيه إن سيده في حالة خطيرة، فضلا عن نص عقدي الزواج المدني والشرعي.

ولما لم يكن هناك مفر أمام « العناني» فقد اعترف بما أراد له «مارشال هول» أن يعترف به، وأقر بأن «مرجريت» ظلت تتردد في قبول دعوة «علي فهمي» لزيارة القاهرة، حتى قيل لها بأنه في حالة صحية تنذر بالخطر، وبأنها ظلت تتردد في قبول الزواج منه وحرصت ـ في العقد المدني ـ على الاحتفاظ بحقها في تطليق نفسها، واشترطت ألا تتحجب كالنساء المسلمات، لكن الزوج لم يلتزم ـ في العقد الشرعي ـ بالشرط الأول ولم يلتزم ـ في المعاملة ـ بالشرط الثاني.. بل ولم يدفع لها صداقها كاملا.

وبذلك نسف شاهد الاتهام الرئيسي كل صورة مناقضة قد يسوقها ممثل الاتهام أو محامي المدعين بالحق المدني، بأن الغانية الباريسية هي التي استدرجت الأمير الشرقي الذي يصغرها بعشر سنوات إلى مصيدة الزواج طمعا في ماله، أو رغبة في فتوته، وبدت أمام المحلفين بالصورة التي أرادها «مارشال هول» امرأة أوروبية.. طيبة القلب.. استُدرجت بحيلة شرقية إلى مصير تعس.

وكانت الحلقة الثالثة أكثر ضيقا وأكثر حرجا مما سبقها، إذ واجه السير «مارشال هول» شاهد الإثبات الرئيسي بما تجمع لديه من وقائع عن الطريقة التي كان «علي فهمي» يعامل بها زوجته خلال الشهور الأربعة التي قضياها في مصر، منذ تحرك بهم اليخت في طريقهما إلى الأقصر لقضاء شهر العسل، إلى أن غادرت بهم الباخرة الإسكندرية في طريقهما إلى «باريس».

فتتالت الأسئلة التي ترسم مشاهد مخيفة عن الحياة المرعبة التي عاشتها المرأة القادمة من بلاد الغرب، التي اختصها الله بنعمة الحرية، بين براثن زوج شرقي مجنون ينتمي إلى البلاد التي عاقبها الله بنقمة الاستبداد: ضحكاته العارمة عندما أطلق النار فوق رأسها ليبرهن لها على مهارته في التصويب، والمشاجرات التي كانت تنتهي بحبسها في قمرتها أو في حجرتها بالقصر، نفوذ الخدم السود الذين كانوا يقومون بأدوار السجانين والحراس والجواسيس. «كوستا» البلغاري المخيف..«ويوسف» البربري المرعب، العلقة الساخنة التي حطمت فكها يوم عادت من السينما بصحبة «مختار بك».. الصفعات التي كانت تنهال على وجهها عند كل خلاف ينشب بينهما.. قسمه على القرآن بأن يقتلها ذات يوم... إلخ.

ومع أن «العناني» قد راوغ في الإجابة عن معظم تلك الأسئلة التي لم يخف عليه هدف الدفاع منها، إلا أنه لم يقطع بنفي الوقائع كلها، وتهرب من الإجابة بعبارات غير محددة، من نوع «ربما» أو «لا أذكر» أو «لم أسمع بذلك»، مما خلق إحساسا لدى المحلفين بأن الوقائع إن لم تكن كلها حقيقية، فإنها ليست كاذبة، وهو ما دفع السير «برسيفال كلارك» ـ ممثل الاتهام ـ إلى الاعتراض على سؤال وجهه إليه يقول:

ـ هل أصر «فهمي بك» على أن يرابط خادمه النوبي أمام غرفتها في الفندق رغم معارضتها؟ هل هددها «فهمي بك» بإلقائها في نهر التايمس أثناء وجودكم في لندن؟ وهل شكت لك أنه أجبرها في ٢٥ يونيو على سلوك غير طبيعي؟ هل قلت لسيدة في «باريس» إن «مدام فهمي بك» تستطيع أن تأخذ من زوجها كل ما تريد إذا سمحت له بأن يفعل كل ما يريد؟ هل هددها «فهمي بك» بأنه سيكلف «كوستا» بإلقاء حفنة من الرمل المبلل بحامض الكبريتيك المركز على وجهها إذا لم تعدل عن إصرارها على السفرإلى «باريس» ؟هل سمعتها يوما تشكو من أنك أنت وزوجها تقفان دائما ضدها وأن الكفة لم تكن متعادلة؟.هل تعرف أنه كان لدى سيدك ميول غير طبيعية؟ هل تناقشتما يوما أمامها حول أفضل الوسائل التي يقتل بها الزوج زوجته دون أن يقع في قبضة الشرطة؟ هل هددها في يوم مقتله بأنها لن تظل حية ليوم آخر؟ هل تقر بأن«مدام فهمي» المرحة الطروب التي عرفتها في عام ١٩٢٢ قد أصبحت في عام ١٩٢٣ امرأة حزينة تعيسة؟



سعيد العناني يتحدث إلى مراسلي الصحف بعد الإدلاء بشهادته



كاريكاتير نشرته مجلة «الكشكول» ـ وهي أسبوعية انتقادية ساخرة.. بعنوان «الروح الأسرة لفهمي بك» يصور (من اليمين) علي فهمي.. ثم سعيد العناني والسكرتير الذي عينه الأول للثاني.. قدمه مارشال هول إلى المحكمة للتدليل على أن العلاقة التي تربط الثلاثة كانت غير سوية

وفي إجابته عن السؤال الأخير قال «العناني»:

ـ ربما... فقد صارا يتشاجران دائما !

وهي إجابة لا تختلف عن معظم إجاباته عن الأسئلة التي تتعلق بوقائع التعذيب التي سئل عن مدى صحتها. فمع أنه لم يعترف صراحة بأنه كان يعاملها على الصورة التي وردت في أسئلة «مارشال هول»، إلا أنه عجز عن أن يثبت العكس، وكان يبدو غير مقنع في نفيه السريع لبعض الوقائع، وحين حاصرته الأسئلة اعترف بأن كلا من الزوجين كان يغار على الآخر غيرة عنيفة، وبأنهما كانا يتبادلان الإهانات جهارا، وعلى مرأى ومسمع من الناس.. وأضاف:

ـ إنني لا أستطيع أن أصف معاملته لها بأنها كانت قاسية، ولكنه منذ تزوجها لم يعد رفيقا معها كما كان قبل الزواج.

ولأول مرة منذ تلك الليلة العاصفة التي تدافعت فيها طلقاتُ الرصاص في رواق الدور الرابع من «فندق سافواي» بدا على وجه «مرجريت ميلر» شبح ابتسامة، وركزت نظراتها الشاردة على المنديل الذي أخرجه «العناني» من جيبه، ليجفف به عرقه وهو في طريقه إلى خارج القاعة بعد خمس ساعات من الاستجواب القاسي.

ولم تمض طريقة «مارشال هول» في استجواب الشاهد دون اعتراض، فقد تصاعدت همهمات الاحتجاج من قاعة الجلسة، عندما ألقى أسئلته التي هتكت أسرار العلاقة الخاصة بين الزوجين، أو أثارت الشبهات حول العلاقة بين الأمير وتابعه، لكنه لم يتراجع، وواصل الهجوم على الجبهة نفسها، إذ كان يعتقد أنه لا حياء في العدل، كما أنه لا حياء في الدين، وقد قال فيما بعد «قد يرى البعض أننا لجأنا إلى أسلوب شائك وغير مألوف في الدفاع.. ولكننا في حل أن نسأل أي إنسان كل سؤال للوصول إلى الحقيقة وإثباتها بالدليل القاطع بهدف إنقاذ حياة هذه السيدة التي يتهددها الكرسي الكهربائي».

والحقيقة أن أسلوبه الشائك في مناقشة شهادة «العناني» قد أثبت فاعليته، إذ انتزع منه أقوالًا بدا واضحا أنها قد أثارت في نفوس المحلفين شعورا بالعطف على المتهمة باعتبارها امرأة أوروبية ضعيفة وقعت في شباك مليونير شرقي عارم الشهوات.

ولم يكن الشاهد الثاني في هذه الجلسة- وهو الحارس الليلي «جون بيتي» ـ

يقل خطورة عن الشاهد الأول، بل كان شاهدا من النوع الذي يعتبره الدفاع «شاهدًا مميتًا»، فعلى العكس من «سعيد العناني»، كان «بيتي» يتمتع بدرجة مصداقية عصية على التجريح، إذ كان خاليا من أية دوافع شخصية قد تقوده للتحامل على المتهمة، أو للانحياز إلى المجني عليه.

وكانت الواقعة المحورية في شهادته، هي رؤيته لـ «علي فهمي» وهو ينحني على الكلب الصغير الذي خرج وراءه من الجناح، ليستمع الحارس الليلي بمجرد تحركه في اتجاه المصعد إلى أصوات الرصاصات، وهي واقعة لم تكن لها دلالة إلا ما استخلصه منها «السير برسيفال كلارك» وهي أن المتهمة لم تطلق الرصاص على زوجها أثناء مطاردة بينهما أو في ذروة هجومه عليها لتدعي ـ أو يدعي دفاعها ـ أنها كانت في حالة دفاع شرعي عن النفس أو في حالة استفزاز عنيف فقدت معها السيطرة على نفسها، بل أطلقته بعد انتهاء المشاجرة وبعد «سبق إصرار».

وكان الجميع لا يزالون تحت تأثير ما قاله الشاهد حين وقف «مارشال هول» ليقول:

ـ إن ما يفيدنا في هذه الرواية ليس ما حدث، ولكن: متى حدث.. وطبقًا لأقوال الشاهد، فقد حدث ذلك في الوقت الذي كانت فيه العاصفة قد وصلت إلى ذروتها والتى ارتفع فيها صوت الرعد ليصم آذان الجميع.

وبذلك التعليق القصير.. دمر المحامي العجوز الماكر الأقوال المميتة للشاهد الثاني.



مع أن اليوم التالي في محاكمة «مرجريت فهمي» ـ الثلاثاء ١١ سبتمبر ١٩٢٣ ـ كان ممطرا وباردا إلا أن ذلك لم يحل دون تزاحم الجمهور، الذي يهتم بالمحاكمة، لشهود وقائع الجلسة التي بدأت بالاستماع إلى شهادة «آرثر ماريني» ـ المدير الليلي لفندق «سافواي» ـ الذي وقعت الفاجعة أثناء نوبته.

وكرر «ماريني» ما سمعه ورآه ليلة الحادث، ولم تثر أقواله أي اهتمام إلا في نهايتها، حين قال: إن «مدام فهمي» أكدت له عقب الحادث أن مشاجرة وقعت بينهما بسبب مناقشة حول الطلاق.. وفاجأت العبارة «مارشال هول» الذي كان يستمع إليها لأول مرة، وخشي أن تؤثر على التصور الذي بنى عليه دفاعه وهو أن القتل وقع أثناء محاولة «علي فهمي» إكراه زوجته على مواقعة مؤلمة، فوقف يطالب بترجمة العبارة إلى الفرنسية لتسمعها المتهمة وقال القاضي: أنت محق.. فهي واقعة جديدة.

وأدركت «مرجريت» من الحوار أن هناك مشكلة فرفعت رأسها بنظرة متسائلة، بينما اتجه «مارشال هول» وتهامس معها بالفرنسية، ثم عاد إلى مكانه ليسأل الشاهد:

ـ لماذا لم تقل هذه الواقعة أمام محكمة «بوستريت» في يوليو الماضي؟

وقال «ماريني» ببساطة:إن الأسئلة التي وجهت إليه كانت من النوع الذي يتطلب إجابة بكلمة واحدة هي «نعم»أو «لا».

وقد تبين بالفعل أن «ماريني» كان قد ذكر العبارة في أقواله أمام الشرطة، لكن النص الذي ذكره آنذاك، كان أقل خطورة مما قاله في شهادته أمام المحكمة، إذ نقل عن «مدام فهمي» أنها قالت له ـ وبعد أربع ساعات من الفاجعة ـ إن الحديث عن الطلاق ورد خلال إحدى المشاجرات التي وقعت بينها وبين زوجها أثناء إقامتهما في باريس، وبهذا التحديد للنص الذي سمعه «ماريني» من «مدام فهمي» فقدت العبارة دلالاتها الخطيرة ولم يعد لها أثر سلبي على خطة الدفاع التي رسمها «مارشال هول» ولم تعد المشاجرة هي السبب المباشر في القتل.

وأبرزت أقوال الشاهد الثالث «كلينت بيش» ـ مساعد رئيس مدير الفندق ـ واحدة من العبارات المهمة التي تفوهت بها «مدام فهمي» أمام من أحاطوا بها في أعقاب الفاجعة، إذ نقل عنها، عبارة قالتها بالفرنسية تنبه «مارشال هول» إلى أهمية أن يترجمها إلى الإنجليزية بنفسه، ليضمنها المعنى الذي أراد أن ينقله إلى المحلفين فسأل الشاهد:

ـ هل توافقني على أن ما قالته «مدام فهمي» بالفرنسية يمكن ترجمته إلى الإنجليزية للعبارة التالية «لقد كنت في حالة مروعة من الخوف والتخبط؟».

وعندما وافق الشاهد على الترجمة الإنجليزية للعبارة كما صاغها «مارشال هول» عاد المحامي العجوز إلى مقعده، وهو يتنهد بارتياح بالغ.

وكشفت أقوال الشاهد الثالث السيرجنت «جورج هال» عن الارتباك الذي وقعت فيه الشرطة، التي فوجئت بالحادث وباعتراف المتهمة بأنها ارتكبت الجريمة، فقصَّرت في جمع الأدلة، وهو ما اعترف به «جورج هال» ـ الذي كان مسئولا هو ورئيسه المفتش «جروس» عن جمع هذه الأدلة ـ فذكر أن بواب الفندق الليلي كان هو الذي استرد المسدس من المتهمة، وأن مضيفة الطابق الرابع هي التي عثرت ـ في اليوم التالي ـ على المظروف الفارغ لإحدى الطلقات تحت جهاز التدفئة في الباحة المواجهة لسلالم الطابق.

ومع أنه تعرف على المسدس الذي ارتكبت به الجريمة، وتسلمه من البواب عندما

عرض عليه بالجلسة، إلا أن ما قاله بشأنه كشف عن أنه لم يتفحصه بدقة، فظنه مسدسا عاديا من النوع الذي يزود بالطلقات واحدة بعد أخرى، وهو ما دفع «مارشال هول» للتدخل لتنبيه المحكمة، إلى أن المسدس من طراز براونـنج ٣٢ الأوتوماتيكي الذي تخزن به أربع طلقات تنطلق متتابعة بمجرد الضغط على الزناد في كل مرة أو بمواصلة الضغط عليه.

وكان «مارشال هول» قد استعد لمناقشة الشاهد الرابع في هذه الجلسة، وهو خبير الأسلحة «المستر روبرت تشرشل»، إذ كان ضمن استعداده للدفاع قد عقد جلسات مطولة مع صديق له من تجار السلاح، اقترض منه في نهايتها مسدسا أتوماتيكيا من طراز براونـنج عرضه على الخبير، فلما أقر بأنه من الطراز نفسه الذي أطلقت منه الرصاصات التي قتلت «علي فهمي» سلمه إليه وطلب منه أن يشرح للمحكمة طريقة عمله وأن يوضح ذلك عمليا.

وقال المستر «تشرشل» إن هذا الطراز من المسدسات الأوتوماتيكية يملأ بأربع رصاصات هي أقصى ما تتسع له خزنته ولكي يكون جاهزا للانطلاق فلابد أولا من جذب غطاء الخزنة إلى الخلف بقوة، ثم تركه ليرتد إلى مكانه، فيدفع الرصاصة الأولى أمام إبرة المسدس، فتنطلق بمجرد الضغط على الزناد، وتحل محلها الرصاصة الثانية فتصبح جاهزة للانطلاق عند الضغط على الزناد ومن دون حاجة إلى إعادة جذب غطاء الخزنة إلى الخلف.. وهكذا.. وأضاف المستر «تشرشل» ـ ردا على أسئلة «مارشال هول» ـ أن أخف ضغط على الزناد يمكن أن يطلق الرصاصة بعد الرصاصة، وأن من يجهل طريقة عمل هذه المسدسات قد يتوهم بعد أن جذب الغطاء وأطلق الرصاصة الأولى، أنه قد أفرغ مجال الإبرة من الطلقات، وأن المسدس لا يمكن أن ينطلق إلا إذا أعاد جذب الغطاء للخلف من جديد، فإذا كان هـذا الإنسان ـ فضلا عن جهله ـ في حالة من الذعر فقد يتشبث بالضغط على الزناد دون شعور فتنطلق الرصاصات متتابعة وهو لا يفهم شيئا مما يجري.

وجاءت شهادة الدكتور «جوردون» التي استمعت اليها المحكمة ـ في أعقاب ذلك ـ لتدعم موقف المتهمة، فتكمل أقوال خبير السلاح وتطبق النظرية التي أدلى بها على حالة «مرجريت فهمي»، إذ قرر أنه فحص جروح المتهمة، ووجد أنها في حاجة إلى عملية جراحية وأنه ـ بصفته طبيبا لها ـ يستطيع أن يحكم بأن هذه الجروح نشأت عن ميول زوجها غير الطبيعية، وأضاف أن المتهمة روت له ـ في أعقاب الحادث مباشرة ـ قصة الخلاف بينها وبين زوجها بسبب معارضته في سفرها لإجراء العملية الجراحية، وقالت له إن هذا الخلاف وصل إلى ذروته عندما أزعجها في ليلة الحادث بمطارداته العاطفية، على الرغم مما كانت تعانيه من آلام، فأصابتها حالة من الذعر العصبي وشعور مفاجئ بالكراهية، بسبب قسوته

وشذوذه، فتناولت المسدس وأطلقت منه رصاصة صوب النافذة المفتوحة على سبيل الإنذار، فلما عاود محاولاته للهجوم عليها صوبته نحوه لكي تخيفه وكانت تتوهم ـ لجهلها بالطريقة الصحيحة لاستخدامه ـ أن الرصاصة الثانية لا يمكن أن تنطلق طالما أنها لم تجذب غطاء الخزنة، وحين ظل يواصل التقدم نحوها أخذت تهز المسدس أمامه لمجرد تخويفه، إلى أن فوجئت بالرصاصات تنطلق من فوهته متتابعة دون أن تعرف كيف حدث ذلك.

وتلقى الدفاع دعما مؤكدا في أقوال ثلاثة من العاملين في «فندق سافواي» استمعت إليهم المحكمة بعد ذلك:

كان أولهم هو «ألبرت داودنج» الخادم الذي عثر على إحدى الرصاصات الثلاث الفارغة في الممر أمام الغرف.

وكان الثاني هي «إيلين درايتلاند» مضيفة الطابق الرابع، التي عثرت في اليوم التالي للواقعة على طلقة فارغة في غرفة «مرجريت» فأكدت بذلك رواية «مدام فهمي» بأنها أطلقت رصاصة تجاه النافذة في محاولة لإخافة زوجها حتى يتوقف عن مطاردتها.. وأضافت المضيفة أنها قبل أيام من الحادث، وجدت المسدس البراوننج تحت وسادة سرير «مرجريت» أثناء ترتيبها للغرفة، فوضعته في درج المنضدة المجاورة للسرير، لكنها ـ لدهشتها ـ عثرت عليه في اليوم التالي ضمن الوسائد الصغيرة لأحد مقاعد الغرفة.

وكانت الثالثة هي عاملة الهاتف بالفندق.. التي شهدت بمحاولات «مرجريت» للاتصال بباريس ليلة الحادث.

ولم يضف الشاهد التاسع في هذه الجلسة ـ وهو المفتش «جروس» ـ شيئا جديدا إلى ما قاله المدعي العام «المستر برسيفال» إلا أن حديثه عن معاينة جثة القتيل في ثلاجة مستشفى «تشارنج كروس» التي نقل إليها، قد أثار أحزان شقيقة القتيل «عائشة فهمي»، التي كانت تتابع الجلسة مع زوجها الدكتور «أحمد سعيد».. فتصاعد نشيجها.

وصحح الشاهد العاشر وهو السيرجنت «ألن» ـ الذي كان يتقن الفرنسية ـ ما نقلته صحف لندن في اليوم التالي للحادث من أقوال «مدام فهمي» وأكد أن المتهمة لم تقل، كما نشرت الصحف، عبارة «لقد قال لي أكثر من مرة: اقتليني» ولكنها قالت «لقد قال لي مرات كثيرة إنه سوف يقتلني».



وبدأ اليوم الثالث من أيام المحاكمة ـ وهو يوم الأربعاء ١٢ سبتمبر ١٩٢٣ ـ بالاستماع إلى مرافعة السير «مارشال هول» التمهيدية، وقد استهلها بتحديد الإطار الحضاري والسيكولوجي الذي دارت داخله العلاقة بين الزوجين، فأشار إلى مركب العظمة الذي يصاب به الرجل الشرقي، حين يمتلك امرأة غربية تنتمي إلى الحضارة التي يشعر تجاهها بالنقص والضعة، فلا يجد حلا لهذا التناقض بين مركب العظمة ومركب النقص، إلا بأن يعامل زوجته بقسوة لكي يشبع شعوره بالكبرياء المرضي، ويتخفف من إحساسه بالنقص تجاهها.

وأضاف أن هذا التناقض هو الذي دفع «علي فهمي» لمعاملة زوجته بوحشية مخططة ومنظمة أدت إلى تحطيم أعصابها.

ثم قرأ الخطاب الخالي من التوقيع الذي حذر فيه كاتبه «مرجريت» من العودة إلى مصر، حتى لا تموت في حادث غامض على الطريقة الشرقية، فاستدعى إلى أذهان المحلفين ما كانوا قد قرءوه من قصص وروايات عن جو الشرق المليء بالدسائس والمؤامرات قبل أن يضرب أمثلة سريعة على تلك الوحشية المنظمة التي أراد بها «علي فهمي» أن يحول زوجته إلى جارية من جواري الشرق: الحراس السود الذين كانوا يحيطون بها في كل مكان تذهب إليه، لكي يرصدوا حركتها.. «الباش أغا» و«كوستا» و«يوسف» و«العناني»..الضرب بالسياط والركلات واللكمات.. ألفاظ السباب والإهانات المتعمدة في المطاعم والمسارح والفنادق..الاعتقال في القصور واليخوت.

ثم انتقل من ذلك إلى الحديث عما جرى في ليلة مصرع «علي فهمي» باعتباره لحظة الذروة التي انتهت إليها المأساة:

زوجة غربية محطمة نفسيا، ومريضة جسديا، تعاني من آلام لا تطاق، وتحتاج إلى نقود لكي تسافر إلى باريس، فتجري جراحة تخلصها من آلامها، وزوج شرقي مستبد ومريض نفسيا، يلوح أمامها برزم من أوراق النقد الفرنسية، التي هي في أشد الحاجة إليها، ويساومها على أن يعطيها لها إذا ما صالحته بتلك الطريقة التي كانت تسبب لها آلاما جسمانية لا تطاق، فإذا رفضت هددها بالقتل، بل وهجم عليها فعلا،وقبض على رقبتها في إحدى مراحل الشجار فأصيبت ـ وهي المرأة الوحيدة المريضة الضعيفة المحطمة نفسيا ـ بحالة من الذعر، وما كاد يعاود هجومه عليها حتى شهرت في وجهه مسدسها، بعدأن تلبسها وهم ـ لا تستطيع الفكاك منه ـ بأنه ينوي هذه المرة أن ينفذ وعيده بخنقها، فإذا بالطلقات تندفع من فوهة المسدس دون أن تدري كيف حدث ذلك.

وأضاف السير «مارشال هول»:

ـ إن القانون الإنجليزي لا يلزم المتهم الأجنبي بأداء الشهادة، لكننا نتنازل عن هذا الحق الذي يكفله لنا، ونلتمس من المحكمة أن تستدعي «مدام فهمي» لتشرح الوقائع بنفسها، فليس لدينا ما نخفيه أو نخافه، ونحن أصحاب مصلحة في التوصل إلى الحقيقة، ولكن لدينا ما نود أن نعرضه على المحكمة دون حضور المحلفين.

وما إن غادر المحلفون القاعة حتى قال «مارشال هول» مخاطبا القاضي السير «ريجبي سويفت»:

ـ أخشى أن يستغل صديقي السير «برسيفال كلارك» ـ ممثل الادعاء مثول المتهمة للشهادة، ليوجه إليها أسئلة تتناول علاقتها برجال آخرين قبل زواجها من «علي فهمي» للتشهير بسلوكها الشخصي ودفع المحلفين لاتخاذ موقف أخلاقي مضاد لها، باعتبارها امرأة عابثة. وقد ذكرت في مرافعتي الافتتاحية أنها لم تكن نموذجا للأخلاق الفاضلة وأرى أن هذا يكفي لكي يغلق الادعاء هذا الملف.

وفي رده على ملاحظة «مارشال هول» قال المدعي العام السير «برسيفال كلارك»:

ـ إن من حق الادعاء أن يدلل على أن المتهمة لم تكن هذه الطفلة الصغيرة البريئة التي غرر بها المجني عليه.. بل كانت على العكس من ذلك. امرأة ذات تجارب واسعة، وعلاقات متعددة بالرجال.. وهو ما اعترف به الدفاع، فليس منطقيا أن يصادر على حق الادعاء في تناول هذا الجانب.

وحسم القاضي المناظرة بين الطرفين قائلا:

ـ إن المحلفين لا يجب أن يسمعوا شيئا لا صلة له بالجريمة.. ومن ذلك ماضي المتهمة، وعلى الادعاء أن يركز أسئلته على علاقتها بزوجها.

وأضاف:

ـ إن على الدفاع ـ كذلك ـ ألا يتوسع في التفاصيل حول ما أومأ إليه في استجوابه للشهود من وجود علاقة شاذة بين «علي فهمي» وسكرتيره «سعيد العناني».

وعاد المحلفون إلى الجلسة وخاطبهم القاضي قائلا: إنه لا يرى ضرورة لإطلاعهم على ما جرى، وأصدر أمرا بحرمانهم من قراءة الصحف إلى أن تنتهي المحاكمة حتى لا يتأثروا بشيء يتعلق بالقضية غير ما يدور في الجلسات.

وعندما نودي على المتهمة لكي تدلي بشهادتها، تحركت من قفص الاتهام بقامتها الدقيقة، ووجهها الجميل الذي كانت تظلله مسحة من الحزن، وتقدمت نحو منصة

الشهادة، وهي تستند على ذراع حارستها وتسير بخطوات بطيئة، وأثار منظرها تعاطف الجمهور الكبير، الذي كان قد احتشد في قاعة المحكمة، ليشاهد المرأة الأوروبية التعيسة التي تعرضت لمحنة قاسية في بلاد الشرقيين البرابرة.. وسألها السير «ريجبي سويفت»:

ـ هل تعتقدين بالقسم على الإنجيل؟

فقالت: نعم

وبعد أن تلت القسم قال لها في لهجة ودودة:

ـ تستطيعين الجلوس إذا كنت متعبة.

فجلست.

وعلى امتداد الساعات السبع التالية استمع القاضي والمحلفون والصحفيون إلى «مدام فهمي» وهي تروي ـ من خلال مترجم ـ مراحل حياتها الشقية مع زوجها، وكانت تجيب عن أسئلة السير «مارشال هول» بصوت خافت، ولكنه واضح النبرات ودون انفعال. لكنها لم تستطع أن تتمالك نفسها حين تطرقت الأسئلة إلى صور العذاب الذي عانت منه، فارتجف صوتها وحين تطرقت الإجابات إلى الجوانب السرية من حياتها الزوجية أطرقت بوجهها إلى الأرض، وأجابت بصوت مرتعش، وبدا وكأنها تبذل مجهودا عنيفا لكي تمنع نفسها من البكاء، ثم أخفت وجهها خجلا وألما، مما اضطرت إلى إذاعته من تفاصيل يحرص كل إنسان على إخفائها.

فناولتها الحارسة زجاجة كونياك، أخذت منها جرعة لتستعيد نشاطها وحيويتها وأبدى القاضي استعداده لرفع الجلسة للاستراحة، إذا كانت لا تستطيع أن تواصل شهادتها، ولكنها فضلت أن تستكمل أقوالها.

وكان «مارشال هول» حريصا على أن يوجه إليها أسئلة محددة كان يعرف سلفا أن إجاباتها عنها ستكون بمثابة رد على ما ينوي ممثل الاتهام إثارته في مرافعته ضدها، وكان من بين ما قالته ردًا عن أسئلته أنها ترددت في قبول طلبه بالزواج منها، وكادت تعود إلى بلادها قبل إتمام الزواج، لأنها بدأت تشعر بأنه لم يكن يحمل لها إخلاصا حقيقيا. لكنه نجح في التغلب على ترددها بما كان يبديه نحوها من عواطف مشبوبة.. وروت تفاصيل المفاوضات التي دارت بينهما حول النص ـ في عقدي الزواج المدني والشرعي ـ على حقها في تطليق نفسها، ووقائع ما دار على ظهر اليخت وهما في طريقهما إلى الأقصر.. وقسمه على القرآن بأن يقتلها بيده ذات يوم، وسألها السير «مارشال هول»:

ـ هل كتبت وصية أودعتها لدى البروفسير «أسود» وطلبت أن تفتح عند وفاتك.

فأجابت بالإيجاب وأضافت:

ـ لم أكن أستطيع أن أفعل غير ذلك.

ومع أن إجابتها استثارت فضول الجميع إلا أن المحامي الماكر لم يواصل التساؤل عن تفاصيل الوصية إذ كان يحتفظ بها لمكانها المحدد في السياق الدرامي.

وانتقل «مارشال هول» ـ بعد ذلك ـ إلى سؤالها عن مدى معرفتها بطريقة استخدام المسدسات الأوتوماتيكية، وعن ظروف حيازتها للمسدس الذي ارتكبت به الجريمة. فقالت إنها لم تطلق رصاصة واحدة في حياتها قبل تلك الليلة المشئومة، وأن زوجها هو الذي أهدى لها المسدس عندما وصلا إلى باريس، لكي تستعين به في حماية مجوهراتها، وقال لها: إنه محشو ومعد للإطلاق، وكانت تراه أحيانًا وهو يفرغ رصاصات مسدسه الخاص بيده، وأضافت أن الرعب استولى عليها بعد أن حاول زوجها خنقها. فالتقطت المسدس وحاولت سحب غطائه إلى الخلف وفي ظنها أن تلك هي الوسيلة التي تمكنها من إفراغ الخزان، لكن قوتها لم تكن كافية لجذبه إلى النهاية، فاتجهت إلى النافذة وحاولت تقليد ما كانت ترى زوجها يفعله لتفريغ المسدس من رصاصاته، وأخذت تهزه مقلوبا، فانطلقت رصاصة في الفضاء إذ كان زوجها قد سلمها المسدس وهو معد للإطلاق.. أي أنه كان قد سحب غطاءه إلى الخلف وأنها ظنت ـ بعد ذلك ـ أن باستطاعتها أن تستخدم المسدس لتهويش زوجها دون أن يكون في ذلك خطر.

وناولها «السير مارشال هول» مسدسا من الطراز نفسه، وطلب إليها أن تحاول جذب غطائه، فتناولته منه بأصابع مرتعشة وحاولت جذب الغطاء بقوة بدت آثارها واضحة على ملامحها لكنها عجزت عن ذلك.

وتهدج صوتها حين بدأت تروي وقائع الدقائق الأخيرة في حياة «علي فهمي»، ثم خنقها البكاء وغلبها على أمرها، فأخذت تتحدث بعبارات متقطعة يفصل بينها نشيج مؤلم، إلى أن وصلت إلى المشهد الختامي حين تحفز ليثب عليها وهو يقول: سأقتلك «فرفعت ذراعي.. وغطيت به وجهي ودون أن أنظر إليه ضغطت على الزناد.. ولست أدري هل رفعت إصبعي عنه أم واصلت الضغط أم كررته.. كل الذي أدريه أنني ما كدت أسمع صوت سقوط جسمه على الأرض، حتى رفعت ذراعي عن وجهي، فوجدته أمامي ممددا على بلاط الممر، والدماء تنزف منه بغزارة، فجثوت إلى جواره وأمسكت بيده، وقلت له: قل لي إنك تمزح معي.. كلمني.. أوه.. كم كان ذلك شيئا فظيعا».

وارتفع صوت نشيجها في سكون القاعة التي صمت كل شيء فيها على حاله، وتعلقت عيون الجميع بكيانها الدقيق الذي كان يهتز بالبكاء، وكف السير «مارشال هول» ـ متعمدا ـ عن مواصلة أسئلته.. وظل يستمع مع الآخرين إلى صوت نشيجها


ماجي ميلر.. قبل العاصفة

وهو يقف إلى جوارها بقامته الطويلة الشامخة، وقد أطرق حزينا إلى الأرض.. وحين رفع رأسه أخيرا ليطلب من السير «ريجبي سويفت» بصوت خافت أن يرفع الجلسة حتى تتمالك موكلته نفسها، كان يدرك أن تلك ـ على وجه التحديد ـ هي لحظة الذروة الدرامية التي ينبغي أن يسدل على إثرها ستار الفصل الأول من المأساة.

ومع أن القاضي قد استجاب لطلبه، إلا أن أحدا ممن كانوا يتابعون المحاكمة لم يتحرك من مكانه، وظلت عيونهم الواجمة مشدودة إلى المرأة التعيسة التي غادرت منصة الشهادة، وسارت بخطوات بطيئة وهي تستند إلى ذراع حارستها، فبدت تمثالا لخيبة الأمل وسوء الحظ.



وعندما عادت الجلسة للانعقاد ـ بعد استراحة الغداء ـ بدت «مدام فهمي» أحسن حالا.. لكن النظرة الحزينة الشاردة لم تغادر عينيها وهي تقاد للمرة الثانية نحو منصة الشهادة لتكمل أقوالها. ولأن «مارشال هول» كان يعول كثيرا على تأثيرها الشخصي على المحلفين، فقد حرص على أن يكون آخر من يستجوبها، فأعلن ـ في بداية الجزء الثاني من الجلسة ـ أنه يكتفي مؤقتا بما وجهه إليها من أسئلة، ويترك مكانه لممثلي الاتهام والادعاء بالحق المدني لكي يوجهوا إليها ما يشاءون من أسئلة على أن يحتفظ بحقه في إعادة مناقشتها إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وكانت تلك واحدة من مناورات المحامي البارع الحريص على الاحتفاظ للحدث بتأثيره الدرامى النهائي.

وسرعان ما ثبت أنه كان على صواب في تقديره، إذ لم يكن منطقيا أن يترك ممثلا الاتهام والادعاء بالحق المدني دموع التماسيح التي ذرفتها «مدام فهمي» أثناء إدلائها بأقوالها تغير معالم الحقيقة وتحول القتيل إلى قاتل والمتهم إلى مجن عليه، ولأن السير «برسيفال كلارك» ـ ممثل الاتهام ـ لم يكن يملك موهبة «مارشال هول» في

الإخراج المسرحي مع أنه كان قد تدرب في مكتب المحامي الشهير في بداية حياته، فقد أخطأته براعة الاستهلال،وسأل المتهمة سؤالًا مباشرا حول علاقاتها برجال آخرين قبل زواجها من القتيل.

وأدرك «مارشال هول» على الفور أن السؤال هو الأول من سلسلة أسئلة سوف تقود موكلته إلى حقل ألغام تخلق لدى المحلفين الانطباع بأنها امرأة مغامرة مزواجة، تقلبت بين أحضان رجال عديدين قبل زواجها من «علي فهمي» ليبدو وكأن قتلها لزوجها هو النتيجة الطبيعية لحياة لاهية، فرفع صوته معترضا على السؤال وشرح مبررات اعتراضه قائلا:

ـ إننا نحاكم المتهمة حول واقعة محددة جرت في زمن محدد فلا يجوز لأحد أن يستدرجها إلى أمور لا علاقة لها بهذا أو بذلك؛ إذ النتيجة الوحيدة للإجابة عن تلك الأسئلة هي أن يسيء المحلفون الظن بالمتهمة ويحكموا عليها بأمور تخرج عن نطاق ما هي متهمة به، ونحن على أي الأحوال لم نقل إن «مدام فهمي» قديسة.. لكن ذلك لا يدعو للتحريض على التحامل عليها.

وأشار إلى المحامين الموكلين عن المدعين بالحق المدني من أسرة «علي كامل فهمي»، وقال:

ـ إن في هذه القاعة من لهم مصلحة في إثارة البغضاء ضد المتهمة لتعاقب على ما لم ترتكبه؛ لأن تهمتها عندهم هي أنها وجدت أساسا على ظهر الأرض.

وبعد مناقشة قانونية حول حدود الشهادة حسم القاضي الخلاف قائلا:

ـ لقد أقر الدفاع بأن المتهمة لم تكن قبل زواجها من المجني عليه قديسة، وهذا يكفي للإجابة عن كل الأسئلة التي كان الاتهام ينوي توجيهها إليها في هذا الشأن، ولا يجوز له أن يتطرق بأسئلته إلى مزيد من التفاصيل.

واستأنف «السير كلارك» توجيه أسئلته للمتهمة محاولًا أن ينتزع منها إجابات تعيد توزيع مناطق الظل والضوء في صورة زواجها من «علي فهمي»، بعد أن تداخلت هذه المناطق في القسم الأول من الجلسة، فحاصرها بأسئلة أراد منها أن يدفعها للاعتراف بأن الدافع الرئيسي لزواجها من المجني عليه، هو طمعها في أمواله، فقد سألها عن كيفية سفرها إلى مصر لأول مرة وعمن كانت تنزل في ضيافته؟ ومتى وكيف تعرفت إلى المجني عليه قبل زواجهما؟ وهل قدم إليها ـ آنذاك ـ هدايا وما قيمتها؟ وهل كان يسمح لها قبل الزواج وبعده بابتياع ملابس على حسابه؟ وهل كانت متزوجة بآخر قبل الزواج منه؟ وهل كان زوجها السابق غنيا؟ وكم شهرا استمر زواجهما ؟ وهل كان الطمع أم الحب هو دافعها الرئيسي للزواج من «علي فهمي»؟ وإذا كان هذا الدافع هو الحب.. فلماذا وضعت شروطا

مالية في عقد زواجهما المدني ؟ ولماذا قبلت أن تنتحل لنفسها لقب «أميرة» مع أنها عرفت أن «فهمي بك» ليس أميرا؟

وبدت آثار تلقين «مارشال هول» واضحة في إجابات «مدام فهمي» على ذلك الفيض من الأسئلة، التي تشكك في دوافعها للاقتران بالمجني عليه، إذا كانت تجيب بصدق ـ ولكن بإيجاز شديد ـ إذا كان ذلك ضروريا لكي لا تتناقض أقوالها مع ما سبق لها أن قالته في أدوار التحقيق المختلفة، فإذا كان السؤال محرجا، أجابت عنه بصدق، ثم أضافت إلى إجابتها وقائع لا صلة لها به، تزيد من تحسين مركزها القانوني وتغطي على ما في الإجابة من إساءة إلى هذا المركز، فإذا لم تجد مفرا من الكذب كذبت.

فقد اعترفت بأنها كانت تزور مصر بدعوة من المسيو «موصيري» وتنزل في ضيافته حين سعى «علي فهمي» إلى التعرف عليها، ولكنها لم تتحمس لذلك. وهربت من الإجابة عن السؤال الخاص بالشروط المالية التي طلبت وضعها في عقد الزواج المدني، بالإفاضة في الحديث عن إصرارها على الاحتفاظ بحقها في تطليق نفسها، مما يوحي بأنها لم تكن حريصة على بقائها زوجة له، ولم تتورع عن الكذب حين نفت تماما أن تكون قد تلقت منه هدايا قبل الزواج أو بعده، أو أن يكون قد منحها حق شراء ما تريد من ملابس فاخرة على حسابه من المحلات الأوروبية التي كان يتعامل معها.

وفضلا عن ذلك فإن «مارشال هول» لم يتركها فريسة بين يدي المستجوبين، إذ كان دافعه الأساسي للاعتراض على قيام ممثل الاتهام بفتح ملف ماضيها، إدراكه بأن فتح هذا الملف كان كفيلا بأن ترتبك وتتشوش، فتدعم بذلك موقف خصومها في الدعوى.. ومع أنه كان قد نجح في استصدار قرار من المحكمة يقضي باستبعاد الأسئلة التي تتناول هذا الماضي، إلا أن «السير كلارك» كان يتحايل لإلقاء بعضها ولم يترك «مارشال هول» سؤالًا من هذا النوع يمر دون اعتراض حتى اضطر السير «ريجبي سويفت» إلى تنبيهه بلطف ـ إذ كان قد بدأ حياته هو الآخر محاميا في مكتب «هول» ـ إلى أن يتسع صدره لأسئلة الاتهام، كما اتسع صدر الاتهام لأسئلته.

ولم يكن ذلك هو الشكل الوحيد من أشكال الدعم التي قدمها المحامي الكبير لموكلته في موقفها الصعب، إذ كان قد احتفظ لهذا الجزء من وقائع المحاكمة بعدد من الوثائق والحقائق التي لم يسبق له أن أذاعها، فظل يتابع باهتمام كل ما يدور بين موكلته وخصومها، ليتحين الفرصة الملائمة، حين تكون أسئلة «السير كلارك» المتابعة قد أوشكت على تغيير مناطق الظل والضوء في صورة زواج المتهمة والمجني عليه، فيلتقط الخيط من أسئلة الاتهام ليتقدم إلى المسرح بقامته المهيبة، وصوته المؤثر فيلقي سؤالا أو يقرأ وثيقة، ينقلب الموقف بعدها رأسا على عقب، وتستعيد «مدام فهمي» قدرتها على التركيز.

وهكذا ما كاد «السير كلارك» يسألها عما إذا كان زوجها قد سمح لها ـ قبل الزواج ـ باتخاذ محام مصري يرعى شئونها، وهو «البروفسور أسود» فتجيب بالإيجاب، مما يوحي بأن كل ما قالته عن تخطيطه لإهدار حقوقها وإنسانيتها ليس صحيحا أو على الأقل يتضمن مبالغة، حتى وقف «مارشال هول» وقدم لها ورقة في يده طلب إليها الاطلاع عليها وسألها عما إذا كانت هي التي كتبتها وظروف كتابتها لها، فقالت إنها رسالة كانت قد أرسلتها إلى محاميها الأستاذ «أسود» تشكو له فيها من طريقة معاملة زوجها لها في شهر العسل، وتقول فيها إنه حبسها في قمرتها باليخت لمدة ثلاثة أيام، ظلت خلالها في حراسة ثلاثة من عبيده السود، وأنه يسيء معاملتها.

وبعد أن تلا «السير هول» الرسالة، سلمها إلى القاضي ومعها خطاب موثق من «البروفسور أسود» يقر فيه بأن هذه الرسالة وصلت إليه في التاريخ الذي كتبت فيه، وأنها كانت محفوظة لديه حتى فوضته موكلته بتسليمها إلى محاميها.

ومع أن الرسالة قد أحدثت الأثر الذي كان السير «مارشال هول» يتمناه، إلا أن القاضي تنبه إلى نقطة مهمة في إجابة «مدام فهمي» التي تطرقت إلى أشكال أخرى من العدوان عليها، تعرضت لها خلال زيارتها الأولى للأقصر، ومن ذلك قسمه على القرآن بأن يقتلها، فسألها:

ـ إذا كان ذلك قد حدث.. فلماذا لم تنفصلي عنه عندما وصلتما إلى الأقصر؟ ولماذا عدت معه إلى زيارة المدينة للمرة الثانية؟!

فقالت:

ـ لأنه استسمحني وأقسم أنه يحبني ولن يسيء إليّ في المستقبل.. وكنت كلما فكرت في تركه، يبكي كالأطفال ويتضرع إليّ بأن أبقى معه ويقول إنه لن يعود إلى مثلها.

وكان ممثل الاتهام هو الذي التقط طرف الخيط هذه المرة من القاضي، فتتالت أسئلته على نفس النسق، تثير دهشة المحلفين وتشككهم في صدق كل ما ترويه المتهمة عما تسميه العذاب الذي لقيته على يد زوجها.

ـ لماذا لم تتخذي إجراءات الطلاق بعد عودتك من شهر العسل؟

ـ وما الذي اضطرك إلى البقاء معه يوم ضربك على فكك حتى كاد يهشمه حين عدت مع «مختار بك»؟

ـ ولماذا لم تغادري باريس حين كان هو في ألمانيا؟

ـ ولماذا قبلت الحضور معه إلى لندن، إذا كان قد واصل معاملتك بنفس الطريقة؟

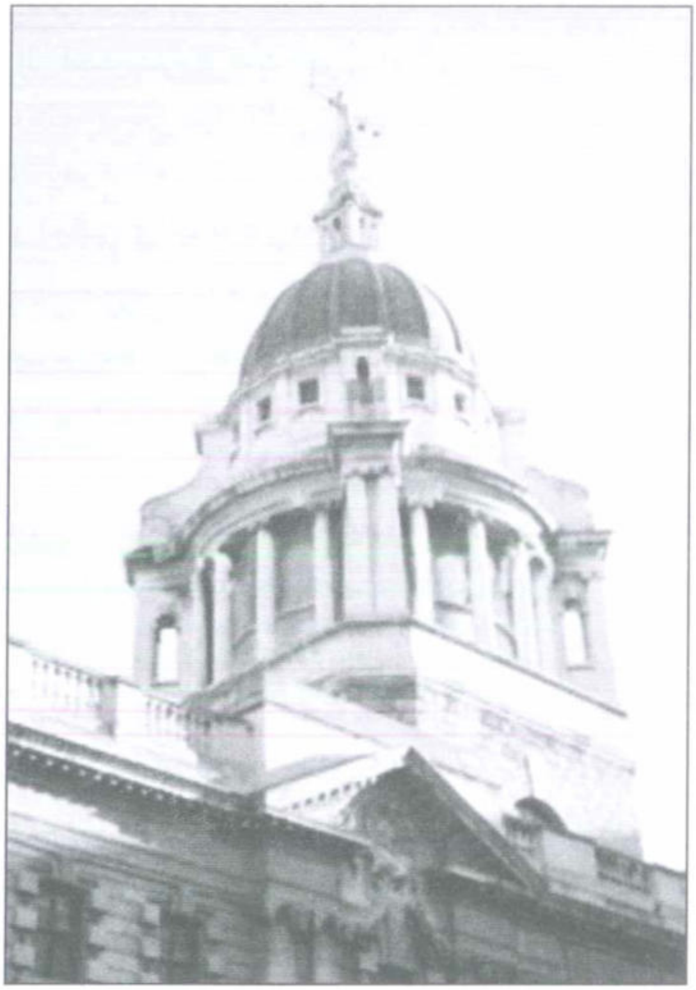
ولم تكن «مدام فهمي» في حاجة إلى من يلقنها الإجابة، التي تبدو فيها امرأة غلبتها عواطفها، فدفعتها إلى الصبر على كل ذلك الهوان، أملا في أن تستقيم الأمور بعد فترة، فأخذت تكرر ما قالته ردا على سؤال «السير ريجبي سويفت» بصيغ مختلفة فتقول: كنت أحبه! أو «كان يبدو في أحيان كثيرة لطيفا معي إلى درجة تعيد إليّ ثقتي فيه.. ولكنه كان ينقلب إلى العكس في اليوم التالي».

وعندما تتالت الأسئلة التي تتقصى نمط الحياة اللاهية التي كانا يعيشانها خلال الشهرين السابقين في باريس، ينتقلان بين المراقص والملاهي والمطاعم، لم تنكر أنهما كانا يعيشان هذا النمط من الحياة ولكنها حرصت على ألا تترك لممثل الاتهام فرصة لاستخدام إقرارها بذلك، للتدليل على أنهما كانا يعيشان في سعادة، فأفاضت في الإجابة، حتى اقتنع الجميع بأن «علي فهمي» كان حريصا على ألا تنتهي سهرة من تلك السهرات إلا ودموعها تسيل على خدها.

وانتقل ممثل الاتهام إلى سلسلة من الأسئلة تتعلق بوقائع ما حدث ليلة الجريمة، خاصة اللحظات الأخيرة منها، وكان هدفه أن يكذِّب ادعاءها بأنها أطلقت الرصاصات عليه دون أن تقصد أو تشعر، فعرض عليها الثوب الذي كانت ترتديه ليلتها وسألها أن تشير إلى أماكن التمزقات التي تدعي أنها وقعت أثناء هجومه عليها، فقالت إنه لم يتمزق ولكن بعض ما به من خرز قد سقط أثناء محاولته جذبها منه، في مرحلة من المطاردة، وسألها عما إذا كانت تعلم أن زوجها لم يكن يحمل مسدسا عندما صوبت نحوه مسدسها فأقرت بذلك، واعترفت بأنها رفضت أن تفتح له الباب عندما طرقه عليها، ونفت بقوة أن تكون قد أطلقت الرصاصة الأولى من النافذة لكي تجعل المسدس معدا للإطلاق، وقالت إنها لم تكن تستطيع أن تستنجد بأحد عندما هجم عليها؛ لأنها لا تعرف الإنجليزية، وأنه لم يكن في استطاعتها أن تبقي خادمتها معها في تلك الليلة.

وكان لابد وأن يبدد السير «مارشال هول» كل سحابات الدخان التي أثارها استجواب «السير كلارك» للمتهمة، فانتهز هذه الفرصة لكي يقدم مشهد الذروة في الفصل الثاني من شهادة «مدام فهمي»، فتقدم ليعتذر أولا للسيدات اللواتي يشهدن الجلسة، لأن بحثه عن الحقيقة ربما يسمعهن بعض ما يكرهن ويؤذي سمعهن ومشاعرهن، ثم يعتذر للمتهمة ذاتها لأنه سوف يضيف إلى آلامها الكثيرة آلاما ربما كانت أفظع مما واجهها من قبل، وقد يبدو في صورة أخرى من الجلاد الذي سامها سوء العذاب، ولكن عذره هو أنه يبحث عن العدل، ويسعى لإنقاذ روحها المعذبة من الموت قبل الأوان.

وفي أعقاب ذلك طلب «مارشال هول» من «مدام فهمي» أن تشرح للمحكمة



بالتفصيل الجانب السرى من علاقاتها الخاصة بزوجها، مما أدى بها إلى تلك الحالة الجنونية التي تلبستها ليلتها، فأخذت تروي بصوت خجول وهو يستحثها ويطلب مزيدا من التفاصيل بينما تواصل هي الحديث، حتى تدفقت الدموع من أعين المحلفات الثلاث وأطرق الرجال خجلا مما كانوا يسمعون.

وفى تلك اللحظة تحديدا قرأ السير «مارشال هول» الوصية التي كانت «مدام فهمي» قد كتبتها وأودعتها لدى محاميها القاهري «البروفسور أسود»، والتي تتهم فيها «علي فهمي» بأنه المسئول عن قتلها إذا ماتت في ظروف غامضة، وتروي قصة قسمه على القرآن بأن يقتلها ذات يوم.. ثم قدمها إلى القاضي ومعها محضر بأنها قد فتحت في القاهرة أمام لجنة من المحامين بناء على طلب صاحبتها.

وعاد «مارشال هول» ليؤكد ـ في ختام أسئلته لها ـ عما كان يريد تأكيده للجميع فسألها:

ـ هل تقسمين على أنك حين صوبت المسدس تجاه زوجك لم تكوني تعرفين أنه قابل للإطلاق؟

فقالت: أقسم على أن ذلك ما حدث.

وبذلك انتهت أقوال «مدام فهمي» وغادرت منصة الشهادة بقامتها الدقيقة، ووجهها الحزين وسط صمت تام من الجميع وقد بدت لهم تمثالا حيا لخيبة الأمل والتعاسة التي لا حدود لها.



في اليوم الرابع من أيام المحاكمة ـ الجمعة ١٤ سبتمبر ١٩٢٣ ـ احتشد مئات من المواطنين الإنجليز، حول مبنى محكمة «أولدبايلي» لكي يستمعوا إلى مرافعة السير «إدوارد مارشال هول» عن مدام فهمي، ولأن بعض صعاليك «لندن» كانوا يتسللون ـ خلال الأيام الثلاثة السابقة ـ إلى قاعة المحكمة في الصباح المبكر ليحجزوا لأنفسهم أماكن يبيعونها بعد ذلك للراغبين في متابعة المحاكمة مقابل خمسة جنيهات إسترلينية للمقعد الواحد، فقد أحاطت شرطة لندن مبنى المحكمة بعشرات من رجالها، اتخذوا أماكنهم حولها منذ الفجر، لكي يحولوا دون تحويل المحكمة إلى مسرح، ويمنعوا احتشاد المواطنين داخل أبهائها وحول أسوارها الخارجية، لكن جهودهم لم تثمر كثيرا فقد اكتظت المحكمة بمئات ممن أثارتهم وقائع القضية، ولم يكتفوا بقراءة ما كانت تنشره الصحف عن وقائعها، بل لعل هذا النشر المستفيض كان من بين دوافعهم لشهود المحاكمة، لكي يلقوا نظرة على الفاتنة الفرنسية الجميلة،التي حاولت أن تهرب من الجحيم الشرقي، فإذا بالموت على الكرسي الكهربائي يتهددها.

وكان من بين الذين حرصوا على متابعة المحاكمة عدد كبير من الشخصيات العامة الإنجليزية وبعض أصدقاء «مدام فهمي» من الشخصيات الفرنسية المرموقة، وعدد من المصريين الذين تصادف وجودهم في العاصمة البريطانية في ذلك الوقت، فضلا عن عدد من كبار المحامين الإنجليز، ممن تعودوا أن يتابعوا مرافعات «مارشال هول» لما يجدونه فيها من متعة قانونية وما يكتسبونه منها من خبرات مهنية نادرة.

وكان المسرح قد تهيأ تماما فأضاءت أشعة شمس الله الساطعة أنحاء المحكمة عبر نوافذها الزجاجية فأشاعت دفئا في جو الخريف البارد،وانعكست أشعتها على وجه «مدام فهمي» لتلتقى مع عيون الجميع التي كانت تنظر بإشفاق إلى الجمال الحزين، الذي يتهدده حكم بالإعدام، لم يكن أحد يشك في أنه المصير الذي ينتظرها، إذ لم يكن القضاء الإنجليزي ـ كمثيله الفرنسي ـ يضع اعتبارا للدوافع العاطفية في قضايا القتل.

وما كاد السير «إدوارد مارشال هول» يتقدم نحو المنصة، ليلقي مرافعته حتى تحولت نحوه عيون الجميع بما في ذلك عيون «مدام فهمي» الممتلئة حزنا، وظلت تتعلق به على امتداد الساعات التالية، وهو يؤدي أعظم أدواره على «مسرح العدالة» بالاقتدار الذي يليق بممثل موهوب، يعرف كيف يستلب وجدان الذين يستمعون إليه فيخاطبهم بكل شيء فيه: بعقله وبقلبه وبصوته الجهوري العريض، ذي الجرس الموسيقي المؤثر، الذي كان يتقن التحكم في طبقاته، يعلو بها حتى يرن صداها في فضاء القاعة التي سادها صمت لا يسمع فيه أحد صوت أنفاسه، وينخفض بها حتى

تكاد تتحول إلى همس، وبملامح وجهه التي كانت تنقبض وتنبسط وتبتسم وتحزن، وبإشارات يديه التي تؤكد وتشكك وتستهين وتزدري وتسخر وتنذر وتتوعد، وحركته المحسوبة التي بدت وكأنها ميزانسين مسرحي رسمه مخرج مقتدر حدد له كيف يحقق التناغم بين حركة أقدامه.. ومضمون دفاعه، متى يتقدم ومتى يتراجع ومتى ينحني ومتى يقترب من المحلفين، ليخاطبهم بفقرة بعينها، وفي أي لحظة يقف أمام المحلفات عند التحدث بفقرة أخرى، ويتجه بالحديث إلى القاضي في موطن ثالث من مرافعته، ومتى يقترب من قفص الاتهام لكي تظهر «مدام فهمي» معه في الكادر في اللحظة التي يرى أن ظهورها معه فيها سوف يحدث درجة التأثير المحسوبة سلفا.

وكان ذلك ما فعله، عندما استهل مرافعته بالوقوف إلى جوار موكلته ليقول:

ـ سيدى القاضي.. حضرات المحلفين.

إذا كانت هذه المرأة الواقفة أمامكم يتهددها الموت قد ارتكبت خطأ واحدا جسيما، فهو أنها تزوجت من رجل شرقي، صحيح أن المدنية المصرية القديمة واحدة من أقدم حضارات العالم وأعرقها وأعظمها، لكن ذلك تاريخ مضى وانقضى، فالمصريون المعاصرون ككل الشرقيين قوم لم يعد لهم من ذلك الماضي إلا آثاره التي يتباهون بها، فيوهمون أنفسهم بأنهم متحضرون كما كان أجدادهم القدماء، بل ويدعون أنهم كذلك بالمعنى الذي نفهمه نحن الغربيين الآن من هذا المصطلح، فإذا جردتهم من هذا الطلاء الحضاري الخارجي، وجدت تحته الجوهر الشرقى الأصيل، جوهر الإنسان البدائي الذي لم يتعلم، ولم يتثقف ولم يتهذب، ولم يترب تربية عصرية والذي لا توجد أية صلة بين واقعه اليوم وبين حضارته القديمة، ولا بينه وبين حضارتنا الغربية، فهو مجرد وحش شرقي يطلي وجهه بمساحيق حضارية.

قد تبدو «مدام فهمي» أمام بعضكم امرأة خالية من كل الصفات التي تدعو للتعاطف معها، فهي لم تعش حياة متزمتة من الناحية الأخلاقية، ومن المحتمل أن تكون قد هبت على حياتها عواصف كثيرة، تعثرت معها خطواتها، ولكن ذلك ليس مبررا لكي نتحامل عليها أو أن نتجاهل حقيقة أنها فرنسية تنتمي للحضارة المعاصرة التي بنتها شعارات الحرية والإخاء والمساواة،وإن كان من واجبنا أن نؤاخذها على أنها لم تتنبه لذلك الفخ الحضاري الذي انقادت إليه حين خدعت بتلك الأصباغ الحضارية التي طلى بها «فهمي بك»وجهه حين التقت به في «باريس» في مايو من العام الماضي، فبدا أمامها نموذجا للجنتلمان الأوروبي، الذي نعرفه جميعا في أنفسنا.

وربما كان «فهمي بك» قد أتقن تنكره الحضاري، ولعلها خدعت في رقته، كما يحدث كثيرا للنساء اللواتي تثقن ثقة مفرطة في تأثيرهن على الرجال، وقد يكون حنينها إلى الاستقرار بعد حياة عانت خلالها من سوء الحظ مع الرجال هو الذي أفقدها

حذرها، أما المؤكد فهو أن «فهمي بك» بدا أمامها صورة من الرجل الغربي المهذب، حسن التربية فعاملها بمنتهى اللطف وكان سلوكه حيالها ـ من الناحية الحضارية ـ نموذجيا حتى بالقياس لكثير من الرجال الأوروبيين، ولعلها لم تتصور أن هذا الشاب صغير السن يمكن أن يكون على هذه الدرجة البشعة من المكر والدهاء المعروفين عن الشرقيين، ولم تتنبه إلا متأخرا، أنها كانت موضوعا لخطة شرقية شريرة، أراد بها الوحش البدائي أن يستدرجها إلى جنته الشرقية.

وهكذا ما كاد «فهمي بك» يعود إلى بلاده حتى بدأت تلك السلسلة من الحيل الشرقية الخبيثة، التي تكشف عما في نفوس الشرقيين من خبث وشر يخفونه وراء مظهرهم البريء، وقد اعترف «العناني» أمامكم بأن سيده كان يملي عليه الرسائل التي كان يدعي فيها المرض، وأنه هو الذي دفعه للإبراق إليها بخطورة حالته، ولم يكن هذا المرض سوى أكذوبة شرقية افتعلها الاثنان.

ومن سوءالحظ أن «مدام فهمي» قد صدقت تلك الأكذوبة، وسافرت إلى مصر لتعيش في أكذوبة أكبر منها لعدة أسابيع: رجل شرقي همجي الطباع يرتدي قفاز التحضر ليخفي مخالبه فيدعي الرقة والدماثة أخذ يستعرض أمامها مظاهر تحضره الكاذبة، قصره البديع الذي بناه على طراز عصر النهضة، الخدم والحشم، والسيارات واليخت والزورق البخاري وجميع وسائل الرفاهية، والأهم من ذلك أنه كان يظهر لها جميع دلائل الحب والهيام، ونحن نعرف كم تنجذب بعض النساء أحيانا إلى من يصغروهن سنا من الرجال، وبذلك تغلب على ترددها في الزواج منه، وتوهمت أن الحياة ستكون وردية بهذه الزيجة، وكيف لا وقد بدا أمامها زوجا محبا عطوفا رقيقا كريما.. يعتبر كل رغبة من رغباتها مهما كانت تافهة أمرا يسارع بتلبيته على الفور.

لكن إلهاما خفيا أوحى لهذه المرأة التعيسة أن تحتاط لنفسها، وأن تحتفظ،في عقد الزواج، بأثمن ما تعتز به كامرأة أوروبية خلقها الله حرة ومنحها حقوقا متساوية بغيرها من البشر، وسرعان ما ثبت لها أنها كانت على حق في مخاوفها، إذ ما كادت تضع توقيعها على عقد الزواج، حتى خلع «فهمي بك» قفاز الحضارة الغربية الذي كان يرتديه لينشب مخالبه الشرقية في عنقها، فيهدر الضمانات التي نص عليها العقد، ويبدأ في تنفيذ خطته لتحويلها من امرأة غربية.. إلى جارية شرقية.

ووسط الصمت الذي كان يطبق على ساحة المحكمة، استطرد «مارشال هول» يقول:

ـ ليست هذه القضية ـ يا حضرات المحلفين ـ قضية «علي» و«مرجريت» فقط ولكنها قضية «الشرق» و«الغرب» ولكي تكونوا منصفين في حكمكم عليها، فلابد أن تضعوا في اعتباركم طبيعة ذلك الإعجاب الذي يكنه الشرق للغرب، والرجل الشرقي للمرأة

الغربية، فالانبهار الشرقي بحضارتنا ليس إعجابا خالصا من الشوائب، إذ هو يختلط عادة، بذلك النوع من الحسد الشرير الذي يولده العجز عن المنافسة والإحساس بالنقص والضعة، فيحول الحب إلى كراهية،وإلى رغبة في التدمير والتخريب.

لماذا انتحل «فهمي بك» لقب الإمارة مع أنه ليس أميرا، بل مجرد رجل ينعم بثروة لم يكسبها بجهده أو بعرقه أو بمواهبه، إذ لم تكن لديه أية مواهب، بل ورثها عن أبيه الذي كان حاذقا في المضاربة؟

هل كان الأمر مجرد حيلة من حيل الدهاء الشرقي لإغواء «مرجريت»؟ ولماذا يختار هذا الأسلوب لإغوائها مع أنها مواطنة فرنسية لا تحمل لقبا من ألقاب التشريف؟ الجواب تجدونه في إحساسه الداخلي بأنه رغم ثرائه، أقل منها لذلك انتحل لنفسه لقبا ظن أنه يؤهله ـ وهو الشرقي المتخلف ـ للزواج من امرأة أوروبية ويجعل قامته تطاول قامتها.

وهكذا كان على هذه المرأة التعيسة، منكودة الحظ،أن تدفع ثمن خطئها في فهم هذه المشكلة الحضارية وأن تعيش مع رجل شرقي كان كل همه أن يتخلص من إحساسه بالانحطاط تجاه كل ما هو أوروبي، بأن يحطم اعتدادها بذاتها وإحساسها التلقائي بتفوقها الحضاري عليه، لتتحول إلى جارية فيمارس إحساسه المريض بالسيادة عليها، في كل لحظة من لحظات الليل والنهار، وفي كل مكان: في القصر وفي اليخت وفي المطعم.. وفي غرفة النوم.

إن اللعنة التي تلقي بظلها على هذه القضية هي في ذلك المناخ الذي ربما يتعذر علينا نحن الغربيين أن نفهمه، وهي في ذلك الشعور الشرقي بامتلاك المرأة، شعور التركي وسط حريمه، يقبل عليهن حين يرغب، ويهجر من يشاء منهن حين يشبع وينسى أسماءهن وربما ملامح وجوههن وينفس فيهن توتراته ولا يشعر بالسيادة أو بالقوة إلا وهو يأمر بتقريب واحدة أو إهمال أخرى أو قتل ثالثة،أو ترقية رابعة من درجة الجارية إلى درجة الزوجة الشرعية، فهن مجرد قطيع من الحيوانات الأليفة الجميلة التي تعطي السيد الشرقي الإحساس بأنه «سيد» حقا، وهن يتمتعن بكل صفات العبودية، فقد تعودن على أن ينفذن الأوامر دون مناقشة وأن يقبلن حكم السيد دون اعتراض.



إدوار مارشال هول

في ذلك الجو الغامض الذي لا قبل لنا باحتماله عاشت «مدام فهمي» وبهذا الشعور الشرقي بامتلاك المرأة، بدأ «فهمي بك» خطته لتحويل زوجته الأوروبية من كائن حر إلى عبد يمتلكه وساعده على ذلك أنها أصبحت في قبضته ولم تعد شمس الحرية والإخاء والمساواة تظللها كما كانت عليه الحال حين تعرف إليها في باريس، وقد قال لها مرة بصراحة:

- إنني الآن في بلادي وأستطيع أن أفعل بك ما أريد.. وسأعاملك كما يعامل كل مصري زوجته.

وقال لشقيقتها بصراحة أشد:

- إنني أدربها على أن تنفذ أوامري.. فالنساء لابد وأن يعاملن بحزم وبقوة.

لم تكن قسوة «فهمي بك» في معاملة زوجته مجرد مشاحنات زوجية، مما يمكن أن تحدث حتى في بيوت الغربيين، ولم تكن رد فعل على أخطاء وقعت فيها الزوجة ولم تكن سلوكا اعتباطيا يعبر عن عدم نضجه الانفعالي، بل كانت تطبيقا لفلسفة، وتنفيذا لنظرية الرجل الشرقي في التعامل مع المرأة، أما الهدف فهو تحويل «مدام فهمي» من امرأة غربية حرة إلى جارية شرقية تطيع كل ما تؤمر به، ولا تتصرف وكأن لها حقوقا عند زوجها، ناهيكم عن أن تكون مساوية له.

وهكذا تعرضت هذه المرأة المسكينة الرقيقة الهادئة ذات الجاذبية الهائلة.. التي لم تكن البسمة تغادر وجهها قبل زواجها من هذا الوحش الشرقي المنحط،لتعذيب بدني حط من منزلتها، وقلل من احترامها في عيون الخدم الذين كانت حاشيتها تتألف منهم، وأصبح من المتعذر على أي رجل مهذب وامرأة مهذبة، أن يعامل باحترام زوجة تلقى هذه المعاملة الشائنة من زوجها الذي لم يكن يتورع عن ضربها أمام أصدقائهما المشتركين، ويباهي بذلك شفاهة وكتابة زاعما أنه يروضها.. وبتلك القسوة الفظة والمتوحشة حاول أن يقضي على اعتزازها بنفسها وأن يحطم إرادتها فانحط بمعنوياتها بتعمده إذلالها.

هذا رجل كان - ياحضرات المحلفين - يتسلى بإطلاق الرصاص فوق رأس زوجته ليخيفها ويروعها ويحملها على طاعته، بالأسلوب الذي يتبعه الزنجي المتوحش الذي يعتبر امرأته متاعا له، وكان يفعل ذلك بأعصاب باردة، ويقهقه باستهتار وهو يرى ملامح الخوف على وجهها.. ولا تنسوا «كوستا» ذلك العملاق البلغاري الأسود الضخم الذي يدين لسيده بحياته، والذي كان يخف إليه كل يوم ليتلقى منه أوامره بطريقة معاملة سيدته، وكان مجرد ظهوره يبعث الخوف والرعب في نفس هذه المرأة التعسة، ولم يكن الوحيد من نوعه، فقد كان بلاط «علي فهمي» يضم ستة من العبيد السود، لم تكن زوجته تستطيع أن تذهب إلى أي مكان في القاهرة دون أن يكون واحد

منهم على الأقل في إثرها لكي يراقبها ويتجسس عليها ثم يعود إلى سيده فيهمس في أذنه بما فهمه من سلوكها، لتكون النهاية مشابهة لما حدث يوم عادت مع «مختار بك» من السينما، فاستقبلها زوجها وعلى فمه ابتسامة عريضة،ثم صوَّب إليها لكمة خلعت فكها واندفع يقهقه، ويقود ضيفه إلى غرفة الاستقبال.

وقد تقولون: إن مصدر معظم المعلومات التي استمعتم إليها عن الأسلوب الشرقي الفظ الذي عامل به «علي بك» هذه المرأة الحزينة هو أقوالها هي نفسها، أو شهادة شقيقتها وسائق سيارتها الذي قال أمامكم إنها لم تكن تكف عن البكاء أثناء وجودهما في باريس وحتى لا يظل هناك أدنى ظل من الشك في أن المتهمة قد اصطنعت ـ أونصحها أحد باصطناع ـ هذه الوقائع لكي تبرر جريمتها، فقد شهد بذلك «فهمي بك» نفسه في الخطاب الذي كتبه لشقيقتها، وشهد الدكتور «جوردون» بأنها حدثته بعد وقت قصير من وقوع الجريمة، عما لقيته من عذاب على يد زوجها خلال شهور زواجهما السبعة، وشهد المستر «ماريني» ـ المدير الليلي لفندق «سافواي»، الذي كان أول من وصل إلى مكان الجريمة ـ بأنه سمع منها فور وصوله أقوالا بهذا المعنى في وقت لم تكن المتهمة فيه تملك قوة ذهنية لكي تصطنع شيئا.

بل إن «سعيد العناني» الذي لا يمكن لأحد أن يتصور احتمال انحيازه إلى المتهمة ـ لم يستطع ـ رغم أكاذيبه الكثيرة ـ أن ينكر بعض هذه الوقائع، وإن كان قد عزاها لأسباب غير أسبابها الحقيقية، وقد كان بوسع «قليني باشا فهمي» أن يشهد بما يؤكد صحة كثير من وقائع القسوة التي تعرضت لها المتهمة، ولكنني لم أستطع إقناعه بالحضور، وقد اكتفى بأن أرسل شهادة مكتوبة ظنا منه أن ذلك يكفي، ولكن المحاكم الإنجليزية لا تأخذ بهذا النوع من شهادات الشهود حتى لا تهدر حق أحد أطراف الدعوى في مناقشة الشاهد،فإذا لم يقنعكم ما سقته وما سوف أسوقه من وقائع تجزم بأن هذه المرأة التعيسة قد تعرضت لما لا يطيقه بشر، فسوف أنوب عن «قليني باشا» يوم الحساب وأشهد بما يمكن أن يشهد به أمام الخالق عز وجل.

وختم «مارشال هول» هذا الجزء من مرافعته قائلا:

ـ لقد زعمت النيابة أن هذه المرأة شريرة قاتلة قاسية، وأنها أطلقت الرصاص على زوجها بقلب بارد ويد ثابتة، وإرادة مصممة فصرعته كما يصرع كلب في الشارع، لكن ذلك زعم لا يقوم عليه أي دليل من الأوراق، أو من شهادات الشهود، والحقيقة أن «فهمي بك» كان ذئبا بريا مخيفا، وكان مريضا بالسادية، يتلذذ بتعذيب هذه المرأة الضعيفة المسكينة لكي تطيعه طاعة العبيد، حتى أصابها بحالة من «النورستانيا» دمرت جهازها العصبي، فتحولت إلى كائن مذعور خائف لا يملك إرادته، ولا يستطيع أن يتحكم في يده المرتعشة لكي يطلق رصاصة واحدة.



١٩٢٣: أحد مظاهر الافتتان الأوروبي بالفراعنة التي شاعت في أوروبا بعد اكتشاف قبر «توت عنخ آمون».. فريق من الشبان الإنجليز يرتدون الملابس الفرعونية في إحدى الحفلات التنكرية

30

وفي صباح اليوم الخامس من أيام المحاكمة ـ السبت ١٥ سبتمبر ١٩٢٣ ـ استأنف السير «مارشال هول» مرافعته عن «مدام فهمي» وقد خصص هذا الجزء منها لهدم كل محاولة لتصوير الحادث على صورة تختلف عن الإطار الذي وضعه داخله، سواء فيما ورد على ألسنة الشهود، أو في مرافعة ممثل الاتهام، ففنّد تلك الأقوال انطلاقا من النظرية نفسها التي بنى عليها دفاعه، فالقضية ليست ـ فقط ـ قضية شخصين بل هي أيضا قضية حضارتين.

وفي هذا السياق توقف أمام زعم ممثل الاتهام بأن «مدام فهمي» قد تزوجت من الأمير الشرقي طمعا في أمواله وأن ادعاءاتها بأنها كانت تعذب، تتناقض مع الحياة المرفهة التي كانت تعيشها فقال:

ـ لقد استخدم «فهمي بك» ثروته الطائلة كقناع يخفي به وجهه الأصلي، فهي التي ساعدته على وضع مكياج التقدم والتحضر على وجه الجلف الشرقي، وهو وجهه الحقيقي، وبها استطاع أن يسيح في أوروبا، ويتعرف على منتدياتها، وينقل عنها بعض قشور الحضارة، ويقتبس من عاداتها وتقاليدها ما يخدع به الآخرين عن طباعه الهمجية، ومن بينهم هذه المرأة التعيسة التي خدعت في هذا الطلاء الحضاري الذي اشتراه «فهمي بك» بأمواله، فتوهمت أنه متحضر بالدرجة التي تكفي لكي تقترن به، ولو كان المال ـ لا الحب والاستقرار ـ هو هدفها، لما ترددت في الموافقة على

الزواج منه، ولما أصرت على النص في عقد الزواج على الاحتفاظ بحقها في تطليق نفسها، ولما تمسكت بألا تحتجب كالنساء المسلمات، وهو ما يدل على أنها كانت منذ البداية ترفض أن تكون «شيئا» يمتلكه «فهمي بك» أو أن تعامل بالطريقة التي يعامل بها الرجال الشرقيون زوجاتهم.

وتساءل «مارشال هول» وهو يلوح بيديه في وجه ممثل الاتهام تارة، وتارة أخرى في وجه المحلفين:

ـ ثم.. أين هي تلك الأموال الطائلة التي يقال إن «فهمي بك» قد أنفقها على زوجته.. لقد اتفق معها على أن يعطيها صداقا قدره ألفان من الجنيهات، ولكنه لم يدفع منه إلا أربعمائة وخمسين جنيها وأعطاها صكا بالباقي، لم يدفع قيمته إلى أن غادر الدنيا.. وهذا هو كل المال الذي أخذته «مدام فهمي» من زوجها الذي يقال إنه من أكبر أغنياء مصر.. ومع أنه كان كذلك بالفعل إلا أنه لم يجد غضاضة في أن يحول بينها وبين ركوب إحدى سياراته الفاخرة التي كان يستعرضها أمامها قبل الزواج، فلما أصبحت زوجته أمرها بركوب الترام مع عوام الناس.. واعتبر الأمر نكتة علق عليها بواحدة من ضحكاته المجنونة.

لقد وضع هذا الشرقي المنحط أمواله الطائلة في خدمة خطته الشريرة لتحطيم إنسانية زوجته، وتحويلها من امرأة حرة إلى جارية، والدليل على ذلك أن أول أزمة نشبت بينهما كانت حين طلب إليها أن تعطيه مجوهراتها لكي يحتفظ بها لديه، فلما رفضت نشبت بينهما مناقشة حادة انتهت بأن أقسم على القرآن بأن يقتلها ذات يوم بيده، فأصابها الذعر الذي دفعها لكي تكتب الوصية التي أودعتها لدى المحامي «أسود» تتهم فيها «فهمي بك» بقتلها إذا ماتت في ظروف غير طبيعية.. فما الذي أثار المجني عليه ودفعه إلى هذا الوعيد الشديد لمجرد أن زوجته فضلت أن تحتفظ بمجوهراتها معها.

ما أثاره هو أنها أفشلت خطته لتجريدها من كل مظاهر الاعتماد على الذات.. ما أغضبه هو شعوره بأنها ترفض أن تكون «جارية» وأن تطبق قوانين العبودية التي تنص على أن المرأة وما تملك هي ملك لزوجها.

إن هذا الرجل الشرقي الشرير الذي يقال إنه كان يبدد أمواله ذات اليمين وذات اليسار.. على هذه المرأة التعيسة، كان يحبسها ويمنع عنها الطعام، ويمتنع عن الإنفاق عليها، وكان المال من مصادر القوة التي ظن أنه يستطيع عن طريقها أن يروِّض زوجته، وحين طلبت إليه ـ في ١٨ مايو الماضي ـ أن يدفع ١٨ ألف فرنك قيمة الفاتورة التي اشترت بها ملابس من أحد المعارض، لم يرفض فحسب، بل قام بعمل لا يقدم عليه رجل يملك ذرة واحدة من الإنسانية أو التحضر أو العقل، فكتب إقرارا على نفسه،

يصرح لها فيه بالبحث عن عشيق يدفع له نفقاتها، ويتنازل عن حقه في أن يقيم عليها دعوى الزنا إذا ما فعلت ذلك.

لم تكن أموال «فهمي بك».. سوى بعض السياط التي كان ينهال بها على جسد هذه المرأة المسكينة، وقد ظل يستخدم هذا السلاح منذ البداية إلى النهاية ولعله السلاح الذي قتله، فلم يغب عن أسماعنا جميعا صوت «مدام فهمي» وهي تروي كيف طلب إليها زوجها أن تستجيب لرغباته غير الطبيعية، بينما هي تعاني من آلام مبرحة، فلما طردته عاد ليلوح في وجهها برزمة من أوراق النقد الفرنسية التي كانت في أشد الحاجة إليها لكي تخفف من آلام لا تطاق قائلا لها: تستطيعين أن تكسبي هذا المال كله لو أردت؟

وانتقل «مارشال هول» إلى معالجة أكثر جوانب القضية حساسية، وهي العلاقة الخاصة بين الزوجين، فطالب المحلفين ألا يهتموا كثيرا بحقيقة أن «فهمي بك» كان أصغر من زوجته بعشر سنوات، وألا يستنتجوا من ذلك معاني لم ترد في أوراق القضية.. وأضاف:

ـ نعم إنه لم يكن يبلغ من العمر سوى ثلاثة وعشرين عاما، لكنه كان منغمسا في كثير من الرذائل، ومنهمكا في الإسراف فيما وهبته الطبيعة من حيوية جنسية أساء استخدامها، فليس صغر سنه دليلا على براءته أو استواء فطرته، بل لعل المتهمة التي تكبره بعشر سنوات، وتزوجت قبله مرتين، كانت من هذه الناحية أكثر براءة منه وأقرب إلى السلوك السوي.. ولا تنسوا أنه تربى في بيئة شرقية، تتفشى فيها أشكال الانحرافات الجنسية، لأسباب كثيرة. بينها تحجب النساء، وانعدام المعرفة الصحيحة بهذه المسائل، وسلسلة المحرمات التي تحيط بالسلوك الجنسي.

أما الشيء المتيقن فهو أن «فهمي بك» لم يظهر قط رغبة في الاختلاط الجنسي كما يفهمه المتحضرون من الناس، ولم يكن باستطاعته أن يفهمه بهذا الشكل، وهو ينظر في أعماقه للمرأة باعتبارها «شيئًا» لا إرادة له ولا حق، وفي وقائع القضية كثير مما يؤكد صحة ما روته «مدام فهمي» في هذا الصدد، ولا يوجد ما يدعو امرأة أيا كان شكنا في مستوى أخلاقها إلى التصريح بتلك الجوانب من حياتها أمام هذا الحشد من الناس، ما لم يكن هو الحقيقة.. وذلك ما أكده الدكتور «جوردون» في شهادته، وتؤكد واقعة إصرار «فهمي بك» على اصطحاب زوجته وشقيقتها إلى «ملهى بوبيت» ذي السمعة السيئة، مما يدل على تحلل أخلاقه وانعدام حيائه.

فلتسلموا ـ يا حضرات المحلفين ـ بأن ذلك قد حدث، وبأن هذه المرأة المسكينة قد تعرضت لأشكال من التعذيب، كان من بينها أنها أكرهت على ما لا يرضاه إنسان سوى لنفسه، وكانت ضحية لعدوان جنسي يكاد يكون اغتصابا، وأن ذلك فضلا عما

سببه لها من جراح مؤلمة قد أسهم في تحطيم قواها المعنوية.. فإذا كنتم لا تريدون تصديق الآثار التي شهد بها الطبيب والمؤشرات التي وردت في أقوال الشهود، وما تكبدته المتهمة من عناء لكي تكشف عن أستار خصوصياتها، فكيف نستطيع أن نثبت لكم هذه الواقعة المحورية التي كانت من أسباب الحادث؟ هل أنتم في حاجة إلى صورة فوتوغرافية لإثباتها أم إلى شاهد رؤية ؟ وكيف نتمكن من تدبير هذا أو ذاك؟!

وانتقل السير «مارشال هول» إلى الإجابة عن سؤالين قال إنهما ظلا معلقين في فضاء قاعة المحكمة منذ بداية المحاكمة، وأضاف:

ـ يقولون: إذا كان صحيحا أن «مدام فهمي» كانت تلقى كل هذا العذاب من زوجها، فلماذا لم تنتهز فرصة سفره من ألمانيا لتفر من باريس إلى أي مكان في بلدها.. فلا يجد لها أثرا عند عودته ؟ والذين يقولون ذلك قد فاتهم أن في باريس نظام تسجيل دقيقا يحصي الداخلين والخارجين، فلا يستطيع أحد أن يخرج منها دون أن يترك بيانات كاملة عن المكان الذي ذهب إليه، وفضلا عن ذلك، فقد قال لها زوجها ذات مرة إنها لا تستطيع أن تهرب منه حتى لو ذهبت إلى آخر الأرض، لأن له أعوانا يستطيعون أن يعيدوها من حيث ذهبت.

واستطرد السير «مارشال هول» في محاولة لاستجلاب عطف المحلفين والرأي العام الإنجليزي على المتهمة فقال:

ـ لقد سأل صديقي المستر «برسيفال كلارك» ـ ممثل النيابة ـ «مدام فهمي»: لماذا لم تبق في «باريس» لتظل آمنة في بلادها؟ ولماذا قبلت أن تصحب زوجها إلى «لندن» على الرغم مما كانت تتعرض له ؟ وأنا أنقل إليكم إجابتها عن هذا السؤال مباهيا، فقد جاءت «مدام فهمي» إلى هذه المدينة لأنها رأت أنها ستكون آمنة فيها أكثر مما ستكون في «باريس»، فكثيرون من الناس وهي منهم ينظرون نظرة تعظيم وإجلال إلى ما يسود هذه البلاد من أمن واطمئنان، فعلى الرغم مما أطلقته سنوات الحرب من موجات الشر والتدمير، فما زال أهلها يتمتعون بالأمن ويحظون بكل ما يضمنه القانون من حريات، وفضلا عن ذلك، فربما كان في قلب «مدام فهمي» مكان صغير لابنتها غير الشرعية، التي بلغت الخامسة عشرة من العمر فدفعتها عاطفة الأمومة إلى المجازفة، وجاءت إلى لندن لترى ابنتها.

والحقيقة أنني كدت أبتسم رغم ما نحن فيه من جو يدعو للبكاء عندما سأل صديقي ممثل النيابة «مدام فهمي»: لماذا لم تلجئي إلى «سعيد العناني» لحمايتك؟ لقد رأيتم «العناني» وسمعتم رأي الصحف المصرية فيه، فهي ـ لا نحن ـ التي نعتته بأنه «إبليس فهمي بك» فهل كان باستطاعة هذه المرأة أن تلجأ إلى «إبليس فهمي بك» ليحميها من «فهمي بك»؟!

وانتقل «مارشال هول» إلى الجزء الأخير من مرافعته فقال:

ـ يا حضرات المحلفين.. إن بحثنا المشترك عن العدل يجعل إدانة هذه المرأة التعيسة بتهمة القتل من رابع المستحيلات، ويجعل من ادعاء ممثل الاتهام بأنها قتلت زوجها عمدا وبعد تخطيط وتدبير تجنيا ظاهرا على الحقيقة.. فهل تصدقون حقا أن هذه المرأة التي بدد الذئب الشرقي أعصابها، ودمر معنوياتها، كانت لا تزال تملك في كيانها البشري المحطم ذرة من إرادة أو شعيرة من أعصاب، تستعين بهما على التخطيط لجريمة قتل؟ وهل كان من الحكمة وحسن التدبير أن تختار فندق «سافواي» لكي ترتكب فيه هذه الجريمة؟ وهل سمعتم عن مجرم يخطط لجريمة قتل يحرص على أن يترك عنوان المكان الذي سوف ينتقل إليه لدى الفندق الذي ينوي أن يرتكب فيه جريمته؟ ويرسل برقية إلى «باريس» بأنه قادم في اليوم التالي لإجراء الجراحة؟

ألا يكفي ذلك لإقناعكم ـ يا حضرات المحلفين ـ بأن فكرة قتل الزوج لم تكن قد طافت بذهن «مدام فهمي» قبل اللحظة التي وقع فيها فعلا، بل إنها لم تطف بذهنها حتى في تلك اللحظة، لأنها لم تعرف ما حدث إلا بعد أن حدث فعلا.

وأعاد «مارشال هول» تخليق أحداث اللحظات الأخيرة من حياة «فهمي بك» لقطة بعد أخرى وكأنه يعيد عرضها على المحلفين بالتصوير البطيء، حريصا على أن يتوقف أمام كل لقطة ليحللها ويستكشف دلالاتها، ويضعها ضمن سياق تحليله للجريمة.. وبدأ بإعادة تخليق جو العاصفة التي هبت فجأة، فخلعت القلوب بقعقعة رعودها المتتابعة، وأغشت الأبصار بضياء بروقها الخاطفة المتعاقبة، وزلزلت أعصاب السعداء من الناس، داعيا المحلفين إلى تصور كيف كان تأثيرها على أعصاب امرأة، سقيمة النفس، مكسورة القلب وكانت وقائع تلك الليلة التعيسة هي ذروة شعورها بأنها مهانة ومستباحة ومهيضة الأنوثة ومسلوبة الكرامة والحرية والحقوق جميعا.

واستطرد يروي ما حدث بعد أن طرق «فهمي بك» باب زوجته وكيف حاول أن يسترضيها، ثم كيف عجز عن أن يواصل التظاهر بالرقة والتحضر، فهجم عليها كذئب شرقي لا يعرف معنى للتهذيب لكي يستأدي ما يعتبره حقا له من جاريته الجريحة، فعادت إلى ذهنها كل تذكارات التعاسة التي عانتها طوال تلك الشهور الستة، وتذكرت صنوف التعذيب والقسوة التي كان يوقعها بها، وما كادت تتملص منه بعد أن حاول خنقها حتى وقعت عيناها على المسدس الذي كان موضوعا على مقعد بركن الغرفة، فتذكرت اليوم الذي شهر فيه مسدسه في وجهها بغرفتهما في فندق «ماجستيك» بباريس وامتلأ قلبها رعبا، فأسرعت تتناول المسدس قبل أن تصل يده إليه، وشهرته في وجهه، لكي تحول بينه وبين استخدامه في تهديدها، لإجبارها على الخضوع لرغبته التي كانت الاستجابة لها بسبب جراحها، عذابا لا يطاق.

وفي تلك اللحظة مد «مارشال هول» يده فالتقط المسدس الذي كان يضعه أمامه على منصة الدفاع، وواصل تخليقه للأحداث بالكلمة والحركة متقمصا شخصية البطلين، وكأنه يقدم عرضا مسرحيا حيا، فهو مرة «مدام فهمي» المذعورة التي تشهر مسدسها في وجه زوجها وتطلب إليه مغادرة غرفتها، ثم تحاول جذب غطاء مشط المسدس إلى الخلف، فتعجز عن ذلك وتدليه من النافذة مقلوبا محاولة تفريغه من الرصاص. وهو مرة «فهمي بك» الذي عاد إلى زوجته برزمة أوراق النقد الفرنسية، ثم هجم عليها ليخنقها إلى أن استعادت المسدس، وأعادت شهره في وجهه، وهي تتراجع مذعورة إلى الخلف مع أنها هي التي كانت تحمل المسدس لا هو.

وحين وصل «مارشال هول» إلى المشهد الأخير في المأساة، قام بأداء واحد من أمجد المشاهد التي أداها في أدواره التمثيلية على مسرح العدالة، وهو يسرد كيف أخذت «مدام فهمي» المذعورة تتراجع تدريجيا أمام الذئب الذي كان يتقدم نحوها، وأخذ يقلد تحفز الذئب للانقضاض على فريسته وهو يقول:

ـ وفيما كان «فهمي بك» يتحفز للهجوم عليها في المرة الأخيرة، يتحفز كذئب يتحفز كشرقي، ثم ينكص على عقبيه لآخر مرة كي يقفز قفزة جديدة إلى الأمام، إذا باليأس يدفعها إلى تصويب المسدس نحوه بيدها التي كانت ترتعش خوفا.. ولفرط ذعرها انطلق الرصاص منه دون أن تقصد.. أو تعرف إلا عندما سمعت صوت سقوط جسده الثقيل على الأرض.

وكان «مارشال هول» قد انتقل في الجزء الأخير من تصويره للواقعة، ليتقمص دور «مدام فهمي» فوقف مثلها صامتا مذهولا يهتز المسدس في يده كما كان يهتز في يدها المرتعشة، وقد صوَّبه نحو المحلفين وكان الجميع يتأملونه في ذهول، حين ترك المسدس يقع من يده على بلاط قاعة المحكمة، فأحدث ارتطامه بأرض القاعة صوتا كالذي أحدثه سقوطه على بلاط رواق الدور الرابع بفندق «سافواي» في تلك الليلة العاصفة.

وبعد لحظات صمت تكفي لكي يستوعب الجميع هذا الموقف الدراماتيكي استأنف «مارشال هول» دفاعه فقال:

ـ نحن ـ يا حضرات المحلفين ـ أمام امرأة غربية اقتيدت بحيلة شرقية ماكرة من قلب الحضارة إلى ظلام الصحراء، لتقضي شهر العسل بين وحوشها وزواحفها، وتعرضت منذ ذلك الحين لمحنة لم تدع لها إرادة، وحولتها إلى كائن مذعور خائف.. امرأة لم تنو القتل، ولم تقتل، بل انطلقت منها رصاصة فقتلت ذئبا بريا كان يهم بافتراسها، فإذا أردتم أن تسموه قتلا خطأ فهو كذلك، وإذا أردتم أن تسموه دفاعا شرعيا عن النفس، فهو كذلك.

إنكم تتذكرون ولا شك ـ يا حضرات المحلفين ـ رواية «روبرت هتشنز» الخلابة

«بيلا دونا» التي تروي قصة امرأة غربية كهذه المرأة، اقتيدت إلى الصحراء، كما اقتيدت «مرجريت»، وتعرضت لعدوان رجل شرقي كما تعرضت «مدام فهمي» وتذكرون المشهد الختامي فيها، حين تخرج تلك المرأة من أبواب الحديقة إلى الليل الحالك في الصحراء سعيدة بتحررها من العبودية، وأنا أريدكم أن تفتحوا أبواب السجن لكي تستطيع هذه المرأة الغربية أن تخرج منه، لا إلى ليل الصحراء الحالك البهيم، وإنما إلى حيث تعود لأصدقائها الذين يحبونها برغم كل نقائصها، وسوف يسرون باستقبالها، ولتعود إلى ابنتها التي تنتظرها بذراعين مفتوحتين.

وكان موقف المستر «برسيفال كلارك» ـ ممثل الاتهام ـ عسيرا بعد أن استلب خصمه عقول المحلفين بأدائه التمثيلي، الذي يصعب منافسته فيه، لذلك بدأ تعقيبه على مرافعة الدفاع بمحاولة تبديد هذا التأثير. فقال: إنه يريد أن ينقل المحلفين من المحيط التمثيلي الذي يسود المحكمة منذ أربعة أيام.. ووصف مرافعة «مارشال هول» بأنها من أعظم ما أضافته المحاماة إلى فن التمثيل وأضاف متهمكا:

ـ مع أن التوفيق قد أخطأ السير «مارشال هول» في كثير مما قاله في دفاعه، إلا أنه كان موفقا تماما، حين ذكركم برواية «بيلا دونا» وإذا كان قد نسي شيئا فهو أن يذكركم بأن المرأة الغربية التي ذهبت إلى الصحراء كانت تخطط لقتل زوجها الشرقي، وكادت تنجح في ذلك، فالتشابه بين وقائع الرواية ووقائع هذه القضية وارد مع فارق واحد، هو أن «مدام فهمي» قد نجحت فيما فشلت فيه بطلة رواية «روبرت هتشنز» فقتلت زوجها عمدا ومع سبق الإصرار.

وانتقد المستر «كلارك» حملة التجريح التي شنها الدفاع ضد «فهمي بك» وقال:

ـ لقد أخرج «السير هول» المتهمة من قفص الاتهام ليضع فيها المجني عليه، وسعى لكي يحمل المحلفين على الاعتقاد بأن «مدام فهمي» كانت تؤدي رسالة سامية، وأنها قد ساهمت في تطهير العالم من البرابرة المتوحشين وفي مقدمتهم زوجها، وهو يعلم أنه ليس من حق أحد أن يقتل آخر لمجرد اعتقاده بأنه ليس متحضرا، كما يعلم أن المنصفين من الناس يتحاشون عادة أن يهاجموا الموتى الذين لم يعد في استطاعتهم الدفاع عن أنفسهم، ومع ذلك فإن ما ساقه الدفاع لتجريح «فهمي بك» لا يدل على ما نسبه إليه، فليس هناك دليل يقيني على أنه كانت هناك علاقات غير طبيعية بين المجني عليه وسكرتيره «سعيد العناني» أو أنه كان يغازل شقيقة زوجته.

ووصف المستر «كلارك» كل ما قيل عن تعذيب «فهمي بك» لزوجته بالمبالغة التي تصل إلى حد الكذب، وقال بأن ادعاء الدفاع بأنه قد اقتادها إلى الصحراء ليعذبها ليس سوى عبارات مسرحية من النوع الذي يتفوق في صياغته «السير هول» لأن «الأقصر» ليست صحراء بل مدينة راقية يتردد اسمها في كل صحف العالم. وأضاف:

ـ إن الفرنسي بطبعه ميال للمبالغة، ولولا ذلك ما زعم سائق سيارة «مدام فهمي» بأنها كانت تبكي طوال الوقت مع أننا نعرف منه هو نفسه أنها كانت تمضي أمسياتها بصحبة زوجها في المسارح والملاهي والمتنزهات فكيف كانت تجد وقتا لتبكي؟!

وحذر ممثل الاتهام المحلفين من تصديق كل ما نقل عن «قليني فهمي باشا» و«مختار بك» من أقوال، ولفت نظرهم إلى أنهما لم يظهرا بشخصيهما في المحكمة ولم يدليا بأقوالهما أمامها، وأبدى دهشته لعجز الدفاع عن استدعائهما للشهادة إذا كان واثقا من استعدادهما للإدلاء بالأقوال التي نقلها عنهما.

وانتقل بعد ذلك إلى تصوير الوقائع من وجهة نظره فقال:

إن السير «مارشال هول» لم يجد غضاضة في أن يشن الحملة ضد رجل ميت لا يملك دفاعا عن نفسه، وأن ينسب إليه تشكيلة نادرة من الموبقات يصعب أن تجتمع في إنسان واحد، لكنه وجد غضاضة حين سألنا موكلته عما إذا كان والدها سائق سيارة فاعترض على السؤال الذي لم يكن هدفنا منه أن ننتقص من مكانة المتهمة أو من قيادة السيارات كمهنة، لكننا أردنا أن نؤكد أن «مدام فهمي» نشأت في بيئة متواضعة، ولما كانت فائقة الجمال والجاذبية، فقد أصبحت امرأة واسعة المطامع، سعت لكي تحققها من خلال علاقات أنشأتها مع الرجال الأثرياء والمقارنة بين عمرها وعمر ابنتها الشرعية تكفي للدلالة على أن «مدام فهمي» بدأت معرفتها بشئون العالم وأحوال الرجال وهي في السادسة عشرة من عمرها.

والحقيقة أن الحب هو الذي دفع «علي بك» للاقتران بها، ويكفي دليلا على ذلك ما قدمه لها من تنازلات في عقد الزواج المدني، وما كان يكتبه لها من عبارات عاطفية. كما أنها ـ هي نفسها ـ لم تنكر ذلك. أما النصف الثاني من تلك الحقيقة فيقول إن الطمع ـ وليس الحب ـ هو الذي دفعها للاقتران به فقد كانت تواقة لكي تكون أميرة شرقية رغم علمها بانتحال زوجها للقب الإمارة، وفي سبيل ذلك لم تتردد عن ترك دينها لتعتنق دين زوجها، رغم ما ادعته من تأثيرات تربيتها الأولى في دير كاثوليكي، بل وتنازلت عن حقها في الطلاق بسهولة لا تتناسب مع


الروائي البريطاني روبرت هتشنز

ادعائها بأنها كانت حريصة على حقوقها كامرأة أوروبية تؤمن بوحدانية الحب على عكس زوجها الذي يعطيه دينه حق تعدد الزوجات!

واستطرد «السير كلارك» يعلق على ما ذكره «مارشال هول» من مظاهر قسوة الزوج فقال:

ـ لاشك لدينا، في أن الزوجين كانا يكثران من النزاع والتشاحن، لكن ذلك شيء وكل ما قيل في هذه المحكمة عن وحشية الزوج وقسوته وساديته شيء آخر، فقد كانت الزوجة تعيش في القاهرة ثم في باريس عيشة بذخ ورفاهية، وليس هناك دليل واحد على صحة ادعائها بأنه كان يتسلى بتعذيب النساء، وكل ما هناك هو أن الزوج شرقي، تخوِّله الشريعة الإسلامية بعض الحقوق لتأديب زوجته، وقد مارس حقوقه تلك في بعض الأحيان بطريقة قد لا نعرفها ولا نهضمها، ولكن السير «مارشال هول» بالغ في تصوير هذه الممارسات، فتحول «فهمي بك» على لسانه إلى وحش ضار، في حين أنه لم يكن كذلك.

وعاد ممثل الاتهام في ختام تعليقه ليؤكد أن «مدام فهمي» قد قتلت زوجها عمدًا فقال:

ـ لقد ادعت «مدام فهمي» أنها لا تعرف شيئًا عن استعمال المسدسات، ولكنها سلمت ـ بعد ذلك ـ بأنها كانت تحمل مسدسا منذ بضع سنين، وأنها رأت زوجها ينظف المسدس ويحشوه، وهذا دليل على أنها كانت تعرف كيفية استخدام المسدسات، ومن حقنا ـ وتلك هي الحقيقة ـ أن نستنتج أنها لم تطلق الرصاص من النافذة لكي تفرغ المسدس كما زعمت، بل فعلت ذلك لكي تتأكد من أنه صالح للعمل، ولم يكن زوجها يحمل مسدسا في تلك الليلة، لكي يسوِّغ ذلك لها استعمال المسدس بدعوى الدفاع عن النفس ضد تهديد الزوج، وكل ما ذكره السير «مارشال هول» عن وقوع عراك بين الزوجين، ومحاولة «فهمي بك» خنقها هو محض خيال، فليس في الثوب الذي كانت ترتديه آثار يعتد بها على وقوع تلك المحاولة.

أما ما حدث فعلا فهو مجرد مشاحنة زوجية عادية بسبب الخلاف بينهما على صواب قرار السفر، وكانت تلك المشاحنة قد انتهت بطرد الزوج من غرفة زوجته، حين قررت «مدام فهمي» أن تقتله، فتناولت المسدس الذي كانت تعرف أنه صالح للاستعمال، وفتحت باب غرفتها، لتجد زوجها جاثيا في الممر يصفِّر للكلب الصغير، فأطلقت عليه الرصاص، فإذا صح هذا، فإنها تكون قد ارتكبت جريمة القتل عمدًا ويكون الإعدام هو الجزاء الذي تستحقه.

واكفهر وجه «مدام فهمي» وهي تسمع صدى صوت «السير كلارك» يتردد في أنحاء قاعة المحكمة مطالبا بإعدامها، لكن استماتته في محاولة إثبات التهمة ضدها لم

تنجح في تبديد ما سماه بـ «الجو المسرحي» الذي أغرق السير «إدوارد مارشال هول» المحلفين به؛ إذ كان الجميع لا يزالون أسرى لتلك الذروة الدرامية التي قادهم إليها المحامي العجوز بروعة وصفه وبلاغة عباراته، وقدرته الفذة على التقمص، فشعروا ـ وهم يشاهدون تقمصه للمشهد الأخير من المأساة وينتقلون معه بين حالات الطبيعة المتناقضة، وحالات النفس الإنسانية الأشد تناقضا ـ بأنهم يعيشون ليلة العاصفة، برعودها وبروقها، وحط عليهم الوجوم حين سقط المسدس من يده وتوحدوا مع المرأة الجميلة التعيسة التي كانت تستمع إلى محاميها بعيون شاردة وكأنها تستعيد معه سرد الذكريات التي يرويها عن شهور العذاب السبعة.

ومع أن «مارشال هول» كرر فيما بعد القول بأن المسدس قد سقط منه عفوا، وأنه لم يكن يقصد ما حدث، إلا أن كثيرين ممن كانوا يتابعون مرافعاته السابقة، كانوا يعرفون أن «المؤثرات الصوتية» من بين الأساليب التي يلجأ إليها لتقديم عرضه المسرحي، وأنه يعتمد عليها كثيرا في التأثير على المحلفين، فقد كان يترافع ذات مرة عن شاب قذفه صديق له بكأس ماء في وجهه، فرد على ذلك بقتله بسكين، وأثناء المرافعة طلب «مارشال هول» كأسا من الماء وضعه أمامه، وحين وصل إلى الواقعة، ألقى به فجأة باتجاه المنصة التي يجلس عليها المحلفون، فأحدث ذلك جوا من الذعر بينهم، كان كافيًا للتدليل على حالة الاستفزاز التي أصابت المتهم ودفعته إلى قتل صديقه.

وقد ظل «مارشال هول» منذ بداية محاكمة «مدام فهمي» وحتى نهايتها، يحمل المسدس الأوتوماتيكي الصغير المماثل لطراز المسدس الذي أطلقت منه القاتلة رصاصاتها، ويعبث به أثناء الجلسات، وفيما بينها، ويحاول جذب ذراعه إلى الخلف ويلوح به في وجه الشهود وهو يستجوبهم، وفي وجه القاضي والمحلفين وهو يترافع ليؤكد الفكرة التي بنى عليها دفاعه، وهي أنها كانت تتعامل مع المسدس باعتباره قطعة من الحديد لا خطر منها.



ولم يكن قد تبقى من إجراءات المحاكمة سوى التلخيص القانوني الذي يقدمه القاضي، لكي تتضح جوانب القضية واحتمالاتها المختلفة أمام المحلفين، وكان الصمت لا يزال يسود قاعة محكمة «أولد بايلي» الواسعة، حين بدأ السير «ريجبي سويفت» تلخيصه للقضية فقال:

ـ إن أمامنا في هذه القضية ثلاثة احتمالات، تعاقب المتهمة في حالتين منها، ولا تعاقب في الثالثة، وأول هذه الاحتمالات هو أن تكون المتهمة مذنبة بتهمة القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد وهذه عقوبتها الإعدام، أو أن تكون مذنبة بتهمة القتل الخطأ ـ وهو الاحتمال الثاني ـ وفي هذه الحالة تعاقب

بالسجن لفترة تقدرها المحكمة استنادا إلى تقديرها لحجم الخطأ، أما الحالة الأخيرة فهي ألا تكون مذنبة على الإطلاق، إما لأن القتل قد وقع قضاء وقدرًا أو لأنه وقع دفاعا عن النفس، وفي هذه الحالة فلا عقوبة عليها، ويتوجب عليكم عند بحث كل واحد من هذه الاحتمالات الثلاثة أن تزنوا جيدا كل ما يؤيده، أو ينفيه مما سمعتم من أقوال الشهود ومرافعات الدفاع والاتهام، قبل أن تغلّبوا أحدها على الآخرين.



تمثال العدالة فوق قبة محكمة أولدبايلي

وأجد من واجبي أن ألفت نظركم إلى شيء مهم قبل أن ألخص لكم شواهد كل احتمال، لقد مر بي زمن طويل وأنا أنظر في قضايا من هذا النوع فلم أشعر بما شعرت به، وأنا أتابع هذه القضية من الغثيان والألم مما سمعته وسمعتموه وسمعه ذلك الحشد من الناس، الذين حرصوا على متابعة هذه القضية، وكنت أتمنى لو لم يكن بينهم سيدات، لاشك في أن ما قيل في هذه المحاكمة قد آذى أسماعهن بصرف النظر عن أنهن تابعنها بإرادتهن الحرة، وهو ما يدهشني، لكن ما استمعنا إليه من وقائع تدعو للخجل والاشمئزاز، ليس مبررا لكي تنزعجوا إلى الحد الذي يؤثر في عدالة حكمكم.. فنحن لا نحاكم الرجل الذي قتل، بل المرأة الماثلة أمامكم في قفص الاتهام، فلا تتأثروا بما نسب للقتيل على لسان المتهمة والشهود من أخلاق رديئة وسلوك غير طبيعي، ذلك أن الأخلاق الرديئة ليست مبررا للقتل، كما أن التناقض بين العادات الشرقية والعادات الغربية، ليس مبررا لإهدار الدم، وإلا كان معنى ذلك أن العدالة الإنجليزية تتيح للمرأة أن تقتل زوجها لمجرد أنه يعاملها بطريقة يراها ـ طبقا لثقافته الخاصة وللعادات التي تربى عليها ـ عادية، بينما قد تسخط عليه محلفا إنجليزيا.

فلابد ـ إذن ـ من إهمال كل ما أثير أثناء المحاكمة حول العلاقة بين «فهمي بك» من جانب، وكل من سكرتيره وصديقه« سعيد العناني» وزوجته «مدام فهمي» من الجانب الآخر إلا ما تعلق منها بوقائع هذه القضية. وأود ألا تحرموا «المستر عناني» من عطفكم،إذ لاشك أنه كان في مركز حرج ولم يكن يستحق كل ما نسب إليه ونعي

عليه، وهو ليس متهما في القضية، وكل الذنب الذي ارتكبه هو أنه كان صديقا للمجني عليه صداقة تبيتموها من تأثره البالغ حين اطلع على مستند بخط صديقه الراحل أثناء إدلائه بشهادته. كما أود أن أذكركم ـ فيما يتعلق بما أثير عن معاملة «فهمي بك» لزوجته ـ بأن المصريين لا يضعون زوجاتهم في تلك المكانة السامية التي يضع فيها الإنجليز زوجاتهم، وبأن العادة قد جرت في مصر على أن يتبع المرأة خادم أسود ليكون في حراستها وفي خدمتها.

وانتقل، السير «ريجبي سويفت» إلى شرح الاحتمال الأول من بين الاحتمالات الثلاثة التي أشار إليها في مقدمة تلخيصه فقال:

ـ إن الاحتمال الأول الذي يفترضه القانون الإنجليزي هو أن تكون الزوجة قد قتلت زوجها عمدا مع سبق الإصرار والترصد، وهو احتمال لا يمكن استبعاده دون أدلة قوية، فإذا لم يظهر شيء يدل على أن ما وقع هو أقل من القتل مع سبق الإصرار، فعليكم أن تقرروا، أن المتهمة مذنبة، وأن تحكموا بأنه ليس هناك أي مظنة في أنها قد انتوت قتل زوجها، وأن تزنوا الشواهد التي قدمها ممثل الاتهام للتدليل على أن «مدام فهمي» كانت تعلم بصورة جيدة كيفية استخدام المسدسات الأوتوماتيكية، وأنها خرجت من غرفتها في فندق «سافواي» وقد عقدت النية على قتل زوجها، وكانت متمالكة تماما لقواها النفسية ولمشاعرها، حين وجدت زوجها منحنيا في الممر يصفِّر للكلب الصغير الذي أهداه إليها «قليني فهمي باشا»، فأطلقت عليه رصاصات مسدسها وقتلته. وإذا كانت «مدام فهمي» قد نفت هذه الرواية وقدمت أدلة كثيرة على هذا النفي، كان من بينها ما نسبته للقتيل من صفات قد تدعو لاشمئزازكم، فلا تدعوا الاشمئزاز يمنعكم من استخدام مواهبكم العقلية للتفتيش عما يؤيد صحة أقوالها، فإذا لم تجدوا ما يؤيدها، فلا ترددوا عن الحكم بأن القتل كان متعمدًا.. ومع سبق الإصرار.

وعند هذا الحد توقف السير «ريجبي سويفت» عن الاستطراد في التلخيص.. ليقول:

ـ إن ما أريد أن أقوله عن هذا الاحتمال وفي غيره لا يزال طويلا، ولكني قبل أن أواصل أود أن أتأكد أولًا من أنكم لا ترغبون في استراحة قصيرة، تتناولون فيها الشاي وقد تفضلون أن تؤجل القضية إلى الغد.

وبعد فترة قصيرة استطلع خلالها المتحدث باسم المحلفين آراءهم، أعلن أن أكثريتهم ترى استمرار الجلسة بعد استراحة قصيرة، بينما تفضل الأقلية التأجيل إلى اليوم التالي.. فعقب السير «ريجبي سويفت » على ذلك قائلا:

ـ نظرا لأنكم لم تجمعوا على رأي واحد ولاحتمال أن يكون بعضكم متعبا، فإنني

أفضل التأجيل إلى صباح الغد، لنكون جميعا في حالة تسمح لنا بأن نزن الاحتمالات جميعا بميزان العدل قبل أن نرجح أحدها على الآخرين.

وعندما استمعت «مدام فهمي» إلى ترجمة التلخيص الذي ورد على لسان القاضي وإلى ترجمة قراره، بدت على ملامحها تعاسة بالغة؛ إذ لم يكن لذلك معنى إلا أن عليها أن تعيش ليلة أخرى، تتقلب بين اليأس والأمل وتهرب من النوم حتى لا يتخيل أمامها وهي نائمة شبح الكرسي الكهربائي وهي تقاد إليه خاصة مع ما بدا لها من أن تلخيص القاضي ينطوي على إيحاء للمحلفين بأن القتل كان متعمدًا مع سبق الإصرار، فلا ترحمها اليقظة من كوابيس الموت قبل الأوان. ومع أنها كانت تشعر ـ في أحيان قليلة ـ بأن الأمل في براءتها ليس مستحيلا خاصة حين كانت تتحدث إلى أصدقائها ممن حرصوا على متابعة المحاكمة ليؤكدوا تضامنهم معها، وثقتهم في كفاءة محاميها، وينقلوا إليها انطباعاتهم المتفائلة عن المدى الذي وصلت إليه الصحف البريطانية والفرنسية والرأي العام في البلدين ـ خاصة بين النساء ـ في تعاطفهم معها، إلا أنها كانت تعود إلى تشاؤمها مرة أخرى؛ إذ كان الحكم ببراءة قاتل من الأحكام النادرة في تاريخ القضاء الإنجليزي المشهور بتزمته، خاصة فيما يتعلق بالجرائم العاطفية.

وكانت قد تعودت أن تدخل إلى قاعة الحكمة وتخرج منها وهي في حالة من الذهول، تستند إلى ذراعي حارستيها، وتجرجر أقدامها وكأنها لا تستطيع السير فكانت تثير بذلك عطف المحلفين والمشاهدين والصحفيين، مما دفع الناقمين عليها إلى اتهامها بالتصنع، واعتبروا ذلك مشهدا مسرحيا من المشاهد التي دربها على أدائها السير «مارشال هول». ومع أن احتمال مبالغتها في التظاهر بالضعف لاستدرار العطف كان واردا بقوة، إلا أن فزعها من المصير الذي كان ينتظرها كان هو الغالب خاصة بعد تلك الجلسة التعيسة، التي طارت أنباؤها إلى القاهرة، فأحيت الآمال في نفوس المصريين بأن القاتلة ستلقى ما تستحقه من عقاب.

وبتلك الحالة من الضعف والانهيار دخلت «مدام فهمي» إلى قاعة المحكمة في صباح اليوم التالي، وكان الزحام داخل القاعة وخارجها قد وصل إلى ذروته في هذا اليوم الأخير من أيام المحاكمة.

وافتتح السير «ريجبي سويفت» الجلسة، ثم استأنف تلخيصه للقضية من حيث انتهى في اليوم السابق فقال:

ـ شرحت لكم أمس الظروف القانونية التي تحيط باحتمال القتل عمدا وأضيف اليوم أنه إذا كان من حقكم أن تستبعدوا كل أقوال «مدام فهمي» باعتبارها صاحبة مصلحة في حملكم على الاعتقاد بصحتها فمن واجبكم ـ كذلك ـ أن تعتمدوا من

أقوالها تلك الأجزاء التي أيدتها أقوال شهود آخرين، فقد شهد الدكتور «جوردون» ومدير الفندق الليلي، بأنها قد روت لهما الواقعة على الصورة التي روتها بها في المحكمة، مما يؤكد أنها لم تصطنعها أو يصطنعها لها مستشاروها القانونيون، وهناك شواهد أخرى على صحة أجزاء أخرى من القصة كعزمها ـ المؤيد بالمستندات - على السفر إلى «باريس» في اليوم التالي لوقوع الجريمة، ومظروف الطلق الناري الفارغ الذي عثر عليه تحت نافذة غرفتها، وحبات الخرز التي تساقطت من فستانها في غرفتها وغرفة زوجها مما يمكن اعتباره دليلا على أن ما ذكرته عن وقوع مشاحنة بينها وبين المجني عليه صحيح.. فإذا ثبت لكم صدق بعض أجزاء روايتها، فقد يميل بكم ذلك إلى تصديق قصتها بمجملها.. وفي هذه الحالة يكون القتل غير عمدي.

وعند هذا الحد بدا لكثيرين من المصريين الذين كانوا يتابعون المحاكمة أن تغيرا ما قد حدث في موقف «السير ريجبي سويفت» وزايلتهم حالة التفاؤل التي جعلتهم يتوهمون بأنه يحاول الإيحاء للمحلفين بإصدار قرار بإدانة «مدام فهمي» بتهمة القتل العمد بينما واصل تلخيصه وشرحه للاحتمال الثاني قائلا:

ـ إن الحكم بأن القتل قد وقع خطأ يتطلب من الناحية القانونية دلائل على أن المتهمة قد أقدمت على القتل، وهي في حالة تحريض شديد أي استفزاز، فإذا قتل شخص شخصا آخر على إثر عدوان بدني قام به المجني عليه ضد القاتل، وكان هذا العدوان مما يمكن أن يستفز الإنسان العادي على نحو يفقده القدرة على السيطرة على نفسه، فهنا يكون القتل خطأ.

فهل في هذه القضية أدلة على أن «فهمي بك» قد استفز زوجته إلى درجة أفقدتها سيطرتها على نفسها فأطلقت عليه النار؟ لقد ادعت «مدام فهمي» بأن زوجها قد بصق في وجهها قبل لحظات من إطلاقها النار عليه، وأنه كان يحاول إكراهها على معاشرة زوجية غير طبيعية، في ظروف كان مستحيلا عليها من الناحية الجسمانية أن تتحملها.. فهل كان ذلك كفيلا بأن يستفز إنسانا عاقلا، وأن يفقده قدرته على ضبط النفس؟

إن الإجابة عن هذا السؤال بالإيجاب تتطلب ـ من الناحية القانونية المحضة ـ أن تثبتوا أولا من التلازم والتزامن بين الفعل ورد الفعل، وبين البصقة وإطلاق النار، فطبقا لرواية «مدام فهمي» ذاتها فإنها قد خرجت ـ بعد أن بصق زوجها في وجهها ـ إلى الممشى وكلمت بواب الفندق، فهل ترون أن ذلك الزمن يكفي لكي تستعيد قوة ضبطها لنفسها وأنه ليس هناك تلازم بين الفعل ورد الفعل.. وبين البصقة والقتل؟

وانتقل القاضي «ريجبي سويفت» إلى شرح الاحتمال الثالث، فقال:

ـ لكن السير «مارشال هول» لم يطالب باعتبار القتل خطأ إلا على سبيل الاحتياط..

أما مطلبه الأصلي فهو الحكم بأن المتهمة غير مذنبة لا في تهمة القتل العمد ولا في تهمة القتل الخطأ؛ لأن القتل في هذه القضية قد وقع بعذر، هو الدفاع الشرعي عن النفس، بل ووقع أيضا قضاء وقدرا. ومن رأيه أن «مدام فهمي» حين استعملت المسدس لم يخطر على بالها قط أنها كانت تستعمل مسدسا مميتا، بل كانت تعتقد أنه فارغ من الطلقات، ولم تشهره في وجه الزوج إلا لتخيفه حين أراد أن يجبرها بالقوة على العودة لغرفتها، فاعتقادها التام أن ما كانت تصوبه نحوه لم يكن يزيد على قطعة من المعدن لا ضرر منها، ومسئوليتها الجنائية لا تزيد على مسئولية إنسان صوب عصا إلى آخر، بقصد درء هجومه عليه، فقتله وحينئذ يكون القتل قد وقع بعذر، بل يكون قد وقع قضاء وقدرا.

وحتى إذا كانت «مدام فهمي» تعلم أن ما تصوبه نحو زوجها هو سلاح مميت ـ وتلك هي النظرة التي قال بها ممثل الاتهام ـ فإن ذلك لا ينفي أن القتل قد وقع بعذر والسؤال الذي يجب عليكم أن تجيبوا عليه هو: هل هناك أساس لظن «مدام فهمي» بأن حياتها كانت في خطر مما يسوِّغ لها أن تطلق نيران سلاح تعلم أنه مميت نحو زوجها على سبيل الدفاع الشرعي عن النفس؟

وللإجابة عن هذا السؤال لابد وأن تضعوا في اعتباركم طبيعة العلاقة بين الزوجين كما وردت في شهادات الشهود.. ولا علاقة لذلك بما أثير في هذه المحكمة من أقوال عن الحضارة الشرقية والحضارة الغربية، إلا بمقدار ما يكون لذلك من تأثير على العلاقة بين طرفي القضية، فنحن نبحث حالة شخصية لا ظاهرة كونية، فإذا اقتنعتم بأن «فهمي بك» قد توعد زوجته بالقتل، وبأن يكون سببا في زوالها من على ظهر الدنيا، كما ورد في الوصية التي كتبتها المتهمة أثناء شهر العسل، وأودعتها لدى محاميها المصري «ميشيل أسود»، فإنكم لا تستطيعون أن تهملوا الصلة بين هذا الوعيد وبين ما جرى في فندق «سافواي» ليلة ٩ يوليو ١٩٢٣.

وإذا صدقتم ما ذكرته شقيقة «مدام فهمي» وسائق سيارتها من أقوال عن الطريقة التي كان يعاملها بها زوجها أمامهما، فلا مفر من أن تصدقوا ما قالته هي نفسها عن وقائع قسوته في معاملتها، أما الوثيقة المخزية التي أملاها «فهمي بك» على زوجته، وأباح لها فيها أن تبحث عن عشيق ينفق عليها، فهي ـ ككثير من وقائع هذه القضية ـ مما يدعو للاشمئزاز، لكن التقزز مما سمعتموه لا ينبغي أن يخفي عنكم دلالة هذه الوثيقة، وهي أن العلاقة بين هذين الشخصين لم تكن تلك العلاقة العادية بين الرجل وزوجته التي نعرفها في بلادنا.

وقد لاموا «قليني فهمي باشا» لأنه لم يأت لتأدية الشهادة، أما أنا فلا سلطة لي لكي آمره بالمجيء، ولكن يجب ألا تفرضوا أنه لو جاء لأيَّد ما ذكرته المتهمة وشهودها

عن سوء معاملة زوجها لها، وعن تهديده إياها، وعليكم أن تكتفوا بما سمعتموه من شهود، وأن تبحثوا فيه عن إجابة عن السؤال الأساسي في هذه القضية وهو: هل كانت الطريقة التي يعامل بها «فهمي بك» زوجته كفيلة بأن تشعرها ـ سواء حقا أو وهما ـ بأنه يهدد حياتها مما يسوغ لها أن تعتقد ـ كما قالت ـ أنها لو لم تقتل زوجها لقتلها؟! يستوي في ذلك أن تكون السجينة قد ظنت أن المسدس غير محشو كما يقول الدفاع.. أو أن تكون على علم بأنه صالح للاستعمال كما يقول الاتهام؛ إذ المهم هو: هل هناك مبرر للحكم بأنها كانت في حالة دفاع شرعي عن النفس ضد خطر حقيقي أو متوهم؟

وختم السير «ريجبي سويفت» تلخيصه قائلا:

ـ سوف أترككم لاتخاذ القرار الذي يقتنع به ضمير كل منكم، رجالا ونساء، وهو لا يخرج عن واحد من ثلاثة قرارات: إما إدانة المتهمة باعتبارها قد ارتكبت جريمة القتل العمد وعقوبتها الإعدام، أو إدانتها بارتكاب جريمة القتل الخطأ وعقوبتها السجن، أواعتبارها غير مذنبة؛ لأن القتل كان دفاعا شرعيا عن النفس.



رفع القاضي الجلسة للاستراحة وانسحب المحلفون إلى غرفة خاصة، ليتداولوا في الأمر، وطال غيابهم إلى أكثر من ساعة، كانت أطول الساعات في عمر «مرجريت فهمي»، التي لم تستطع أن تواصل التظاهر بالثبات كما فعلت منذ بداية الجلسة، خاصة حين تطرق القاضي في تلخيصه إلى سرد المبررات التي قد تدعو لنجاتها من شبح الإعدام، ولكن التشاؤم عاودها، فامتقع لونها، وارتعشت شفتاها، ولم تستطع مواصلة البقاء في القاعة تحت أعين الناس، فقادتها حارستاها إلى خارجها.. بينما انشغل السير «مارشال هول» بالحديث إلى السير «برسيفال كلارك» ممثل الاتهام، وهو يعبث في يده ـ كالعادة ـ بمسدس «مدام فهمي».

وكان التوتر قد بلغ ذروته بين المشاهدين، حين أعيدت الجلسة للانعقاد، وعادت «مدام فهمي» مرة أخرى إلى قفص الاتهام، وكان الصمت مطبقا حتى بدا وكأن السيارات التي كانت تمر في الميدان الرحب الذي يقع به مبنى محكمة «أولد بايلي» قد توقفت عن الحركة، حين طلب السير «ريجبي سويفت» من المتحدث باسم المحلفين، أن يقوم بإعلان قرارهم، فقال بصوت مرتفع ظل صداه يتردد في جنبات القاعة لثوان:

ـ غير مذنبة!

كان القرار مفاجأة مذهلة لم يتوقعها عتاة المتفائلين ممن تابعوا

المحاكمة، وما كادوا يفيقون من صدمة المفاجأة، حتى ضجت قاعة المحكمة بتصفيق حاد متصل، ثم بهتافات صاخبة بحياة العدالة، ولم تملك كثيرات من النساء أنفسهن فارتفعت ضحكاتهن وهن يتبادلن التعليق على الحكم.. وغضب السير «ريجبي سويفت» مما حدث فصاح:

ـ نحن في محكمة لا في مسرح.

ورفع الجلسة وأمر بإخلاء القاعة، لكن تنفيذ الأمر لم يكن سهلا، فقد كان الجميع في حالة من التوتر يستحيل معها التحكم فيهم.. وكانت «مرجريت فهمي» هي أكثر الجميع توترا، فمع أنها كانت تعرف معنى العبارة الإنجليزية «غير مذنب» إلا أنها شكت فيما سمعته، ولم تفهم دلالته، ولعلها لو فهمتها لم تكن لتصدقها، اعتراها رعب شديد وتصورت ـ كما قالت فيما بعد ـ أن العدالة الإنجليزية المتزمتة قد طالت عمرها، وأن الجمهور يصفق فرحا بالانتقام منها، فدارت بها الدنيا، ولم تعرف ماذا تقول لعشرات ممن احتشدوا حول القفص لكي يهنئوها بالبراءة، واحتاجت إلى وقت حتى استطاعت أن تستوعب صوت المترجم وهو يقول لها بالفرنسية:

ـ أنت مطلقة السبيل.

وحين أدركت تلك الحقيقة كاد يغشى عليها، فسحبتها حارستاها إلى الخارج، ولم تتنبه إلا فيما بعد إلى أنها لم تشكر محاميها الذي لولاه لما نجت من الإعدام أو على الأقل السجن لعدة سنوات، أما هو فقد تصبب كل جسده عرقا، بمجرد أن سمع بالحكم، فانسحب في هدوء دون أن يتنبه له أحد، ولم يشأ أن يثقل على موكلته في تلك اللحظة الرهيبة من عمرها.

وبعد ساعتين كانت «مدام فهمي» قد انتقلت للإقامة في جناح خاص بفندق «وست إند» حيث كانت تقيم شقيقتها «إيفون» وعدد آخر من أصدقاء «ماجي» الذين كانوا يديرون معركة إنقاذ حياتها. وكان الدكتور «جوردون» هو أول من زارها، فقام بفحصها وقال لها إنها على وجه الإجمال في حالة صحية طيبة، وإن كانت في حاجة إلى الراحة، وربما لبعض الفحوص الطبية الاحتياطية، وكان لا يزال يتحدث إليها، حين بدأت طلائع الهجوم الصحفي الذي كان متوقعا بعد صدور الحكم ببراءتها، فاستأذن مندوب عن جريدة «الويكلي دي ديسباتش» الإنجليزية في لقائها، ومع أنها كانت لا تزال متعبة، إلا أن ميولها الاستعراضية قد غلبتها، فوافقت على لقائه على الفور.

ولعلها ـ بعد أن نجت من الموت الذي كان يتهددها ـ قد اكتشفت مدى الفائدة

التي عادت عليها من الكارثة، فقد أصبحت ـ كما كانت تريد دائما ـ نجمة عالمية تهتم صحف العالم بأخبارها وأحاديثها وصورها، وكانت لا تزال ترتدي ثوب الموسلين الأسود الشفاف الذي ظلت تحضر به جلسات المحاكمة وتريح جسدها إلى شيزلونج طويل، وفي يدها كأس صغير من «البندكتين» ترفعها إلى شفتيها بين الحين والآخر، حين دخل عليها محرر «الويكلي ديسباتش».

وبمهارة شديدة توقّت «مدام فهمي» التطرق إلى سرد الذكريات التي انتهت بقتل زوجها، وركزت على الموقف الصعب الذي عاشته خلال الأيام الستة التي استغرقتها المحاكمة، وقالت إن أصعب ما واجهته خلالها هو أنها لم تكن قادرة على فهم معظم ما قيل أثناء الجلسات، إذ لم يكن يترجم لها من الوقائع إلا ما يرى القاضي ضرورة لترجمته إليها، أو ما يتطوع المترجم بنقله إليها همسا أثناء الجلسة، أو موجزًا أثناء الاستراحة، فكان عليها أن تعتمد في فهم ما يدور على التقارب في النطق ما بين بعض الكلمات الإنجليزية والفرنسية، أو على ما يبدو على وجه المتحدث من تعبيرات.

وأضافت أن حارستيها كانتا تتعاطفان معها، فكانت تدرك من انسحاب الدم من وجه إحداهما أن مركزها سيئ وموقفها محرج.. أما الثانية فكانت قد اتفقت معها على أن تطأ قدمها بقدمها إذا تحسن موقفها، وكانت بعض الجلسات تمضي دون أن تتلقى أية إشارة على أن الموقف يدعو للتفاؤل.

ثم ضحكت ضحكة خافتة.. وقالت:

ـ كنت أحاول أن أقرأ ما يدور في الجلسات على ملامح وجه السير «برسيفال كلارك» وفي تعبيرات صوته، وكثيرا ما كان صوته يتحشرج، فيسعل ليسلّك حنجرته، أو يقوم بحركات عصبية أخرى كتعديل ثيابه الرسمية وتسوية شعره المستعار، وكنت أعتبر عصبيته دليلا على أنه لا يجد ما يثبت به التهمة عليّ، لكنه كان يسكت أحيانا فأعود إلى التشاؤم، أما الذي غاظني منه فهو جملة كان من سوء الحظ أنني فهمتها، فقد صاح وهو يشير إليّ قائلا: هذه المرأة التي يبلغ عمرها الثانية والثلاثين. قال ذلك بنبرات توحي لمن يسمعها بأنني في الخامسة والستين.. ولم أكن أعرف أن الإنجليز يعتبرون الثلاثين عمرا متقدما.. فهل تراني عجوزا إلى هذه الدرجة؟ أم أن الشعر المستعار الذي كان السير «برسيفال» يضعه على رأسه، هو الذي جعله يتصور ذلك؟

وبعد لحظة صمت زايلتها خلالها الابتسامة، رفعت الكأس إلى شفتيها وقالت:

ـ كانت ليلة أمس صعبة على الرغم من أن جميع من بالسجن كانوا يحاولون التخفيف عني، وقد أصر الطبيب رغم معارضتي على أن يحقنني بمخدر لأستطيع أن أنام.. وفي ساعة متأخرة من الليل جاءوا بامرأة مصابة بالحمى إلى الزنزانة المجاورة، فظلت تهذي وتصرخ طوال الليل.. ولا أعرف هل نمت أم لا.. لكنني أذكر أنني

وضعت ثوبي على قدمي من البرد، وكنت أسمع صرخاتها المحمومة طوال الليل، بينما أطوف فوق السحاب من أثر المخدر.

وكبحت «مدام فهمي» دموعا أوشكت أن تنسكب من عينيها وقالت:

ـ سيسافر أصدقائي وشقيقتي غدا إلى باريس.. وسألحق بهم عندما يأذن الأطباء لي بالسفر، أما ابنتي فإنها تنتظرني الآن على الجانب الآخر من المانش، آه.. ما أشد القلق الذي عانته!

وكان لابد وأن تمر ساعة أخرى تستعيد فيها «مدام فهمي» توازنها لتتذكر أنها نسيت أن تشكر السير «مارشال هول» فتكتب له خطابا قصيرا قالت فيه:

ـ «سيدي الأستاذ.. في غمرة السعادة القصوى التي أحسها، تشوب فرحتي غصة واحدة هي أنني لم أستطع أن أشد على يدك وأقول لك شكرا، فقد كان انفعالي من القوة بحيث أرجو أن تغفر لي أنني أغمضت عيني وتركتهم يأخذونني إلى الخارج».

ووقعته بعبارة «الشاكرة الممتنة مرجريت فهمي».

وفى اليوم التالى أجاب عليها «مارشال هول» ـ الذي كان قد توجه إلى كوخه الريفى بضاحية بروك ليأخذ قسطا من الراحة ـ برسالة شكر رقيقة تمنى لها في نهايتها أن تعوّضها الأيام عما قاسته في عامها الأخير.

وفى تلك الأثناء كانت برقيات التهاني تنهال عليه من بريطانيا وفرنسا وبلاد أخرى كثيرة من العالم، تشيد بالنصر العظيم الذي أضافه إلى قائمة انتصاراته القضائية، وتحيي فيه العبقرية والتفاني في أداء الواجب، اللذين لولاهما لما حصل على البراءة في قضية من النوع الذي يوصف بأنه ميئوس منه، وكان مما زاده فخرا أن مئات من هذه البرقيات أرسلها كبار المحامين ورجال الهيئات القضائية في عديد من البلدان، لم تكن له صلة مباشرة بهم، وجمع الذين يعرفون أن هذا اليوم يوافق عيد ميلاده السادس والستين بين تهنئته بعيد النصر.. وتهنئته بعيد ميلاده.

الفصل التاسع

شرق وغرب.. ومحافظون ومجددون



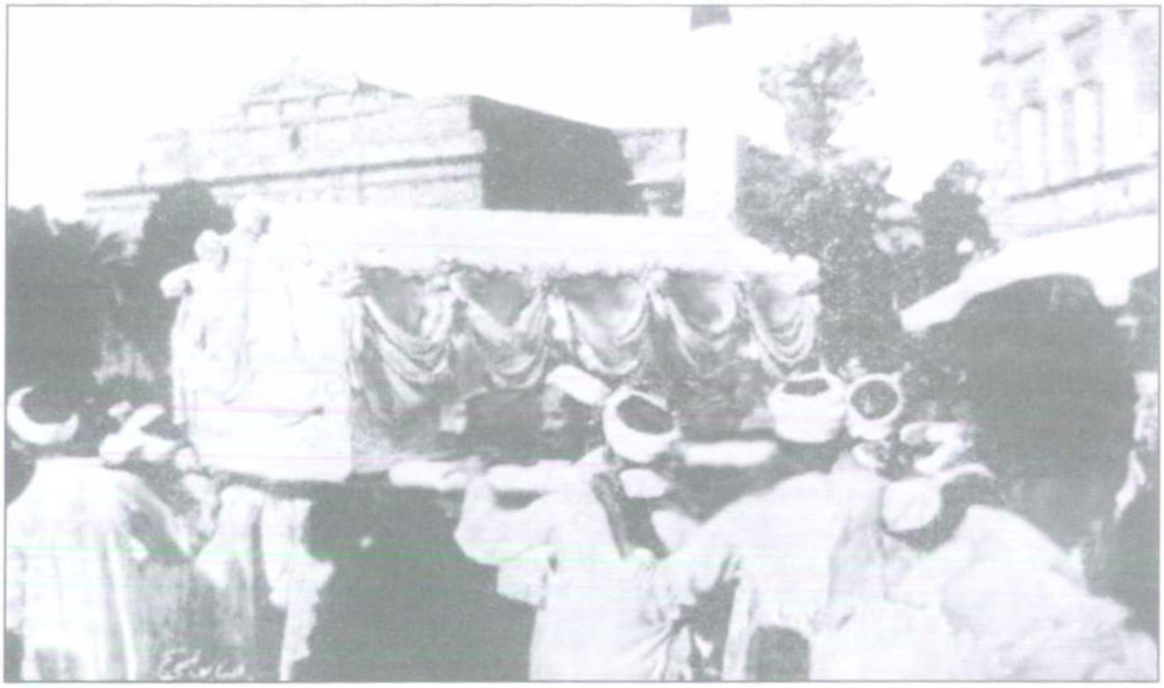
إن قانون الاستغلال الـذي يحكم العلاقة بين الغرب والشرق هو نفسه الـذي يحكم العلاقة بين الأغنياء والفقراء داخل البلاد الشرقية نفسها.. وقد خلع هذا الشاب المصري على فتاة أوروبية ـ يكاد سنها يعادل سن أمه ـ قناطير الذهب الذي ربحه له عشرات الألوف من المصريين، فكانت النتيجة أن مات بيد من أهدى إليها ثمرات كد وعرق الفقراء في بلاده.

عمر عنايت

مراسل «الأخبار» في الأستانة



النبيلة فاطمة حيدر (١٩٠٣/١٩٨٣) ابنة شقيقة «علي فهمي» الكبرى «زينب» من الأمير «حيدر فاضل»



٤ أغسطس ١٩٢٣: جثمان علي فهمي يعبر ميدان الأوبرا وقد غطي بالأقمشة الحريرية البيضاء إشارة إلى شبابه الذي ضاع قبل الأوان

33

لكن أحدا في مصر أو في غيرها من البلاد العربية، والبلاد التي كانت تعرف آنذاك، ببلاد الشرق الأدنى لم يهنئ السير «مارشال هول» بأي من العيدين، ولم يعتبر أنه حقق نصرا أو تفانى في أداء واجب، أو انتزع البراءة لبريء. ولم تخطئ مجلة «السيدات والرجال» ـ لصاحبة امتيازها ومحررة القسم النسائي بها «روز أنطوان حداد» ومحررها المسئول «نقولا الحداد» ـ حين قالت: «إن الحكم ببراءة «مدام فهمي» كانت له رجة غير اعتيادية في المجتمع الإنساني كله، كرجة الزلزال الياباني، تختلف باختلاف الجو الذي ماج بها، ففي إنجلترا وفرنسا كانت له رجة طرب.. وفي الشرق الأدنى كانت له رجة غضب».

والحقيقة أن وكالات الأنباء الغربية لم تقصر في استفزاز الشرقيين واستغضابهم، فلم تحرص وحسب على نقل مرافعة السير «مارشال هول» بما تضمنته من عبارات تندد بهم وبحضارتهم، وتقرن بينهم وبين الحيوانات البرية التي لم تتلق تعليما أو تهذيبا أو تربية، بل وحرصت كذلك على أن تنقل مظاهر الفرح والحماسة التي قوبل بها الحكم في بريطانيا ثم فرنسا، فقد تظاهرت السيدات الإنجليزيات أمام فندق «وست إند» الذي تقيم فيه «مدام فهمي»، وأرسلن وفدا عنهن قام بتقديم باقات الزهور إليها.

وتعددت الوفود التي جاءت لتهنئتها وحفلات التكريم التي أقيمت بمناسبة براءتها، واحتفت بها الجمعيات النسائية البريطانية، باعتبارها رمزا للمرأة الأوروبية التي أبت

أن تستنيم للعبودية الشرقية، وحافظت على تقاليد الغرب التحررية وانتزعت حريتها بالدم وأبت أن تكون جارية غربية لرجل شرقي. وقال نبأ لوكالة «رويترز» من باريس «إن الجماهير الفرنسية كانت تتابع أنباء محاكمة «مدام فهمي» باهتمام شديد وأن خبر براءتها قد قوبل بارتياح تام في الدوائر النسائية، وأن مظاهرات تضم عدة مئات من النساء الفرنسيات قد طافت بشوارع العاصمة تهتف بحياة العدالة البريطانية».

ولم يكن لذلك معنى إلا أن النظرية التي بنى عليها السير «مارشال هول» دفاعه هي التي سادت بين الرأي العام الأوروبي، رغم تحذير السير «ريجبي سويفت» للمحلفين من الاعتداد بها، ومع أنها لم تكن من بين حيثيات حكم البراءة الذي صدم مشاعر المصريين ـ والشرقيين عموما ـ بقوة.

وكان التكييف الحضاري الذي كيّف به السير «مارشال هول» وقائع القضية والتعميم الذي جعله ينسب مثالب «علي فهمي» الأخلاقية إلى القومية التي ينتسب إليها، بدلًا من قصرها على شخصه، هو الذي نقل اهتمام المصريين ـ ثم الشرقيين ـ بها من مستوى النظر إليها باعتبارها جناية قتل عادية، لا تثير اهتماما إلا لدى المعنيين بقضايا الأسرة، ولا تدعو في أحسن الأحوال إلا إلى مناقشة حول الزواج المختلط الجنسية، إلى مستوى النظر إليها باعتبارها قضية سياسية وحضارية، ولولا ذلك لما تصاعد اهتمام الصحف المصرية والعربية بها إلى الذروة، مما اضطر العدد القليل من الصحف التي تجاهلت وقائعها باعتبارها أمرا لا يهم سوى أطرافه، ولا يجوز لها أن تتحدث عنه، إلى استدراك موقفها بعد أن تحولت القضية إلى قضية وطنية تتعلق بشرف المصريين والعرب، وبحضارة الشرقيين عموما.

لم تكن الهموم التي كان العرب يعيشون في ظلها آنذاك، تترك لهم وقتا للاهتمام الواسع بمثل هذا النوع من القضايا، ففي مصر كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق لإجراء المرحلة الأولى من أول انتخابات عامة بعد الثورة، وفي سوريا كانت الضغوط تتواصل للإفراج عن الزعيم السوري الدكتور «عبد الرحمن الشهبندر» وزملائه الذين اعتقلتهم سلطات الانتداب الفرنسي، وفي فلسطين كانت هناك حركة لمقاومة «وعد بلفور» ولجمع تبرعات لإصلاح المسجد الأقصى، وكانت الاحتفالات بتوقيع «اتفاقية لوزان» وإتمام الصلح مع الحلفاء قائمة على قدم وساق في تركيا، بينما كانت المحافل الخاصة والعامة في العاصمة التركية ـ كما قال مراسل صحيفة «الأخبار» المصرية في «الأستانة» ـ تتحدث بأسى عن براءة المرأة الفرنسية القاتلة، وعن استباحة التعصب الغربي لدماء الشرقيين.

على عكس الاعتقاد الذي كان شائعا في القاهرة قال مراسل «الأهرام» في لندن: إن الحكم ببراءة «مدام فهمي» كان متوقعا منذ أدلت بأقوالها أمام المحلفين في اليوم

الثالث من أيام المحاكمة، خاصة بعد التأثير الذي أحدثته مرافعة السير «مارشال هول» في نفوسهم، وأن الأستاذين «عبدالفتاح رجائي» و«عبد الرحمن البيلي» ـ المحاميين المصريين اللذين وكلتهما أسرة القتيل لمساعدة ممثل الاتهام في إثبات التهمة ضد القاتلة والعمل على الدفاع عن سمعة المجني عليه ـ قد نصحا شقيقته «عائشة فهمي» وزوجها الدكتور «أحمد سعيد» بألا يحضرا جلسة النطق بالحكم، لكي يتوقيا الاستماع إلى قرار البراءة، وما سوف يعقبه من ردود أفعال شامتة، فاستجابا للنصيحة وأضاف المراسل بأن «على المصريين أن يتوقعوا حملات شديدة عليهم في الصحف الإنجليزية خلال الأسابيع القادمة».

ولم يكن المصريون في حاجة إلى تلك النبوءة؛ إذ كانت أعداد الصحف الإنجليزية والفرنسية التي تحمل النص شبه الكامل لوقائع المحاكمة، بما في ذلك أقوال «مدام فهمي» وإيماءات «مارشال هول» ثم مرافعته، قد وصلت للقاهرة وأتيح للنخبة المثقفة من الصحفيين والمشتغلين بالعمل السياسي ورجال القضاء أن يقرءوها، ليكتشفوا أن وكالات الأنباء ـ على فظاعة ما كانت تنقله من وقائع المحاكمة ـ كانت رحيمة بهم، وهالهم ما وصفت به أخلاقهم وأخلاق الشرقيين عموما من اعوجاج نفسي واجتماعي، وخروج عن نواميس الطبيعة، بعبارات بالغة القسوة، حتى إن المسيو «مارسيلياك» ـ مراسل جريدة «الجورنال» الفرنسية في لندن ـ وهو الصحفي الفرنسي الوحيد الذي لم يترك من وقائع المحاكمة، واقعة ـ كبيرة أو صغيرة ـ إلا أحصاها، ولم يدع نقطة شخصية دقيقة أو غير دقيقة إلا وأسهب في ذكرها، استحى أن يذكر ما نسبه «مارشال هول» للشرقيين، واكتفى بأنه قال «إنه وصفهم بصفات جارحة امتعضت لها نفوس الجمع الغفير من المصريين والهنود الذين كانوا يتابعون الجلسات».

وكان منطقيا أن يعتبر المصريون الحكم ببراءة القاتلة تأييدا لما وصفهم به «مارشال هول»، وأن يتجاوز ردهم عليه الهجوم على شخصه أو تفنيد ما قال، إلى التشكيك في عدالة القضاء الإنجليزي، على الرغم من أن النخبة المصرية التي عانت طويلا من نظم الحكم الاستبدادية التي يجمع فيها الحاكم بين السلطات الثلاث التشريعية والقضائية والتنفيذية، ويستطيع بكلمة منه أن يقضي بإعدام أي إنسان دون تحقيق أو دفاع أو محاكمة، كانت تحتفظ بدرجة ما من الإعجاب بالنظام القضائي الأوروبي منذ شاهدت الطريقة التي حاكم بها الفرنسيون «سليمان الحلبي» قاتل الجنرال «كليبر» أثناء الحملة الفرنسية؛ حتى إن المؤرخ «عبد الرحمن الجبرتي» دهش لأنهم حاكموه محاكمة اعتبرها ـ بالقياس إلى ما كان يحدث في عصره- محاكمة عادلة، فمع أنه قتل كبيرهم وضبط ومعه أداة القتل، إلا أنهم لم يعجِّلوا بقتله هو ومن اعترف بأنه التقى بهم أثناء إقامته في القاهرة،بل حققوا معه وتحققوا من صدق اعترافه على نفسه وعلى الآخرين، ثم حاكموه وحاكموهم محاكمة عادلة انتهت بإطلاق سراح من لم

تثبت بحقه التهمة ممن قبضوا عليه، مما جعل «الجبرتي» يعتبر ذلك دليلًا على «ضبط الأحكام» لدى هؤلاء الفرنسيين الذين كانوا في رأيه «ممن يحكمون العقل ولا يدينون بدين» على عكس «أوباش العسكر العثمانلية الذين يدعون الإسلام ويتجرءون على قتل الأنفس لمجرد شهواتهم الحيوانية».

ومع أن إعجاب المصريين بالنظام القضائي الأوروبي قد تزايد بعد أن دعم البريطانيون مشروع إنشاء المحاكم الأهلية المصرية التي افتتحت رسميا في العام التالي لاحتلالهم لمصر.. فأصبحت مرجعا يطمئن كل مصري إلى أنه يستطيع الحصول على حقوقه المدنية عن طريقه، مهما كانت مكانة خصمه، ويضمن له محاكمة عادلة إذا كان متهما في قضية جنائية، إلا أن هذا الإعجاب قد أخذ يتراجع مع تزايد تلك الأشكال من القمع القضائي التي اتخذوها للدفاع عن احتلالهم، خاصة بعد المحاكم الاستثنائية التي شكلت لمحاكمة من يقومون بأعمال عدوانية ضد جيش الاحتلال، وقد وصلت إلى ذروتها في المحاكمة غير العادلة للمتهمين في «قضية دنشواي» ثم في محاكمة من قاموا بأعمال من هذا النوع أثناء ثورة ١٩١٩ أمام محاكم عسكرية بريطانية كانت تحكم عليهم بأحكام قاسية تفتقد للعدل، أو لا تقدر الدوافع الوطنية التي كانت تدفعهم للقيام بذلك النوع من الأعمال.

لكن هذا التراجع في إعجاب المصريين بالعدالة الأوروبية لم يشمل يقينهم بأن الأوروبيين عادلون في بلادهم حتى ولو كانوا غير عادلين مع الشعوب التي يستعمرونها، إلى أن صدر الحكم ببراءة «مدام فهمي»، فتزلزل هذا اليقين وفقدت العدالة الأوروبية كل ما كان قد تبقى لها من رصيد الإعجاب.

وكان صدور حكم البراءة عن محكمة بريطانية، وليست فرنسية، أحد أسباب الشك في عدالته إذ لم يسبق للقضاء البريطاني ـ المعروف بتزمته ـ أن أصدر حكما ببراءة قاتل اعترف بالقتل وضبط متلبسا أمام جثة ضحيته وبيده أداة القتل وعلى ثيابه دماء القتيل، فالقانون البريطاني يفترض ـ ابتداء ـ أن كل جريمة قتل، قد وقعت على سبيل العمد، فيقضي بإعدام القاتل ما لم يثبت غير ذلك، فيكون القتل قد وقع خطأ، ويكون السجن

الأمير «حيدر فاضل»، زوج «زينب فهمي» شقيقة «علي فهمي» الكبرى وبسبب هذه الصلة منح «علي» لنفسه لقب الأمير، الذي لم يكن يحق له حمله، وهو ابن الأمير رشدي فاضل، ابن الأمير مصطفى فاضل ابن إبراهيم باشا الكبير. درس الآداب الفرنسية في الأستانة واشتغل بالعلم والأدب. وله كتب ودواوين شعر بالفرنسية، توفي عام ١٩٢٩



ـ وليس البراءة ـ هو أقل ما يستحقه القاتل من عقوبة على عكس القانون الفرنسي الأكثر مرونة، والذي يعطي الصدارة لدوافع القتل خاصة إذا كانت عاطفية، لذلك لم تكن أحكام القضاء الفرنسي ببراءة المتهم الذي تثبت في حقه تهمة القتل تدهش أحدا.

وقد أرجع بحث نشرته جريدة «السياسة» ـ لسان حال «حزب الأحرار الدستوريين»، وكان يرأس تحريرها الدكتور «محمد حسين هيكل» ـ هذا الفارق بين القانونين والقضاءين، إلى الفارق بين الشخصيتين القوميتين الفرنسية والإنجليزية. فمزاج الأمة الفرنسية- في رأي كاتب البحث الذي وقعه بالحرفين ن. ش ـ خليط من المزاج العصبي والدموي، مما يجعلها أمة سريعة الانفعال، تغلب حكم القلب على حكم العقل، أما مزاج الأمة الإنجليزية فهو خليط من المزاج البلغمي اللمفاوي، والمزاج السوداوي الذي لا ينفعل صاحبه للحوادث حتى يحكم عقله فيها، ثم يأمر قلبه بالانفعال فينفعل حينئذ لا قبله.

وفي معرض شرحه لتأثير هذا الفارق بين المزاجين على أحكام القضاء، ضرب كاتب البحث ـ الذي وصفه بأنه بحث اجتماعي تاريخي ـ مثلا بقضيتين معاصرتين لقضية «مدام فهمي» وتقتربان منها من حيث الظروف، كانت المتهمة في كل منهما امرأة،وكانت التهمة في كل منهما هي القتل، أما الأولى فهي قضية «مدام كايو»، وهي امرأة فرنسية قتلت عمدا مع سبق الإصرار والترصد «المسيو كليمنت» ـ رئيس تحرير جريدة «الفيجارو»الفرنسية الشهيرة ـ بسبب ما كان يشنه من حملات صحفية ضد زوجها، أما الثانية فهي قضية «مسز طومسون» وهي امرأة بريطانية حرضت عشيقها وتواطأت معه على قتل زوجها، فبرأت المحكمة الفرنسية «مدام كايو»، بينما حكمت المحكمة البريطانية بإعدام «مسز طومسون»، وفي تفسيره لذلك أضاف سببا آخر ـ غير التباين بين المزاجين ـ فقال:«إن الإنجليز مع شدة عطفهم على المرأة وعظم مكانتها في قلوبهم ورفعة قدرها في العائلة، يحملونها من التبعة ما يتناسب مع تلك المكانة وما يلائم ذلك القدر».

ولأن المصريين كانوا على يقين بأن القضاء البريطاني سيحكم بإدانة «مدام فهمي»، فقد تلقوا بشيء من السخرية ما كانت وكالات الأنباء تذيعه من وصف للعروض المسرحية التي قامت بها أثناء جلسات المحاكمة، وجزموا بأنها لن تكون ذات تأثير على المحكمة، إذ كانت «مسز طومسون»- كما قال كاتب البحث الذي نشرته جريدة «السياسية» ـ تتلوى وتمتقع بل ويغمى عليها قبل الحكم وبعده، وتلعب بمنديلها لعب فاقد الوجدان كما فعلت «مدام فهمي»، فلم يؤثر ذلك في المحكمة أو في المحلفين، وكان بينهم نساء بل إن العرائض التي انهالت على وزير الداخلية ـ بعد

صدور الحكم بإعدامها ـ لم تلتمس تخفيف الحكم عنها، بل عن الشاب بحجة نزق شبابه وضعف عواطفه.

لذلك كله، فقد كان منطقيا أن تكون الدهشة بل الذهول، ثم الريبة، هي مستويات ردود أفعال الشرقيين عموما، والمصريين خصوصا على الحكم ببراءة «مدام فهمي» الذي جاء مفاجأة مزعجة أحزنتهم وأغضبتهم، ليس فقط لأنها أفقدتهم ما كان قد تبقى لديهم من إعجاب بالعدالة الأوروبية، وكانوا لا يزالون يمنون النفس، بأن تساعدهم في الحصول على حقوقهم القومية والوطنية، بل لأنه بدا لهم ـ كذلك ـ حكما قاسيا بعدم أهليتهم للاستقلال، وعدم استحقاقهم للمساواة، وتأكيدا جديدا على أن ما أشاعه الحلفاء ـ أثناء الحرب العالمية الأولى ـ عن حق الشعوب في تقرير مصيرها، وما أعلنته عصبة الأمم من المساواة بين القوميات، هو مجرد وهم كبير، وأن نظرة الغرب العنصرية المتعالية، بل المتشامخة على الشرق لا تزال هي التي تسود العالم.

ولم يكن هناك مفر أمام المصريين من البحث عن مبرر لصدور أول حكم من القضاء البريطاني ببراءة قاتل معترف بالقتل، غير السبب الحقيقي الذي استند عليه الحكم، وهو أن «علي فهمي» كان يسيء معاملة زوجته، وفضلا عن أن ذلك قد بدا كما لو كان إقرارا منهم بأن إساءة معاملة الزوجة أمر طبيعي، فقد دفعهم إلى شكل من أشكال التعاطف مع القتيل، أو على الأقل تجاهل مسئوليته عما أصابه وأصاب الوطن من تشهير بسبب سوء اختياره لشريكة حياته، أو سوء معاملته لها، حتى لا يتخذ خصومهم من اعترافهم بنقائصه دليلا على إقرارهم بمصداقية ما طالهم من سباب فاحش على لسان الدفاع.

وفي هذا المناخ الذي انشغل فيه الجميع بالدفاع عن كرامة الشرقيين وشرف المصريين، نزل أصدقاء «علي فهمي» إلى الحلبة ليدافعوا عن سمعته، وفي طليعتهم مستشاره القانوني وصديقه الحميم «محمود أبو الفتح» ـ وقد أصبح صحفيا لامعا، وواحدا من كبار رجال الأعمال فيما بعد، وارتبط اسمه بصحيفة «المصري» اليومية التي شارك في إصدارها، ثم انفرد بملكيتها عام ١٩٣٨ ـ إذ كان أول من تنبه إلى الدور الذي سوف تلعبه الدعاية في قضية مقتل صديقه، فبادر بإصدار جريدة يومية باسم «الجمهور» صدر عددها الأول في ٢١ يوليو ١٩٢٣ ـ أي بعد أقل من أسبوعين على وقوع جريمة فندق سافواي ـ ومع أن محررها قال: إنها تصدر لتكون إحدى صحف «الوفد»، إلا أن أنباء وصور قضية مقتل «علي فهمي» ظلت تحتل



محمد حسين هيكل بك رئيس تحرير جريدة «السياسة»

مانشتاتها وكل صفحاتها الأولى لأيام متتالية، كما نشرت بتوسع معلومات كثيرة عن القتيل والقاتلة، واتسمت متابعة مراسلها اللندني لمراحل التحقيق الأولى بدرجة من الدقة والتفصيل توحي بأنه كان على صلة وثيقة بالقضية، ولعله كان «سعيد العناني» نفسه، كما أفردت مساحات واسعة للشعراء الذين رثوا «علي فهمي»، مما دفع مجلة «الكشكول» ـ المعادية للوفد ـ للسخرية منها ووصفها بأنها «جريدة وفدية علي فهمية».

ولأن الاتجاه الذي كان شائعا آنذاك كان ينظر إلى «علي فهمي» باعتباره رمزا قوميا لا مصلحة في الهجوم عليه، فقد شجع ذلك الجريدة الناطقة باسمه على التصدى للصحف التي حاولت تحميله المسئولية عما انتهى إليه من مصير، بأسلوب عنيف قضى على حملة انتقاده في مهدها.. فما كادت مجلة «اللطائف المصورة» تنشر ـ في هذا الاتجاه ـ مقالا بعنوان «علي كامل بك فهمي: حقائق صحيحة عنه» حتى نشرت «الجمهور» إنذارا على شكل خبر بأن بعض أقارب «علي فهمي» سيقاضونها لنشرها مقالا مليئا بالأكاذيب ضد المرحوم.

ثم تنبهت فيما يبدو إلى أن إجراءات التقاضي سوف تطول لفترة، يظل خلالها ما نسبته «اللطائف» إلى القتيل دون تفنيد، فآثر «محمود أبو الفتح» أن يمارس حقه في الرد، وكتب مقالًا بالعنوان نفسه استهله بهجوم عنيف على «اللطائف» التي «استحلت أن تأكل من لحم الميت الذي ملأ فم صاحبها بالذهب حيا»، واعتبر اليد التي كتبت المقال يدا آثمة أخرى، تمتد لتكمل ما بدأته يد القاتلة وتقضي على ما تبقى من «علي فهمي» فتسوئ ـ بالاختلاق والكذب ـ ذكراه. ونفى «أبو الفتح» ـ باعتباره ممن كانوا يعرفون الأمير الشاب ويعاشرونه ـ كل ما نسبته إليه «اللطائف» من رذائل أخلاقية، وقال إنه كان يكره الخمر ولا يذوقها، وأن أحدا لا يستطيع أن يزعم أنه رآه يحتسي كأسا من الخمر، وجزم بأنه ـ على عكس كثيرين من المصريين ممن هم في مثل ثروته ـ لم يكن يعرف لعبة واحدة من ألعاب القمار، فضلا عن أن يمارسها، كما أفاض في الحديث عن حبه للخير وعما كان يقدمه من إحسان للطلبة الفقراء.

ووصلت به المبالغة في الدفاع عن ذكرى صديقه إلى حد الزعم بأنه كان يفضل قضاء كل وقته في بيته، أو في إدارة دائرته، مكبا على عمله، وفي إيماءة لعل المقصود منها هو «إسكندر مكاريوس» ـ صاحب مجلة «اللطائف المصورة» ـ قال: «إن الأفاقين وسماسرة الرتب والأوسمة الأجنبية في هذه البلاد يعرفون أنه رفض مشروعات كثيرة عرضوها عليه لإقامة حفلات تكريم لشخصه، أو لشراء نياشين وألقاب من بعض البلاد الأجنبية لأنه كان يعلم أنهم نصابون».

وما كاد الخبر ينشر ثم يتلوه التعليق حتى ارتعدت فرائص «اللطائف المصورة»،

فغيرت موقفها، ونشرت مقالا للكاتب المتفنن «توفيق مفرح»، تحدث فيه عن فضائل القتيل ووضع فأس المسئولية عما انتهى إليه من مصير مفجع في رقبة «مرجريت فهمي»، وهي نغمة سادت لدى بعض المدافعين عن ذكرى «علي فهمي» من الكتاب والشعراء، وتجاوزت ـ لدى بعضهم ـ شخص «مرجريت» إلى غيرها من النساء فربطت بين المرأة والشر وبين الحب ومصارع الأبطال.

وكان من رأي «محمود أبو الفتح» أن الحماقة الوحيدة التي وقع فيها «علي فهمي» هو أنه ـ بسبب حداثة سنه وقلة خبرته بالنساء ـ قد أحب امرأة ليست أهلًا له، و«لكن من ذا الذي لم يأت حماقة غرامية في سن العشرين؟» بينما قال الشاعر «بديع خيري» في قصيدة فصيحة رثاه بها «ماذا يعيبك والملوك تديل دولتهم نساء؟/ الغانيات بمصر هن الغانيات بكربلاء/ صرعتك فاتنة وكم صرع الفواتن أتقياء».

وأغرى نجاح «الجمهور» في التصدي للصحف المصرية التي حاولت تجريح القتيل، صاحبها «محمود أبو الفتح» بأن يعرض على أسرته فكرة سفره إلى لندن، ليتابع القضية، ولكي يقوم بحملة بروباجندا مضادة للحملة التي كان ـ بحكم خبرته الصحفية ـ يتوقع أن ينظمها أصدقاء القاتلة في الصحف اللندنية، لكن الفكرة لم تجد حماسة كافيا لدى أسرة القتيل وهو ما انتقدها بسببه ـ بعد صدور حكم البراءة ـ كثيرون كان من رأيهم أن القضية بمجملها كانت قضية بروباجندا، وأن التقاعس عن الدخول في هذا المجال هو الذي أدى إلى انتصار «مرجريت» عليهم.

ولم يكن غريبا أن تلتزم «الجمهور» الصمت التام عندما بدأت المحاكمة وأن تمتنع عن نشر خبر واحد عما جرى في الجلسات، وتكف تماما عن ذكر شيء يتعلق بـ«علي فهمي»، ففضلا عن أن اسم صاحبها كان من بين الأسماء التي وردت أثناء المحاكمة، فقد كانت الحقائق التي أذيعت عن القتيل من البشاعة، بحيث يصعب الدفاع عنها أو تبريرها، مما اضطرها ـ خلال تلك الفترة ـ إلى التحول من جريدة «وفدية علي فهمية» إلى جريدة «وفدية فقط».

والغالب أن الجميع كانوا يدركون مدى صعوبة الدفاع عن ذكرى رجل مثل «علي فهمي» حتى لو كان ذلك ضروريا للدفاع عن سمعة الوطن، بل لعل كثيرين منهم قد وجدوا في الدمج بين سمعته وسمعة المصريين، اعترافا بصدق التعميم الذي قامت على أساسه الحملة المضادة، لذلك ركزوا دفاعهم على القول بأن «علي فهمي» ليس المصريين، وافتقدت القصائد التي كتبت في رثائه لصدق المشاعر، وغلب عليها النَّظم، وركزت على المواعظ التقليدية، من انعدام الوفاء بين الذين غمرهم وهو حي بنداه، فهاجموه وهو ميت، إلى البكاء على الشاب الذي ضن عليه الزمان بالإسعاد

فمضى دون أن تكتحل عيناه بالسكنى فيما أنشأه من قصور وعمره من رياض واشتراه من زوارق ويخوت.

وفضلا عن مسئولية «علي فهمي» نفسه عما أصابه وأصاب المصريين من ورائه، فقد حملت الصحف أسرته الجانب من المسئولية عن براءة المتهمة؛ إذ لم تقم بدور في الدفاع عن القتيل، يوازن الدور الذي قام به أصدقاء القاتلة في الدفاع عنها، واكتفت بإيفاد اثنين من كبار المحامين المصريين، لمساعدة ممثل الاتهام ونفخ روح السخط والغضب في نفوس المحلفين ضد المتهمة حتى يحكموا بأنها مذنبة، فلم ينجحا في مهمتهما، لغموض الهدف الذي أوفدتهما الأسرة لتحقيقه، وعجز الطرفان عن اكتشاف وسائل فعالة لتحقيقه.

وكان أهم ما قام به أحدهما ـ وهو الأستاذ «عبد الرحمن رجائي» ـ هو محاولة الاستعانة بنفوذ المستر «كين بويد» ـ وهو ضابط شرطة إنجليزي كان يعمل آنذاك مديرا للإدارة الأوروبية بوزارة الداخلية المصرية، ويقضي إجازته في مسقط رأسه بإحدى القرى الإنجليزية ـ فكتب له تلغرافا يرجوه فيه سرعة الحضور إلى لندن لمساعدته في جمع معلومات تثبت التهمة ضد القاتلة ـ بحكم خبرته الشرطية ـ لكن المستر «كين بويد» لم يتحمس للعرض ورد عليه بأنه سيعود إلى لندن بعد شهرين. فلم يجد أمامه ما يفعله سوى كتابة مذكرة قانونية طويلة، ينتقد فيها القانون الإنجليزي ويظهر معايبه وقصور مواده في بعض الأحيان، ويقارن بينه وبين القانونين الألماني والفرنساوي، ويطعن في نظام المحلفين، ولكن السير «برسيفال كلارك» وجد أن إثارة هذا الدفع لن يفيد في إثبات التهمة على القاتلة وصرف النظر عنه.

المستر كين بويد: مدير الإدارة الأوروبية بوزارة الداخلية المصرية، حاولت أسرة «علي فهمي» الاستعانة به لإثبات التهمة ضد القاتلة، ولكنه اعتذر بأنه في إجازة



ولأن الأستاذ «رجائي» وزميله «عبد الرحمن البيلي» كانا من الوفديين فقد اتخذت الصحف المعادية للوفد من صدور الحكم ببراءة «مدام فهمي» ذريعة للسخرية من الدور الذي قاما به، فقالت مجلة «الكشكول» إنهما وزعا الأدوار بينهما توزيعا حسنا وتولى كل منهما دوره في المهنة، فجلس «رجائي» أمام المحلفين حتى يشهدوا تمثيله فيكون تأثيره فيهم أبلغ، وحركاته عندهم أوقع، بينما جلس «البيلي» في مواجهة القاضي لكي يراقب ردود أفعاله على وقائع المحاكمة، ويتدخل عند الضرورة للتأثير عليه بالتنويم المغناطيسي، فكانت النتيجة «فصلًا مضحكًا من التمثيل الهزلي الصامت» فإذا شعر «رجائي» بأن المحلفين قد تعاطفوا مع شيء قالته المتهمة، زم شفتيه أو حرك كفيه معبرًا عن استهانته أو عدم تصديقه، وإذا سأل القاضي المتهمة سؤالا يعتبره «البيلي» محرجا للمتهمة

رفع يديه بعلامة النصر، وأنهما أخذا يتبادلان إشارات جعلتهما. «مسخرة كل الذين تابعوا المحكمة، وأسفر مجهودهما القانوني الكبير عن براءة المتهمة وإدانة القتيل». وأضافت «الكشكول» في ختام تعليقها أن الصحف الوفدية قد طبلت وزمَّرت عند سفر الأستاذ «البيلي» إلى «لندن» وقالت: إنه قصد إليها ليستأنف حكم المحكمة العسكرية البريطانية بإعدام عدد من أبطال الجهاد، ولينوب عن عائلة «علي فهمي» في المطالبة بدمه، «فكانت النتيجة براءة مدام فهمي وشنق أبطال الجهاد».

وكان منطقيا أن تكون «مرجريت فهمي» هي المتهم الأول بعد ـ أو مع ـ السير «مارشال هول» فيما أصاب المصريين والشرقيين من تجريح، وما من شك في أن المصريين قد كرهوها كراهية فاقت الحد، لكن كراهيتهم لها لم تخل من إعجاب خفي بجمالها، وربما لهذا السبب نشرت مجلة «اللطائف المصورة» صورة لها التقطت أثناء إقامتها في مصر، وعلقت عليها قائلة: إنها «صورة امرأة هي شيطان في جسم ملاك» وحذرت قراءها من الانخداع بابتسامتها الحلوة، فإنها كاذبة، وبألا يصدقوا جمالها الخلاب فإنه جمال شيطاني، وألا يتأثروا بابتسامتها لأنها المصيدة التي اصطادت بها قلوب كثيرين، بمن فيهم «علي فهمي» الذي أوردته حتفه على عجل، وسقته كأس الموت الزؤام بعد شهور عذبته خلالها عذابا أليما، وأقسمت بالله بأنها لم تنشر صورة هذه الشقية الظالمة العاتية التي ما كانت «ريا» أو «سكينة» لتذكر في جانبها، إلا على سبيل العظة والاعتبار وحتى لا ينخدع القراء في كل امرأة تخفي شيطانيتها وراء جمالها الفتان.

وفي قلوب الشعراء تغلب الإعجاب بجمال القاتلة على كراهيتهم لها، فبدت قصائدهم عن الحادثة، غزلا في القاتلة أكثر منها رثاء للقتيل، فتساءل «عزت صقر» ـ أمير فن الزجل ـ «ليه تقتليه وانتي جميلة/ ماكنش فيه غير دي وسيلة؟/ غلبت قال فصل دليله/ وجنيتي على روحك وعليه»، وتساءل الشاعر «محمود عماد» «أما كفاك فتك تلك العيون/ فيما تعدين له من منون/ حتى استعنت بالرصاص على/ مهجة ذياك المحب الأمين/ يا ليت شعري يوم لبى الهوى/ أكان يدري أن هذا يكون؟/ أكان يدري أن صدرا به/ قد لاذ سيكون مأوى لرداه الكمين؟».



الأستاذ «عبد الرحمن بك البيلي» محامي أسرة «علي فهمي»

لكن المشغولين بالصراع السياسي والحضاري مع الغرب، لم يتأثروا بجمال

القاتلة، أو بضياع شباب القتيل، إذ كان الغضب يشتعل في صدورهم لما جلبه الاثنان على الوطن والشعب من عار، فاعتبروا تصديق المحلفين لأقوالها فضيحة قانونية وقضائية، وقال «نقولا الحداد» - محرر مجلة «السيدات والرجال» ـ إنه لا يوجد في وقائع القضية ما يدل على أن «مرجريت» قد تعرضت «لمعاملة قاسية دفعتها لارتكاب الجريمة إلا تفصيلها هي نفسها لحكاياتها الدنسة بالمفتوح وباللسان العريض، وفي مجلس قضاء موقر مفتوح الأبواب، وفي جلسة علنية لجماهير السيدات والرجال»، وأضاف «إن تلك المرأة المتهتكة لم تنكر في شهادتها، أن الوساخة التي لحقت زوجها كانت عادتها من قبل، وفي هذا إقرار صريح بأنها كانت بملء حريتها شريكة لزوجها في المنكر الذي اتهمته به».

ولم تكن مسئولية «البت القبيحة/ جلاَّبة الفضيحة/ اللى تقتل عيني عينك/ وتقول لك قتيله» كما وصفها «بديع خيري» عما أصاب المصريين من إهانات، تقل في نظر الشاعر «بديع خيري» أو نظر المنددين بها عن مسئولية «مارشال هول» الذي احتار في دفاعه عنها، «يعمل إيه جنابه؟/ مالقاش في جرابه/ غير أنه يشلق، والمقصود وسيلة/ راح قاعد وقايم/ وعاملنا بهايم» بل إن مسئوليته ـ في نظر بديع خيري ـ قد بدت أكبر لأنه هو الذي حوَّل ما اعتبره المنددون بهما أكاذيب «مدام فهمي» من عبارات مبتذلة إلى مقارنة عملية بين حضارة الشرق وحضارة الغرب، وأخلاق الشرقيين وأخلاق الغربيين ووضع مكانته الرفيعة وشهرته المدوية في صف تلك الأكاذيب التي كان يمكن لولا مرافعته أن تمضي من دون تأثير، إن لم تثر اشمئزاز القاضي والمحلفين.

والحقيقة أن «مارشال هول» قد لقي ما يستحقه من هجوم الصحف المصرية، وعلى نفس المستويات التي هاجم بها المصريين، فقد سخرت منه تلك الصحف، وشككت في مصداقية ما قاله، باعتباره أجيرا ينطق بلسان الذين ملئوا جيوبه بالمال، كما ناقشت بأسلوب علمي رصين التعميمات الخاطئة التي جعلته ينسب إلى كل المصريين وكل الشرقيين أخطاء «علي فهمي» السلوكية، وآفاته الخلقية.

على مستوى السخرية استعار «بديع خيري» في زجل آخر له، مطلع أحد أدوار «داود حسني» الشهيرة وهو دور «قمر له ليالي/ يطلع لم يبالي» ليكتب على وزنه قصيدة خفيفة الظل قال في مطلعها: «حمار له مخالي/ يبرطع لم يبالي/ ع الركاب يعفر/ إخيه جت ده نيلة/ فكرني بمحامي/ راح طبعه حامي/ في لندن شتمنا/ وازداد في النعيلة» وقال إنه فعل ذلك تحت تأثير عجزه عن تبرير ما فعلته «البت القبيحة/ جلابة الفضيحة».. فضلا عما تلقاه من أموالها «وفلوس الولية.. رنتهم جميلة/ بتطرطق ودانه، وبتسحب لسانه/ والقرش الموجر/ تنداس به الفضيلة»، وأبدى دهشته لبذاءة لسان «مارشال هول» التي لا تقل عن بذاءة نساء بولاق حين يتبادلن «التشليق» وتفرش كل منهن ملاءتها للأخرى، وتنسب إليها أبشع النقائص والصفات

على سبيل الكيد، مع أنه رجل محترم يحمل لقب «سير» فإذا بمرافعته تفضحه «وأتاريه سير بولاقي/ من الصنف الشلاقي/ إن فرش الملاية/ تتبهدل قبيلة» وردا على ذلك ختم «بديع خيري» قصيدته بفرش ملاءة الشعر للسير «مارشال هول» قائلا له: «مين فينا يعاير/ ياوش الكباير/ تسكت ولا نفتن/ بلاويكم تقيلة»!

وكانت معايرة الغرب بنقائصه الخلقية هي المستوى الثاني من مستويات الرد على تشليق «مارشال هول» الذي نسب إلى الشرقيين جميعا، كل النقائص الخلقية التي نسبها إلى «علي فهمي» من نظرته الدونية إلى المرأة، وإصراره على اعتبارها جارية وليست قرينة، إلى عدم استواء فطرته وانحرافه الجنسي الذي قال بأنه داء يتفشى بين الشرقيين، وهو ما دفع مجلة «الكشكول» إلى تذكيره بأن «كاتبا وشاعرا إنجليزيا شهيرا هو الذي ثبتت بحقه تلك التهمة.. هو الشاعر «أوسكار وايلد» (١٨٥٤-١٩٠٠) الذي قبض عليه في عام ١٨٩٥ بتهمة وجود صلة بينه وبين «اللورد دوجلاس»، وحكمت عليه محكمة بريطانية بالسجن لمدة ثلاث سنوات، وإلى تنبيهه إلى أن هناك مراكز لتجمع ولقاء الشواذ جنسيا في عواصم أوروبية شهيرة، منها «لندن» و«باريس» و«برلين» و«مدريد»، وختمت مقالها بعبارات غاضبة قالت فيها: إن «علي فهمي» قد مات ولكن شرف مصر والشرق لم يمت معه، وشرف مصر والشرق مرفوع ما دام شرفكم منكس الأعلام.. وما دامت حادثتنا فردية وحوادثكم تكاد تكون جماعية».

وأضاف كاتب البحث الاجتماعي التاريخي الذي نشرته جريدة «السياسة» إلى ما ذكرته «الكشكول» شواهد أخرى تدل على تفشي تلك النقيصة الأخلاقية في الغرب وبين الأوروبيين منذ عهود، ربما ترجع إلى القرن الأول للمسيح، مستشهدا على قدمها بما ذكره «إنجيل بولس» عن انتشارها ـ آنذاك ـ بين أهل «أثينا» وعلى معاصرتها بما تكشف من فضائح البلاط الإمبراطوري الألماني، أثناء محاكمة البرنس «أرنبرج» بتهمة مشابهة للتهمة التي حوكم بسببها «أوسكار وايلد»، لكنه تحفظ على تعميم الاتهام ليشمل الغرب كله قائلا: «ومهما تنحط أخلاقنا وتتضاءل عقولنا لا نتسرع في الحكم كما تسرع محامي «مدام فهمي»، فنحكم على أخلاق أمة بأسرها بفساد بعض أبنائها، فإن في هذا من التعميم ما لا يقره المنطق، ولا يصدر عن ذي عقل سليم.

ومع أن المناظرة بين أخلاق الشرقيين وأخلاق الغربيين قد انحصرت ـ بحكم طبيعة الموضوع ـ في زاوية ضيقة، ركزت على المقارنة بين أخلاق الطرفين، فيما يتعلق بالسلوك الجنسي والعلاقة بين الرجل والمرأة، إلا أنها اتسعت لتتناول كثيرا من تفاصيل هذه المسألة، فتلقفت الصحف المصرية خطابا مفتوحا كان «أسقف لندن» قد نشره في صحفها، يوجه فيه أنظار الأمة والحكومة إلى ما يجري في الحدائق والساحات العامة ـ وخاصة حديقة «هايد بارك» ـ من موبقات أخلاقية وفضائح جنسية خاصة أثناء الليل، وقد جاء في هذا الخطاب أن المراقبين الذين عينهم

«مجلس لندن لترقية الآداب» ـ الذي يرأسه الأسقف بحكم منصبه ـ لرصد الأهوال الأخلاقية في تلك الأماكن، قد اكتشفوا وقوع ٧٤٨ حادثة مناقضة للياقة والحشمة والآداب بين الرجال والنساء في حديقة «هايد بارك» خلال عشر ليال فقط، فضلا عن ٢٦١٥ حادثة مماثلة في خمس ساحات أخرى خلال نفس الفترة، مما دعا الأسقف إلى تذكير الجميع.. بأن الحدائق والساحات العامة قد أنشئت للتريض والتسلية لأهل الأدب والحشمة، لا لكي يستغلها الفاجرون في ممارسة فجورهم.

واعتبرت الصحف المصرية الخطاب اعترافا بمدى تدهور الأخلاق العامة في بريطانيا، وبالغت في الاستشهاد به، وافتخرت بأن شيئا من ذلك لا يمكن أن يقع في حديقة مثل حديقة الأزبكية، رغم كل ما زعمه السير «مارشال هول» من تدهور أخلاق الشرقيين.

وإزاء حاجتها المتزايدة إلى دلائل على انحطاط أخلاق الغربيين، فقد اتخذت الصحف المصرية من إقبال السيدات والآنسات البريطانيات على شهود محاكمة «مدام فهمي»، على الرغم مما كان يذاع فيها من وقائع وصفتها بأنها «مما يندى له جبين الفضيلة» دليلا قويا على نقص حيائهن، وقلة عفافهن.

وقال كاتب البحث الذي نشرته جريدة «السياسة»: إن هذه الظاهرة قد لوحظت كذلك أثناء محاكمة «مسز طومسون»، إذ تزايد إقبال الشابات الإنجليزيات على حضور جلسات المحاكمة لسماع ما كان يتلى فيها من خطابات غرامية ووقائع جنسية، واعتبر ذلك من دلائل الفساد الحديث للأخلاق الذي شاع نتيجة للحرب، كما اعتبر توسع الصحف الإنجليزية في نشر الوقائع التي أثيرت أثناء المحاكمة من دلائل هذا التدهور في الأخلاق، وأضاف: إن الحكومة البريطانية لم تتحمس ـ بعد محاكمة «مسز طومسون» ـ لفكرة إصدار قانون يمنع الصحف من التوسع في نشر مثل تلك الوقائع، مما يدل على أنها تفضل مبدأ حرية الفرد على مبدأ حماية الأخلاق والفضيلة، وعلى ذلك فلا محل لكل ما قالته تلك الصحف عن أخلاق الشرقيين ـ وقارن بين توسع تلك الصحف في النشر عن قضية «مدام فهمي» وتعفف «السياسة»، وصحف مصرية أخرى عن التوسع في نشر كثير من وقائع المحاكمة الشائنة، واتخذ ذلك



الكاتب الإنجليزي الكبير أوسكار وايلد

دليلا على أن الصحف الشرقية ـ بعكس زميلاتها البريطانية ـ تقدم حماية الأخلاق على حرية الصحافة.

ولفتت الأنباء التي ذكرت أن عشرات من لوردات وأغنياء الإنجليز يتزاحمون على باب «مرجريت فهمي» لكي يخطبوها لأنفسهم، نظر «نقولا الحداد» الذي أبدى دهشته البالغة «لتزاحم رجال ينتمون إلى أعلى طبقات المجتمع الإنجليزي على الزواج من امرأة اعترفت بلسانها في المحكمة بأنها كانت تعيش حياة خليعة ووسخة»، واستنتج من ذلك «أن الخلاعة والتهتك والوساخة قد أصبحت قيما خلقية لدى لوردات الإنجليز»، وأضاف إن هذا التزاحم «دليل على أن الغرب أحط من الشرق كثيرا في آدابه وأخلاقه، وأن الشرق مع توحشه الذي تعيره به أوروبا فيه من الآداب والحشمة ما يتمنى الغرب أن يكون له مثله».

ولم تلبث هذه الحملة الصحفية العنيفة ضد «مارشال هول» أن تواكبت مع بيانات شجب وبرقيات احتجاج أصدرها الأفراد والجماعات ضد المحامي سليط اللسان، الذي وصفته جريدة «السياسة» بأنه «المفتري» الذي قاده المال إلى الموبقات.

وكان أول من بادر إلى اتباع هذا الأسلوب هو الأستاذ «يوسف وهبي» ـ الممثل المسرحى الكبير ومدير «مسرح رمسيس» ـ الذي قدر له بعد هذا التاريخ بسنوات قليلة أن يكون الزوج الثاني للسيدة «عائشة فهمي» شقيقة القتيل ـ إذ نشر في الصحف صباح يوم ١٦ سبتمبر ١٩٢٣، برقية يحتج فيها باسمه ونيابة عن جميع ممثلي وممثلات مصر «على التنديد والإهانات التي وجهتها جرائد إنجلترا إلى الشعب المصري في حادثة المرحوم علي بك فهمي، ويؤلمنا جدا تعديها على كرامة الشرق ووصفه بأخلاق هو بريء منها، ونرجو من حكومتنا الاحتجاج على ذلك».

وتبعه ـ في اليوم التالي ـ الأستاذ «لويس فانوس» المحامي، الذي أرسل إلى الصحف البريطانية احتجاجا شديد اللهجة، وصف فيه ما نسبه «السير مارشال هول» إلى المصريين من انحطاط خلقي في معاملة النساء، بأنها «مزاعم غير صحيحة واعتداء شائن يؤثر على روح الصداقة بينهم وبين الإنجليز التي يجري العمل على إعادتها الآن»، وقال: إن «فهمي بك» لم يكن متزوجا من امرأة مصرية بل كان يخادن الخليلات الأوروبيات، «فلو صح ما نسب إليه فقد تعلمه ممن كان يعاشرهم من الأوروبيين ذوي الأخلاق المنحطة، ولم يكتسب من العنصر المصري الكريم الذي تضارع آدابه نحو النساء آداب أرقى الأمم».

وكان لدفاع «لويس فانوس ـ وهو قبطي ـ عن الشريعة الإسلامية دلالاته المهمة على الروح القومية التي سادت مصر في أعقاب الثورة، إذ نفى في رسالته للصحف الإنجليزية أن تكون للطريقة التي عامل بها «علي فهمي» زوجته صلة بالإسلام،

وقال: «إن الشريعة الإسلامية تعترف للمرأة بحقوق أكثر بكثير مما تعترف به أغلبية الدول الأوروبية».

وفي اليوم الثالث أصدرت «هدى هانم شعراوي» -باعتبارها رئيسة «لجنة الوفد المركزية للسيدات» ـ بيانا تحتج فيه باسم نساء مصر على ما وجهه الدفاع عن «مدام فهمي» وأغلب الصحف البريطانية من إهانات ضد الشرقيين عموما والمصريين خصوصا، واعتبر البيان تلك التهم الباطلة «حملة دعائية، ونوعا جديدا من نشر الدعوة للتشهير بالشرقيين تبريرا لسياسة الاستعمار الإنجليزي» وعبر عن أسف النساء المصريات لاستخدام «مارشال هول» لذلك السلاح الدنيء، ضد أمة بأسرها في دار عدالة يجب أن تكون منزهة عن كل حقد، بعيدة عن كل شبهة».



لم تستجب الحكومة المصرية لمطلب «يوسف وهبي» بأن تحتج على ما قاله «السير مارشال هول» وعلى احتفاء الصحف البريطانية بأقواله، وكان كل ما اهتمت له هو أنها لفتت نظر تلك الصحف بالطرق الدبلوماسية ـ إلى أن «علي بك فهمي» ليس فردا من أفراد البيت الملكي المصري.

وكان الاحتجاج المصري شبه الرسمي الوحيد على مرافعة «مارشال هول» هو الذي أرسله «مرقص حنا» ـ نقيب المحامين المصريين ـ إلى المدعي العام البريطاني، ولذلك جاءت عبارته أكثر انضباطا وأقل مبالغة، وقد استهله بالقول: «إن المحامين المصريين قد تابعوا مرافعة «السير هول» بإعجاب، ولكن بدهشة وأسف، ثم يتركز الاحتجاج ـ بعد ذلك ـ على تجاوز المرافعة، لحدود الدفاع كما رسمتها تقاليد القضاء في العالم المتمدن، إذ سمح «السير هول» لنفسه بتعميم الطعن من خصمه إلى الأمة التي ينتمي إليها، وحكم على مصر وعلى الشرق بناء على حادثة فردية وهو لا يجهل مدى ظلم ذلك، خاصة وأنه لا يعرف عن مصر لا قليلا ولا كثيرا» وقال «إنه لا تخلو أمة من الفاسدين، ولو أن كل المحامين قاموا بتعميم كالذي قام به «هول»، لأصبحت كل الأمم متهمة في شرفها» ثم ختم برقيته قائلا: «إن المحامين المصريين يحتجون بكل شدة على الطريقة التي اتبعها السير «هول» في دفاعه «باعتبارها طريقة ظالمة وممقوتة».

وبعد أسبوعين رد المدعي العام البريطاني على احتجاج المحامين المصريين، وأرفق برده رسالة من السير «مارشال هول» أعاد فيها تفسير ما قاله على نحو لا يجرح مشاعر المصريين، استهلها بالتشكيك في مصداقية ما نسبته إليه الصحف قائلا: إنه يظن أنها «ربما تكون قد نقلت على لسانه روايات لم يطلع عليه ولا تطابق الواقع»، وطالب نقيب المحامين المصريين بأن يرسل إليه تلك الصحف ليتأكد من

أنها كانت دقيقة فيما نقلته عنه، وفي الموضوع قال: إن كل طعن وجهته قد بني على معلومات صحيحة، كما أعتقد، وصلتني من مصادر مصرية، وكان موجها ضد «علي فهمي» شخصيا وليس ضد المصريين باعتبارهم أمة، ولا أتذكر مما قلته شيئا يحتمل سوء التأويل، إلا حكمي بأنه من الخطأ أن تتزوج امرأة غربية من رجل شرقي؛ إذ إن الرجل الشرقي يعتبر حقوقه قبل الزوجة كحقوق المالك، لا حقوق القرين ولا أظنني بحاجة إلى التدليل على صحة ذلك، وعاد «مارشال هول» إلى ممارسة هوايته في الاستشهاد بالنصوص الأدبية فقال: إن من بين الذين أخذوا بهذا الرأي الكاتب المسرحي المسيو «بيير فروندويه» الذي كتب رواية مسرحية باسم «العاصية» تدور «حول النظرية الشرقية التي تعتبر الزوجة ملكا للزوج»، وختم «مارشال هول» رسالته بعبارات ترضية للمصريين قال فيها: «على أنه لو حدث أن خانتني عبارتي في حدة الدفاع فساقتني إلى قول شيء قد يعتبر طعنا في المصريين كافة، فإنني أول المبادرين إلى إنكار مثل هذه النية، وإلى الإعراب عن الأسف إذا كان قد نسب إليّ ذلك».

ومع أن المدعي العام البريطاني قد ذكر في رسالته إلى نقيب المحامين المصريين، بأنه قد تأكد من «السير مارشال هول» شخصيا أنه لم يرد في مرافعته غير ما أوضحه في خطابه و«أنه يرغب رغبة صادقة في أن يسحب كل طعن أو انتقاد، يكون قد فهم بأنه قد وجهه إلى أمة صديقة» ـ إلا أن خطاب «مارشال هول» وتوضيحات المدعي العام البريطاني، لم تكن كافية لتضميد جراح المصريين، إذ لم يكن انتقاده لزواج «مرجريت ميلر» من شرقي، هو الذي أغضبهم؛ إذ الذي استفزهم كانت الحيثيات التي ساقها «مارشال هول» للتدليل على خطأ «مدام فهمي».

والحقيقة أن المصريين كانوا أنفسهم، ينتقدون زواج «علي فهمي» من امرأة أوروبية، حتى إن السيدة «سنية يسري» ـ وهي سيدة مصرية ممن تابعن جلسات المحاكمة ـ اعتبرت مقولته تلك كلمة حق طالبت المصريين بأن يحفظوها عن ظهر قلب، وعبرت عن دهشتها الشديدة، لأن معظم الشبان المصريين، الذين كانوا يتابعون جلسات المحاكمة كانوا يتأبطون أذرع فتيات غربيات مكررين بذلك الخطأ الذي حذرهم «مارشال هول» من الوقوع فيه.


الأستاذ مرقص حنا نقيب المحامين

ومع ذلك فقد وجد المصريون من بين البريطانيين من كذّب إنكار «مارشال هول» لما قاله، وانتقدوا التعميم المخل الذي لجأ إليه، فقد اعترفت صحيفة «الديلي كرونكل» ـ لسان حال «حزب الأحرار البريطاني» الذي كان قد تحول إلى حزب صغير آنذاك ـ بأن المصريين على حق في احتجاجهم على

التعميم الطائش الذي جرى أثناء محاكمة «مدام فهمي» مما خلق لدى الرأي العام البريطاني «اعتقادا بأن الأعمال الفاسدة التي ارتكبها القتيل هي من خصائص الهيئة الاجتماعية المصرية ومن آثار النظرة الإسلامية للمرأة»، ووصفت ذلك بأنه اعتقاد يخلو من الإنصاف «ذلك أن قوانين الزواج عند المسلمين ومعاملتهم للمرأة، وإن كانت تختلف عن قوانيننا، إلا أنها قد بنيت على نظريات أخلاقية صارمة، ترمي إلى صيانة الجنسين وإلى الحفاظ على كيان الحياة الزوجية».

ودعت «الديلي كرونكل» البريطانيين إلى الاعتراف بحق الآخرين في أن يختلفوا معهم في نظرتهم للأمور دون أن يكون هذا الاختلاف مبررا للحكم بدونيتهم، وحذرت من التعميم قائلة: «ان بين المسلمين كما هي الحال بين المسيحيين رجالًا صالحين وآخرين طالحين». ومع أنها نفت الزعم بأن الإسلام هو سبب تخلف المسلمين، وقالت بأن الظروف الاجتماعية، والظروف التاريخية هي المسئولة عنه، إلا أنها حرصت على أن تشير إلى أن مكافحة آثار هذا التخلف مثل فساد الحكم وضعف القوانين والتدهور الحضارى، كانت السبب الذي اضطر البريطانيين ـ في عهد حكومة «حزب الأحرار» عام ١٨٨٢ ـ إلى احتلال مصر، لكي يساعدوها في التغلب عليه.

وأدلى السير «هنري مكماهون» ـ المندوب السامي البريطاني الأسبق في مصر ـ بحديث إلى جريدة «الويكلي ديسباتش» كرر فيه انتقاد هؤلاء الذين اتخذوا من وقائع القضية ثم من الحكم ببراءة «مدام فهمي» ذريعة للتنديد بسلوك المسلمين نحو المرأة، وأضاف أنه «من الخطأ الاعتقاد بأن المرأة في البلاد الإسلامية عاطلة عن التهذيب العقلي»، وقال إن هناك أمثلة عديدة على أن المرأة المسلمة قد بلغت مقاما رفيعا جدا، بل إن بعض نساء المسلمين يتولون حكم بلادهن، ذكر من بينهن ملكة بهوبال ـ إحدى ولايات الهند ـ وأضاف «إن تقديس المسلمين للأمومة، الذي يتضح في اعتقادهم بأن الجنة تحت أقدام الأمهات، أمر ينبغي أن يتعلمه الغرب منهم وينقله عنهم».

ومع أن الصحف المصرية قد احتفت بتلك المقالات، إلا أنها لم تكن ـ من حيث العدد أو درجة الحرارة ـ تكفي لإزالة آثار المرارة التي ملأت حلوق المصريين مما نسب إليهم من مطاعن أخلاقية دهمتهم وهم في ذروة إحساسهم بذاتهم القومية بعد أربع سنوات من الثورة، استطاعوا خلالها أن يواجهوا بلحمهم الحي وحده، جبروت بريطانيا العظمى، أقوى دولة في عالم ذلك الزمان، فيجبروها على إلغاء الحماية التي أعلنتها على مصر وعلى الاعتراف باستقلالها، وبينما هم يتفاخرون ـ وهم على القمة ـ بما يدعو للافتتان من طبيعة بلادهم، ويدل على الاقتدار والعظمة في تاريخها، ويفتشون عن بواعث الثقة والأمل في داخل نفوسهم، دفعهم لسان «مارشال هول»

السليط إلى السفح، ليحكم ـ كما قال «نقولا الحداد» ـ بأنهم «وحوش لا يختلفون عن الحيوانات إلا بأنهم ينطقون».

ولم يكن باستطاعتهم أن يتخلصوا من تلك المرارة، إلا بالوقوع في تعميم خاطئ آخر كالتعميم الذي وقع فيه «مارشال هول» وإن كانت بعض مقولاته لا تخلو من صحة.

وكانت السيدة «سنية يسري» هي المصرية الوحيدة التي ملكت ـ وسط جو معبأ بالعداء لكل ما هو غربي ـ الشجاعة لكي تدافع عن النظام القضائي البريطاني، وتعترف بعدالة الحكم ببراءة «مدام فهمي»، إذ قالت ـ في رسالة أرسلتها من «لندن» حيث تقيم ـ إن المحاكم البريطانية تختلف عن مثيلاتها المصرية، و«أن القاضي مقيد في حكمه برأي المحلفين الذين ينطقون برأي الشعب وإرادته، وقد كان الرأي العام البريطاني يعلن ـ قبل انتهاء المحاكمة ـ إيمانه بأن المتهمة غير مذنبة». وعبرت عن اعتقادها بأن «الدافع القوي الذي حمل المحلفين على عدم إدانة المتهمة، هو أنه قد ثبت لديهم أن زوجها كان يعاملها ـ أثناء إقامتها في مصر ـ معاملة وحشية لا توجد في بني الإنسان، وإذا كان ذلك يعتبر في تقاليدنا حقا للزوج، فهو يعتبر في هذه البلاد معاملة وحش ضار لا يعرف المدنية ولم يسمع بها».

وفيما عدا هذا الدفاع الوحيد اليتيم، فقد اتهم الجميع العدالة الأوروبية بالانحياز، وفقدت كل ما كان قد تبقى لها في نفوسهم من أرصدة الإعجاب، وبدت لهم المحاكم البريطانية أقرب إلى المسارح، يفوز بالبراءة فيها الأكثر قدرة على التمثيل والافتعال، بسبب قيامها على فكرة القضاء الشعبي، أو نظام المحلفين الذين حرصت الصحف المصرية على التحدث عنهم باستهانة تصل إلى حد الاحتقار، فوصفتهم جريدة «السياسة» بأنهم «نفر من العامة يجمعون من هنا وهناك» وقالت مجلة «السيف» أنهم «كالبدالين عندنا» ولأنهم ـ كما أضافت «السياسة» ـ سريعو التصديق لكل ما يقال لهم، سريعو الانفعال بكلام المحامين، وخاصة إذا كان المحامي ممثلا بارعا كمحامي «مدام فهمي»، فإنهم ـ كما قال «نقولا الحداد» ـ «لا يستطيعون التمييز بين التمثيل الخيالي والحقائق الواقعية» فأصدروا الحكم ببراءة «مدام فهمي» ـ كما حكمت مجلة «اللطائف المصورة» بسبب غشاوة ألقيت على أبصارهم وأفهامهم، لذلك حذر كاتب البحث الذي نشرته «السياسة» المتحمسين لإدخال نظام المحلفين في القضاء المصري من الاندفاع في دعوتهم وطالبهم بالتروي «بعد أن علمتنا الأيام بأن مساوئ هذا النظام أكثر من أن تشفع فيها محاسنه».

ولعل المصريين كانوا على حق آنذاك، وبعد ذلك، حين بدت لهم العدالة الأوروبية، عدالة عنصرية تفقد عدلها إذا كان أحد الخصوم، شرقيا أو غير أوروبي،

وقد تنبه كاتب البحث الذي نشرته جريدة «السياسة» إلى أن الصحف الأوروبية، لم تتوسع في النشر عن كثير من الفضائح الخلقية التي وقعت في بلاد أوروبية، كما طنطنت بالفضائح التي ادعتها «مدام فهمي»، وقال: إن ذلك قد حدث «جريا على عادتهم بأن يستروا معايب البيض ويشهروا بغير البيض أو من يسمونهم بالملونين، ويقوموا بتسوئة سمعتهم».

بينما قال «سيد علي» المحامي ـ في مقال نشرته «المقطم» ـ أن الحكم بعدم إدانة القاتلة يعود إلى «عواطف المحلفين نحو الفتاة الفرنسية وإشفاقهم على هذه المخلوقة الراقية من أن تضيع جزاء لقتلها شابا مصريا.. والمصري غير محترم في رأيهم».

وكان «نقولا الحداد» أكثر حدة حين جزم بأنه حتى لو كان المحلفون من طبقات مثقفة تستطيع أن تميز بين التمثيل والحقيقة، لانحازوا إلى المرأة الغربية ضد الرجل الشرقي، قائلا «إنهم ينتمون إلى تلك الأمم الغربية التي عظم عندها نهوض الشرق، في حين كانت تقتتل فيما بينها ـ أثناء الحرب العالمية الأولى ـ من أجل اهتضامه واقتسامه».

ونقل مراسل جريدة «الأخبار» القاهرية في الأستانة ـ الكاتب المعروف «عمر عنايت» ـ خلاصة لما أثير حول القضية في المنتديات العامة والخاصة والصحف التركية، التي نظرت إلى الحكم ببراءة «مدام فهمي» باعتباره دليلًا على «استباحة التعصب الغربي لدماء الشرقيين» انطلاقا من تحليل يرى بأن «الغربي مادي لا يعتقد إلا في المادة، ولا يؤله إلا المادة، فإذا عثر عليها في يد الشرقي، تحايل على غصبها منه بجميع الوسائط الدنيئة، فإذا قضى مأربه عاد عدوا لدودا لا يتردد لحظة في بتر اليد التي مدته بمطلوبه»، ونقل عن صحيفة «توحيد» التركية قولها «إن حياة الغربيين في الشرق أنصع دليل على ماهية المبادئ التي يؤمن بها الغربيون، فهي حياة مبنية على التطفل والغصب والنهب والاستيلاء والاستعمار بالقوة القاهرة».

وألمح «عمر عنايت» ـ الذي كان فيما يبدو متأثرا بالأفكار الاشتراكية ـ إلى أن قانون الاستغلال الذي يحكم العلاقة بين الغرب والشرق، هو نفسه الذي يحكم العلاقة بين الأغنياء والفقراء داخل الأقطار الشرقية نفسها.. فقال «لقد خلع هذا الشاب المصري على فتاة أوروبية، يكاد سنها يعادل سن أمه، قناطير الذهب الذي ربحه له عشرات الألوف من الفلاحين، فاضت جباههم بالعرق، وكلّت أجسامهم سعيًا وكدًا، فكانت النتيجة أن مات موتا زؤاما بيد من أسدى إليها ثمرات كد العشرات من ألوف الفلاحين، فلو أن ذلك الشاب، أنفق تلك الألوف المؤلفة من الذهب على مشروعات

نافعة عم نفعها البلاد، وارتزق منها المئات بل الألوف لوقى حياته.. ووقى أموال بلاده، وهيأ الظروف لتحريرها من الاستعمار والاستغلال».

وانتهت الصحيفة التركية إلى القول بأن هناك «هوة سحيقة بين نفسية الشرقي ونفسية الغربي، ولن يتسنى لبعض الإحساسات من عطف وتمايل وانجذاب ظاهري وقتي أن تقيم على تلك الهوة السحيقة جسرا متينا يصل طرفيها». وهي نفس النتيجة التي انتهى إليها «نقولا الحداد» الذي قال بحدة واضحة «لا يضيرنا أن الإنجليز انتهزوا فرصة المحاكمة في قضية بين مصري وأوروبية لكي يشهّروا بالشرق وتسوئة سمعته في نظر العالم، فنحن بهذا لا نخسر صداقة شعب، ولا نكسب صداقة شعب، ما دام العالم قد أصبح مقسوما إلى قسمين، شرق وغرب، والشرق شرق، والغرب غرب، وسيكون السجال القادم بين فلقتي الكرة الأرضية»!

وكان أقسى ما في تلك الأقوال أنها بدت أقرب ما يكون إلى رأي عام شرقي، لم يختلف حوله المحافظون والمجددون، كما كانت الحال في كثير من القضايا، بل وانضم إلى المروجين له، كثيرون ممن تلقوا تعليمهم في الغرب، وتأثروا بحضارته وبشروا بأن تقدم الشرق رهين باستفادته من النهضة الأوروبية، بل وكان من بينهم اشتراكيون من دعاة «الأممية» مثل «عمر عنايت» و«نقولا الحداد»!

وهكذا حققت «مدام فهمي» التوحد المستحيل بين المحافظين والمجددين.



لكن هذا التوحد ضد الغرب، لم يحل التناقضات الأخرى بين المحافظين والمجددين، بل ولم يحل دون استغلال كل فريق منهما لجوانب من قضية «مدام فهمي» ليكيد للفريق الآخر ولو على حساب التخوم بين المحافظين والمجددين، التي لم تكن ـ يومذاك ـ محددة تحديدا دقيقا، إذ لم يكن قد تم ترسيم الحدود بين المعسكرين، ولعله لم يتم حتى يومنا هذا.

وفي حين كان «حزب الوفد» يضم الكتلة الكبرى من اليعاقبة المصريين، المتشددين في عدائهم للاستعمار ويتزعم ـ على الصعيد الاجتماعي ـ الدعوة إلى سفور المرأة، حتى إنه كان الحزب الوحيد الذي يضم لجنة مركزية للسيدات الوفديات، فقد كانت الكتلة الكبرى من الجيروند المصريين ـ من دعاة الاعتدال والتدرج في حل المشكلة الوطنية ـ تحتشد بين صفوف «حزب الأحرار الدستوريين» الذي كان يضم أبرز المفكرين المجددين مثل «طه حسين» و«د.محمد حسين هيكل» و«د.محمود عزمي» و«علي عبدالرازق»، لكن المحافظين ـ في المسائل الاجتماعية ـ كانوا يخترقون صفوف الحزبين؛ لأن التشدد في العداء للاستعمار لم



عمر رضا بك



نقولا حداد

يكن قرينا للتشدد في الدعوة للتجديد الاجتماعي، كما أن الراديكالية الاجتماعية لم تكن شرطا للراديكالية السياسية.

وكان لابد وأن تنعش واقعة «مدام فهمي» المحافظين المصريين، الذي نظروا إلى مقتل «علي فهمي» باعتباره تأييدا لدعوتهم إلى الالتزام بالتقاليد الشرقية، ومصداقا لتحذيرهم من الدعوة لتقليد الغرب، ودليلا على أنهم كانوا على حق حين تنبئوا بأن السفوريين ـ الذين يتزعمون الدعوة لخروج المرأة إلى العمل واختلاطها بالرجل ـ سوف يجلبون الكوارث على أنفسهم وعلى مجتمعهم.

ومع أن انتعاش هؤلاء المحافظين لم يصل بهم إلى حد التجاسر على العودة إلى إذاعة الآراء التي كانوا يبشرون بها من قبل؛ إذ لم يكن في استطاعة أحد، أن يتجاهل مشاركة المرأة المصرية في ثورة ١٩١٩، إلا أنهم انتهزوا فرصة واقعة «مدام فهمي» لكي يطالبوا بالعودة خطوات إلى الخلف، وانصب انتقادهم على ما وصفوه بـ«الغلو في تحرير المرأة»، فاعترفت السيدة «لبيبة أحمد» ـ صاحبة ومحررة مجلة «النهضة النسائية» ـ «بأن المرأة المصرية لم تصل بعد إلى الدرجة المرجوة لها من العلم والمعرفة الصحيحة»، ودعت الرجال لرفع أصواتهم ليطالبوا الحكومة بأن تغير برامج تعليم البنات حتى تجعلهن صالحات للحياة المنزلية وحياة الأمومة، واعتبرت كل ما عدا تعليم المرأة لكي تكون زوجة وأمًّا صالحة غُلُوا هاجمته بقوة، فقالت: «أما إذا كانوا يريدون أن تكون المصرية ـ كالغربية ـ سافرة راقصة، تمد يدها إلى أذرع الشبان في المراقص، ترقص مع هذا مرة، ومع ذلك مرة أخرى، فإن الوصول إلى خالق السماء أسهل من الوصول إلى مثل هذا الطلب، لأن دمنا الشريف وديننا الحنيف، لا يسمحان للمسلمة بأن تكون كذلك».

وتساءلت باستنكار بالغ وبتحريض عال النبرة: «من هذا الذي يرضى دمه، أن تخرج المصرية ـ أخته في الدين وفي الوطنية ـ على حدود الدين لكي تكون محبوبة من زوج خارج على الوطن، خارج على العادات القومية، من أجل المدنية الكاذبة والتقليد الأعمى؟» ووصفت الذين يدعون إلى السفور بهذا المعنى بأنهم «دخلاء علينا.. غرباء عنا وإن كانوا منا.. يدسون السم في قوميتنا وهم أعداؤنا وأعداء أنفسهم وبلادهم».

وقد يبدو صدور هذا الرأي عن مجلة وفدية تناصر «سعد زغلول» وتصدرها سيدة تزامل في الحزب نفسه، الآنسة «منيرة ثابت» التي تجاوز تطرفها في الدعوة إلى مساواة الرجل بالمرأة، حد المطالبة بمساواتهما في حق الترشيح والانتخاب إلى المطالبة بمساواتهما في الإرث، رغم مخالفة ذلك للشريعة الإسلامية، باعثا على الدهشة، لحجم التناقضات التي كان يموج بها معسكر اليعاقبة، والتى لم تكن تقل ـ من حيث الدرجة ـ عن التناقضات في معسكر الجيروند. فقد اقتنصت مجلة «الكشكول» ـ وكانت من المدافعين الأشداء عن «الأحرار الدستوريين» ـ عبارة وردت في رسالة إخبارية بعث بها مراسل «الأهرام» في لندن، وقال فيها إن وقوف السيدة «عائشة فهمي» سافرة أمام مصوري الصحف البريطانية وهي بملابس الحداد، قد أثار بعض الانتقادات في الأوساط البريطانية، واتخذت منها ذريعة لكي يشُنّ هجومًا ضاريا على الوفديين باعتبارهم «سفوريين» فقالت إن ما فعلته شقيقة القتيل، دليل «على ما وصلت إليه سيداتنا الناهضات بالحركة النسائية من الغلو في الحرية» وعلى «ما بلغه بعض الأزواج المصريين من زيادة التساهل في إطلاق العنان لزوجاتهم خصوصا إذا كن على شيء من الثروة واليسار». وطلبت رأى السيدة «شريفة رياض» ـ القطب النسائي بحزب الوفد ـ باعتبارها «زعيمة الدعوة لسفور المرأة والعاملة على تشجيعها في الداخل والخارج» في هذه التصرفات «التي اتخذها الإنجليز في بلادهم وسيلة للطعن علينا والقدح فينا، وبرهانا على نقص تربيتنا الأخلاقية، وسوء استعدادنا لفهم الحرية».

وما لبثت «الكشكول» ـ المدافعة عن الحزب الذي يضم عتاة حركة التنوير ـ أن قرنت الدعوة إلى سفور المرأة واختلاطها بالرجل، بالدعوة إلى الانحلال الخلقي والاجتماعي، فنشرت مقالا كتبه مواطن من الإسكندرية ـ وقعه باسم أ.ح. البارودي ـ استعرض فيه عددا من أحكام الطلاق بسبب الخيانة الزوجية، أصدرتها المحاكم البريطانية في أعقاب الحكم ببراءة «مدام فهمي» ونشرتها جريدة «الديلي اسكتش» اللندنية، واتخذ منها كاتب المقال مبررا للحكم بانحلال أخلاق البريطانيين، من جانب، وذريعة للسخرية من «سعد زغلول» باعتباره زعيما للحزب الذي يشجع حركة سفور المرأة في مصر، واتخذ من تصريح لزعيم الوفد قاله في أعقاب توليه

لرئاسة أول وزارة دستورية بعد الثورة، ووصف فيه الإنجليز بأنهم «خصوم شرفاء معقولون» عنوانًا لمقاله «الشريفات المعقولات والشرفاء المعقولون» الذي نقل فيه عن الجريدة البريطانية، أنباء قضية طلاق رفعها الكولونيل «أ.ف.إيلين» ضد زوجته التي خانته ـ للمرة الثانية خلال عامين ـ مع قائده الجنرال «سيدني لوفورد»، مع أنه كان قد عفا عنها حين هربت ـ في المرة الأولى ـ مع صديق له، وتمنى «البارودي» لو كان «سفوريو مصر، ذوو العقول الغربية، كانوا هناك ليتمتعوا بمشاهدة جناب الكولونيل «إيلين» وهو يخرج من المحكمة دامي الفؤاد، يسير وراء جناب الجنرال «لوفورد» الذي يتأبط ذراع الحرم المصون المطلقة، يتبعهم فريق من الشرفاء المعقولين، فرحين مستبشرين بحكم القضاء العادل».

وتساءل «البارودي»: أين جناب «السير مارشال هول» لنهنئه بتلك المدنية العظيمة.. «ولنعترف له قائلين: حقا إنكم متحضرون وشرفاء ومعقولون.. وأين دعاة السفور في مصر ليروا بأعينهم النتائج التي سوف تنتهي إليها دعوتهم؟». وأجاب عن الشطر الثاني من السؤال فقال: «إن السفوريين في مصر يعرفون هذه الوقائع ولا يعبئون بها، ولا يرون فيها أي غضاضة، لأنهم يريدون أن يعيشوا عيشة لذيذة محلولة» وجزم بأن دعوتهم إلى سفور المرأة، وإلى الاختلاط بين النساء والرجال، سوف تقودهم إلى الدعوة للاعتراف بالأبناء غير الشرعيين.

ورد على قولهم بأن الاختلاط قبل الزواج يؤدي إلى استقرار الحياة الزوجية متسائلا «ألم تكن الزوجات المذكورات مختلطات قبل الزواج؟ فلماذا أحببن غير أزواجهن؟ أليست هذه هي نتائج الحياة السفورية الحديثة؟»، وختم مقاله بسلسلة من علامات الاستفهام وعبارات التحريض، قائلا: «هل أنتم ـ يا نسل العرب ـ راضون عن تلك الحياة؟ وهل تسمح لكم غيرتكم وحميتكم أن تروا إخوانكم يجالسون نساءكم؟ هل حقا ترون الأدب والتمدن في الاختلاط؟ اللهم أنعم على القوم واجعلهم رجعيين وارزقهم زوجات رجعيات حتى ينتجوا نسلا طاهرا لا تنال من كرامته مؤتمرات رجالية ولا نسائية.. واحشرنا ـ اللهم ـ مع المحافظين الأبرار».


لبيبة هانم أحمد، صاحبة مجلة «النهضة النسائية»

وما لبث الوفديون أن استخدموا نفس الأسلحة المحافظة، في الكيد لخصومهم السياسيين من «الأحرار الدستوريين» أثناء المعركة الانتخابية التي

جرت في خريف ١٩٢٣ لانتخاب أول مجلس نيابي بعد ثورة ١٩١٩، فاستثمروا مناخ العداء الذي أثارته قضية «مدام فهمي» ضد ظاهرة التزوج من أجنبيات، في تحريض الناخبين ضد المتزوجين بأجنبيات من مرشحي «الأحرار الدستوريين» ورفعوا شعار «لا تنتخبوا الذين يتزوجون من أجنبيات» مما اضطر مجلة «الكشكول» إلى التراجع عن موقفها، فقالت «إن ذمم الرجال ووطنيتهم لا تترتب على زواجهم الذي هو غالبا نتيجة ظروف خاصة، ومن الخطأ أن يتصور أحد أن المتزوجين بأجنبيات فاقدو الرجولة، بل الغالب والمحسوس نقيض ذلك» وأضافت «الكشكول»: «إن الحكم على الرجال لا يكون بجنسية زوجاتهم، بل تربيتهم وأخلاقهم وماضي سيرتهم لا أكثر ولا أقل».

وعندما انتهت المعركة الانتخابية بفوز «الوفد» لم تنس «الكشكول» أن تذكّر الوفديين بأن من بين الذين فازوا بعضوية مجلس النواب، واختيروا للمناصب التنفيذية العليا، اثنان من الوفديين المتزوجين بأجنبيات هما وزير الخارجية «واصف بطرس غالي باشا»، والوكيل البرلماني لوزارة المالية، وأبدت دهشتها لأن أحدًا ممن تحمسوا للدعوة لعدم انتخاب المتزوجين بأجنبيات لم يعترض على انتخابهما، أو على إسناد المنصبين إليهما.



«سليمان أفندي فوزي» صاحب مجلة «الكشكول»

لكن تلك المناوشات لم تحل بين الطرفين، وبين التنديد بسلوك الرجال الذين يطاردون النساء والفتيات ـ السافرات منهن والمحجبات ـ في الطرق العامة، ويسمعونهن ألفاظا تخدش الحياء، على نحو يمثل عدوانا على الحرية ويتطلب إصلاحا للأخلاق العامة، وما إن أثارت الصحف هذه القضية، حتى تلقت سيلا من الشكاوى كتبها رجال ونساء يلفتون النظر إلى تفشي هذه الظاهرة، ويدللون على ذلك بوقائع شهدوها بأعينهم أو كانوا طرفا فيها، فقال «ن.جرجس» ـ في رسالة نشرتها له جريدة «المقطم»: إنه كان يتنزه في حديقة الأزبكية، حين شاهد فتاة كانت تتنزه مع أختها في الحديقة، تتعرض لمطاردات شاب وضيع وقف يرميها بقبيح الألفاظ ودنيء الإشارات، فلما تركت له الحديقة، خرج وراءها، وواصل مضايقتها، ولولا أن كاتب الرسالة ـ وآخرين ـ قد اعترضوا طريقه حتى تمكنت الفتاة من الهرب لواصل مطاردته لها، وأضاف: «إن ذلك مثل

مما يقع من بعض شبابنا كل يوم لأخواتنا وأمهاتنا وقريباتنا وبنات وطننا، ومع ذلك لا يحرك أولو الشأن ساكنا».

وعلقت السيدة «أمينة عبد الله» ـ من السيدة زينب ـ على دعوة «أولي الأمر» للتدخل لحماية الآداب العامة، برسالة ذكرت فيها أنها كانت تنتظر الترام في المحطة العمومية بباب الحديد، فإذا بأحد ضباط البوليس يعاكسها ويتحرش بها، وما كادت تستقل الترام، حتى قفز الضابط الوقح على سلمه، ووقف أمام محل الحريم، وأخذ يقول لها: اتفضلي نركب أتومبيل. وعندما نهرته نزل من الترام، وانتقدت أن يقوم بذلك ضابط بوليس مهمته حماية الآداب، وقالت: إنه يوجد ـ من بين رجال البوليس ـ أفراد ـ ربما كانوا قليلين ـ من ذوي الأخلاق الفاسدة والآداب المنحطة.

وحذر «محمد صالح عمارة» زملاءه طلاب المدارس الثانوية، من المصير الذي لقيه أحدهم «وهو طالب مفتون مغرور ظل يتابع فتاة مهذبة من أسرة كريمة وهي في طريقها إلى مدرستها كل صباح، ويقذفها من قبيح الألفاظ ما يدمي قلوب الفضيلة، ولما لم يردعه تأنيبها وتوبيخها أبلغت الأمر لأبيها، الذي تربص به في «شارع جزيرة بدران» وما كاد يتفوّه بألفاظه القبيحة، حتى أمسك به وضربه وبصق في وجهه وظل يوسعه لكمًا وسبًا وتهديدًا حتى جعله فرجة لكل عابر سبيل قبل أن يقوده إلى قسم الشرطة!».

وعبرت «اللطائف المصورة» عن أساها البالغ لمدى ما وصلت إليه الأخلاق العامة من تدهور وقالت:«إن مصر فاقت باريس وبرلين تهتكا وخلاعة وفسقا وفجورا وزاد فيها البغاء وانتشرت أماكن الدعارة، وبؤر الفساد، في جميع أنحاء عواصم أقاليمها، وزاد بيع الخمر وتعاطي الكوكايين والمنزول». وتساءلت باستنكار «لماذا تبيح الحكومة المصرية دخول النسوة الأوروبيات الجميلات إلى بلادها للفتك بشبابها؟.. إن هؤلاء النساء يجدن بين الشبان المصريين الأثرياء مرتعا خصبا ومغنما سهلا، ولم يكن «علي بك فهمي» سوى واحد من عشرات الضحايا الذين تصرعهم هؤلاء الغانيات الأوروبيات، أدبيا وصحيا دون أن تنشر الصحف عنهم شيئا»، وأضافت«إن انشغال الحكومة في المسائل السياسية الحيوية، لا يعفيها من ضرورة وجود وزارة أو مصلحة تدعى وزارة أو مصلحة الآداب لحفظ كيان الأمة ومنع انحطاطها الأخلاقي».

على أن انشغال المصريين بذلك جميعه لم ينسهم ضيقهم بحكم البراءة الذي حصلت عليه المرأة السفاحة التي كانوا قد أدانوها، وأدانوا الغرب الذي تنتمي إليه، وخاصموهما على نحو رفضوا معه كل المبررات المعقولة التي سيقت للتدليل على أن براءتها تستند إلى الدلائل الظاهرة بأن زوجها كان ـ بالفعل ـ يسيء معاملتها،

فظل البحث عن حل للغز حكم البراءة يشغلهم، وتعددت ـ كما قالت الصحف ـ التكهنات وانتشرت الشائعات في مجتمعات القاهرة، وزاد من اشتعال أوارها أن جريدة «الجمهور» ـ الناطقة بلسان أسرة «علي فهمي» ـ نشرت في صدر الصفحة الأولى من عددها الذي صدر يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٢٣، خبرا يقول بأنها «ستنشر غدا تفاصيل جديدة عن مدام فهمي والمرحوم «علي كامل بك فهمي» الذى قتلته بـلندرة لم تعرض على المحكمة، ولو عرضت عليها لتغير وجه القضية كثيرا». ولكن «الجمهور» صدرت في اليوم التالي دون أن تنشر شيئا مما وعدت بنشره، أو تقدم سببا لامتناعها عن النشر.

والظاهر أن البحث عن مبرر لحكم البراءة كان يشغل ـ كذلك ـ منتديات «لندن»، وعن هذه المنتديات، نقلت صحيفة «كري دي باري» الفرنسية، تفسيرا للغز البراءة، ما لبثت «الأهرام» أن ترجمته عنها، فأثار نشرها له ضجة واسعة، إذ قالت الجريدة الفرنسية «لم يسبق للمحلفين البريطانيين أن حكموا بالبراءة في حالة القتل، لذلك قابل كثيرون من الإنجليز الحكم الذي صدر في قضية «مدام فهمي» بدهشة بالغة، ولم يقتنع أهالي لندن بأن سوء سلوك القتيل أو التشكيك في أن القاتلة قد قتلته متعمدة، دلائل كافية للحكم بالبراءة التي تخالف تقاليد المحلفين، وهو ما دفعهم للبحث عن الأصابع الخفية التي تلاعبت بهذه القضية، وانتهت إلى تلك النتيجة غير المتوقعة، فوجدوا أن «مدام فهمي» مدينة ببراءتها لحماية شخصية بريطانية رفيعة المقام وإلى هذه الحماية، إذ كانت ـ قبل زواجها من البرنس المصري ـ قد تعرفت عام ١٩١٨، وقبل نهاية الحرب بقليل بأمير بريطاني شاب وصل إلى فرنسا، وكان التأثير الذي تركته في نفسه شديدا حتى إن الرسائل الكثيرة التي تبودلت بينهما لم تقتصر على العواطف، بل تعدتها أحيانا إلى المسائل العسكرية والسياسية».

وأضافت الصحيفة الفرنسية تقول: «ولما اقترنت «مدام فهمي» بعد ذلك بزوجها المصري، قلقت الأندية العالية في لندن على هذه الرسائل التي كانت في يد المرأة الخلابة، ورأت أن توفد شخصية سياسية محنكة لمطالبتها بها، وكانت هذه الأندية تتوقع مفاوضات طويلة ومملة، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث؛ إذ فاجأت «مدام فهمي» الجميع وسلمت الرسائل حينما شعرت بأقل رغبة في ذلك، وقد قدر البلاط البريطاني هذا العمل حق قدره، ولم ينسه في إبان المحاكمة، وهذا هو السبب فيما صادفته المتهمة من العناية أثناء محنتها».

وختمت «كري دي باري» الخبر الذي نشرته بقولها «إن مجتمعات لندن تتحدث اليوم عن هذه القصة التي حلت اللغز الذي شغلها طويلا، ومن المحتمل أن يكون كل ما تتداوله هذه المجتمعات مختلقا وعاريا تماما عن الصدق، لكننا ننشرها، في إطار حرصنا على البحث عن حل لكل الألغاز التاريخية».

ومع أن الخبر الذي نقلته جريدة «كري دي باري» وكشفت فيه عن لغز براءة «مدام فهمي» قد نشر بصيغة التضعيف، ولم تجزم الصحيفة الباريسية بصحته، إلا أن الصحف المصرية، ما كادت تنشره، حتى تلقفه المصريون بسعادة بالغة، لا لأنهم قد عثروا أخيرا على حل اللغز الذي شغلهم غموضه طويلا، بل لأن هذا الحل، كان الوحيد الذي يؤكد شكوكهم، ويعيد إليهم اتزانهم النفسي، بعد العواصف التي أثارتها قضية «مدام فهمي» وزلزلت ثقتهم بأنفسهم، فقد ثبت الآن أن أميرًا بريطانيا، هو ولي عهد بريطانيا العظمى، يمكن أن يقع في حبائل غانية من نوع «مرجريت فهمي» وأن يتدلّه في حبها إلى حد يفقد معه السيطرة على نفسه، ويغفل عن حساسية مركزه، فيكتب لها رسائل تختلط فيها العواطف بالسياسية، وتمتزج فيها الأشواق بالأسرار العسكرية، فهم معذورون إذا وقع في غرامها رجل منهم ليس وليا للعهد، وليس أميرا، أما المهم فهو أنه قد ثبت لهم وللعالم، أنها لم تحصل على حكم البراءة لأن الذئب الشرقي الذي تزوجته ثم قتلته، بل وكل الشرقيين، يستحقون القتل، بل حصلت عليه ثمنا لليالي الغرام التي قضتها في أحضان «البرنس أوف ويلز»، ومكافأة على إعادتها للرسائل العاطفية التي كتبها لها، ولا معنى لذلك إلا أن قضاء الغرب ـ الذي يتيه على الشرق بعدالته واستقامته وحياده ـ يعنو لتدخل ذوي النفوذ، ويصدر أحكامه إرضاء للملوك والأمراء، ثم يتهم الشرق بالاستبداد ويتفاخر عليه بالتقدم والحضارة.

وإذا كانت العلاقة العاطفية بين «مرجريت ميلر» و«البرنس أوف ويلز» ربما تكون حقيقة تاريخية بعد أن اعترفت بها في مذكراتها ـ التي نشرتها بعد أن توج ولي العهد ملكا على بريطانيا باسم «إدوارد الثامن» ثم تنازل عن العرش بسبب إصراره على الزواج من مطلقة أمريكية تكبره سنا هي «مسز سمبسون» ـ فإن واقعه تدخله لدى القضاء لتبرئتها تبدو غير منطقية، والأرجح أن البرنس كان من بين أصدقاء «ماجي» العديدين، الذين دعموا قضيتها بمختلف أشكال الدعم، دون أن يصل هذا إلى حد التدخل المباشر لدى القضاء، إذ كان يعرف ولا شك مدى ما يمكن أن يثيره هذا التدخل ـ الذي كان لابد وأن يفتضح أمره ـ من زوابع سياسية، فضلا عن أن النتيجة التي أسفرت عنها ضغوط «البرنس أوف ويلز» على القضاء ـ طبقا لرواية الصحيفة الفرنسية ـ لم تتحقق إذ لم يكن التلخيص الذي قدمه القاضي، السير «ريجبي سويفت» لوقائع القضية ـ كما زعمت ـ ملائما لمصلحة «مدام فهمي».


واصف باشا غالي

لكن المشاعر الوطنية للشعب المصري ـ والشعوب العربية والشرقية- كانت جياشة

بالعداء للغرب، على نحو جعل التشكيك في عدالة القضاء البريطاني ـ كما يقول أحد المعاصرين الذين هزتهم الواقعة وهو الدكتور «لويس عوض» -«يلقى استجابة واسعة عند المصريين، دون دراسة حقيقية لكل أركان الجريمة»، ويبدو أن هذه الدراسة ـ مهما كان عمقها ـ لم تكن كافية لكي يقتنع المصريون ـ آنذاك أو بعد ذاك ـ بعدالة الحكم ببراءة «مدام فهمي»، ففضلا عن يقينهم بأن المحاكم المخصوصة والمحاكم العسكرية البريطانية، وغيرها من أشكال القضاء الاستثنائي الذي ابتدعه البريطانيون لمحاكمة الذين يقومون بأعمال عدائية ضد جيش الاحتلال، لم تكن عادلة في أي يوم من الأيام، فإن الإقرار بعدالة الحكم الذي أصدرته محكمة «أولد بايلي» كان يتطلب إدانة للطريقة التي كان «علي فهمي» يعامل بها زوجته وهي طريقة لم تكن تختلف عن الطريقة التي كان معظم المصريين يعاملون بها زوجاتهم، إلا من حيث الدرجة وهو ما يعني ـ كما أضاف «د. لويس عوض» ـ انقلابا كاملا في نظرتهم إلى العلاقة بين المرأة والرجل، لم يكن المجتمع المصري وغيره من المجتمعات العربية والشرقية على استعداد للقبول به، ولعله لا يزال عند موقفه إلى اليوم».

بل إن مرور أكثر من نصف قرن على المحاكمة، لم يكن كافيا لكي يجزم الدكتور «لويس عوض» بضمير مستريح بأن القضاء البريطاني كان بريئا عن كل شك، صحيح أنه حين أعاد ـ في بداية الثمانينيات ـ قراءة تلخيص وقائع المحاكمة في أحد مصادرها الأساسية وهو كتاب «قضايا مارشال هول الشهيرة» ـ الذي جمع فيه مؤلفه أهم القضايا التي ترافع فيها المحامي الكبير ـ اكتشف أن «الإدانة السهلة للقضاء الإنجليزي ليست في موضعها تماما، ولا تختلف كثيرا عن صفات التخلف التي ينسبها الإنجليز إلينا. وحمَّل «علي فهمي» المسئولية الكبرى عن المصير الذي انتهى إليه «لأنه كان يتعامل مع زوجته طبقا لخطة تستهدف ترويضها لكي تعنو لسيطرته، واتبع في ذلك أساليب وصلت إلى حد محاولة تحطيم شخصيتها، بل وإثارة غيرتها».

إلا أن الدكتور عوض توقف أمام تصوير «مارشال هول» للعلاقة بين الزوجين باعتبارها صراعا بين رؤيتين حضاريتين لعلاقة الرجل بالمرأة، متضادتين تماما ومختلفتين تمام الاختلاف، الأولى ـ ويمثلها «علي فهمي» ـ شرقية إسلامية متخلفة تنظر إلى المرأة باعتبارها ملكا للرجل أو جارية له والثانية وتمثلها «مرجريت ميلر» ـ غربية مسيحية متقدمة تنظر إلى المرأة باعتبارها مساوية للرجل وقرينة له، فاعتبره تصويرا غوغائيا يستثمر غرائز التميز العنصري عند الرجل الأبيض؛ إذ لم يكن وضع المرأة في الغرب المسيحي، يختلف عنه في الشرق الإسلامي، خلال العصور الوسطى، ففي ظل النظام الإقطاعي كانت المرأة الأوروبية «جارية» يملكها الرجل، ويتصرف فيها كما يتصرف فيما يملكه من أراض وعبيد، وكانت تخاطب زوجها بتعبير ورد في «الكتاب المقدس» هو «ياسيدي.. ياسيدي»، ولم تتحول من «جارية»



د. لويس عوض

إلى «قرينة» إلا عندما تفكك النظام الاقطاعي على أصعدته الاقتصادية والفكرية والاجتماعية، ثم انهار سياسيا بانتصار الثورة الفرنسية، وإذا كانت آثار النظرية الإقطاعية للمرأة لا تزال باقية في بلاد الشرق فليس سبب ذلك هو أن سكانها شرقيون أو مسلمون، بل لأن النظام الإقطاعي لم يتفكك بعد بشكل كامل، وانتهى «د.لويس عوض» من تحليله المضاد لتحليل «مارشال هول»، إلى أن المسألة لم تكن مسألة تضاد بين رؤيتين حضاريتين، «ولكنها مسألة مستويات حضارية مختلفة أو فجوة قرون قليلة في الحرية والمساواة» بل إن اعتبار العلاقة بين «علي فهمي» وزوجته، نموذجًا للصراع بين تلك المستويات الحضارية المختلفة يتضمن تجاوزا للحقيقة إذ القضية ـ في رأي الدكتور «عوض» ـ هي «قضية فردية طرفاها غالبا اثنان من البشر الشواذ الذين أتلفهم الثراء الفاحش وبطر العاطلين من أبناء الذوات والاستسلام للشهوات والانحلال الجنسي».

في هذا السياق اعتبر «لويس عوض»، سماح القاضي البريطاني ـ السير ريجي سويفت للسير «مارشال هول» ـ أو لأي محام مهما كان عظيما ـ بأن «يستثمر غرائز التميز والتعالي العنصري عند الرجل الأبيض، ليشحن جو المحكمة شحنا غوغائيا بهذه الروح العنصرية الحقيرة كافيًا ـ في رأيه ـ لإدانة القضاء الإنجليزي في هذه المحاكمة» لأنه «رجح ميزان العدالة بأثقال اللاوعي المتخلفة عن عصور الهمجية».

الفصل العاشر

مسرحيات قضائية.. وغير قضائية



«إحنا الشرقيين ولاد الشمس المحرقة.. وهما - الأوروبيين - ولاد المغار المنقورة في الجبال المثلجة.. إحنا من عشر آلاف سنة متخاصمين ويّاهم.. وهما متخاصمين ويَّانا.. لو جرَدت لحمنا إحنا وجدودنا.. وجرَدت لحمهم هما وجدودهم.. ودقيته لغاية ما ينعم زيّ المرهم، وحطيته في حلّة واحدة.. تطلع مَرَقتهم لوحدهم ومَرَقتنا لوحدها».

همام باشا

بطل مسرحية «الذبائح»

أنطون يزبك/ يوسف وهبي



١٩٣٢ «يوسف وهبي» والممثلة الفرنسية «كوليت دارفوري» التي لعبت دور «مرجريت فهمي» في فيلم «أبناء الذوات»



جانب من الجنازة الضخمة التي شيع بها المصريون جثمان أمير الشباب «علي فهمي» يسير في ميدان الأزهار ـ باب اللوق الآن ـ تتقدمها تلميذات المدارس وهن يرتدين الملابس البيضاء ويحملن باقات الزهور



لكن «مدام فهمي» التي كانت تلك المناقشة الغوغائية المتبادلة بين الشرق والغرب قد حولتها إلى شخصية عالمية، أبت أن تكف عن تأجيج نيرانها، ورفضت أن تنسحب من المسرح المصري، بعد صدور الحكم ببراءتها، أو أن تغلق ملف علاقتها بمصر، إذ كانت ـ بحكم الزواج ـ قد أصبحت مصرية الجنسية، وكانت ـ بحكم المحكمة الشرعية ـ قد أصبحت مسلمة.. فظلت ـ على امتداد السنوات العشر التالية ـ تشغل المصريين: تتابع الصحف أنباءها، وتنظر المحاكم قضاياها.. ويعلق الكتاب والمفكرون على ما استجد من فصول قصتها، وتتقمص الممثلات شخصيتها على خشبة المسرح، وعلى شاشات السينما، حتى بدت أشبه بلعنة فرنسية تطوف في سماء مصر والشرق.

لم تمكث «مرجريت فهمي» بالعاصمة البريطانية، سوى عشرة أيام، تلقت خلالها آلافا من برقيات ـ وباقات ورد التهنئة ـ وعشرات من عروض الزواج، فضلا عن عروض مغرية أخرى لكي تمثل قصة حياتها على المسرح، ولكنها اعتذرت عن قبولها جميعا، وفضلت أن تتقمص ـ في الحياة وليس على خشبة المسرح ـ الدور الذي كتبه لها «مارشال هول» فتظل رمزا لدفاع النساء الغربيات عن حريتهن وكرامتهن ضد استبداد الشرق وتخلفه، وألا تتنازل عن المكانة الاجتماعية الرفيعة التي أصبحت تشغلها باعتبارها «برنسيسة» حتى لو كانت برنسيسة تنتمي إلى الشرق

المتخلف والمنحط، وبصرف النظر عن أنها قتلت الرجل الذي منحها هذا اللقب، بل واعترفت أمام المحكمة بأنه انتحله لنفسه، وأجبرها على انتحاله لنفسها، ليشبع رغبته في الظهور، فمع أنها كانت امرأة مزواجة، ومع أن اسمها كان قد تغير قبل ذلك من «الآنسة ألبير» إلى مدام «ميلر» ثم «مدام لوران»، فقد رفضت أن تتزوج رجلا آخر حتى لا تفقد اسم «مدام فهمي بك» الذي منحها شهرتها المدوية.

وعندما أقامت مأدبة عشاء للصحفيين البريطانيين قبل مغادرتها «لندن» وجهت إليهم الدعوة باسم «البرنسيس فهمي بك» وأقامتها في فندق «برنسيس أوتيل». وبلغت من الفخامة حدا انفلت معه لسان الخطباء الذين تباروا في الحديث عن دورها المجيد في الدفاع عن قيم الحياة الأوروبية، وفي الإلحاح عليها بضرورة كتابة مذكراتها باعتبارها توثيقا لما تحملته من عذاب في سبيل الدفاع عن الحرية التي هي نعمة من نعم الرب على الغرب.

وعقبت «البرنسيسة فهمي» على خطب الخطباء ومدائح الشعراء بكلمة قصيرة، شكرت بها العدالة البريطانية، والشعب البريطاني على مساندته، وقالت إنها ذهبت قبل المأدبة لتزور السير «إدوارد مارشال هول»، وتكرر شكرها له، فتلقت تهنئة زوجته التي كانت سعادتها مزدوجة، لبراءتها، ولانتصار زوجها العظيم، الذي حصل ـ لأول مرة في تاريخ القضاء البريطاني ـ على حكم بالبراءة في قضية قتل باسم الحرية.

وعندما وصلت «مدام فهمي» إلى «باريس» كان احتفال النساء الفرنسيات بعودتها ـ كما لاحظ المهندس «محمد وداد» عضو بعثة مصلحة الكباري المصرية إلى فرنسا ـ أقل بكثير من احتفاء النساء البريطانيات ببراءتها، مما جعله يؤكد أن ما جرى في بريطانيا من مبالغة في الاحتفال بالحكم، كان جزءا من حملة دعائية مخططة هدفها استغلال القضية للحط من كرامة المصريين في نظر العالم أجمع، وللتقليل من شأن ثورتهم ضد الاحتلال البريطاني، وللبرهنة على أنهم لا يستحقون الاستقلال، ولعل هذا هو السبب في أنها لم تمكث في «باريس» إلا أياما قليلة، أجرت خلالها عدة اتصالات هاتفية ـ ثم برقية ـ بالقاهرة، فتحدثت إلى محاميها المصري البروفسير «ميشيل أسود» ثم إلى واحد من كبار تجار الآثار والسجاد اسمه «يوسف كساب بك» كان من بين أصدقاء «علي فهمي» الذين تعرفت إليهم أثناء إقامتها في مصر، ودعتهما لزيارتها في «باريس».

وفي انتظار وصولهما غادرت «مدام فهمي» العاصمة، حيث أمضت إجازة قصيرة في مسقط رأسها بالقرب من «بوردو» في جنوب فرنسا، ومن هناك أعلنت للصحف أنها سوف تحتفظ بجنسيتها المصرية وبدينها الإسلامي، وباسمها المصري الإسلامي «منيرة هانم فهمي». وما كادت تعود إلى «باريس» لتقيم في منزلها بشارع

«هنري ماتان» حتى فاجأت الجميع باتخاذ الإجراءات الرسمية لإشهار إسلام ابنتها غير الشرعية «رايموندا» وأعلنت أنها كانت تنوي اتخاذ هذه الخطوة، منذ غيّرت دينها من الكاثوليكية للإسلام، لكي لا يكون هناك اختلاف بين دين الأم ودين الابنة، وأنها قد نذرت ابنتها للإسلام منذ تعرفت إلى تعاليمه السامية، ولولا الظروف السيئة التي تعرضت لها لكانت قد أوفت بنذرها بمجرد وصولها إلى «باريس» في بداية شهر مايو ١٩٢٣.

ومع أن هذه التصريحات بدت داعية للسخرية لتناقضها الفاضح مع الدور الذي كانت البرنسيسة تلعبه على مسرح الصحافة الأوروبية باعتبارها المناضلة العائدة من الجنوب الإسلامي الشرقي الذي يضطهد المرأة الأوروبية، إلا أن كثيرين ـ وخاصة أسرة «علي فهمي» ـ استرابوا فيما تفعل، ولم يلبث جانب من سر هذه التصرفات المريبة أن افتضح، فبعد أيام قليلة من وصول البروفسير «ميشيل أسود» و«يوسف بك كساب» إلى «باريس» وصل إليها «سعيد العناني» وتناثرت الأقاويل عن اجتماعات عقدت بين الثلاثة واشترك فيها آخرون من المحامين المصريين والفرنسيين.

ثم وضعت بعض النقط على بعض الحروف، حين تلقى «محمد حدَّاية باشا» ـ محافظ القاهرة ـ إنذارا قضائيا تلغرافيا، من «مدام فهمي» باعتبارها أرملة المرحوم «علي كامل فهمي بك» يطلب إليه ـ بصفته مشرفا على «مجلس حسبي مصر» ـ أن يتحفظ على كل ما تركه مورِّثها من عقارات ومنقولات وأراض زراعية، وأرصدة في البنوك إلى حين اتخاذ الإجراءات القضائية لتقسيم التركة بين الورثة، حفاظا على حقوقها، وحتى تضع مولودها، لأنها حامل في شهرها الخامس من زوجها المتوفي في لندن في ١٠ يوليو ١٩٢٣، ووقعت البرقية باسم «مرجريت علي كامل فهمي بك».

وكانت وزارة الداخلية قد أمرت قسم شرطة بولاق بأن يضع قصر «علي فهمي بك» تحت حراسة مكثفة، منذ أن وقع الحادث حتى لا يتعرض للسرقة خاصة بعد أن غادرت شقيقتاه وزوجاهما مصر إلى لندن ليتابعا القضية، أما وقد اتضح للمحافظ أن هناك خلافا قضائيا بين الورثة على تقسيم التركة، فقد أصدر أوامره على الفور بالتحفظ على مفرداتها وقامت قوات الشرطة بوضع الأختام على كل غرفة من غرف القصر وعلى بابه الرئيسي وعلى مقر «دائرة علي فهمي» بباب اللوق، إلى أن يفصل المجلس الحسبي في النزاع.

ولم يكن قد مر على صدور الحكم ببراءة «مدام فهمي» سوى خمسة أسابيع، حين تلقت جريدة «الأخبار» ـ جريدة الحزب الوطني وكان برأس تحريرها «أمين بك الرافعي» ـ نبأ من مراسلها بالإسكندرية يقول فيه «وصلت إلى الثغر على الباخرة

«أسبريا» «مرجريت فهمي» قاتلة المرحوم «علي فهمي كامل بك».. وقد نزلت المدينة في أول الأمر خائفة تترقب، ثم استأنست فجعلت تسير مطمئنة حيث تشاء».

وبعد ثلاثة أيام أيدت «المقطم» الخبر وأضافت أن «مدام فهمي» قد وصلت إلى القاهرة وبصحبتها «سعيد أفندي العناني» وشقيقتها «إيفون» وأحد رجال البوليس السري الفرنسي، وأنهم نزلوا جميعا بفندق «شبرد» وبدءوا في إجراء بعض الاتصالات بعدد من كبار المحامين المصريين والأجانب تمهيدا لكي ترفع أرملة فهمي بك قضية، تطالب فيها بنصيبها من ثروة زوجها، ولكي يقيم «سعيد أفندي العناني» دعوى يطالب فيها الورثة بمرتبه عن السنوات الثلاث المتبقية من المدة التي تعاقد على أن يعمل خلالها سكرتيرا للقتيل، وهي عشر سنوات، طبقا لنصوص العقد، الذي التزم فيه «علي فهمي» بأن يسدد له مرتبه عن مدة التعاقد كاملة، إذا استغنى عنه قبل انقضائها، وأضافت «المقطم» أن الاتجاه الغالب بين المحامين الذين استشارهم «العناني أفندي» يتشكك في جدوى إقامة تلك الدعوى؛ لأن العقد الذي يستند إليه في المطالبة بهذا الحق، قد أصبح لاغيا بوفاة الطرف الآخر فيه.

في تلك الأثناء كانت الصحف المصرية لا تزال مشغولة بالرد على السير «مارشال هول»، لا بالمقالات والدراسات، ولكن بالأخبار والتعليقات، وعلى عكس ما كانت تفعل من قبل، فقد بدأت تهتم بالأحوال الشخصية للجاليات الأوروبية المقيمة في مصر، لتثبت للسير «هول» أن ما نسبه إلى المصريين ليس من عجائب كوكب الشرق، وأن بين الأوروبيين الذين زعم أنهم متحضرون من يتعاملون مع زوجاتهم بالطريقة التي كان «علي فهمي» يعامل بها زوجته، وربما أسوأ. فأهدته «الكشكول» تفاصيل قضية رفعتها السيدة «ماري بيس» أمام المحكمة البريطانية بالقاهرة، تطلب فيها الحكم بانفصالها عن زوجها لإهماله لها وإدمانه للخمر وضربه إياها الذي انتهى إلى طردها من منزلها.


١٩٢٣: محمد حلمي باشا.. محافظ القاهرة

وأرسل قارئ من الإسكندرية وقع رسالته باسم «إفريقي» رسالة إلى جريدة «الجمهور» - التي كانت توصف بأنها جريدة وفدية علي فهمية - يروي فيها ما تعرضت له فتاة فرنسية مخطوبة لشاب أرمني، شاء سوء حظها أن تسكن في فندق من فنادق الثغر، إلى جوار غرفة يسكنها ضابط إنجليزي من ضباط جيش الاحتلال، برتبة كولونيل، لم يكتف

بالتلصص عليها من ثقب مفتاح الباب الذي يفصل بين غرفتيهما، بل وانتهز الفرصة ذات ليلة فاقتحم غرفتها وهي نائمة، وحاول اغتصابها، حتى كاد يخنقها لولا أنها استغاثت بالجرس الكهربائي، وأضاف «الإفريقي» معلقا بسخرية مُرة «.. لو أن مصريا فعل ذلك لألقيت على رأسه القاذورات من كل نوع، بل لتناولت الصحف قومه وشعبه وقارته والقارة المجاورة له بالسباب والشتائم، ونقلتهم جميعا من المدنية إلى الوحشية، ومن عداد الآدميين إلى عداد البهائم والوحوش، أما إذا كان إنجليزيا وكولونيلا في جيش الاحتلال، فهو يستحق على ما فعل ميدالية الامتياز».

وكان طبيعيا أن يثير خبر وصول «مدام فهمي» إلى مصر، اهتمام المصريين، الذين أخذوا يتبادلون رواية النبأ بمزيج كثير من الدهشة، والفضول، ويعلقون عليه بغضب، وأقسم كثيرون أنهم رأوها بأعينهم سواء أثناء إقامتها القصيرة في الإسكندرية أو أثناء انتقالها بالقطار ـ وفي روايات أخرى بالسيارة ـ إلى القاهرة.

واحتشد كثيرون حول «فندق شبرد» لعلهم يرون المرأة التي كانت سبب مصائبهم ويكتشفوا على الطبيعة ـ المبررات التي جعلتها تسبي عقل «علي فهمي» فتقوده إلى مصيره الفاجع، يعاينون عن قرب «الجمال القاتل»، إذ لم يكن ارتكاب النساء لجرائم القتل معروفا على نطاق واسع في مصر حتى ذلك الحين.

ومع أنه لم يكن قد مر على اكتشاف جرائم القتل التي ارتكبتها الأختان «ريا» و«سكينة» سوى ثلاثة أعوام، إلا أن ضحايا تلك الجرائم لم يكونوا من الرجال بل من النساء، ولم يكن الدافع إليها عاطفيا ـ كما هي الحال في جريمة «مدام فهمي» ـ بل كانت السرقة هي الدافع، ولم يكن هناك وجه للمقارنة بين المستوى الاجتماعي لأطراف كل من القضيتين.

ولا شك في أن تجاسر «البنت القبيحة/ جلاَّبة الفضيحة» على العودة إلى البلاد التي وصفتها في مذكراتها عن حياتها مع زوجها ـ وكانت تنشرها آنذاك على صفحات مجلة «الستريتد نيوز» البريطانية وتترجمها جريدة «الأهرام» ـ بأنها «أرض مصائبها» والتي جازت أهلها على كرم ضيافتهم باستئجار محام سليط اللسان، لم يترك لهم فضيلة إلا وقلبها إلى رذيلة، قد أذهل المصريين، ومطالبتها بنصيبها من ميراث زوجها الذي قتلته ولوثت سمعته، كان في رأيهم وقاحة نادرة المثال، جعلت الصحف تحكم بأن «ريا» و«سكينة» تعتبران بالقياس إلى «مدام فهمي» ملاكين بريئين. وكان مما أثار غيظ هذه الصحف أن الحكومة المصرية قد سمحت لها بدخول مصر، بعد كل ما ألحقته بسمعة المصريين من أذى، بينما يحرم بعض المناضلين المصريين ضد الاحتلال العودة إلى بلادهم، وتساءلت جريدة «الأخبار» في غضب لا يخلو من أسى «أليس عجيبا أن يباح لقاتلة زوجها المصري أن تدخل مصر، بينما يمنع من دخولها

مثل فضيلة الأستاذ عبد العزيز جاويش الذي تعارض الحكومة في عودته إلى بلاده، بعد عشر سنوات قضاها في المنفى؟».

واحد فقط نظر إلى خبر وصول «مدام فهمي» إلى القاهرة، نظرة محايدة، تخلو من أي انفعال، هو «كامل بك الرشيدي» ـ رئيس مجلس حسبي مصر ـ إذ ما كاد يقرؤه في الصحف، حتى طلب من محافظ القاهرة، إخطارها رسميا بضرورة مثولها أمام المجلس، في الجلسة المحدد لها صباح يوم السبت ٢٤ أكتوبر ١٩٢٣، لمناقشتها في الطلب الذي تقدمت به، وأحال المحافظ طلب رئيس المجلس الحسبي، إلى «أحمد بك بكتاش» ـ معاون المحافظ ـ الذي انتقل على الفور إلى فندق «شبرد»، لكنه لم يجد «مدام فهمي» بين نزلائه، وبعد جولة بين مكاتب شركات الملاحة في العاصمة، كتب تقريرا للمحافظة، جاء فيه أنه «لم يجد اسم المدام المذكورة بين الأجانب الذين وصلوا إلى القطر المصري خلال الأسبوع المنصرم، وأنه قد ظهر من التحريات أن التي وصلت بالباخرة «أسبريا» في التاريخ المنوه عنه، هي حضرة مدام توفيق كرم بك، وكانت ترتدي ملابس الحداد على زوجها الذي مات حديثا، فأخذ بعض الناس الذين رأوها تغادر الباخرة، يقولون بأنها مدام فهمي وصدقهم مكاتبو الصحف بالإسكندرية فأبرقوا بالخبر إلى جرائدهم».

ولم يحل عدم وصول «مدام فهمي» دون أن ينظر المجلس الحسبي في القضية، إذ كان وكيلها في مصر الأفوكاتو «ميشيل أسود» قد عرض الأمر على أحد كبار المحامين المصريين المنتمين للحزب الوطني، هو «أحمد لطفي بك»، فأشار عليه بتوكيل عدد من المحامين المتخصصين في هذا النوع من القضايا كان في مقدمتهم الأستاذ «محمود بك فهمي حسين» بينما وكل الورثة عنهم، حضرة صاحب العزة الأستاذ «حسن بك صبري» ـ وقد تولى رئاسة الوزراء فيما بعد ـ وظلت القضية تتداول أمام المجلس الحسبي لعدة شهور، ثم اشتبكت مع غيرها من القضايا التي تبادل الطرفان إقامتها أمام كل أنواع القضاء وكل درجات التقاضي.. بعد أن أصبح الصراع بين «مرجريت» وبين شقيقات «علي فهمي» وبقية ورثتها حول أحقيتها في نصيب من تركته هو الوجه البارز ـ وربما الوحيد ـ للمأساة.

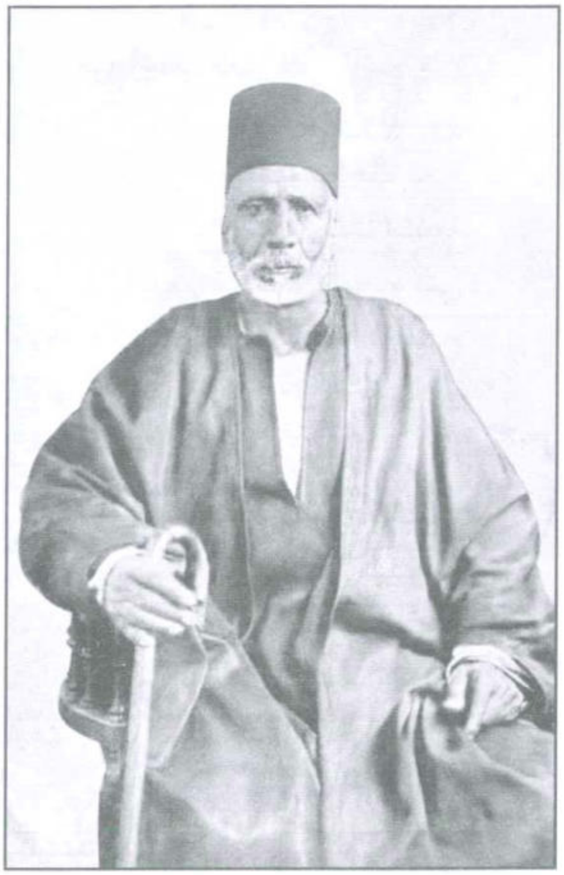
خفتت حدة الحزن على الشاب الذي مات قبل أن يحتفل بعيد ميلاده الثالث والعشرين، لم يعش منها ـ على قصرها ـ سوى أربع سنوات فقط، هي السنوات التي أعقبت رفع الوصاية عنه وتسلمه لثروته الطائلة، وأسفرت المأساة عن المهزلة الإنسانية التقليدية: نسي الجميع الشاب الذي مات وهو طفل في الرابعة، وأخذوا يتنازعون على اقتسام ثروته الطائلة، وشعارهم: مات الميت فليحي الحي قبل أن يلحق به.

أما أسعد الجميع حظا كما قالت مجلة «اللطائف المصورة» فكان «مرزوق أفندي

عوض» ـ عم «علي فهمي» ـ الذي بخل عليه شقيقه الباشا الراحل، وابن شقيقه البك الراحل، بجانب مما أنفقه الأول على ما أنشأه من بيوت وعمائر، وما بدده الثاني تحت أقدام الغواني والراقصات، فعاش حياته مجرد موظف صغير في دائرة «فهمي باشا» يتقاضى مرتبا يكفيه ـ هو وأولاده ـ بالكاد، ويرتدي ملابس مما يرتديها أفندية الريف، فإذا به يصبح صاحب النصيب الأكبر من إرث ابن شقيقه، فسبحان الذي يعز من يشاء.. ويذل من يشاء.. ويهب الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء.. وهو على كل شيء قدير.

لكن ذلك كله كان رهينا بأن تضع «مدام فهمي» وليدها الذي أعلنت المجلس الحسبي رسميا، بأنها قد حملت به من زوجها الراحل، إذ كان ميلاده أولا ثم ثبوت نسبة لأبيه ثانيا، ثم نوعه ثالثا، هو الذي يحدد أسماء الورثة، ونصيب كل منهم في الميراث، إذا كان سيكون لهم نصيب، وبينما الجميع ينتظرون ـ في قلق ـ أنباء «الوضع» فاجأتهم جريدة «الستريتد نيوز» بخبر تلقته من مراسلها في «باريس» يقول فيه إن «مدام فهمي» تنتظر أن تضع حملها، لكي تعلن زواجها من «سعيد أفندي العناني» وإن الاثنين سوف يتضامنان في المطالبة بنصيب الأرملة ووليدها المنتظر في ثروة «علي بك فهمي».

«مرزوق أفندي عوض»، شقيق «علي باشا فهمي» الأب.. وعم «علي فهمي بك»، قضى حياته حتى تجاوز السنين، مزارعًا بسيطًا في دائرة أخيه.. ثم دائرة ابن أخيه الذي بخل عليه بجزء مما كان يبدده تحت أقدام الغواني ثم دارت الأيام ليصبح مرشحًا للحصول على الجزء الأكبر من ثروة ابن الأخ



ولما كانت الجريدة التي نشرت الخبر، هي التي تنشر مذكرات «مرجريت»، فإن أحدا من المصريين لم يساوره الشك في أنها مصدر الخبر الذي طيره إليهم مراسل «الأهرام» من «لندن» فاعتبروه دليلا على صحة ما أشيع في أعقاب الحادث عن أن علاقة عاطفية كانت تربط «مرجريت» و«العناني»، وبأن اكتشاف «علي فهمي» لتلك العلاقة هو السبب المباشر لتصاعد الأزمة إلى أن وصلت إلى ذروتها في واقعة فندق سافواي، التي أعيد تفسيرها ـ في ضوء مشروع الزواج بين الاثنين ـ لتصبح مؤامرة مخططة للتخلص من الزوج المسكين لكي يخلو الجو للسكرتير الخائن والزوجة الخائنة.

ومع أن «سعيد العناني» سارع بإرسال برقية إلى جميع الصحف المصرية، يقول

فيها «أكذب بتاتا جميع المزاعم التي نشرتها الصحف الأوروبية عن علاقاتي بمدام فهمي»، إلا أن انتقاله من «لندن» إلى «باريس» وعدم عودته إلى مصر بعد مرور ستة شهور على رحيله منها ولقاءاته مع قاتلة سيده على الرغم مما نسبته له من وقائع مشينة أثناء المحاكمة، كان يثير كثيرا من الريب.

وعلى عكس ما حدث أثناء المحاكمة فإن أسرة «علي فهمي» التي قصَّرت في الدفاع عن سمعته ضد تهجمات القاتلة، ومحاميها سليط اللسان، لم تقصِّر في الدفاع عن حقها في الانفراد بميراثه، دون أرملته التي لم يكن منطقيا في رأي الأسرة، أن تكافأ على قتلها له، بالحصول على جانب من ثروته، خاصة وأن احتمال تجريد الأسرة من كل حق في الحصول على شيء من هذا الميراث، ليقع كاملا بين يدي القاتلة، كان واردا إذا صح أنها حامل منه، وإذا وضعت ابنا ذكرا.

والغالب أن الأسرة كانت تحيط القاتلة بالعيون والأرصاد، وربما كان «سعيد العناني» أحد هذه العيون، لكن «مرجريت» التي كانت أكثر ذكاء وخبرة، من أن تنخدع في «سعيدالعناني» أو تثق فيه، وهي تعلم مدى وفائه لسيدة، وحجم الإغراءات المالية التي يمكن أن يقدمها له المتنافسون معها في الميراث وهم شقيقات القتيل وعمه، اكتشفت المناورة، فتعمدت أن تسرب هذا الخبر للصحف على سبيل السخرية من خصومها، ولكن تدق إسفينا في العلاقة بينهم وبين مخبرهم النشيط.

وكان من بين نتائج وضع «مرجريت» تحت رقابة أسرة «علي فهمي» أنها ما كادت تعود إلى «باريس» ـ بعد صدور حكم البراءة ـ حتى حاولت أن تسترد مجموعة أدوات الزينة المصنوعة من الذهب الخالص التي كان زوجها قد اشتراها لها قبل سفرهما إلى لندن، وتركها لدى الصائغ لكي ينقش عليها الحرفين الأولين من اسمها بحروف من الماس، لكن الصائغ اعتذر عن تسليمها لها، قائلا إنه قد تلقى إنذارا قضائيا من أسرة القتيل،بأنها موضع نزاع قضائي، وأنه مضطر لهذا السبب بأن يحتفظ بها حتى يتم الفصل في ملكيتها.. مما دفعها لإقامة دعوى أمام محكمة «السين» الفرنسية، للمطالبة باستردادها، قائلة بأن زوجها وإن كان هو الذي دفع ثمنها ـ وهو أربعة آلاف جنيه ـ وهو الذي أودعها لدى الصائغ، إلا أنه طلب نقش الحرفين الأولين من اسمها عليها، مما يدل على أنها اشتريت لها، لتكون هدية زواجها، فأصبحت ـ بذلك ـ من حقها بينما دفعت أسرة القتيل، بأن المجموعة ملك لمن دفع ثمنها، وتركها لدى الصائغ، وأن مجرد طلبه نقش اسم زوجته عليها لا يكفي دليلا على ملكيتها لها؛ إذ لم يكن هناك ما يحول بينه وبين العدول عن إهدائها إليها بعد تسلمه لها، وبذلك فهي جزء من الميراث، لا يجوز تسليمه لأحد الأطراف المتنازعة عليه، قبل صدور الحكم في القضايا المتبادلة بينهم حول تقسيم التركة.

لكن تلك الرقابة لم تفلح في اكتشاف أخطر المؤامرات التي كانت المرأة الرهيبة

تدبرها للاستيلاء على تركة الرجل الذي قتلته، إلى أن أعلنتها هي بنفسها، فكشف عن أكثر جوانب المهزلة الإنسانية مأساوية.

وكان الجميع لا يزالون ينتظرون أن تضع «مدام فهمي» حملها، لكي يحسبوا نصيب كل واحد من ورثته فيما تركه، حين تقدمت إلى الشرطة الفرنسية، ببلاغ تتهم فيه عصابة من المصريين والفرنسيين، بتحريضها على القيام بأعمال غير قانونية، لكي تحصل على ثروة زوجها الراحل، مقابل أن تعطيهم نصيبا منها.

وكانت التفاصيل التي أذاعتها تدعو للذهول.



كان «يوسف بك كساب» هو المتهم الأول ـ والوحيد آنذاك ـ فيما وصفته «مدام فهمي» ـ في بلاغها للشرطة الفرنسة ـ بأنه «محاولة لتوريطها في عمل غير قانوني يأباه ضميرها». وهو متمصر من أصل سوري.. شد رحاله ـ في مطلع شبابه ـ من مسقط رأسه في «حلب» إلى «إستانبول» عاصمة الدولة العثمانية، وعمل في صحافتها.

ولأنه كان ـ منذ البداية ـ شابا عمليا من النوع الذي يعرف هدفه بوضوح، فقد سخر قلمه للكشف عن مناقب ومزايا «الشيخ أبو الهدى الصيادي» ـ نقيب الأشراف والمستشار الديني للسلطان «عبدالحميد الثاني» وأقوى شخصية في البلاط العثماني ـ وما إن علم النقيب أن الصحفي الشاب، حلبي مثله حتى قربه إليه، وضمه إلى حاشيته.

وحين قضت الظروف السياسية في تركيا، بأن يفقد الشيخ نفوذه في البلاط ـ بعد الانقلاب الدستوري في عام ١٩٠٨ ـ أعطاه خطاب توصية إلى صديقه «عباس حلمي الثاني» ـ خديو مصر ـ الذي اكتشف مواهبه الاقتصادية فاستعان به كوسيط في عدد من الصفقات المشبوهة، فنجح في مهمته، وكوفئ عليها بلقب «البيكوية»، وخرج منها برأسمال دخل به ميدان التجارة الدولية، يصدر ويستورد، ولمع اسمه حين قرر أن ينافس «مشرب شاي جروبي» الشهير، فأنشأ ـ على الأرض التي تقوم عليها الآن «سينما ديانا» بـ«شارع الألفي» بوسط القاهرة ـ «كلوب كساب»، ليقدم لرواده المشروبات الخفيفة من الشاي إلى البيرة، فضلا عن الحلويات الشرقية والغربية.

وما لبثت «حديقة الكلوب» أن أصبحت واحدًا من أهم منتديات الطبقة الراقية من المصريين والمتمصرين والأجانب، وأتاحت للمغامر الحلبي الفرصة لكي يقيم علاقات واسعة مكنته من مواصلة أنشطته التجارية التي اتسعت لتشمل كل شيء: من الوساطة بين تجار الجملة وتجار التجزئة، إلى الوساطة بين «الخديو عباس» والراغبين في شراء الرتب والنياشين.

لكن «كساب بك» ما لبث أن باع «الكلوب» ـ رغم ما كان قد حققه من شهرة دفعت المشترين إلى الاحتفاظ باسمه التجاري ـ لينغمس خلال سنوات الحرب العالمية الأولى في الوساطة بين خديو مصر المعزول والمنفي «عباس حلمي الثاني»، وبين الباب العالي في تركيا، لكي يضمن الأتراك للخديو العودة إلى بلاده وإلى عرشه، بعد انتصارهم في الحرب، وكان يغطي هذه الوساطة بالعمل كتاجر للأثاث، حتى أصبح واحدا من أشهر تجار الموبيليا في مصر.

والغالب أن شك السلطات المصرية في أنه يقوم بمجهود ما، لدعم عودة الخديو المعزول إلى عرشه، وعجزها عن إثبات التهمة ضده هو الذي جعلها ترتب لمحاكمته بتهمة أخرى هي تقديم رشوة لأحد موظفي مصلحة التموين، انتهت بالحكم عليه بالحبس لمدة ستة شهور وغرامة مائة جنيه.

كان «كساب بك» ـ باختصار ـ نمطا إنسانيا، ممن يوصف في أيامنا هذه بأنه «بتاع كله».

وبهذه الصفة تعرف بأمير الشباب «علي فهمي بك»، ثم بزوجته «منيرة هانم» التي قالت في البلاغ الذي تقدمت به إلى المسيو «ميشيل» ـ قومسيير البوليس الفرنسي ـ في نهاية يناير ١٩٢٤ إنها كانت حاملا من زوجها الراحل «علي فهمي»، ولكنها فقدت حملها نتيجة لتعثرها أثناء نزولها من القطار في بداية الشهر نفسه.

ولما علم «كساب بك» ـ الذي كانت تعرفه بحكم صداقته لزوجها ـ بما حدث زارها بمنزلها بباريس، بدعوى الاطمئنان على صحتها.

وفي أثناء الزيارة، أبدى لها أسفه الشديد؛ لأن خسارتها الفادحة بفقد الطفل، ليست عاطفية فقط، بل ومالية كذلك، إذ إن وفاته.. وهو جنين لم يكتمل بعد ـ قد أفقده الحق في وراثة والده، وأفقدها بالتالي كل أمل في أن تحصل على نصيب من ثروة الزوج الراحل، ولو أن هذا الطفل كان قد «ولد» لكان من حقه أن يرث كل ما تركه الأب من قصور ويخوت ومجوهرات وأراض زراعية وأوراق مالية، ولو أنه كان قد عاش لأسابيع قليلة، ثم مات بعد ذلك، لانتقل جانب من ثروته إليها بشكل قانوني، ومن دون أن يستطيع عم زوجها أو شقيقاته أن يعترضوا على ذلك، ومن دون أن تكون هي في حاجة إلى الدخول معهم في منازعات قضائية، سوف يطول أمدها، فضلا عن أنه يصعب الجزم بأن الأحكام التي ستصدر فيها، ستكون في النهاية لصالحها.

وأضافت «مدام فهمي» في بلاغها، أن «كسَّاب بك» عرض عليها مساعدته، لكي تحصل على نصيب من ثروة زوجها من خلال خطة مضمونة، تقوم على استصدار شهادة ميلاد ـ تؤرخ بتاريخ ١٥ يناير ١٩٢٤ ـ تثبت أنها وضعت طفلا ذكرا ينسب

إلى «علي فهمي» ثم استصدار شهادة وفاة ـ بتاريخ أول مارس ١٩٢٤ ـ تثبت أن هذا الطفل قد مات بعد ستة أسابيع من ميلاده.

ومع أنها رفضت العرض على الفور، وحذرته من العودة إلى مفاتحتها في هذا الموضوع، إلا أنه ظل يواصل الإلحاح عليها، بل وشرع في البحث عمن يعينونه على تنفيذ خطته، وأخذ ينقل إليها نتائج جهوده في هذا الصدد، لكي يؤكد لها بأن خطته مضمونة النجاح، ولا تتطلب سوى أن تتغلب على ترددها وتشرع في تنفيذها قبل أن يفوت الأوان.

وكان من بين ما ذكره لها، أنه تعرف عن طريق الدكتور «كامل أنور» ـ وهو طبيب مصري يقيم في باريس ـ بالزوجين «شايو» وهما طبيبان فرنسيان يديران مستشفى صغيرا للولادة.. وقد أبديا استعداد طيبا للمعاونة في تنفيذ الخطة، إذا ما حصلا على ٤٠ ألف فرنك فرنسي، منها عشرة آلاف مقدما، والباقي عند تسليم شهادة الميلاد.

كما أبدى محام فرنسي يعرفه «كساب بك»، استعداده للمعاونة في تسجيل الشهادة بالسجلات الفرنسية وإتمام إجراءات استصدار شهادة الوفاة.

واستطردت «مدام فهمي» تقول في بلاغها للمسيو «ميشيل» قومسيير الشرطة الفرنسية، إن إلحاح «كساب بك» عليها، بقبول تنفيذ خطته، التي كان مفهوما أنه سوف يتقاضى نسبة عما سوف ترثه في حالة نجاحها، وصلت إلى حد مطاردتها في كل مكان تذهب إليه، أو تسهر فيه، حتى تقبل الذهاب معه إلى مستشفى «شايو»، فتسجل اسمها في سجلاتها، وتقيم فيها المدة المفترضة للوضع، لكي تستكمل الخطة كل شروط نجاحها من حيث الشكل. وأنها حين كررت رفضها لإلحاحه، أخبرها بأنه يعلم بأن ترددها في تنفيذ الخطة وفي دفع العشرة آلاف فرنك التي طلب الزوجان «شايو» الحصول عليها مقدما، يعود إلى عدم ثقتها في نجاحها وخشيتها من ضياع نقودها، وأنه أراد أن يحسم ترددها فدفع المقدم المطلوب من جيبه، وزعم أمام الزوجين أنها التي أرسلته لهما، وأن إصرارها ـ بعد ذلك كله ـ على عدم الذهاب إلى المستشفى، لن يعرض الخطة للفشل فحسب، ولكنه سيعرضه ـ كذلك ـ لخسارة النقود التي دفعها.

وإزاء هذا الاندفاع ـ الذي وصفته «مدام فهمي» في بلاغها بأنه «استغلال حقير لاسمها في عملية نصب» ـ تظاهرت بمسايرته، لتكتشف مدى صلة الزوجين «شايو» بالخطة، وصحبته إلى مستشفاهما، ليتضح لها أنه ـ على عكس ما زعم ـ لم يدفع لهما شيئا، فاستمهلتهما لأيام حتى تدبر لهما قيمة المقدم الذي يطلبانه وأسرعت تبلغ الشرطة بالموضوع كله لتوقف استغلال اسمها في مؤامرة تسيء إلى سمعتها.

وأراد قومسيير الشرطة أن يتأكد من صحة بلاغ «مدام فهمي» فطلب إليها أن تتصل

هاتفيا من مكتبه بمستشفى الزوجين «شايو» وتستدرجهما إلى حديث عن الخطة يتطرق إلى دور «كساب بك» فيها، بينما يستمع هو إلى الحوار بينهما من سماعة إضافية.

وكان من سوء حظ «مدام شايو» أنها هي التي تلقت المكالمة وقد أكدت ـ ردا على سؤال من «مدام فهمي» ـ أن باستطاعتها أن تستصدر شهادة الميلاد المطلوبة، بل واهتمت بالحصول على البيانات التي تريد إدراجها بها، وعندما طلبت «مدام فهمي» إليها أن تعيد النظر في قيمة المقدم الذي طلبته من «كساب بك»، قالت «مدام شايو»:

ـ إنني لا أخاطر بمستقبلي من أجل عينيك الجميلتين يا عزيزتي.. ولن أفعل شيئا إذا لم يصلني غدا المبلغ الذي اتفق معي عليه «كساب بك».

وفى اليوم نفسه ألقت الشرطة الفرنسية القبض على «يوسف بك كساب».

وما كادت الصحف تنشر أسباب القبض عليه، حتى تقاطر الصحفيون الفرنسيون ومراسلو الصحف الأوروبية، على منزل «البرنسيس فهمي بك»، يسألونها عن التفاصيل، وعادت مرة أخرى لتصبح نجمة تتلألأ حولها الأضواء ويثير اسمها شهية القراء والمعلقين.. وعقدت مؤتمرا صحفيا عالميا، أعلنت فيه ـ لأول مرة ـ أنها فقدت حملها منذ أسابيع، وذكرت تفاصيل الخطة الشريرة، التي حاول «كساب بك» ـ صديق زوجها وابن بلده ـ أن يدفعها لكي تشاركه في تنفيذها مقابل أن يحصل على نسبة مما سوف ترثه إذا قبلت التواطؤ معه، وقالت ـ في حديث خاص لمراسل جريدة «الديلي إكسبريس» البريطانية في «باريس» ـ إن الرجل يتميز بدرجة من الغباء والحمق، حتى إنه حاول أن يجبرني على المشاركة في مؤامرته بإشاعة أخبار عن وضعي لطفلي في المجتمعات التي نتردد عليها معا، وذات مرة كنت أقف مع صديق لي، فأقبل لتحيتنا، وقال لصديقي:

ـ لقد وضعت «مدام فهمي» طفلا جميلا في «مستشفى شايو» ليلة الخميس الماضى.

وذهل صديقي.. وضحكت أنا.. وقلت له:

ـ كيف تريده يا «يوسف بك» أن يصدق أنني وضعت طفلا في الليلة التي أمضيتها بصحبته حتى الصباح بأحد ملاهي الشانزليزيه؟!

لكن التحقيق في بلاغ «مدام فهمي» ما لبث أن أشار إليها بأصابع الاتهام، صحيح أن «يوسف كساب» ـ في أقواله أمام الشرطة ثم أمام قاضي التحقيق ـ أقر بوجود خطة لاصطناع أوراق تنتهي بحصول أرملة «علي فهمي بك» على جانب

من تركه زوجها، إلا أنه أنكر أنه صاحب هذه الخطة، وأكد أن التي وضعتها «هي مدام فهمي» نفسها، وقد يكون عدد من المحامين المصريين قد أشاروا عليها بها، بشكل مباشر أو غير مباشر.. وأنه ـ على عكس ما تدعي ـ قد عارض في تنفيذ الخطة، وكانت هي التي تطارده وتلح عليه، وتحاول إغراءه بالحصول على نسبة متصاعدة مما سوف ترثه، ثمنا لمشاركته إياها في تنفيذ مؤامرتها الدنيئة، بل وعرضت عليه أن يتقاضى مقدما مبلغ أربعين ألف فرنك، بمجرد نجاحه في الحصول على الأوراق المصطنعة.. وأنه اكتفى ـ طوال الوقت ـ بمحاولة إثنائها عما تفكر فيه، دون الإبلاغ عنها، تقديرا لصداقته لها ولزوجها ولإدراكه بأن الخطة خيالية، ومستحيلة التنفيذ.

ودلل «يوسف كساب» على صحة ادعاءاته بالترتيب الزمني للأحداث، إذ أرسلت «مدام فهمي» برقية إلى محافظ القاهرة تخطره فيها بأنها حامل من زوجها الذي قتلته، وتطالب فيها وضع تركته تحت التحفظ الإداري، لحين تضع حملها، إذ لا يمكن تقسيم التركة قبل معرفة جنس المولود، مع أنها لم تكن في يوم من الأيام حاملا من زوجها، وإلا لذكر محاميها السير «مارشال هول» تلك الحقيقة أثناء مرافعته عنها، أو لذكرتها هي نفسها أثناء استجوابها أمام المحكمة، ولو على سبيل طلب الرأفة من المحلفين، ثم أرسلت ـ بعد ذلك وليس قبله ـ إليه هو نفسه «يوسف كساب» برقية تطلب منه فيها أن يلحق بها في «باريس»، ومعنى هذا أنها هي التي طلبته لكي تعرض عليه الخطة، ولم يبادر هو بالسفر لكي يعرضها عليها، وفضلا عن ذلك كله، فإنه كان في الطريق إلى «باريس» حين أعلنت تمسكها بجنسيتها المصرية وبدينها الإسلامي، وأشهرت إسلام ابنتها غير الشرعية «ريموندا»، وأنه ما كاد يصل حتى فاتحته بخطتها، وذكرت له أنها أعلنت ذلك لكي تزيل كل العقبات التي قد تعوق حصولها، أو حصول ابنتها، على نصيبها من ميراث الطفل الذي سيولد ويموت، باعتبارها أمه، وباعتبار «ريموندا» أخته غير الشقيقة.

ومع أن كلا منهما قد أصر- في المواجهة التي أجراها قاضي التحقيق «المسيو بارنو» بينهما ـ على اتهام الآخر، بأنه واضع الخطة التي رفض هو أن يشارك فيها، فقد كان واضحا أن كلا منهما يقول نصف الحقيقة، وأنه يخفي فقط النصف المتعلق بدوره في المؤامرة؛ إذ لم تستطع «مدام فهمي» أن تنكر ـ أو تبرر ـ البرقية التي أرسلتها لـ«كساب بك» لكي تستدعيه من القاهرة إلى باريس، فبدا ادعاؤها بأنه صاحب الفكرة باعثا على السخرية، ولم يستطع هو أن ينكر مفاوضاته مع الزوجين «شايو» حول ثمن اصطناع شهادتي الميلاد والوفاة، ففضلا عن أن قومسير البوليس كان قد سمع بأذنه اسمه يتردد على لسان «مدام شايو» خلال مكالمتها الهاتفية مع «مرجريت»، فقد اعترفت الزوجة «مدام شايو» بكل اتصالاته بها، وقالت إنها فهمت أنه وسيط،

فآثرت أن تنتظر حتى تعرف صاحب المصلحة في طلب اصطناع الشهادتين، قبل أن تبلغ الشرطة.

وبذلك يصبح الأكثر منطقية هو أن كلا منهما قد اشترك في التخطيط، وربما يكون آخرون قد اشتركوا معهما، وأن خطوات التنفيذ قد وقعت على عاتق «كساب».

وظل السؤال الذي يبحث عن إجابة هو:

لماذا عدلت «مدام فهمي» فجأة عن تنفيذ الخطة؟

وإذا كان لديها سبب لهذا العدول.. فلماذا أبلغت الشرطة ضد «كساب بك»، وكان باستطاعتها أن توقف التنفيذ دون حاجة إلى الإبلاغ الذي اضطره للدفاع عن نفسه بإثارة الشبهات حولها؟!

في تفسيره لذلك العدول قال «كساب بك» ـ ردا على سؤال من قاضي التحقيق ـ إنه يعتقد أنها ربما تكون قد خافت، أو تكون قد اتفقت مع بقية الورثة، وهما مبرران يصلحان للانسحاب من المشروع، لكنهما لا يفسران إصرارها على الإبلاغ عنه.

والغالب أن المرأة الجهنمية قد استوحت فكرة المؤامرة من أحد القانونيين المصريين، أثناء مناقشة معه، حول نصوص الشريعة الإسلامية التي تنظم حقها في الحصول على نصيب من إرث زوجها، وقد يكون الأمر قد تجاوز مجرد الإيحاء بالفكرة إلى المشاركة في وضع الخطة التفصيلية.

لكن المؤكد أن «مدام فهمي» قد تعاملت مع الأمر كله ـ منذ البداية ـ بحذر فحرصت على ألا تشارك في التنفيذ إلا بالخطوات التي لا مفر من مشاركتها فيها، ولا ضرر من هذا الاشتراك، كالإعلان عن تمسكها بدينها الإسلامي، وإشهار إسلام ابنتها، إذ القاعدة في الشريعة الإسلامية «أن غير المسلم لا يرث المسلم»، وبالتالي فهي لا تستطيع أن ترث «علي فهمي» إلا إذا ظلت «منيرة هانم»، ولا تستطيع «ريموندا» أن ترثها إلا إذا كانت مسلمة، أما «الأعمال القذرة» الضرورية لتنفيذ الخطة، كالبحث عمن يزور الشهادتين، فقد رفضت أن تشارك فيها بنفسها، خشية أن يؤدي هذا البحث إلى افتضاح الأمر، مما يسيء إلى موقفها في القضايا الأخرى التي كانت تنوي أن تقيمها ضد بقية الورثة، فكان لابد من الاستعانة بـ «كساب بك» ليقوم بهذا الدور.

ولعلها كانت تتصور ـ في البداية ـ أنه سيقوم بكل العمل، ويقدم لها شهادتي ميلاد ووفاة الطفل دون أن يضطرها للتعامل مع أطراف ثالثة، لكنها فوجئت بمدى التعقيد في المسألة؛ إذ لم يكن مطلوبا منها فقط أن تتفق بنفسها مع الزوجين «شايو»، بل وأن تتعهد بدفع مبالغ مالية طائلة لهما، ولـ «كساب بك» قبل حصولها على الشهادتين، وقبل أن تحصل على فرنك واحد من ميراث زوجها.. وفضلا عن ذلك كله، فإن

التشكك في حملها كان سائدا في كثير من الأوساط المصرية والفرنسية، وخاصة لدى أسرة زوجها، وكان هناك كثيرون ممن اختلطوا بها قبل مصرع زوجها وبعده يستطيعون الشهادة بأنها لم تكن حاملا.

أما المهم فهو الدلائل الرسمية على ذلك، فقد أمضت شهرين كاملين بسجن «هولواي» للنساء في انتظار المحاكمة، وقع الكشف الطبي عليها خلالها عدة مرات، فلم تذكر مرة واحدة أنها حامل، ولم تدوّن ذلك في أية ورقة رسمية، ولم يرد لذلك الحمل ذكر على لسانها أثناء محاكمتها مع أنه ليس من الوقائع التي يمكن نسيانها أو إغفالها في مثل ظروفها آنذاك.

كان نجاح الخطة ـ كما اكتشفت «مدام فهمي» بعد أسابيع قليلة من شروعها في تنفيذها ـ ممكنا لو أنها لم تكن قد قتلت زوجها، ولو أنه لم يترك ورثة يناصبونها العداء ويحيطونها بالرقباء، بل ويخططون للانتقام منها ويحرصون على حرمانها من التمتع بجانب من ثروة الرجل الذي قتلته، ثم شوهت سمعته وسمعتهم في أربعة أركان المعمورة.

أما وقد ثبت لها أن الخطة مستحيلة التنفيذ، فقد كان لابد من التراجع عنها، ولكنها خشيت أن يكون نبأ الخطوات التي قطعتها في تنفيذها قد تسرب إلى الذين ينازعونها على الميراث، أو أن يبوح «كسَّاب بك» لهم بسرها ويتقدم للشهادة ضدها أمام المحاكم المصرية التي تنظر القضايا المتبادلة بينها وبينهم، فتخسر كل شيء.. فقررت ـ على سبيل الاحتياط للمستقبل ـ أن تضع فأس المسئولية عن المؤامرة في رقبته، لتحول ـ إلى الأبد ـ بينه وبين اللعب مع الفريق الآخر.

وكان لابد وأن يثير ارتفاع الستار عن فصل جديد من مأساة ـ أو مهزلة ـ «مدام فهمي»، اهتمام المصريين، الذين كانوا يتوهمون أن مطالبتها بنصيب في إرث زوجها هو أقصى ما يمكن أن تذهب إليه، وأنه لم يعد لديها رصيد من التجرؤ وانعدام الحياء يدفعها إلى المزيد، لذلك جددت أنباء المؤامرة سخطهم عليها، وعادوا يتعاطفون مع «علي فهمي» الذي بدا لهم شابا تعيس



«المسيو هوريت» المحامي الفرنسي، ودالي جولد موكله «يوسف كساب» الذي اتهمته الصحف بالتخطيط لمؤامرة الاستيلاء على تركة «علي فهمي»

الحظ، وقع بين براثن امرأة جهنمية، لم تكتف بالتآمر عليه حيا، بل هي تواصل تآمرها عليه ميتا، فهبوا يدافعون عن ثروته باعتبارها جزءًا من الثروة القومية، ينبغي الحفاظ عليه بين أيدي المصريين، والحيلولة دون انتقاله إلى أيدي أعدائهم من الأوروبيين.

لكن سعادتهم ـ أو بمعنى أدق شماتتهم ـ بقراءة تفاصيل ما وصفته الصحف بأنه «فضيحة مرجريت الجديدة» ما لبثت أن شابتها أكدار كثيرة، صحيح أن الفضيحة قد ردت إليهم بعض الاعتبار الذي أهدرته مرافعة «مارشال هول» وأكدت أن «مدام فهمي» لم تكن ذلك الحمل الأوروبي الوديع المنزه عن الخطايا، كما زعم، وأثبتت أنهم كانوا على حق حين حكموا بأن الاستيلاء على أموال «علي فهمي» كان الهدف الأول والأخير من قبول الغانية الفرنسية الزواج منه، كما هو هدف كل أوروبي يتعامل مع الشرقيين على كل صعيد من الصداقة إلى الحب.. ومن الاقتصاد إلى السياسة، إلا أن الحقائق المرة ما لبثت أن دهمت فرحتهم، حين عرفوا أن الشيطانة الغربية، لم تكن تتآمر وحدها، ولم يكن شركاؤها في هذا التآمر أوروبيين من جنسها، بل كان بينهم مصريون وشرقيون ينتمون إلى وطن «علي فهمي» وإلى فلقة الكرة الأرضية التي تتعرض للنهب والقهر، بل هم من طبقاته الثرية والمثقفة، فبينهم تجار وأطباء.. بل ومحامون هم جزء من القضاء المصري، فليس الغربيون وحدهم الذين يتآمرون لنهب أموال الشرقيين، بل إن من بين الشرقيين من لا يتورع عن المشاركة في مؤامرة دولية، لكي ينقل أموال الشرق إلى أعدائه، في الغرب، مقابل الفتات الذي يحصلون عليه لأنفسهم.

وكانت مجلة «الكشكول» على حق، حين حكمت بأن الخطة التي كشفت عنها الاتهامات المتبادلة بين «مدام فهمي» و«كساب بك» هي «مكيدة واسعة النطاق مترامية الأطراف يستحيل أن تكون من تدبير إنسان واحد أو من تفكير رجل عادي».

وما لبثت جريدة «الليبرتيه» ـ وهي جريدة مصرية كانت تصدر بالفرنسية ـ أن ذكرت أن التحقيق الذي يجري في مؤامرة «مدام فهمي» و«كساب بك» قد كشف عن أن خطة المؤامرة قد وضعت بمشاركة اثنين من كبار المحامين المصريين أمام المحاكم الأهلية والمختلطة، هما الأفوكاتو «ميشيل أسود» ـ وكيل «مدام فهمي» بالقاهرة ـ والأفوكاتو «عزيز خانكي» ـ الذي يتولى دراسة قضاياها في مصر ـ وتداولت المجالس ـ كما أضافت «الكشكول» ـ أسماء اثنين من كبار المحامين الشرعيين قيل إن لهما ضلعا في المؤامرة، هما الأستاذ الشيخ «خيرت راضي» والأستاذ الشيخ «عبد الغني محمود»، وعبرت عن دهشتها البالغة؛ لأن الذين تتداول الصحف والمجالس أسماءهم باعتبارهم من المتواطئين في هذه الفضيحة، قد التزموا الصمت التام، ولأن «الهيئات المحترمة» التي ينتمون إليها ـ مثل نقابات المحامين الأهلية والشرعية والمختلطة، «قد صمتت عما نسب إليهم، ولم تقل كلمة واحدة تدفع بها



كاريكاتير نشرته مجلة «الكشكول» تسخر به من ادعاء «مدام فهمي» أنها حامل، بعد انفضاح ماسمته «المؤامرة المرجريتية الكسابية لنهب تركة «علي فهمي».. لكن التعليق عليه لا يمكن نشره، لأن الصحف المصرية في ذلك الزمن كانت تمنح نفسها حرية واسعة فيما تنشره انطلاقًا من أن كل قرائها من الرجال فقط

عن المنتمين إليها، ما لابد وأن يمسهم جميعا، إذا ترك الباب مفتوحا وبقيت المسألة مضغة في أفواه المتحدثين، ورواية على ألسنة السامرين».

وختمت تعليقها قائلة في أسى ـ لا شك في أنها كانت تعبر به عن مشاعر الرأي العام ـ أنها «تتمنى أن يكشف التحقيق عن براءة كل مصري، وكل شرقي عن المشاركة في تدبير هذه المؤامرة، وتتمنى أن يكون دور المحامين المصريين قاصرا على تقديم المعونة القضائية لمدام فهمي لتحصل على ميراثها، إذا كان لها ميراث»، أما إذا كان هناك ـ من بين المصريين ـ من شارك في «العصابة التي كانت تحتال على اقتسام تركة علي فهمي» فهي تتمنى «أن يكون من غير المشتغلين بالقانون حتى لا يلطم عالم القضاء بمصر بمثل هذه اللطمة المشينة».

ولا شك في أن المصريين قد شعروا بالعار، لأن بعضها منهم قد شارك في تلك

الخطة الدنيئة، لذلك طالبت «الكشكول» المصريين ـ بل والشرقيين ـ أن يلفظوا هؤلاء المتآمرين، وألا يقبلوا «أن يكون من بين تجارهم أو محاميهم أشخاص لا يبالون بتدبير سرقات أو اغتيال مواريث في وضح النهار وبمجرد الاعتماد على شراء ذمة طبيب أو مستشفى».

وكان «نقولا الحداد» أكثر حدة وهو يقول: «إننا نضن بشرف الشرق أن يتلوث بنذالة كالتي ارتكبها «كساب بك».. وإذا كانت أوروبا لا تحسب سيرة «مرجريت» هذه معرة لها، وفرنسا لا تحسب دناءة الطبيب والمحامي الفرنساويين اللذين كانا يتساومان معها شائنة لسمعتها، فنحن الأمم العربية، نحسب تهمة «كساب» شائنة، فإذا ثبتت عليه فنرجو أن يقتص منه القضاء شر قصاص؛ لأننا نود أن نقطع من جسم مجتمعنا كل عضو فاسد نتن الأخلاق».

وهكذا أعادت المؤامرة فتح ملف العبر والعظات التي علمتها «مدام فهمي» للمصريين وللشرقيين، وكانت درسا إضافيا لمصر وبنيها ـ كما قالت الصحف ـ يعلمهم ألا يثقوا في غربي أو يطمئنوا لأوروبي، فاتخذت «الكشكول» من افتضاح المؤامرة ذريعة للتشكيك في ظروف مقتل «علي فهمي» ورجحت أن هذه العصابة كانت تعمل من البداية «لغاية معينة» كانت تدور قبل مقتل «علي فهمي» حول ثروته، وهي تدور بعد مقتله حولها أيضا، كما اتخذت منها مدخلا لتجديد تحذيرها للشبان المصريين من التزوج بأوروبيات، وقالت إن خبر تأليف عصابة لابتزاز ثروة «علي فهمي» وانتقالها إلى أيد مختلفة بصفة غير شرعية ولا قانونية «من شأنه أن يزعج كل متزوج بأوروبية.. وكل من يشرع في الزواج من أوروبية».

وبدأ «نقولا الحداد» تعليقه على المؤامرة بهجوم شرس على مراسلي الصحف الأوروبية بباريس، لتهافتهم على تلقف أخبار «مرجريت» التي وصفها بأنها «مزراب فضائح» وقال إنهم بما ينقلونه من أخبارها وأقوالها، «يبثون في جو العالم رائحة خبيثة نتنة». ثم طور هجومه ليشمل كل ما هو أوروبي قائلا ـ «ولكن لا غرابة.. فإذا كان قضاؤهم يبذل جهده في تبرئة هذه المرأة السليطة، وأمراؤهم وكبراؤهم يتسابقون إلى تهنئتها.. وأوروبا كلها تفرح ببراءتها مع علمها بتاريخ حياتها الشائن، فلا نعتب على صحافتها، لقد قزَّت أنفسنا من مدنية أهل أوروبا الذين يسمحون لهذه المرأة النتنة الرائحة أن تعوم في بحر فخارهم ومجدهم كما هي عائمة في بحر لهوهم وفسادهم».

وكان منطقيا أن يثير التحقيق في قضية محاولة الاستيلاء على تركة «علي فهمي» اهتمام بقية الورثة، الذين أدركوا مدى صعوبة المعركة الذي سوف يخوضونها ضد امرأة لا تستنكف عن فعل شيء، ولا تملك فحسب علاقات واسعة ونفوذا قويا حققتهما بجسدها، بل وأصبحت تشكل إغراء قويا، لكل المغامرين، الذين سوف

يغرونها باللدد في الخصومة، حتى لو لم تكن تتحمس لها، لكي يستفيدوا من ورائها، فأسرعوا يحتاطون للأمر وكلفوا محاميا فرنسيا بأن يدرس أوراق التحقيق في القضية، ليبحث إمكانية أن يتدخلوا فيها كمدعين بالحق المدني ضد العصابة التي أرادت هضم حقوقهم في الميراث.

ولم يكن هدفهم من ذلك الحصول على التعويض بل محاولة إثبات تهمة النصب على أرملة مورثهم، لكي يضعفوا من موقفها في قضايا المطالبة بنصيبها في الميراث.

لكن القضاء الفرنسي ما لبث أن أغلق ملف القضية، فلم تثبت تهمة النصب على «مدام فهمي» كما تمنى بقية الورثة، ولم يقتص من «كساب بك» كما طالب «نقولا الحداد»، فقد دافعت المرأة الجهنمية عن نفسها ضد الاتهامات التي وجهها إليها شريكها، بأنها ـ كما اعترف هو نفسه ـ لم تدفع له شيئا، ولم تعده بشيء، كما أنها لم تعد «مدام شايو» بدفع أي مبلغ باعتراف الطبيبة الفرنسية، وكذبت ادعاءه بأنها قد أبلغت عنه لأنها تصالحت مع بقية الورثة؛ لأن هذا الصلح لم يقع، وقالت إنها فعلت ذلك لكي توقف استغلاله لاسمها مما يدل على أنها لم تكن شريكة في المؤامرة.

بينما اعتصم المسيو «هوبرت» ـ محامي «كساب» ـ في دفاعه عنه بشكليات القانون، فقال إن الوقائع المنسوبة إليه، بفرض صحتها جميعا، لم تتجاوز الأعمال التحضيرية لجريمة النصب، ولم تتعد التفكير إلى التنفيذ، فلا جريمة هناك، تتطلب بقاء «كساب بك» رهن الحبس الذي استمر لمدة عشرة أسابيع.

واقتنع «المسيو بارنو» ـ قاضي التحقيق ـ بمنطق الدفاع، فأمر ـ في ١٥ إبريل ١٩٢٣ ـ بإخلاء سبيله.

وبذلك أغلق القضاء الأوروبي، للمرة الثانية، ملف جرائم «مدام فهمي».

أما ملف قضاياها المصرية، فقد ظل مفتوحا لمدة عشر سنوات بعد ذلك.



لم يكن أكثر المصريين تطرفا في إساءة الظن بـ«مدام فهمي» يتخيل أن تصل بها الوقاحة إلى حد المطالبة بنصيبها من تركة زوجها الذي قتلته ومثَّلت بجثته وهو ميت بما أذاعته أو ادعته من أسرار حياتهما الخاصة، في أقوالها عنه أمام المحكمة، وخاصة بعد الشبهات التي أحيطت بها فيما سمته الصحف بـ«المؤامرة الكسابية المرجريتية للاستيلاء على تركة علي فهمي».

لكن هذا التصور المستحيل ما لبث أن أصبح حقيقة، عندما بدأت المباراة القضائية

حول تقسيم تركة «علي فهمي».. ومع أنها ككل القضايا المدنية، وخاصة قضايا الميراث، كانت بطيئة الإيقاع، فقد ظل المصريون ـ على امتداد عشر سنوات كاملة ـ يتابعون فصولها كما لو كانوا يتابعون وقائع مباراة مثيرة من مباريات كرة القدم.

وكانت عواطفهم بالطبع مع الفريق الذي يقوده «مرزوق أفندي عوض» عم القتيل، ويضم شقيقات «علي فهمي» الثلاث.. باعتباره الفريق الذي يلعب باسم مصر، ويرفع علمها ويسعى للحفاظ على ثروة الشرق ويعمل على الحيلولة دون انتقال تلك الثروة إلى غير الشرقيين، وبصفة خاصة إلى المحتالة الأوروبية التي كانت تقود الفريق المنافس، وتستعين بعدد من المحامين «الخونة» طلبوا من الصحف ألا تذكر أسماءهم، حرصا على حياتهم وخوفا من أن ينفض المتقاضون عن مكاتبهم.

وكانت المناقشة القانونية النظرية حول مدى أحقية «مدام فهمي» في الحصول على نصيبها من تركة زوجها، قد بدأت على صفحات الصحف المصرية بعد أقل من أسبوع على صدور الحكم ببراءتها، وقد أثارها طالب بمدرسة الحقوق الملكية هو «عبد اللطيف أفندي صادق»، نشر على صفحات «المقطم» مقالًا بعنوان «استفتاء في أثر تبرئة مدام فهمي على حقها في وراثة زوجها» طالب فيه رجال القانون بإبداء آرائهم في الموضوع ـ لكن طرح السؤال في مناخ التوتر الذي أعقب صدورحكم البراءة، استفز معظم الذين ردوا عليه، فاكتفوا بالقول بأن جميع الشرائع والقوانين ـ بما فيها الشريعة الإسلامية والقانون المصري ـ تحرم الوارث من حقه في نصيبه من تركة مورِّثه إذا قام بقتل هذا المورِّث عمدا.. ونددوا بالقاتلة، وقالوا بأن الحكم ببراءتها ـ فضلا عن أنه كان حكمًا منحازًا وغير عادل ـ لا يلزم القضاء المصري، بل وتشككوا في إمكانية أن تصل الجسارة بـ«مدام فهمي» إلى حد المطالبة بحقها في ميراث «علي فهمي».

أما وقد تحول الافتراض النظري الذي طرحه «عبد اللطيف أفندي صادق» إلى حقيقة، بعد البرقية التي أرسلتها «مدام فهمي» إلى محافظ القاهرة، تطلب فيها التحفظ على تركة زوجها، فقد أعاد هو نفسه فتح المناقشة من جديد، مؤكدا أن الرفض العاطفي للحكم ببراءة «مدام فهمي» لا ينفي «أنه ـ من الناحية القانونية المحضة - حكم قضائي صحيح وملزم للقضاء المصري، فقد صدر عن محكمة قانونية ذات اختصاص في منطقتها، شأنه في ذلك شأن أي حكم يصدر ضد مصري ارتكب جريمة في الخارج وحوكم وبرِّئ، فلم يعد من حق النيابة العمومية المصرية ـ طبقا لنصوص القانون المصري نفسه ـ إقامة الدعوى ضدها، ولم يعد من حق القضاء المصري إعادة محاكمتها، فالحكم الإنجليزي بالبراءة قد أصبح نافذا في مصر، كأي حكم صدر عن المحاكم الأهلية المصرية، واكتسب بذلك قوة الشيء المحكوم فيه».

وأضاف طالب الحقوق النجيب، يقول إن براءة «مدام فهمي» تعطيها الحق في وراثه طالما أنه لم يثبت أنها قتلته عمدا، وأن القضاء الشرعي لا يستطيع أن يرفض الأخذ بالحكم، أو أن يعيد النظر في تهمة القتل، ليرى هل الزوجة قاتلة شرعا أم لا.. لأن لائحة ترتيب المحاكم الشرعية تحرم على تلك المحاكم النظر في المسائل الجنائية بتاتا.. فهو مضطر للحكم لها بأحقيتها في الميراث.

ولكن وجهة النظر الأخرى وجدت بين رجال القانون المصريين، من أيدها، فنفى «سيد علي» ـ المحامي أمام المحاكم الأهلية والشرعية ـ أن يكون للحكم الإنجليزي ببراءة القاتلة، قوة الشيء المحكوم بنفاذه، قائلا: «إن القانون المصري يشترط لنفاذ الأحكام الصادرة عن محاكم الدول الأجنبية، وجود اتفاقية لتبادل تنفيذ الأحكام بين كل دولة من تلك الدول وبين مصر، وأن اتفاقية من هذا النوع، لم توقع بين مصر وبريطانيا، وبالتالي يحق للمحاكم المصرية إعادة النظر في حكم المحكمة الإنجليزية فتعتمده إذا كان صحيحا، وتضرب عنه صفحا إذا لم يكن كذلك» وأضاف: «إن إعادة النظر في الشق الجنائي من الحكم غير جائزة؛ إذ لا يحق للمحاكم المصرية أن تقضي بمعاقبتها بعد تبرئتها، ولكنها تستطيع أن تعيد النظر في الجانب المدني أو الشرعي من حكم البراءة» وأكد أن لائحة ترتيب المحاكم الشرعية، لا تمنع تلك المحاكم من النظر في المسائل الجنائية، ولكنها قواعد الاختصاص بين أنواع المحاكم، وعلى الرغم من ذلك فإن هذه القواعد إذا كانت تحول دون أن يصدر القضاء الشرعي «حكما» في قضية جنائية، فهي لا تحول دون أن «ينظر» هذا القضاء في «الشق الجنائي» لنزاع شرعي، «تطبيقا لقاعدة أن الفرع يتبع الأصل».

وانتهى «سيد علي» إلى أن المحكمة الشرعية، ليست مقيدة بكل محتويات ومشتملات الحكم الذي صدر عن المحكمة البريطانية، وأنها تستطيع أن تحكم بعدم أحقية «مدام فهمي» في الميراث، في ضوء حقيقتين:

الأولى: أن الجانية قد اعترفت بأنها قتلت زوجها، والمحاكم الشرعية تأخذ بقاعدة أن الاعتراف يلزم المعترف بما اعترف به، ولو كان مخالفا للظاهر.

والثانية: أن الحكم الإنجليزي لم يقض بأنها «غير قاتلة» بل حكم بأنها «غير مدانة» وهناك فارق بين الأمرين.

ومع أن «محمد أمين الشاهد» ـ وهو محام أمام المحاكم الأهلية والشرعية كذلك ـ قد أقر بأن «القتل لا يمنع من الإرث إذا ارتكب دفاعا عن النفس، لوجود ما يبيحه وهو دفع الشر، ولأن البادئ بالشر باغ فتسقط عصمته»، إلا أنه اتخذ من هذا الإقرار مدخلا لتطبيق الشروط الشرعية للدفاع عن النفس، على واقعة «فندق سافواي» فذكر أن هناك أربعة شروط حددها فقهاء المسلمين ليمكن اعتبار القتل

دفاعا عن النفس، وهي نفسها التي يشترطها القانون الإنجليزي، وكلاهما ينصان على توافر هذه الشروط مجتمعة، فإذا لم يتوفر أحدها لا يعتبر القتل دفاعا عن النفس.

أولها: أن يشهر المعتدي في وجه قاتله سلاحا سواء فعل ذلك في مكان مسكون أو في مكان خال.. فإذا أشهر في وجهه عصا فلابد أن يكون المكان خاليا ليمكن اعتبار القتل دفاعا عن النفس.

وثانيها: ألا يكون باستطاعة القاتل الاستغاثة دفعا لأذى المعتدي.

وثالثها: ألا يكون باستطاعة القاتل رد الاعتداء بأية طريقة أخرى.

ورابعا: أن يعتقد القاتل أن هذا المعتدي يريد قتله حقيقة.

وأضاف «الشاهد»:

ـ إن شرطا واحدا من هذه الشروط الأربعة لم يتوفر في جريمة «فندق سافواي» فضلا عن توافرها مجتمعة؛ إذ لم يكن «علي فهمي» يحمل سلاحا يدعو لاعتقاد زوجته بأنه ينوي قتلها، ولم يكن يهددها حتى بعصا، ولم يكن مستحيلا عليها أن تطلب النجدة وهي تقيم في فندق يضم مئات من السكان، فلا يمكن أن يكون القضاء البريطاني قد برَّأها على أساس أنها قتلت زوجها دفاعا عن النفس لمخالفة ذلك الصريحة لنص القانون الإنجليزي، وعلى ذلك فلا يحق لها أن تطالب بنصيبها في تركته.

حول هذين التفسيرين لمدى التزام المحاكم الشرعية المصرية بالنتائج المدنية التي تترتب على حكم محكمة «أولد بايلي» ببراءة «مرجريت فهمي» دار الصراع القانوني الطويل بينها وبين أسرة زوجها.

وكان مستشارو الزوجة القاتلة، من كبار المحامين المصريين، قد رسموا لهذا الصراع خطة تبدأ برفع دعويين تطالب في الأولى بمبلغ ألف وخمسمائة جنيه، هو ما تبقى لها من مقدم صداقها، الذي اعتذر زوجها عن دفعه كاملا عند توقيع عقد الزواج، وتطالب في الثانية بمبلغ ستة آلاف جنيه هي مؤخر هذا الصداق، ثم تقيم بعد ذلك دعوى للمطالبة بنصيبها في الميراث، ووكلت عنها في مباشرة هذه القضايا واحدا من كبار المحامين الشرعيين، كان من بين أهم مؤهلاته ـ فضلا عن اقتداره في مهنته ـ أنه كان متزوجا من صديقة لها.. وفرنسية مثلها.

ومع أن المجلس الحسبي كان قد استجاب لطلبها بتعيين حارس قضائي على التركة، إلا أنه اختار لهذه المهمة المهندس «حسين عاصم بك» الذي ما لبث أن أصبح طرفا في تلك القضايا بحكم أنه صاحب مصلحة فيها؛ إذ كان متزوجا من إحدى شقيقات «علي فهمي» مما زاد من تشعب وتعقيد الصراع القانوني حول تقسيم

التركة، خاصة وأن تلك كانت أول مرة ينظر فيها القضاء المصري دعوى يطالب فيها قاتل بنصيبه في تركة قتيله، واضطر كل طرف من أطراف الخصومة إلى اللجوء لكل المناورات القانونية الممكنة لكي يحول بين الطرف الآخر وبين الانتصار عليه.

ولم يكن هناك مفر أمام «مرجريت» من أن تعود إلى مصر أثناء نظر بعض هذه القضايا، لكي تمثل أمام «المجلس الحسبي» مرة، وأمام المحكمة الشرعية مرة أخرى، بناء على طلبها.. ومع أنها كانت تماطل ـ في كل مرة- في الاستجابة للطلب، خشية أن يثأر منها أهل زوجها، فيدبرون مؤامرة لقتلها، إلا أنها كانت تضطر ـ أمام إلحاح المحامين وخطر شطب القضايا إذا لم تمثل بشخصها أمام المحكمة ـ إلى العودة إلى مصر، لتمضي بها أياما من الرعب، تعتصم خلالها في غرفتها بالفندق الذي تقيم فيه، في حراسة عدد من رجال البوليس السري تعينهم سلطات الأمن المصرية لحمايتها، بعيدة عن الأضواء التي تعشقها، لا تسهر ولا ترقص ولا تتناول طعامها مع النزلاء في مطعم الفندق، إذ لم تكن تغادر غرفتها إلا للضرورة القصوى، فإذا غادرتها خرجت متخفية وفي حراسة رجال الشرطة السريين، بحيث لم تكن الصحف تنتبه إلى وصولها إلا بعد أن تكون قد عادت مرة أخرى إلى فرنسا.

وكانت محكمة مصر الجزئية الشرعية، قد بدأت ـ في يناير ١٩٢٧ ـ في نظر أولى دعاوى «مدام فهمي» ضد «مرزوق أفندي عوض» ـ عم زوجها ـ وشقيقات الزوج «فاطمة» و«عزيزة» و«عائشة» تطالبهم فيها بباقي مقدم صداقها.

واستغرق نظر القضية عدة شهور دفع خلالها «محرم بك فهيم» ـ محامي الأسرة ـ بأن «مرجريت» قد اعترفت في مجلس العقد بأنها قد استلمت مقدم صداقها كاملا، وتدليلا على ذلك قدم صورة من وثيقة عقد الزواج الديني. ورد محاميها بتقديم السند الذي وقعه «علي فهمي» يتعهد فيه بدفع المبلغ قائلا إنه المتبقي لها من مقدم الصداق، فرد محامي الورثة قائلا: إن السند خال من أي إشارة إلى أن هذا المبلغ هو بقية مقدم الصداق، وقد يكون ـ بفرض صحته ـ خاصا بأية معاملات مالية أخرى بين الزوجين، فهو في هذه الحالة دين مدني، يمكن أن يكون موضوعا لدعوى مدنية منفصلة ليست من اختصاص المحكمة الشرعية.

وفي محاولة منه لإحراج خصمه، لجأ دفاع أسرة القتيل إلى المناورة وطالب بمثول «منيرة هانم فهمي» ـ أو مرجريت فهمي ـ أمام المحكمة لتقسم « طبقا للشريعة الإسلامية يمين الاستظهار» بأن بقية مقدم صداقها لا تزال في ذمة القتيل، فاستجابت المحكمة لطلبه، وأمرت بتحديد جلسة ٨ أكتوبر ١٩٢٧، لكي تقسم «منيرة هانم» هذا اليمين أمامها.

وعلى عكس ما توقع محامي الورثة، فقد نجح محامي «مرجريت» بعد إلحاح طويل، في إقناعها بأن امتناعها عن القسم سوف ينتهي بشطب الدعوى، فتحاملت



«مرجريت ميلر» عقب الإفراج عنها حين كنت تقيم في فندق البرنـــس بالعاصـمة البريطانية

على نفسها، وجاءت إلى القاهرة، ومثلت في الموعد المحدد أمام المحكمة، وكررت ـ وراء المترجم ـ صيغة اليمين.. ولكن ذلك لم يحل دون رفض الدعوى؛ إذ أخذت المحكمة بالدفع الذي أبداه محامي الورثة، واعتمدت اعتراف الزوجة في مجلس العقد بأنها قبضت مقدم الصداق كاملا.

وكان صدور هذا الحكم سببا في عدول هيئة الدفاع عن «مرجريت فهمي» عن طلب استرداد مؤخر الصداق أمام القضاء الشرعي، ولعلهم كانوا قد ضاقوا بطول ـ وتعقد ـ إجراءاته، أو شكوا في انحيازه ضد موكلتهم فقرروا إقامة الدعوى الثانية أمام القضاء المختلط، ظنا منهم أن قضاته ـ ومعظمهم أجانب ـ سيكونون أكثر تعاطفا مع «مرجريت» من القضاة الشرعيين.

لكن هذه المناورة لم تفت على خصومهم، فما كادت «محكمة مصر الابتدائية المختلطة» تشرع في نظر الدعوى حتى دفعت هيئة الدفاع عن الورثة بعدم اختصاص المحكمة، استنادا إلى أن القضاء المختلط يختص فقط بنظر الدعاوى التي يكون أحد طرفيها أو كلاهما أجنبيًّا، في حين أن طرفي الخصومة مصريان لأن «منيرة هانم فهمي» قد اكتسبت الجنسية المصرية منذ زواجها في ٢٢ ديسمبر ١٩٢٢ من «علي فهمي».

لكن «مرجريت فهمي» ـ أو بمعنى أدق هيئة الدفاع المصرية عنها ـ لم تيئس، وبدأت بمعاونة محامين فرنسيين ـ في اتخاذ إجراءات استرداد جنسيتها الفرنسية، دون أن تتوقف طويلا أمام تصريحاتها السابقة، بأنها سوف تحرص على جنسيتها المصرية، بعد أن استنفد هذا الحرص أغراضه بفشل الخطة التي كانت تدبرها بمعاونة «كساب بك» بل وأصبح عائقا أمام حصولها على ستة آلاف جنيه هي مؤخر صداقها، فأثبتت مجددا أن نوعها من النساء لا ينتمي إلى الشرق.. ولا إلى الغرب.. ولا يعنيه دين أو وطن لأن انتماءه الحقيقي والوحيد هو لنفسه!

ولأن اسم «مدام فهمي» لم يكن قد غادر ذاكرة المصريين بعد، فإن تلك المناورات القضائية لم تكن وحدها التي تدفع الصحف المصرية لمعاودة تذكير المصريين والشرقيين بمصيبتهم بها، إذ ظلت جريمتها موضوعا لاستشهاد الصحف في كثير من القضايا العامة والخاصة، من العلاقة بين الغرب والشرق إلى العلاقة بين الرجل والمرأة، ومن فساد الأخلاق العامة إلى فساد أولاد الذوات.

ففي الأسبوع الذي وصلت فيه «منيرة هانم» إلى مصر، لكي تقسم يمين الاستظهار أمام المحكمة الشرعية، نددت الصحف المصرية بوقاحة القاتلة التي جاءت تطالب بمقدم صداقها.. وقالت مجلة «كل شيء» ساخرة: إنها جاءت تطلب هذا المقدم «وكأن الزوج الذي قتلته مات شاكرا فضلها متيَّما بحبها، داعيا لها وموصيا أهله

بها». وكررت ـ كغيرها من الصحف آنذاك وبعد ذلك ـ نصيحتها للشبان المصريين بأن يتأملوا ـ في ضوء ما استجد من ملاعيب «مرجريت فهمي» ـ عاقبة الزواج من الأوروبيات، و«كيف تقتل المرأة زوجها ثم تطلب أجرتها على القتل».. بل وتمنت «لو أن المحكمة قد حكمت لها بما تطلب لتكون العبرة أبلغ، والتأثير في النفوس أشد، لأن هؤلاء الشبان الذين يتزوجون من أوروبيات لا يقنعون بالقتل ولا يزجرهم إلا أن يكون موتًا وخراب ديار».

ومع أن محكمة مصر الجزئية الشرعية لم تحقق أمنية «كل شيء» فرفضت دعوى بقية مقدم الصداق، فإن محكمة مصر الابتدائية المختلطة، حققتها بعد أن استردت «مرجريت» جنسيتها الفرنسية، وأعادت رفع دعوى مؤخر الصداق أمامها فحكمت لها بأحقيتها في الحصول على الستة آلاف جنيه، المنصوص عليها في عقدي الزواج المدني والشرعي.

ومع أن المبلغ ـ بالنسبة لتركة «علي فهمي» ـ كان تافها، إلا أن أحدا من المصريين لم يسعد بالحكم، ولم ينظر إليه بصفته عبرة لأولاد الذوات المغرمين بالزواج من بنات أوروبا، ممن لا يعتبرون، إلا إذا انتهى هذا الزواج إلى الموت وخراب الديار، بل اعتبروه هزيمة مُرة في معركتهم ضد المرأة التي جرحت اعتزازهم بكرامتهم، فضلا عن أنه جدد إحساسهم بأنهم لا يزالون شعبا تابعا ناقص السيادة، فبعد أكثر من خمس سنوات على إعلان الاستقلال الذاتي الذي ضحوا في سبيله بالكثير، لا تزال للأجانب في بلادهم امتيازات قضائية، تقضي بأن يحاكموا بقوانين بلادهم، وأمام محاكم يجلس في مجلس القضاء فيها قضاة أجانب، بينما يتقاضون هم أمام المحاكم الأهلية.

وكان منطقيا أن يعتبر المصريون حكم المحكمة المختلطة امتدادا لحكم محكمة «أولد بايلي» فكلتاهما محكمة أوروبية، لا تقضي بالعدل إلا إذا كان طرفا الخصومة من الأوروبيين، فإذا كان أحدهما شرقيا أو مصريا، طبقت عدلها العنصري، ونصرت خصمه الأوروبي عليه.. مهما كان الحق معه.

ولم تقعد تفاهة مؤخر الصداق الذي حكمت به المحكمة المختلطة لـ«مرجريت» ورثة «علي فهمي» عن استئناف الحكم، ليس فقط لإصرارهم على حرمانها من الحصول على أجرها عن قتله، ولكن ـ كذلك ـ لخشيتهم من أثره على قضية الميراث التي كانت قد أقامتها فعلا أمام المحكمة الشرعية، لأن مؤخر الصداق يستأدي ـ في حالة وفاة الزوج ـ من ميراثه، والحكم بأحقيتها فيه، قد يتخذ دليلًا على أحقيتها في الميراث.

ولم يكتف الورثة باستئناف الحكم، أمام محكمة الاستئناف المختلطة بل وأسرع

«محرم بك فهيم» ـ باعتباره وكيلا عنهم ـ برفع دعوى مضادة لدعوى الميراث التي رفعتها، طلب فيها الحكم بإثبات وفاة «علي فهمي» وانحصار ميراثه في عمه وشقيقاته دون أرملته، كما طلب بمنع تعرضها لهم لأنها لا ترث فيه، حيث إنها قد قتلته عمدا.

وكان منطقيا أن تأمر المحكمة بضم القضيتين لتنظرهما معا ـ ابتداء من ٢٠ ديسمبر ـ وأن يدور صراع قانوني ضار بين اللاعبين القانونيين في كلا الفريقين، وأن يثير لدد «مرجريت» في الخصومة القضائية، ضيق الصحف، وأن تثير مساندة بعض المصريين لها في لددها ريبة «الكشكول» التي عادت لتؤكد أن هناك بين المصريين «عصابة تدبر للكسب من وراء دفع قاتلة «علي فهمي» إلى المحاكم لتطالب بنصيبها في ميراث زوجها» ثم تبدي اشمئزازها لأنهم مصريون أولا، ولأن من بينهم ثانيا «محامين وصحفيين وماليين من أصدقاء علي فهمي» وصفتهم بأنهم «وحوش لم يكتفوا بما أخذوه منه حيا.. فعمدوا إلى التجارة بجثته وسمعته» وتمنت لو أن هؤلاء الذين يريدون أن ينصبوا على طرفى الخصومة كفوا عما يفعلون، حتى ينطوي موضوع مدام فهمي وينساه المصريون.

لكن اسم «مدام فهمي» عاد يتردد من جديد وفي الأسبوع نفسه، وفي قضية لم تكن طرفا فيها، إذ حدث في تلك السنة ـ ١٩٢٩ـ أن سيدة مصرية، تدعى «قسمت أمين» تربصت ذات ليلة بضابط من ضباط الشرطة يدعى «محمد نصحي» في مكان قريب من مسكنه، ثم ألقت في وجهه بمحلول من حامض الكبريتيك المركز، المعروف باسم «ماء النار» فشوهت جانبا منه، وأفقدت إحدى عينيه قدرتها على الإبصار.

وبالقبض على «قسمت» اعترفت بجريمتها وذكرت أنها تعرفت إلى الضابط قبل عدة سنوات، وتقدم إلى خطبتها وتزوجها، رغم معارضة أهله العنيفة، لأنه كان يحبها، لكن معارضة أهله، وإغراءات أبيه المالية، ما لبثت أن أدت إلى مشاحنات بينهما، دفعته إلى تطليقها طلاقا بائنا لا رجوع فيه، ليتزوج من قريبة له كان أبوه يصر على تزويجه منها، وبعد شهور من هذا الزواج، عاد يطاردها قائلا: إنه لا يستطيع أن يعيش دونها أو أن يستغني عنها، وانتهت لقاءاتهما بالاتفاق على تزويجها من أحد أتباعه ليكون بمثابة «محلل» فإذا ما طلقها، طلق هو الآخر قريبته، فيستأنفا حياتهما الزوجية معا.


الأستاذ محرم فهيم نقيب المحامين الشرعيين

ونفذت «قسمت» نصيبها من الخطة

بإخلاص، رغم ما أثاره ذلك من أقاويل حول سمعتها، كانت تتوقع أن تختفي بمجرد عودتها إلى حبيب القلب.

لكن الحبيب الخائن لم ينفذ وعده، ولم يطلق قريبته التي زعم لها أنه تزوجها مكرها ولم يتزوجها بعد أن طلقها «المحلل»، وانتهت مدة عدتها، بل وأخذ يتهرب منها، إلى أن جابهها ذات يوم بأنه لا يستطيع الوفاء بوعده لها بسبب ضغوط أبيه، فكان ردها هو إلقاء «ماء النار» على وجهه.

ومع أن مثل هذا الأسلوب في انتقام النساء من الرجال الذين يهجرونهن، قد أصبح شائعا بعد ذلك، إلا أنه كان نادرا جدا حتى ذلك الحين.. إذ كان القسم الأعظم من جرائم النساء المنظورة ـ التي يتم اكتشافها ـ هو جرائم تتوجه ضد الذات، كالدعارة أو التجارة في أجساد غيرها من النساء، فإذا اتجهت ضد الآخرين اقتصرت على النشل أو السرقة، أو النصب أو التجارة في الممنوعات، أو غيرها من الجرائم التي لا تتطلب عنفا أو تعكس عدوانا، كان الشائع في مصر آنذاك، أن المرأة بحكم تكوينها لا تستطيعهما، فإذا استطاعتهما فإنها تتوجه بهما ضد امرأة مثلها، لا ضد الرجل، وبأساليب تتناسب مع ضعف بنيتها، ونقص عدوانيتها كدس السم.

ولم يكن الجديد في جريمة «قسمت أمين» هو أنها ـ كما قالت إحدى الصحف ـ قد «استفتحت بجنايتها تلك بدعة خطيرة مستفظعة»، فتوجهت بعدوانيتها ضد رجل، وأدخلت «حامض الكبريتيك المركز» ضمن الأسلحة المستخدمة في حل المشاكل العاطفية، بل كان جديدا ـ كذلك ـ أن تحكم عليها محكمة جنايات مصر بالحبس لمدة ستة شهور مع إيقاف التنفيذ.

ولأنه حكم لا يختلف عن البراءة التي حصلت عليها «مدام فهمي»، فقد كان لابد وأن يستدعي ذلك المقارنة بين الحادثتين وبين المرأتين لتسفر عن تناقض جديد عجيب في الرأي العام المصري.

وعلى عكس ما حدث عندما صدر الحكم ببراءة «مدام فهمي»، فإن الحكم ببراءة «قسمت أمين» ـ أو «مدام نصحي» ـ قد لقي ترحيبا من السفوريين الذين فرحوا به، وهللوا له، واعتبروه دستورا يحمي المرأة من عدوان الرجل وغدره وقسوته وتلاعبه بعواطفها وإهداره لحقوقها، ولفت هذا التناقض في موقفهم أنظار خصومهم فذكروهم بحكمهم القاسي على «مدام فهمي» واستنكارهم البالغ لجريمتها وللحكم ببراءتها، وتساءلت «الكشكول» باستنكار بالغ: «أي شيء تبدل حتى تبدل الصحف في حكمها.. ويتلون الكتاب في آرائهم؟ وماذا جد حتى انطلقت الأقلام بالرحمة والإحسان إلى المجرمة المصرية.. بعد أن كانت منطلقة بالنقمة والسخط على زميلتها المجرمة الفرنسية؟ هل هو التحزب القومي.. أم التحزب السياسي؟».

وفي تحليله للتناقض بين موقف الصحف والكتاب من قضيتي «مدام فهمي» و«مدام نصحي» قارن «كاتب منتقد» بين المرأتين وبين الجريمتين، فقال إن المشترك بينهما «هو أن كلًا منهما قد أسلمت نفسها إلى شاب أحبته، وبذلت له ما يستمتع به من ذاتها بذلا تأباه، ومنَّاها بحلو الأماني وأذاقها نعيم الآمال، ثم اكتشفت أن وعوده لم تكن إلا سرابا، وأن آماله لم تكن إلا أحلاما كاذبة، فانتقمت لغرامها الفاسد وهواها الضال. وأضاف: إن هذه المشابهة بين الواقعتين والمجرمتين لا تنفي أن هناك «فروقا قومية» ينبغي وضعها في الاعتبار عند تحديد الموقف منهما.. فالتقاليد الفرنسية تطلق عنان الحرية للمرأة،ولا تعتبر تورطها في حب غير بريء، أو تعدد علاقتها بالرجال، مما يشين شرفها أو سمعتها، لكن التقاليد الشرقية والمصرية لا تزال ـ حتى الآن ـ ترفض أن تمنح المرأة «حرية السائمة في الكلأ المباح».

وأبدى «الكاتب المنتقد» دهشته لأن المتعاطفين مع جريمة «مدام نصحي» يضعون فأس المسئولية في عنق الضابط عما أصابها وعما أصابه منها، مع أن مسئوليتها عن الأمرين أفدح من مسئوليته وأفدح كذلك من مسئولية «مدام فهمي» لأن «قسمت أمين» قد خرجت عن تقاليد بلادها وقومها وسمحت لنفسها أن تقيم علاقة مع الضابط قبل الزواج ثم بعد الطلاق، فإذا كان قد خدعها وفتك بقلبها، فليس هو المسئول وحده عما جرى لها، لتكون غير مسئولة عن محاولتها لقتله التي أسفرت عن فقده لإحدى عينيه، بل لعل مشاركتها له هذا الإثم هى التي حرضته على الاستهانة بها، وأفقدته حبه لها وتمسكه بها.

وختم «الكاتب المنتقد» تحليله محذرا السفوريين من أمرين، الأول: هو الخلط بين حالة «قسمت أمين» وبين «قضية تحرير المرأة»، حتى لا يبدو تعاطفهم معها وكأنه «دعوة لإطلاق العنان للمرأة المصرية والشرقية، لتحب من تشاء وتختلط بمن تشاء ثم تقتل من تشاء، بينما هي تمر في طور مقلق من أطوار الانتقال يتطلب كثيرًا من الحذر في ممارسة الحرية، حتى لا تغرق بين أمواجها».

والثاني: هو أن يعمموا على الناس، وخاصة على النساء، فهمهم الخاطئ لمعنى حكم المحكمة بالاكتفاء بمعاقبة «مدام نصحي» بالحبس لمدة ستة شهور مع إيقاف التنفيذ، فمع أن الحكم ـ في رأيه ـ غير زاجر، إلا أنه لا يعني البراءة، بل يعني أن المحكمة قد اقتنعت بإدانة المجرمة، لكنها عطفت على ظروفها، كما تعاطف معها جميع الناس، وأضاف أنه يخشى أن تخطئ النساء المصريات فهم دلالة ترحيب الصحف والكتاب بالحكم وتهليلهم له ـ باعتباره حكما بالبراءة ـ فتظن كل امرأة مصرية، أن من حقها أن تقذف الرجل بماء النار إذا هجرها أو ملَّ هواها، كما فعلت «مدام نصحي» أو تطلق عليه الرصاص كما فعلت «مدام فهمي».



عائشة شقيقة «علي فهمي» في حديقة قصر الرخام الوردي الذي ورثته عنه ومعها رئيس الوزراء «مصطفى النحاس» وحرمه «زينب الوكيل»

ومع أن كثيرين حاولوا أن يبرروا هذا التناقض في موقف الرأي العام المصري من الجريمتين والجانيتين والحكمين القضائيين، باختلاف كل من القضيتين عن الأخرى، وبأن «علي فهمي»، على عكس الضابط «نصحي»، لم يكن يسيء معاملة زوجته!! بل كان يغدق عليها من صنوف الإعزاز والإكرام والبذخ والإسراف ما لم تكن تحلم بمثله، فجازته على ذلك بقتله «إثر شيء من سوء التفاهم». إلا أن هذا التبرير الضعيف لم يستطع أن يخفي عن الجميع إحساسهم بأنهم يعالجون قضية «مدام فهمي» بدرجة من «التحزب القومي»، لعل عذرهم فيها أنها كانت ردا على «تحزب قومي» مضاد، وصل إلى حد التعالي العنصري.

وربما لهذا السبب، لم تستطع «مدام فهمي» ـ التي كانت في زيارة للقاهرة حين تفجرت المناظرة حول قضية «مدام نصحي» في مطلع عام ١٩٢٩ ـ أن تستفيد من جو التعاطف الذي أحاط بنظيرتها المصرية، ولم يفكر أحد من الرجال والنساء الذين كانوا يدافعون عن حق المرأة الضعيفة في أن ترد على غدر الرجل وقسوته، بأن يقيم لها حفل تكريم باعتبارها رائدة هذا الأسلوب في النضال لتحرير المرأة، فظلت ـ خلال إقامتها القصيرة لمتابعة قضية الإرث ـ شبه متخفية، لا ترى أحدا ولا يراها أحد، وتخترق صالة فندق «الناشيونال» ـ الذي كانت تقيم به ـ وهي تكاد تفر في ذعر من أعين الناس، خشية أن يهجم عليها أحد المتحمسين ضد الدعوة لحق المرأة في الرد على عدوان الرجل، فيفتك بها.

وما لبثت قضية حق «مدام فهمي» في الإرث، أن وضعت القضاء الشرعي في مأزق قريب من المأزق الذي وقع فيه القضاء الأهلي، حين أصدر حكم براءة «مدام نصحي»، فقد تجدد الصراع القانوني الذي جرى في محكمة «أولد بايلي»، وتقمص محامي أسرة «علي فهمي» موقف السير «برسيفال كلارك» ـ ممثل الاتهام ـ بينما تقمص محامي «مرجريت» موقف السير «مارشال هول»، ودار الصراع حول نقطة

واحدة هي: هل قتلت «مدام فهمي» زوجها عمدا فلا يحق لها أن ترثه، أم قتلته دفاعا عن النفس فيحق لها أن تحصل على نصيبها الشرعي من تركته؟!

وقدم محامي الأسرة، كل المستندات التي تدلل على وجهة نظرهم، من محاضر الشرطة البريطانية التي سجلت الواقعة، إلى اعترافات «مدام فهمي» أمام مختلف درجات التقاضي البريطانية بأنها قتلت زوجها، بما في ذلك اعترافها أمام محكمة «أولد بايلي»، فضلا عن أقوال شهود الحادثة، وتصريح الدفن ومحاضر الشرطة المصرية التي سجلتها عند وصول الجثة.

ورد محامي «مرجريت» بأن ذلك كله لا يثبت أن القتل كان عمدا؛ إذ إنها رفعت المسدس في وجه زوجها لمجرد إرهابه ومنعه من الاعتداء عليها، وكانت تعتقد أنه خال من الرصاص، وأن المحكمة البريطانية قد اقتنعت بأنها كانت في حالة دفاع شرعي عن النفس ولذلك برأتها.

وأجاب محامي الأسرة أن حكم المحكمة البريطانية ليست له حيثيات مكتوبة يمكن الرجوع إليها، وأنه لا يحول دون المحكمة الشرعية وبين التثبت من دوافع القتل، وأضاف: إن ادعاء المتهمة بأنها لم تتعمد قتل زوجها يتنافى مع ما ذكرته في التحقيقات بأن القتيل طالما أهانها وكان يريد قتلها، مما يصح معه الاستنتاج بأنها أضمرت قتله.

وطالب محامي «مدام فهمي» خصمه بأن يثبت بأن القتل كان عمدا، فرد عليه بقاعدة شرعية تقول: «إن دليل الشيء في الأمور الباطنية يقوم مقامه»، بمعنى أن القتل في ذاته دليل العمد.

وحسم رئيس محكمة مصر الشرعية الابتدائية المناظرة بين الطرفين، قائلا: إن المحكمة لا تعتد بما قدمه طرفا الخصومة من مستندات، وأن القضاء الشرعي لا يلتزم إلا الرؤية، فإذا لم تقدم أسرة «علي فهمي» شاهدين عدلين يشهدان بأنهما رأيا - رأي العين - زوجته وهي تقتله، ويقران بأنها قتلته عمدا، فسوف تحكم لصالحها، ثم أجَّل القضية إلى جلسة تالية.

وأثار القرار ضجة واسعة، ودفع الصحف إلى التنديد بالإجراءات التي يتبعها القضاء الشرعي، والتي تجاوزها العصر بعد أن تعقدت المجتمعات واتسع نطاق العمران، وتغيرت وسائل الإثبات، وتساءلت عن الوسيلة التي تستطيع بها أسرة «علي فهمي» أن تستحضر هؤلاء الشهود.. «هل تستأجر اثنين ممن يقفون لهذا الغرض على باب المحكمة يشهدان أنهما كانا في لندن وأنهما رأيا الزوجة تطلق رصاصاتها في جوف الليل على الزوج وهما بلباس النوم بين غرفتيهما في أرقى فندق من فنادق إنجلترا؟. أم يستدعون صاحب الفندق وخدمه لتتم الشهادة التي يطلبها أسيادنا المشايخ»؟!!

«ودللت على عقم تلك الإجراءات، بقضية رفعها ورثة شخص نفذ فيه حكم بالإعدام، أمام إحدى المحاكم الشرعية، فرفضت المحكمة أن تعتمد حكم محكمة الجنايات بإعدامه، أو محضر تنفيذ الحكم، أو شهادة الطبيب الذي شرَّح الجثة بعد التنفيذ، وأصرت على استحضار «شهود الرؤية»، فظلت القضية سنوات أمام المحكمة، لعدم استطاعة الورثة الحصول على شهود «يسلمون من التجريح الشرعي» يشهدون بأنهم كانوا داخل السجن ورأوا المورِّث يشنق».

وختمت إحدى الصحف تعليقها العنيف على قرار المحكمة قائلة: «إن من واجب وزارة الحقانية أن تنقذ المحاكم الشرعية من المشايخ.. وأن تنقذ سمعة الدين الإسلامي من هذه الفضائح».

شخص واحد لم يجد فيما حدث فضيحة، ولم يستغله ـ كالعادة ـ للتنديد بتوحش الشرقيين أو للمقارنة بين تخلف النظام القضائي لديهم وتقدم النظام القضائي الأوروبي.. وعدالته، وكان هذا الشخص هو «مدام فهمي» التي كانت تعلم بأن القرار لصالحها.



ظلت «مدام فهمي» ـ لسنوات طويلة ـ تشغل المصريين والشرقيين، وتثير ـ بين الحين والآخر ـ غضبهم عليها وعلى أنفسهم، يتداولون اسمها ساخطين، في فضاء الشوارع ومسامرات المقاهي وساحات المحاكم ومقالات الصحف، وحين نسيت إحداها يوما فوصفتها بـ«السيدة الفاضلة»، انهالت عليها بقية الصحف بالتقريع، لمدحها «امرأة الهوى» التي تعهدت بأن تنغص على المصريين حياتهم وأصرت على أن تظل كسحابة همٍّ انعقدت بلا حراك في سمائهم، فلا هي تمطر ولا هي تنقشع لتصفو السماء.. وتشرق الشمس.

وكان منطقيا وقد ألهمت «مدام فهمي» الشعراء العرب قصائد تجمع بين نقيضين: الهجاء والغزل، أن تلهم كذلك مؤلفي المسرح وكتّاب السينما موضوعات مسرحياتهم وأفلامهم، وأن تؤسس نوعا فنيا جديدا هو «الميلودراما»، عاش بعد ذلك طويلا يستثير ـ بمبالغاته في رسم الشخصيات.. ومصادفاته في تسيير الوقائع وفواجعه في وضع النهايات ـ العواطف والانفعالات، ويستنزف الدموع من مآقي أجيال متتابعة من المصريين، ويوجه نقده الأخلاقي العنيف إلى النقيضين: «موضة التزوج من أجنبيات.. وتقاليد الزواج عند الشرقيين».

ولم تكن خشبة المسرح المصري هي أول خشبة تقف عليها «مدام فهمي» إذ لم تكن وقائع المحاكمة قد بدأت حين أصدر الكاتب المسرحي الفرنسي «بيير

فروندويه» مسرحيته «العاصية» التي مثلت بعد ذلك بشهور، وهي المسرحية التي دلل بها السير «مارشال هول» ـ في رده على احتجاج «مرقس حنا» نقيب المحامين ـ على صحة التناقض الذي أقام عليه مرافعته بين نظرة الشرقي إلى المرأة كجارية، ونظرة الأوروبي إليها كقرينة تساويه في الحقوق والواجبات.

وبطل المسرحية «فاضل العورقلي» شاب عربي من مدينة «فاس» المغربية الشهيرة، ينتمي إلى قبيلة يتجاوز عدد بطونها العشرين، أمضى في أوروبا سنوات طويلة، ودرس في «جامعة أكسفورد» وتعلم كل عادات الغرب، فهو يرتدي الفراك ويعرف الرقص ويقود السيارة بجنون ـ كما كان «علي فهمي» يفعل ـ ويقضي الصيف مثله في دوفيل وأكس ليبان، لكنه يظل على الفطرة البدوية فيما يتعلق بنظرته إلى المرأة.

وفي إحدى رحلاته إلى «سان سباستيان» تلفت نظره فتاة فرنسية، هي «فابيين» تكاد تكون نموذجا للمرأة الغربية، فقد أمضت طفولتها في «نيويورك» حيث يطيع الرجال النساء، وتعودت أن تختار لنفسها وتقرر لنفسها، ومع أن «فاضل» لم يحاول أن يتقرب إليها أو يفرض عليها نفسه كما فعل الآخرون، فإنها تسمع ـ في صمته ـ صوت هواه الصارخ.. فتفضله على كل الذين كانوا يطلبون يدها، وعلى رأسهم الكونت «جال دي بهوبي» رفيق صباها الذي كان يهواها، بل ويعبدها عبادة، فما يكاد يعود من رحلته إلى أمريكا، حتى يجدها قد تزوجت ذلك الأعرابي الوغد.

ومع ارتفاع الستار عن الفصل الأول من المسرحية، نرى آخر مشاهد الحب بين العاشقة الأوروبية والعاشق الشرقي، وهما يسترجعان ما جرى في سهرة الأمس التي أمضياها يرقصان معا حتى الصباح، ويستعدان لسهرة الليلة التي قررا أن يمضياها في «مطعم مدريد» مع صديقين لهما، ومع أن الحوار كان يدور بينهما بمرح، ويعكس تعلق كل منهما بالآخر، إلا أنهما ما كادا يتذكران ظروف تعارفهما، حتى يفتضح التباين بين رؤية كل منهما لعلاقته بالطرف الثاني.. فبينما تفخر «فابيين» بأنها مارست حريتها فاختارته، يقول «فاضل» بزهو شرقي:

ـ أنت التي اخترتني.. ولكني أخذتك.

وتعتب عليه «فابيين» لخشونته في التعبير عن عواطفه، فهو لم يقل لها يوما إنه يحبها، وكأنه يعتبر الاعتراف بذلك انتقاصا من رجولته، فيسألها مستنكرا:

ـ هل تريدينني أن أنحني على قدميك كامرأة عند قدمي امرأة؟!

وحين ترد: ولم لا ؟ يهجم عليها ليحضنها ويقبلها بعنف، وكأنه يعلن إصراره على أنه «أخذها» فتقول:

ـ إنني أحبك.. ولست أخجل من الاعتراف بذلك.

فيقول: لأنك باريسية.

وتقول: ولأنك عربي.

وينصرف «فاضل» ليستعد لسهرة الليلة، ليدخل الكونت «جان دي بهوبي» ـ صديق صباها ـ فتستقبله بحرارة وتتبسط معه، ويدور بينهما حوار يذكرها خلاله بهواه لها، ويعتب عليها زواجها من ذلك الأجنبي الغريب عنها، فتقول:أحببته.. واخترته.

ومع أنها تمنت عليه أن ينسى حبه لها فإنها ـ لحرصها على أن تستبقي إعجابه بها ـ تطلب إليه أن يصبحا أصدقاء بل وتدعوه كذلك إلى العشاء معها ومع زوجها وأصدقائهما في الليلة ذاتها فيقبل الدعوة وهو يقول لها «يالك من جبارة».

وبينما هو يلثم يدها مستأذنا في الانصراف يدخل «فاضل»، فيثيره وجود رجل غريب مع زوجته، لكنه يتحكم في غضبه، إلى أن ينصرف الضيف، فينفجر في وجه «فابين» لأنها دعته للعشاء دون إذنه ويأمرها بأن تعتذر له هاتفيا عن الدعوة ويصر على أمره خاصة حين تؤكد له شكوكه في أن «جان» كان يهواها ذات يوم، لكنها تعصي الأمر وترفض تنفيذه، وتعترض على صراخه في وجهها قائلة:

ـ إنني أحبك.. ولكني أحب حريتي الكاملة.. وحين طلبت مني الزواج طلبته بصوت خفيض حنون.. فلا تقل أبدا إني أريد.. فأنا لا أطيق سماع هذه الكلمة.

وفي ذروة الخلاف بينهما يدخل ضيفاها على العشاء ـ الزوجان «دي بيريز» ـ فتدور بين الأربعة مناقشة حول موضوع الخلاف، يدعم الاثنان خلالها وجهة نظر «فابين» ويدعوان «فاضل» إلى النظر إلى الأمر من وجهة النظر الأوروبية، ويضرب له «جاك دي بيريز» المثل بنفسه، فهو يهوى الخيل ويمضي معظم أوقاته في حلبات السباق، بينما تروح زوجته «هيلين» وتجيء.. وتخرج وتدخل طوال النهار، وتسهر وترقص طوال الليل مع أصدقائه دون أن يغضب أو يغار، فهي «حرة» كما هو «حر» وذلك ما تفعله أيضا أخته، وهي متزوجة من شاب يتمسك ـ مثل «فاضل» ـ بالتقاليد، لكنه لا يحجر على حريتها، فليست الحرية نقيض الفضيلة، وكل شيء يمكن أن يكون فاضلا متى كانت المرأة فاضلة.

وتحاول «هيلين» تخفيف التوتر فتقترح على صديقتها مازحة أن تترك لها «فاضل» لتغازله وتروِّض طباعه الشرقية الحامية، وما تكاد «فابين» تغادر الغرفة لتستبدل ملابسها، بملابس السهرة، حتى يعلق «فاضل» على المناقشة، قائلا للزوجين:

ـ قد تكونان على حق.. ولكني لا أستطيع أن أغالب طبيعتي.

ويطلب إليهما أن يبلغا زوجته بأن عصيانها له، هو نهاية زواجهما، وبأنه عائد إلى

بلاده، وحين تعود «فابيين» فلا تجده ينقض عليها الخبر كالصاعقة، فتطوف بالحجرة تهتف باسمه، بينما يعلن الخادم وصول الكونت «جان دي بهوبي».

وبعد شهرين من ليلة العصيان ـ يبدأ الفصل الثاني من المسرحية ـ في قصر «فاضل» بمدينة «فاس» وقد خلع «الفراك» وارتدى العقال والسروال.. بعد أن قرر ـ كما قال لصديقه «الحاج إسماعيل» ـ أن يهجر مدينة النور، وأن ينبذ السيارات الفخمة والخيول الإنجليزية ليعود ـ كأسلافه ـ أعرابيا يستظل بظلال النخيل، ويملأ صدره بنسيم الصحراء ويلعب بالسيف ويمتطي الخيول العربية الأصيلة؛ إذ لم يستفد من الاحتكاك بالغرب، إلا العلم بأنه كان سيخسر كل شيء. ويداعبه «الحاج إسماعيل» متسائلا عن نوع ذلك العصفور الذي ضربه بجناحه، وجعله يهرب من ضوء القمر الساطع إلى ضوء النجوم الخافتة، ويذكره بأن نوره الساطع يعشي العيون فلا تستطيع أن تبصر من جديد في ضوء النجوم، ويقول «فاضل»:

ـ إن الإرادة القوية هي عصا الأعمى.

لكن الأحاديث المتبادلة بين جواريه تكذب زعمه بأنه قد تحرر من حب «فابيين»، ومن عشرين عاما قضاها في أوروبا، فهو يعانقهن بعقل شارد وجسد بارد وكأن هناك حاجزا بينهن وبينه، وما تلبث «فابيين» أن تصل إلى «فاس» قادمة من «مراكش» وبصحبتها الزوجان «دي بيريز» بعد رحلة طويلة وشاقة عبر البحر والصحراء فما يكاد يراها، حتى تتبدد إرادته ويستيقظ حبه لها، لكنه يتماسك ويتظاهر بالقوة، بل ويشعر بالزهو لأنها تحملت كل تلك المشاق لكي تعلن هزيمتها.

وحين تخلو به يدور بينهما حوار ساخن، يعتصم كل منهما في بدايته بكبريائه وأنفته، ويدعي أن الآخر هو الذي انهزم أمام إصراره، وهو الذي يريده ولا يستغني عنه، ويقول لها «فاضل»:

ـ إن الرجل الذي جاءت تبحث عنه قد مات فقد كانت له روح عبد.

فتتحداه قائلة:

ـ لقد هربت مني لتنتظرني.. فكل منا سجين الآخر.. تفرقنا الكبرياء ويجمعنا الحب.

ويذوب تصميم «فاضل» في حرارة عناقها، وهي تتمنى عليه أن تكون «جاريته» التي عليها الدور هذه الليلة، على أن تودعه في الصباح وتعود إلى فرنسا، فيقبل العرض، وتدهش «هيلين» ـ التي دخلت عليهما ـ لما فعلته صديقتها، لكن «فابيين» التي كانت تدرك ما تفعل تقول لها أمامه:

ـ إذا لم يطلب مني في الصباح المغفرة فإنه يكون حقا قد غلبني.

وما تكاد «هيلين» تنصرف حتى يعلن «فاضل» هزيمته وانتصاره في وقت واحد ويقول لها:

ـ لم أقل لك يوما إنني أحبك.. لكني أقولها الآن، وأقول معها إنك لن تخرجي من هذا القصر إلى الأبد.

وبعد ثلاثة أشهر من إقامتها في قصر زوجها، يبدأ الفصل الثالث، وقد اكتشفت «فابيين» أنها كسبت الحب، لكنها خسرت الحرية، فهي سجينة في قصر الأمير الشرقي لا تستطيع أن تفعل شيئا إلا أن تحبه، فتستعين بجاريتها «مريم» في تهريب رسالة إلى أصدقائها الكونت «جان دي بهوبي» والزوجين «دي بيريز» ـ وكانوا لا يزالون يقيمون في «مراكش» ـ فيقيمون باسمها دعوى تطلب فيها الطلاق.

وفي اليوم المحدد لصدور الحكم يصلون إلى «فاس» فتمضي «هيلين» إلى الحريم لتلتقي بصديقتها، وتبلغها أن احتمال حصولها على الطلاق، ضئيل، وتعرض عليها خطة لتهريبها من القصر، فتوافق «فابيين» على تنفيذها، إذا رفضت المحكمة طلبها بالطلاق، بينما يستقبل «فاضل» الرجلين فيطلبان إليه أن يطلق سراح سجينته الأوروبية، وأن يكف عن معارضة طلبها بالطلاق، فيثور في وجهيهما معلنا أنها ستظل امرأته طيلة حياتهما، ويشن حملة عنيفة على أسلوب الأوروبيين في التعامل مع المرأة، ويعلن اشمئزازه من الحرية التي يمنحها رجالهم لزوجاتهم، فهو لا يفهم معنى لأن تتشرد المرأة في الشوارع تستعرض ـ نهارا ـ جسدها أمام المارة، وتتلقى في كل خطوة دعوة للفحشاء، بينما زوجها حبيس في مكتبه، أو جالس في مدرجات سباق الخيل، وترقص ـ ليلا ـ بين أحضان رجل آخر، بينما الزوج يتفرج عليها في برود.. ولا معنى عنده لعدم غيرة الرجال الأوروبيين على زوجاتهم، إلا أنهم مرضى بعقولهم.. يتعاملون مع الرجال كرجال.. ويتعاملون مع النساء كمخنثين.



فاطمة رشدي ومحمود المليجي في مسرحية «القلوب معذبة»

وييئس الرجلان من المناقشة،

فينصرفان ليدخل «الحاج إسماعيل» فيبشر «فاضل» بأن القاضي رفض طلب زوجته بالطلاق منه، فصان شرف قبيلته، ويبشر «فابيين» بأنها لن تعاني بعد الآن من البقاء وحيدة في القصر، ولن تشعر بأنها سجينة، لأن «فاضل» سوف يضيف إلى حريمه زوجة ثانية، هي فتاة من أشرف القبائل المراكشية، فتؤنس وحدتها وتبدد وحشتها.

وتثور «فابيين» في وجه «فاضل» وتذكره بأنها وهبته جمالها وحبها وحياتها وتركت كل شباب بلادها من أجله، وأنه قد هرب منها لمجرد أنها قد عصت أمره في مسألة تافهة، وحين لحقت به، لم يكتف بسجنها، بل وهو يريد كذلك أن يتعسها بامرأة تشاركها قلبه وفراشه. وتسأله: ماذا كنت تفعل لو أنني اتخذت زوجا آخر معك؟! وتتوسل إليه ألا يشقيها بالضرة، لكنه يعتذر لها بأنه كان قد ارتبط بوعد بهذا الزواج قبل وصولها إلى «فاس» ولا يستطيع أن يتحلل منه، ويعدها بأنها ستظل صاحبة المكانة الأولى في قلبه.

وعندئذ تحزم أمرها، وتومئ لجاريتها «مريم» بأن تعطي الإشارة المتفق عليها بينها وبين أصدقائها ليبدءوا في تنفيذ خطة الهرب، ثم تعود إليه فتغير مسار المناقشة، ويتبادلان حديثا عاطفيا يتذكران خلاله سنوات حبهما الأولى، ويرقصان معا ويتعانقان، وفجأة تغادر أحضانه، لتشهر مسدسها في وجهه، ويدخل صديقاها «جان» و«جاك» وبصحبتهما رجلان يحيطان بفاضل فيشلان حركته، وتصرخ «فابيين»: خلصوني من هذا الرجل ذي النساء الأربع الذي كان يملكني بكليتي.. فلم يكتف بي.. لأعود إلى أوروبا حيث أجد رجلا لي وحدي، ويستنجد «فاضل» بحارسه الخاص، فما يكاد يدخل حتى تصيبه رصاصة من مسدس الزوجة، بينما يغرس «جاك» خنجره في جسد «فاضل» فيخر صريعا.. وتصيح «فابيين»: ماذا فعلت يأيها الشقي.

لكن «فابيين» لا تنسى حبها، ولا تسعد بحريتها، وبعد شهور من هروبها من قصر الأمير الشرقي نلتقي بها ـ في بداية الفصل الرابع ـ وهي تقيم في قصر صديقها البارون «جان دي بهوبي» في «بيارتيز»، فإذا بها تعيسة رغم كل محاولات البارون لتسليتها والترفيه عنها، فإذا انفردت بوصيفتها «مريم» ـ التي أحبتها وهربت معها ـ بثتها أحزانها. فهي تدرك أنها الآن أشد أسرا مما كانت في قصر «فاضل» وأن السجن يبتدئ حين يشعر الإنسان بأنه سجين، وأن الحب هو الطاعة، طاعة الحب لا طاعة الرجل، فتلك هي الحرية.

وحين تقول لها مريم: ولكنه لم يكن كرجال أوروبا، ترد عليها: ولماذا لا أكون أنا كنساء العرب؟! ثم تضيف: إن المرأة في كل مكان حتى هنا في «بيارتيز» سجينة.. سجينة كلمتها.. وسجينة قلبها، وسوف تجد دائما رجلا شاك السلاح، يحول بينها

وبين أن تتعدى الحدود التي رسمها لها وفرضها عليها فرضا، فهي ملك للرجل، فإذا كانت تحبه، فهي مجنونة إذا خالفت أمره، لأنها سوف تضطر ـ إذا خالفته ـ لأن تطيع رجلا آخر لا تحبه.. لقد عصيت «فاضل» بسبب رجل لا يهمني وتحررت منه لأصبح سجينة رجل لا شأن لي به.

وتنصرف «مريم» لتنفرد «فابيين» بنفسها ترثي الحبيب الذي مات، إلى أن تفاجأ به أمامها، وتكتشف أن طعنة «جان» لم تقتله، وأنه ما كاد يشفى من أثرها حتى شد الرحال وراءها فتستقبله بسعادة بالغة وتعانقه بشوق وتشكو له ما لقيته من عذاب البعاد.. ويسألها: مع من تعيشين هنا؟ وتسأله: مع من تعيش هناك؟ فيقول: لقد طلقت امرأتي الثانية، فتعود لتسأله: أجئت لتأخذني؟. ويعود ليسألها: أتتبعينني؟. فلما تجيب بالإيجاب يسألها: و«جان»؟ فتقول: سأترك كل شيء لأجلك. ويلاحظ قلقها فيسألها: هل تنتظرين أحدا.. فتقول أتريد أن نذهب فورا؟ فيرد: نعم.. فورا.. ثم يدير خاتمه إلى باطن كفه، ويضغط به كفها، فتنغرس إبرته المسمومة في يدها، وتصرخ فيه: ماذا فعلت أيها الشقي؟ فيقول: استرددت امرأتي.. ويسري السم في بدنها فتقول: إنني أحبك ولا أحب سواك، ويقول: ولكنك سافرت مع رجال آخرين.. وعشت مع رجال آخرين. فتقول: لا تدعني أموت وحدي، ضمني إليك. ويقول: سيعرفون غدا أن «فاضل» استرد امرأته.

ثم يغطي جسدها، ويغادر الغرفة ليقول للخادم وهو ينصرف: لقد نامت مولاتك.. ولا تنس أن تقول لمولاك إن «فاضل» قد عاد.

وعلى عكس ما قاله السير «مارشال هول» في برقيته لنقيب المحامين المصريين، فإن «العاصية» لا تؤيد وجهة النظر التي بنى عليها مرافعته، بل قد تكون ـ على نحو ما ـ مناقضة لها، وهي بالقطع أكثر وجهات النظر الأوروبية التي تناولت قضية «مدام فهمي» ابتعادا عن التعالي العنصري. صحيح أنها تعرض للتناقض بين وجهتي نظر الرجل الأوروبي والرجل الشرقي إلى علاقته بالمرأة، ولكن هذا التناقض لا يعنيها إلا كرافد من روافد التناقض بين «الحب» و«الحرية»، فمع أن «فاضل» ـ كرجل شرقي ـ يتحدث عن المرأة، ويتعامل معها باعتبارها «امرأته» ـ أي ملكه الخاص ـ إلا أنه لا يبدو وحشا أو كائنا غريبا عن الجنس البشري، ونظرته إلى المرأة لا تختلف عن نظرة الرجال الأوروبيين إليها، إلا من حيث الدرجة، وذلك ما تكتشفه «فابيين» التي ظلت حائرة ـ على امتداد فصول المسرحية الأربعة ـ بين «الحب» و«الحرية»، فهي تريدهما معا، لكنها ما تكاد تختار أحدهما حتى تفقد الآخر، وحين تتنبه إلى أن الحب هو المبرر الوحيد للعبودية، يكون الأوان قد فات، ويستردها«فاضل»بطريقته الشرقية.



وكانت «العاصية» أحد المصادر التي ألهمت«أنطون يزبك» المحامي اللبناني المتمصر، مسرحيته «الذبائح» التي يعتبرها الدكتور «علي الراعي» أول ميلودراما ناضجة في تاريخ المسرح العربي، فقد مثلت لأول مرة على«مسرح رمسيس» في ١٩ أكتوبر ١٩٢٥، بعد مرور ما يقرب من عامين على مصرع «علي فهمي» وعلى نشر مسرحية «بيير فروندويه».

والمحور الذي تدور عليه المسرحيتان واحد، وهو الزواج المختلط، والتناقض بين رؤية الغربي والشرقي للعلاقة بين الرجل والمرأة. ومع أن المعالجة قد اختلفت بحكم الاختلاف بين بيئة كل من المؤلفين وبين الجمهور الذي يتوجه إليه كل منهما بخطابه المسرحي، فقد حرص «أنطون يزبك» على ألا تطول حملة الهجاء القومية ضد «مدام فهمي» النمط الذي اختاره لتمثيل المرأة الأوروبية، فبدا نموذجا باعثا على الاحترام، وصاحب وجهة نظر في الحياة، قد تصيب وتخطئ لكنها لا تخلو من المنطق، كما فعل «فروندويه» حين رسم شخصية «فاضل العورقلي» فعرض لوجهة نظره، دون أن يسير على درب السير «مارشال هول» فينسب إليه كل ما في البشر من شر وشذوذ.

وتدور أحداث المسرحية في منزل «همام باشا» ـ وقد قام بتمثيل الدور صاحب «رمسيس » الأستاذ «يوسف وهبي» ـ وهو قائد عسكري مصري كبير، يحمل رتبة اللواء، ارتكب خطيئته الأولى والرئيسية حين طلق زوجته المصرية المطيعة الصابرة المستسلمة. «أمينة» بعد عامين من الزواج، ليتزوج من امرأة أوروبية هي «نورسكا» ـ زينب صدقي ـ التي أحبها. ومع أنها أجنبية. فقد كانت تختلف عن مثيلاتها من الأوروبيات اللواتي يقبلن عادة الزواج من مصريين، فهي امرأة محترمة، من أسرة طيبة، لم تخنه في شرفه، أو في ماله، وعاشت معه عشرين عاما أنجبا خلالها ابنا واحدا هو «عثمان» ـ فتوح نشاطي ـ تجاوز عمره الثامنة عشرة، وهو يقر شقيقه الأصغر، على أنها ليست مثل أغلبية الزوجات الأجنبيات «مومس أو كمريرة.. أو بياعة في مخزن».. بينما تقول هي لضرتها «أمينة» ـ في إيماءة إلى مصرع «علي فهمي» ـ بأنها ليست «من الستات الإفرنجيات اللي بيخبوا روفلر ـ أي مسدس ـ في عبهم ويضربوا به».

لكن هذه الفضائل لم تكن كافية لكي يسعد «همام باشا» في حياته معها، فهو يكتشف ـ بعد عشرين عاما، من زواجه منها ـ أنه لم يشعر يوما بالراحة وبالاستقرار أو يجد لذة في مال أو في جاه ويدرك أن الشقاء الذي تجلبه الزوجة الأجنبية لا يأتي فقط مع «المومس» أو«الكمريرة» أو «البياعة» منهن، لكنه يصطحب الجميع، فالتعاسة هي الظل الذي يلازم كل زوجة أوروبية وهي تدخل من باب بيت زوجها المصري، وهي تدلف من هذا الباب بعد أن تلعب لعبة غير نظيفة، هي لعبة الحب، فيوم دخلت «نورسكا» بيت «همام باشا» قالت له: أنا ملكك.. كلي لك.. أما بعد سنة من ذلك

التاريخ فقد خلعت القناع وقالت:أنا حرة.. جسمي وعقلي دول ملكي.. وعوايدي وأخلاقي دول أنا ما غيرهمش.. أنا حرة... وإذا قلت لها: يا ستي.. أنت مش حرة، تبص لك كده بصة مقلوبة.. زي ما تبص لحيوان وسخ وتقول لك: إنتو كلكو كده.

ويصرخ همام في وجهها:

ـ أنا اتجوزتك علشان إنتي اللي تطيعيني مش أنا اللي أطيعك.. علشان تندمجي فيّ إنتي، مش أنا اللي اندمج فيكي.. علشان تعيشي زيي، مش أنا اللي أعيش زيك، وتاكلي زي ما باكل، وتشربي زي ما بشرب.. وتلبسي زي ما أنا عاوز!

فلا تعترض على شيء من ذلك، مع أنه ـ في رأيها استعباد ـ فإذا ما أضاف:

ـ وتفكري زي ما أنا عاوز..

ردت عليه بغضب:

ـ ده لأ.. مستحيل.. تستعبد جسمي معلش.. لكن تستعبد عقلي.. أبدًا.

فيرد عليها بغضب أشد: لكن إحنا كده، إحنا عاوزين اللي ترضى بالاستعباد ده في جسمها.. وفي عقلها.

مشكلة «نورسكا» مع «همام باشا» تكاد تكون شبيهة بمشكلة «فابيين» مع «فاضل الغندقلي» فهي مهمومة بحريتها، وبحرية «همام باشا» نفسه، وبحرية «البلي» ـ أمينة رزق ـ ابنة أخته اليتيمة وحبيبة ابنها «عثمان»، فتحاول أن تحرضها على خلع الحجاب.. لكن الباشا يعترض؛ إذ هو يعتقد أن الفتاة التي تخلع الحجاب تفقد نصف جمالها، بينما ترى «نورسكا» أنها ستصبح حرة، والحرية أفضل من الجمال، فالأولى للمرأة، بينما الثاني للرجل، بل ومهمومة كذلك بتحرير «أمينة» ـ مطلقة «همام» التي أعادها إلى عصمته بعد عشرين عاما من الطلاق تحت وطأة إحساسه بالذنب والتعاسة ـ فتعرض عليها أن تتحالفا معا لكي تتصديا لطغيان «همام» وتحولا بينه وبين إيقاع الظلم بهما معا.

لكن حرصها على حريتها، وسعيها لتحرير الآخرين يبدو كما لو كان مجرد ذريعة لدمج هؤلاء الشرقيين في كيانها، أكثر منه رسالة تؤديها، ووسيلة للتعبير عن عنصريتها وتعاليها وإحساسها الدفين بتميزها عنهم، أكثر منه رغبة في الأخذ بيدهم لكي يتساووا معها، فهي أوروبية حرة، وإذن فهي أفضل من هذا الباشا الشرقي الذي تزدحم كتفاه وصدره بالرتب وعلامات التشريف، مع أنه في رأيها، لا يزيد عن «وحش لابس قصب».

وإذا كانت عشرون عاما من حياتهما الزوجية قد مضت دون أن يتغير، فلأنها عاملته كما تعامل الغزاة الأوروبيون مع شعوب المستعمرات، وحاولت قسره

على أن يكون مثلها انطلاقا من تصور مسبق بأنها الأفضل، فما يعنيها هو أن تزهو عليه بحريتها، وهو ما يدركه «همام باشا» فيعتبره أسوأ من خيانة العرض والمال، ويصرخ في وجهها:

ـ صحيح ماخنتنيش لا ف عرضي.. ولا ف مالي.. لكن عملتي أكتر من كده.. احتقرتيني وعملتي نفسك إله.. وحبيتي تخلقيني خلقة جديدة، خالفتيني في عوايدي.. وفي أخلاقي.. شمختي بمناخيرك وبصيتي لنا من عالي قوي.. وجيتي تقنعيني بالعافية إنك أحسن مني.. ماشاركيتناش لا ف فرح ولا ف حزن ولا ف راحة ولا ف تعب.. دخلتي بيتي غريبة.. وفضلتي فيه غريبة.. لغاية النهاردة.. كان كل همك إنك تغيري أخلاقنا وعوايدنا اللي اتربينا عليها إحنا وجدودنا من ميات القرون».

ولا تنكر «نورسكا» شيئا من ذلك، فهي تعتقد أن هؤلاء الجدود قد أصبحوا رمما، وتحولوا إلى تراب يدوس عليه السابلة، وأن من الحماقة أن يظل «همام» يقلدهم فيما كانوا يفعلون. وحين يذكرها بأن هؤلاء الجدود «ياما ضربوا جدودك وفضلوا يجروا وراهم بالسيف لغاية ما خلوهم يعدوا البحر المالح عوم».. تذكره بأن أحفاد هؤلاء الجدود قد عادوا مرة أخرى، وتزعم أنها كانت تحاول ـ طوال الأعوام العشرين من زواجهما ـ أن تعلمه الطريقة التي يطردهم بها مرة أخرى، «بالاندماج فيهم والذوبان في شخصيتهم»، فعجزت أمام إصراره عن التمسك بتقاليد جدوده.

لكن «همام باشا» كان قد اقتنع بأن الشرق شرق، والغرب غرب، أما السبب، فلأننا نحن الشرقيين «ولاد الصحرا المحرقة.. وهما أولاد المغاور المنقورة في الجبال المثلجة، دا اللي بيجري في عروقنا نار سايلة مش دم، الواحد منا يهب هبة واحدة يا قاتل يا مقتول، وهما الواحد منهم يعض بأسنانه على زور الواحد منا ولا يسبش أنيابه إلا بعد ما يخطف روحه من بقه، إحنا من عشر تلاف سنة متخاصمين وياهم.. وهما متخاصمين ويانا» وهو يؤمن بأن محاولة الجمع بين الشرق والغرب في فراش واحد مستحيلة، فهما كالماء والزيت، لا يمكن أن يذوبا في محلول واحد، فلو جئت بهذه المرأة الأوروبية «هي وجدودها.. وجبتنا إحنا وجدودنا..وجَرّدت لحمنا ولحمهم، وعجنت اللحم ده في بعضه، ودقيته لغاية ما ينعم زي المرهم وحطيته في حلّة واحدة.. وعملت منه مرقة، تطلع مرقتهم لوحدهم.. ومرقتنا لوحدها».

وعلى عكس «نورسكا» ـ المتنبئة الأوروبية الكاذبة التي جاءت لتلقن الشرقيين بالتعالي والعنصرية كيف يكونون أحرارا ـ تحتفظ «أمينة» ـ مطلقة «همام باشا» ـ بكل فضائل الزوجة الشرقية، فهي هادئة ومطيعة وصابرة، وهي تحب زوجها حبا حقيقيا وتخلص له رغم غدره بها وطلاقه لها، وحين يسقط مريضا تتنكر في زي ممرضة وتدخل بيته لكي تعتني به، لكنه يتعرف إليها، ويعيدها إلى عصمته،

فهي تعرف لغة قلبه، وهي تؤمن مثل «فابيين» بأن «الحب» هو «الطاعة» وتقول لـ«نورسكا»:

ـ إحنا لما نقول لرجالتنا يا سيدي مانتذلش أبدا.. أنا فاتت عليّ أيام كنت حرة فيها.. ما كانش حد حاكمني.. لا زوج.. ولا أب.. ولا أخ.. الله لا يرجعها أيام.. علمتني إن الواحدة منا لما ما يكونش ليها راجل تطيعه، وهوّ يشيل همها.. يجيها يوم تضطر فيه إنها تطيع الرجالة كلهم.

وتتمرد «نورسكا» وترفض قرار «الباشا» بإعادة طليقته إلى عصمته، بل وتواصل جرحها لكرامته فيطلقها ويحرمها من رؤية ابنهما ويضمه إلى حضانته، ويشيعها بعبارات عاشت طويلا في ذاكرة المصريين الذين ظلوا يستقبلون إلقاء «يوسف وهبي» لها، بطريقة أدائه المميزة بالتصفيق الحاد، وهو يقول:

ـ روحي وإنت طالقة بعدد شعر راسك.. بعدد رمال الصحراء.. بعدد السلالم اللي حتنزلي عليها.. ملعونة بعدد القبور اللي انفتحت من عهد آدم للنهاردة.

ويدفع المستقبل ـ ممثلا في ابنهما «عثمان» ـ ثمن خطيئة الأب الذي أساء اختيار زوجته، ثم تفرغ ـ بعد أن طلقها ـ للصراع معها، فالأب يمنعه من رؤية أمه، وزوجة الأب ـ «أمينة» ـ تتعامل معه بتوجس وريبة باعتباره ابن ضرتها، وهو لا يجد عزاء إلا في حبه لابنة عمه اليتيمة «ليلى»، فمع أن أبويه على قيد الحياة، إلا أنه يشعر بأنه مثلها يتيم، لكن محاولاتها لإخراجه من هوة اليأس تفشل، وحين يقررون حرمانه منها وإرسالها إلى خالة لها في «طنطا» لتقيم معها، ينتحر في اليوم الذي أعلن فيه نجاحه، وتفقد«ليلى» عقلها حزنا عليه.

«أمينة رزق» في دور «أمينة» في مسرحية الذبائح



وبانتحار«عثمان» تنقطع آخر الروابط التي كانت تربط «نورسكا» بزوجها السابق، فتكشف عن الشر الكامن في أعماق كل أوروبية تتزوج من شرقي، حين تنتفي المصلحة، فعلى العكس من «أمينة» الطيبة الصابرة التي تنكرت لكي تمرّض «همام» رغم كل ما فعله بها، فإن «نورسكا» تسرب إلى قريب لها ـ يعمل صحفيا ـ وثائق تثبت تستر اللواء «همام باشا» على مؤامرة كان بعض الضباط الشبان من مرءوسيه يخططون تنفيذها، لكي تدمر

مستقبله، ثم تتقمص دور «مرجريت ميلر» وتطلق عليه رصاصات مسدسها فترديه قتيلا.

ومع أن نقاد المسرح قد نددوا بـ«الذبائح» ووصفوها بأنها «مجرد مناحة قائمة كل من فيها صارخ.. باك.. لاطم.. يشق الجيوب ويذرف الدموع» فقد نجحت نجاحا جماهيريا ساحقا، وأعيد عرضها مئات المرات، وفي كل مرة، كان المتفرجون يخرجون وهم يعصرون مناديلهم المبللة حتى التشبع بالدموع، وكان هذا النجاح الجماهيري غير المسبوق هو الذي لفت صناع المسرح إلى المزاج المتطرف للمتفرج الشرقي عموما والمصري خصوصا، الذي يتراوح بين الكوميديا الهزلية ـ الفارص ـ وبين الميلودراما الزاعقة، ومن معطفها خرجت كل المناحات الشهيرة التي مثلتها فرقة «رمسيس» ودخل بها «يوسف وهبي» تاريخ المسرح العربي،ثم انتقلت من المسرح إلى السينما ثم الإذاعة والتليفزيون!

وكان طبيعيا وقد لفت نجاح «الذبائح» الجماهيري الساحق، نظر الفرق المسرحية إلى مدى اهتمام الرأي العام بظاهرة الزواج من أجنبيات، أن تترجم مسرحية «بيير فروندويه» إلى العربية، وأن تمثل على خشبة المسرح المصري باسم «المتمردة» وأن تلقى نجاحا دفع الفرق المسرحية إلى التنافس على تقديمها.

وكان «نجيب الريحاني» هو أول من مثلها حين نازعته نفسه في موسم ١٩٢٦ المسرحي لمنافسة فرقة «رمسيس» في المجال الميلودرامي الذي تخصصت فيه، فقام بدور «فاضل» ومثلت دور«فابيين» نجمة المسرح التي كانت قد انتقلت إلى الصحافة«روزاليوسف» ثم قدمت فرقة «فاطمة رشدي» المسرحية ليقوم بالبطولة أمامها «أحمد علام»، وقدمتها «فرقة رمسيس»ليقوم ببطولتها«يوسف وهبي» و«زينب صدقي».

وحين خرجت المسرحية المصرية العصرية من إطار مشكلة الزواج بالأجنبيات، انتقلت إلى نقد الذات والتنديد بالزواج على الطريقة الشرقية، وركزت على ظاهرة مصادرة الآباء لحق الأبناء ـ وخاصة الفتيات ـ وفي اختيار زوجاتهم وأزواجهن، وإكراههم على الزواج بغير من تهواه قلوبهم باعتبار ذلك مصدر كل الشرور والكوارث التي تصيب الأسرة الشرقية، وكان ذلك هو المحور الذي قامت عليه معظم الأفلام السينمائية منذ عرفت مصر الأفلام الروائية الطويلة في عام ١٩٢٧، وإلى وقت قريب.

«انطون يزبك المحامي»: كاتب مسرحي متمصر من أصل لبناني، درس في مدرسة الحكمة بيروت مع «جورج أبيض» الذي مثل أولى مسرحياته. كان أول مؤلف يحصل على مائة جنيه ثمنا لمسرحية «الذبائح». ألف ثلاث مسرحيات فقط ومات عام ١٩٣٢



لكن المسرح المصري عاد إلى استلهام قضية «مدام فهمي» بعد خمس سنوات من عرض «الذبائح» لأسباب بعضها عام والآخر شخصي، ففى إبريل ١٩٢٩، أصدرت محكمة مصر الشرعية حكمها بعدم أحقية «مرجريت فهمي» في نصيبها من تركة زوجها، بعد أن اقتنعت بأنها لم تكن في حالة دفاع شرعي عن النفس حين قتلته، وبذلك عادت التركة إلى أصحابها الشرعيين، فتقاسموها، وكان قصر الرخام الوردي الذي أقامه «علي فهمي» من نصيب شقيقته «عائشة»، ولأنها كانت ـ كشقيقها ـ من النوع الذي يحب الحياة ويقبل عليها، فقد وقعت في غرام «يوسف وهبي» ـ صاحب مسرح «رمسيس» ـ الذي كان قد طلق زوجته الإيطالية بسبب غيرتها الشديدة من بطلات مسرحياته وخاصة الفنانة «عزيزة أمير». ولم يحل زواج «عائشة فهمي» من الدكتور «أحمد سعيد» دون مطاردتها للفنان الذي كان فتى أحلام كثيرات من بنات الطبقات الراقية، فهو ليس مشهورا ووسيما فحسب، ولكنه أيضا من أبناء الباشوات، وهكذا دفعت مائة ألف جنيه لزوجها لكي يطلقها، ثم غادرت مصر إلى أوروبا بصحبة «يوسف وهبي» حيث تزوجا في «باريس»، ثم عادا ـ في خريف ١٩٣٠ ـ ليفتتحا أبواب قصر «علي فهمي» الذي ظل مغلقا منذ مصرع صاحبه.. وما كاد «يوسف وهبي» يجلس على مكتب صهره الراحل في بهو القصر، حتى ألهمه وجوده في المكان الذي شهد فصول المأساة، ونومه في الغرفة التي كانت تنام فيها «مرجريت»، مسرحية «أولاد الذوات» التي ما كادت تعرض ـ في فبراير ١٩٣١ ـ حتى لقيت نجاحا جماهيريا ساحقا، شجع «يوسف وهبي» على تحويلها إلى فيلم سينمائي، دخل التاريخ باعتباره أول فيلم مصري ناطق.

ومع أن «أولاد الذوات» قد خرجت من معطف «الذبائح» إلا أنها بدت أقرب إلى الرؤية الشعبية لمأساة «مدام فهمي»، وكان ذلك أهم أسباب نجاحها المدوي، فالزوجة الأجنبية في المسرحية، ليست ـ كبطلة «الذبائح» ـ شخصية محترمة، أو صاحبة موقف أو رؤية حتى لو كانت كاذبة، لكنها أقرب ما تكون إلى الصورة التي تخلقت في ذهن المصريين عن «مدام فهمي» فهي غانية منحلة ومحتالة مخادعة.. ونموذج للشر الأوروبي المطلق الذي يكاد يخلو من أية فضيلة، ولا يجلب سوى الموت والدمار.

وتدور أحداث المسرحية حول«أمين بك» ـ حسين رياض ـ الذي تعرف أثناء دراسته للطب في أوروبا، إلى فتاة فرنسية خليعة هي «جوليا» ـ فردوس حسن ـ فأحبها وتزوجها وعاد بها إلى بلاده، ولكنها ما تكاد تتعرف إلى «حمدى بك» ـ يوسف وهبي ـ صديقه وزوج ابنة عمه «زينب» ـ عزيزة أمير ـ وهو شاب ثري ولكنه فاسد الأخلاق، حتى تغريها أمواله، وتغريه خلاعتها، فتنشأ بينهما علاقة آثمة، يهمل بسببها «حمدي»

زوجته وابنه، ثم ما يلبث العاشقان الفاسدان، أن يهربا معا إلى فرنسا بعد أن يحطما قلبي «زينب» و«أمين».

وفي «باريس» يكتشف «حمدي» أن «ريمون» ـ فتوح نشاطي ـ الذي قدمته له «جوليا» على أنه أخوها، وكان يعيش معهما في دار واحدة، ليس سوى عشيق لها، تواطأ معها على خداعه وسلب ماله، فيستدرجه إلى إدمان المخدرات والقمار، ويتواطأ مع الآخرين على غشه في اللعب، فيثور ويقتل العشيق، ويقاد إلى السجن، وتعلن الصحف أنه قد قتل أثناء محاولته للفرار. وتتزوج «زينب» من «أمين» بك.

وبعد خمسة عشر عاما من تلك الحوادث، وبينما هما يحتفلان بزواج ولديهما اللذين رزقا بهما من زوجيهما السابقين، يفاجآن بوصول «حمدي» ويعرفان بأن محاولته للفرار لم تفشل، وأنه ظل شريدا بين قارات الدنيا إلى أن وصل أخيرا لكي يطلب الصفح من صديقه وزوجته السابقة ويرى ابنه في ليلة زفافه، ثم يغادر الحفل ليصدمه المترو فيموت.

وكانت أحداث المسرحية فرصة لمبارزات كلامية دامية، انتصر فيها «يوسف وهبي» للشرق ضد الغرب، ولأخلاق وطبائع المرأة الشرقية ضد أخلاق وطبائع المرأة الأوروبية، فاستثار حماسة المتفرجين بمعابثة غرائزهم القومية والوطنية، في رؤية أحادية الجانب افتقدت للعمق القادر علي اكتشاف الفضائل الحقيقية والرذائل الحقيقية لكل من النمطين، في حمى انحياز «يوسف وهبي» ـ الذي برز بعد ذلك في معظم أعماله المسرحية ـ بالكامل لأخلاق المجتمع القروي الزراعي، وبالتالي

«أمينة رزق» و«يوسف وهبي» في أحد مشاهد فيلم «أولاد الذوات» كان دورها في الفيلم هو أول دور سينمائي مهم تقوم به..



الشرقي، باعتبارها قرينة للبكارة والطهارة والنقاء ضد أخلاق المجتمع المديني الصناعي ـ وبالتالي الأوروبي ـ الذي يفتقد لأية فضيلة أخلاقية.

وكان هذا الانحياز الفاقع هو الذريعة التي استندت إليها جريدة «البورص» ـ وكانت تصدر باللغة الفرنسية وتعبر عن رأي الجالية الفرنسية في مصر ـ لكي تهاجم فيلم «أولاد الذوات» ـ الذي عرض في مارس ١٩٣٢ ـ وتتهمه بأنه فيلم متعصب، يدعو إلى كراهية الأجانب، أخرج على مثال «أفلام روسيا الشيوعية» وصور المرأة الأوروبية وخاصة الفرنسية، في صورة المرأة التي تخرب البيوت وتقود الرجل إلى الدمار وإلى الجريمة والموت.

وتحول هذا الهجوم إلى شكوى رسمية تقدم بها عدد من الأجانب إلى وزارة الداخلية يلفتون بها نظرها إلى أن الفيلم يتضمن عبارات مثيرة في الهجوم على الأجانب، قد تثير الغوغاء ضدهم فيقومون بحركات عدائية تطول أشخاصهم أو ممتلكاتهم.

وما كادت الشكوى تصل إلى الوزارة ـ التي كانت الرقابة على الشرائط السينماتوغرافية من اختصاصاتها آنذاك ـ حتى أوقفت عرض الفيلم لحفلة واحدة، شاهده خلالها «المستر جرايفز» ـ وكان من المسئولين الإنجليز في وزارة الداخلية المصرية عن مكافحة الشيوعية ـ فلم يجد فيه ما يؤكد صحة الشكوى، وصرح باستمرار عرضه، ليتدفق الآلاف من المصريين، على دور السينما التي تعرضه، يصفقون حماسة.. ويبكون بالدموع.

وبعد شهور قليلة من ذلك، لاحظ محرر مجلة «الكواكب» بدهشة شديدة أن «مؤلفينا السينمائيين يبحثون في عللنا الاجتماعية وشئوننا الأخلاقية وأحوالنا وحياتنا ليستخرجوا موضوعا لرواياتهم فلا يجدون إلا موضوع الزواج بالأجنبيات وكأنه لا توجد في مصر معضلة اجتماعية ولا مشكلة عائلية ولا شأن من الشئون الأخلاقية ولا علة من علل الإنسانية إلا زواج المصريين بالأجنبيات، ففي فيلم «وخز الضمير» تزوج بطل الرواية بامرأة أجنبية فهدمت حياته وتسببت في قتل إنسان وسجن إنسان.. وفي فيلم «أولاد الذوات» اتصل بطل الرواية بامرأة أجنبية فهدمت حياته وتسببت في سجن إنسان وقتل إنسان.. وفي فيلم «أنشودة الفؤاد» أغرم بطل الرواية بامرأة أجنبية فهدمت حياته وتسببت في سجن إنسان وقتل إنسان».

ومع أن محرر «الكواكب» كان على حق، حين قال بأن الأمر ليس مجرد توارد خواطر بين المؤلفين، ولكنه فقر مدقع في قرائحهم، وحين فسر شيوع هذه الموجة من الأفلام التي تركز على الكوارث التي يجلبها الزواج من أجنبيات، بأنه محاولة لاستثمار النجاح الساحق الذي حققته مسرحية «الذبائح»، فقد كان من الحق كذلك

أن «مأساة مدام فهمي» كانت لا تزال ـ بعد تسع سنوات من وقوعها ـ تضغط على مناطق بالغة الحساسية في نفوس المصريين.

وفي ١٤ مارس من السنة التالية ـ ١٩٣٣ ـ أنهت محكمة الاستئناف المختلطة فصول الصراع القضائي الطويل بين «مرجريت فهمي» وأسرة زوجها، فحكمت بإلغاء الحكم الابتدائي الذي كان قد صدر لصالحها، بحقها في الحصول على مؤخر صداقها.

وهكذا توارت أنباء «مرجريت فهمي» ولم يعد هناك ما يذكر المصريين بها، إلا القضايا المتبادلة بين «يوسف وهبي» وطليقته «عائشة فهمي» التي هجرها بعد أن دمرت حياته بغيرتها العنيفة، وإلا فيلم «أولاد الذوات» الذي ظل يعرض بنجاح فاق كل توقع لعدة سنوات، إلى أن اختفى في مأساة شرقية من النوع الذي يدعو لضحك كالبكاء؛ إذ كان منتجه «يوسف وهبي» قد أعطى المعلم «صديق أحمد» ـ متعهد حفلاته المسرحية ـ امتياز توزيعه، فكسب من ورائه أموالًا طائلة، ما لبثت وفرتها



«عبد السلام النابلسي» و«ماري كويني» و«منير فهمي» في مشهد من فيلم «وخز الضمير» أحد ثلاثة أفلام سينمائية مصرية أنتجت في عام واحد، عن «مأساة مدام فهمي».. لعبت «آسيا نوريس»، في الفيلم دور الزوجة الأجنبية التي تحاول إغراء ابن شقيق زوجها بخيانته لكنه يتمسك بحبه لماري كويني.. وينتهي الفيلم بكوارث تلحق بالجميع

أن أغرته، كالعادة الشرقية الشائعة، بأن يتزوج ويطلق أكثر من مرة لكن آخر هاته الزوجات، ما كادت تدخل بيته، حتى خشيت أن يظل الفيلم يدر عليه أموالا تغريه بالزواج بغيرها، فأخرجت نسخة من الدولاب وقامت بإحراقها.

وبتلك النهاية الهزلية، ضاعت الوثيقة السينمائية المصرية التي تسجل مأساة «مدام فهمي».

واختفت أخبار «مدام فهمي» ولم يعد أحد في مصر يذكرها إلا حين تقع مأساة من نوع ما حدث في «فندق سافواي» بسبب الزواج المختلط.

وفي ١٣ يناير ١٩٧١ ـ وبعد ٤٨ سنة من ظهورها على مسرح الحياة الاجتماعية في مصر والعالم ـ نشرت جريدة «الفيجارو» الفرنسية داخل مربع صغير في ذيل عمود الوفيات إعلانا يقول: «طلب إلينا أن نعلن أن البرنسيس فهمي بك قد رحلت عن الدنيا في ٢ يناير ١٩٧١، وأن مراسم الجنازة وإجراء الدفن تمت في خصوصية كاملة في مدافن ضاحية «نيولي» إحدى الضواحي الراقية للعاصمة الفرنسية».

وهكذا حرصت «مرجريت ميلر» حتى آخر لحظة في حياتها على أن تنسب نفسها للزوج الذي قتلته، وعلى أن تحتفظ باللقب الذي انتحله لنفسه وانتحلته لنفسها، لأنها ـ وهذا هو الغريب ـ لم تتزوج بعده، ربما لأنها ـ كما قالت في مذكراتها ـ لم تشعر بالسعادة إلا حين كان يحبها.

(انتهت)

كتب (صلاح عيسى)

١ ـ الثورة العرابية: الطبعة الأولى (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) بيروت ١٩٧٢.
الطبعة الثانية (دار المستقبل العربي) القاهرة ١٩٨٢.

٢ ـ حكايات من مصر: الطبعة الأولى (دار الوطن العربي) بيروت ١٩٧٤.

٣ ـ الإخوان المسلمون، مشكلة الماضي ومأساة المستقبل: (دراسة نشرت كمقدمة للترجمة العربية لكتاب ريتشارد ميتشل «الإخوان المسلمون») ـ الطبعة الأولى (مكتبة مدبولي) القاهرة ١٩٧٧ ـ الطبعة الثانية ـ نشرت كفصل من كتاب «الكارثة التي تهددنا» ـ مكتبة مدبولي ١٩٨٧.

٤ ـ البرجوازية المصرية وأسلوب المفاوضة: الطبعة الأولى (دار ابن خلدون) بيروت ١٩٧٩ ـ الطبعة الثانية: مطبوعات الثقافة الوطنية ـ القاهرة ١٩٨٠.

٥ ـ مجموعة شهادات ووثائق لخدمة تاريخ زماننا «رواية»: الطبعة الأولى «دار ابن رشد» بيروت ١٩٨٠ ـ الطبعة الثانية «الكاملة» دار عيون الدار البيضاء ١٩٨٨ ـ الطبعة الثالثة: روايات الهلال.. القاهرة/ ٢٠٠٧.

٦ ـ فلسطين: الأرض والمقاومة (بالاشتراك مع خيرية قاسمية وحسناء مكداش) ـ الطبعة الأولى: دار الفتى العربي ـ بيروت ١٩٨١ ـ الطبعة الثانية: دار الفتى العربي ـ القاهرة ١٩٨١.

٧ ـ محاكمة فؤاد سراج الدين باشا: (دراسة ووثيقة) ـ الطبعة الأولى «مكتبة مدبولي» القاهرة ١٩٨٣ ـ الطبعة الثانية: مقدمة المؤلف لنصوص المحاكمة وقد صدرت مستقلة تحت عنوان «البرجوازية المصرية ولعبة الطرد خارج الحلبة» دار التنوير ـ بيروت ١٩٨٢.

٨ ـ هوامش المقريزي (المجموعة الأولى) ـ الطبعة الأولى: دار القاهرة ١٩٨٣.

٩ ـ حكايات من دفتر الوطن/ رجال مرج دابق (قصة الفتح العثماني لمصر والشام) الطبعة الأولى: دار الفتى العربي بيروت ١٩٨٣ ـ الطبعة الثانية: مكتبة الأسرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ٢٠٠٥.

١٠ ـ مثقفون وعسكر (مراجعات وشهادات وتجارب عن حالة المثقفين في عهد عبد الناصر والسادات) ـ الطبعة الأولى: مكتبة مدبولي ـ القاهرة ١٩٨٦ ـ الطبعة الثانية صدرت في جزءين عن مكتبة الأسرة / الهيئة المصرية العامة للكتاب/ القاهرة/ ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢. الطبعة الثالثة: مكتبة جزيرة الورد/ القاهرة ٢٠١٠.

١١ ـ الكارثة التي تهددنا: الطبعة الأولى ـ مكتبة مدبولي ـ القاهرة ١٩٨٧ ـ الطبعة الثانية ـ دار عيون ـ الدار البيضاء ١٩٨٨.

١٢ ـ تباريح جريح (خواطر وذكريات) مكتبة مدبولي ـ القاهرة ١٩٨٨.

١٣ ـ أربعة وجوه لوعد باطل (قصة وعد بلفور) بالاشتراك مع جميل عطية إبراهيم ـ الطبعة الأولى: دار الفتى العربي ـ بيروت ١٩٩١.

١٤ ـ حكايات من دفتر الوطن: الطبعة الأولى ـ كتاب الأهالي ـ القاهرة ١٩٩٢ ـ الطبعة الثانية: صدرت في جزءين عن مكتبة الأسرة ١٩٩٩ و ٢٠٠٢.

١٥ ـ بيان مشترك ضد الزمن: قصص وروايات قصيرة: الطبعة الأولى: دار سينا للنشر ـ القاهرة ١٩٩٢.

١٦ ـ دستور في صندوق القمامة: قصة مشروع دستور ١٩٥٤ «دراسة ووثيقة» ـ الطبعة الأولى: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ـ القاهرة ٢٠٠١.

١٧ ـ حكايات من دفتر الوطن/ رجال ريا وسكينة: سيرة اجتماعية وسياسية «حكايات من دفتر الوطن» الطبعة الأولى: دار الأحمدي للنشر ـ القاهرة ٢٠٠٢ ـ الطبعة الثانية: مكتبة الأسرة ٢٠٠٦.

١٨ ـ شاعر تكدير الأمن العام: الملفات القضائية للشاعر أحمد فؤاد نجم ـ دار الشروق ـ القاهرة ٢٠٠٧.

١٩ ـ الصحفيون يفضلونها مهنة بلا أخلاق: دراسة في مواثيق الشرف الصحفية ـ الطبعة الأولى ـ مركز أندلس لدراسات التسامح ومناهضة العنف/ القاهرة ٢٠٠٨.

٢٠ ـ حكايات من دفتر الوطن/ البرنسيسة والأفندي: قصة غرام البرنسيسة فتحية ورياض أفندي غالي/ دار الشروق القاهرة ٢٠٠٩.

٢١ ـ شخصيات لها العجب/ المجموعة الأولى/ ذكريات وتراجم ودراسات ووثائق/ دار نهضة مصر/ القاهرة ٢٠١٠/ طبعتان.

٢٢ ـ حكايات من دفتر الوطن/ مأساة مدام فهمي/ الطبعة الأولى/ دار الشروق/ القاهرة ٢٠١٠.

تحت الطبع

١ ـ مذكرات فتوة: تأليف المعلم يوسف أبو الحجاج/ تحقيق ودراسة دار نهضة مصر.

٢ ـ صور عارية وأفكار محتشمة/ مشاغبات في الفكر والسياسة.

٣ ـ شخصيات لها العجب (المجموعة الثانية)/ قطب الرجال المتجلي حسن التهامي.

٤ ـ شخصيات لها العجب/ المجموعة الثالثة (شخصيات عادية من زمان ليس كذلك).

٥ ـ حكايات من دفتر الوطن/ أفيون وبنادق (ظاهرة العنف الجنائي السياسي في مصر في الأربعينيات ـ نشرت مسلسلة بمجلة «٢٣ يوليو» لندن ١٩٧٩).

٦ ـ هكذا تكلم شكري مصطفى.

٧ ـ حكايات من دفتر الوطن/ الموت في تشريفة الحليف الوطني: وقائع اغتيال شهدي عطية الشافعي.

٨ ـ حكايات من دفتر الوطن/ خرافة فرج الله الحلو: ـ (وثائق التحقيق في قضية خطف وتعذيب وقتل وإتلاف جثة فرج الله الحلو سكرتير عام الحزب الشيوعي السوري اللبناني عام ١٩٥٩، مع دراسة عن حملة عبد الناصر ضد الشيوعية).

٩ ـ حكايات من دفتر الوطن/ اغتيال مصطفى خميس (الصدام الأول بين البروليتاريا والعسكريتاريا).

١٠ ـ الصحافة المصرية في معركة قطع ذيل النظام الاجتماعي (١٩٥٠ ـ ١٩٥٤).

١١ ـ مذكرات عرابي باشا وأوراقه (تحقيق وتوثيق ـ ثلاثة مجلدات).

١٢ ـ عبد الرحمن الجبرتي: (الأنتجلنسيا المصرية في عصر القومية).

١٣ ـ وثائق الحركة الشيوعية المصرية: (المجلد الأول).

١٤ ـ محاكمة فؤاد سراج الدين (الجزء الثاني ـ بقية شهادات الشهود).

١٥ ـ محاكمة فؤاد سراج الدين (الجزء الثالث ـ مرافعة النيابة والدفاع).

١٦ ـ هوامش المقريزي: (المجموعة الثانية).

مأساة مدام فهمي

في منتصف ليلة ١٠ يوليو ١٩٢٣، أطلقت الأميرة «مارجريت فهمي» النار على زوجها الأمير المصري «علي بك فهمي» فأردته قتيلًا، وكان هذا الحادث هو ذروة قصة حب فاجعة، جمعت بين غانية فرنسية ومليونير مصري شاب يصغرها بعشر سنوات.

ولم يجد دفاع القاتلة الذي تولاه «سير مارشال هول» ، ألمع المحامين في عصره، وسيلة لإنقاذها من المقصلة إلّا بوضع الحضارة العربية الإسلامية في قفص الاتهام، باعتبارها حضارة بدائية ومتخلفة يعاني المنتمون إليها من عقدة نقص دفعت «علي فهمي» للشعور بالدونية تجاه زوجته التي تنتمي للحضارة الأوروبية المتقدمة والمتفوقة، فعاملها كما لو كانت جارية، واضطرها، دفاعًا عن نفسها، لإطلاق الرصاص عليه.

وجاء الحكم صادمًا، فاندفع المثقفون المصريون إلى حلبة الصراع بين الحضارة الغربية والحضارة الشرقية. وكانت هذه المأساة موضوعًا لمسرحيات وأفلام سينمائية وروايات مصرية وعالمية.



صلاح عيسى، كاتب وصحفي وباحث في التاريخ السياسي والاجتماعي. ولد بمصر عام ١٩٣٩، ويعمل بالصحافة منذ عام ١٩٧١. نشرت مقالاته وأبحاثه في معظم الصحف المصرية والعربية، وأصدر ٢٠ كتابًا منها: «الثورة العرابية» و«البرجوازية المصرية» و«أسلوب المفاوضة» و«البرنسيسة والأفندي» و«رجال ريا وسكينة» و«دستور في صندوق القمامة».

6 221102 028264

دار الشروق
www.shorouk.com